روايات الهلال

بهاء طاهر



نقطة النور

الإهداء

فى ذكرى مولد الكاتب والإنسان الكبير
يحيى حقى .. رحمه الله
أتنسم عطر الأحباب !

بهاء طاهر
٧ يناير ٢٠٠١

الغلاف رسم
وتصميم الفنان :
محمد أبو طالب

قال أستاذنا الحكيم :

– الناس أجناس والنفوس لباس ، ومن تلبّس نفسا من غير جنسه وقع في الالتباس.

فسألناه :

– يا معلمنا ، فهل النفس قناع نرتديه إن أحببناه وإن كرهنا نبذناه ؟

فرد مؤنبا :

– أو لم أقل لكم من تقنّع هلك ؟

قلنا :

– فمن ينجو يا معلمنا ؟

أطرق متأملا ثم رفع رأسه يجول فينا ببصره وقال فى بطء :

– يا أبنائى وأحبائى، أفنيت العمر فى البحث والترحال، فما عرفت إلا أن الجواب هو السؤال .

القسم الأول

سالم

(١)

عاش سالم منذ طفولته في رعاية جده الباشكاتب.

لم يكن يعرف وهو صغير معنى هذا اللقب ولا تلك الوظيفة . لكنه كان يسمع أباه يرد على استفسارات بعض الجيران بعبارة «سأسأل الوالد حضرة الباشكاتب»، ففهم أنها وظيفة مهمة .

وعى سالم على الدنيا وجده على المعاش. كانت للجد أحسن غرفة في البيت، تطل على البحري وتفتح على الشرفة الواسعة المعروفة في البيت باسم (التراسينة)، والتي تعلو قاعدتها المكونة من اسطوانات حجرية صغيرة متجاورة شبابيك خشبية مشغولة مثل الشربيات، تكسر حدة الشمس في النهار وتفتح على مصاريعها للهواء في المساء. واعتاد الباشكاتب أن يقضي وقتا طويلا في هذه الشرفة كل ليلة قبل أن ينام ، يجلس على مقعد أمام نافذة مفتوحة ويتابع ما يحدث في الشارع المزدحم بالقادمين من ميدان السيدة زينب والمتجهين إليه، يحمل النسيم إليه في موسم الزهر عطر شجرة «التمر حنة» المزروعة في الممر الصغير أسفل البيت.

أما غرفة الباشكاتب نفسها فكانت تضم سريره النحاسي الكبير بأعمدته الأربعة المعلقة فيها الناموسية، والمكتب ذا الأدراج العديدة المغلقة باستمرار، والذي تعلوه أكوام من الكتب المجلدة في ناحية، وفي الناحية الأخرى ملفات قديمة باهتة الخضرة ومصفرة الأطراف.

وعندما كبر سالم قليلا عرف أن الشقة التي يقيمون فيها هي شقة جده، وأنه هو أيضا مالك البيت الذي يضم ست شقق مؤجرة. كان بيتا من أربعة طوابق

بناه الحاج السعدي والد الباشكاتب في مطلع القرن . تشغل الأسرة طابقه الثالث وتسكن الشقق الأخرى المؤجرة منذ بناء البيت أسر من أصحاب المحلات القريبة ورث أبناؤهم مهنهم ومساكنهم وهم نجار ومنجد وعطار وكهربائي وتاجر أحذية . كان الباشكاتب هو الموظف الوحيد من سكان البيت . وكانوا جميعا يحترمونه ويحبونه .

لا يعرف سالم لون البيت أو طلاءه الخارجي الأصلي. فقد وعى عليه بلونه الحائل الجامع بين الرمادي والبني، والذي يشبه لون المساجد والتكايا والأسبلة الأثرية المنتشرة في الحي . ولكن من الواضح أن الجد الأكبر اعتنى بزخرفة بيته عندما بناه . فإلى جوار الشرفتين الحجريتين في كل طابق ، كانت هناك شرفتان أصغر، إفريزهما من حديد مشغول على شكل أفرع كروم مقوسة تتدلى منها عناقيد عنب وتتوسط الشرفات بامتداد طول العمارة من ناحيتين متقابلتين زخرفة منقوشة في الحجر كضفائر مجدولة تحتل فراغاتها زهور حجرية مدورة الأوراق.

وكان هناك أيضا سور حديدي واطئ، يحيط بمدخل البيت ويحتضن الممر الصغير الذي يسميه بعض السكان (الجنينة) لأنه يضم إلى جانب شجرة التمر حنة اثنتين من شجيرات (الفيكيس) ذات الأوراق اللامعة المفلطحة المسماة (ودن الفيل)، والمزروعة في كثير من بيوت الحي . غير أن أبوزيد بواب العمارة العجوز لم يعد يستطيع العناية بهاتين الشجرتين كما كان يفعل من قبل . أصبح في شيخوخته شبه مقيم في غرفته الموجودة أسفل السلم وأهمل الري المنتظم ، فاصفرت بعض الأوراق وتهدلت، ولكن الأشجار ظلت سليمة في مجملها تهيئ للبيت مدخلا زاهي الخضرة.

كانت تلك هي واجهة العمارة التي تطل على الشارع الرئيسي المتفرع من ميدان السيدة زينب . أما جانب البيت المطل على ناصية الحارة والجانب الآخر فتشغلهما نوافذ خشبية مستطيلة متوازية .

ولد سالم في ذلك البيت وعاش هو وأخته الأكبر فوزية ووالدهما شعبان الذي ظل يقيم مع أبيه الباشكاتب بعد زواجه وإنجابه . ولا يذكر سالم أمه التي ماتت بعد مولده بسنتين، ولكنه رآها في الصور جميلة جدا، مثل أخته فوزية، لها وجه مستدير وشعر كستنائي غزير يسترسل بعيدا وراء الكتفين . وعينان ملونتان كزيتونتين لامعتين ورثهما هو وأخته .

واعتاد الباشكاتب توفيق أن يصحب معه حفيده منذ الصغر لكي يصليا الجمعة في مسجد السيدة زينب، وعلمه من وقتها أشياء : أن يذهبا إلى المسجد من طريق وأن يرجعا من طريق آخر لأن هذا يزيد الثواب . وأن يشتريا أشياء صغيرة بعد الصلاة . ليمونا أو بعض الفاكهة أو البخور . وكانت فوزية تحتج أحيانا وتقول إن البيت أصبح مكدسا بالليمون والبخور، فيرد الباشكاتب منتشيا وهو يربت على خدها : اهدى الزيادة للجيران . ثم يشير بإصبعه للسماء وهو يقول الشراء بعد صلاة الجمعة ثوابه هناك .

كان الباشكاتب يحب حفيدته كثيرا . هي الوحيدة المسموح لها بأن تنظف غرفته حتى في حالة وجود شغالة في البيت . ترتب الملفات القديمة والكتب التي تعلو المكتب وتنفض التراب، ولكن لم يكن من حقها أن تغير ترتيب هذه الملفات أو أن تفتح الأدراج التي يحتفظ هو وحده بمفاتيحها.

واعتاد أيضا أن يدخل معها المطبخ . يعطيها نصائح ويذوق الطعام. يقترح زيادة الملح أو الاكتفاء عند هذا الحد في تحمير البصل، ويردد أشعارا وأمثالاً عن معظم أنواع الطعام . ففي يوم طبخ القلقاس يضع يده على صدره ويردد «إذا سألوك عن قلبي فقل قاسي وقل قاسي» وعندما تطبخ فوزية الرجلة الخضراء يتظاهر بأنه يعرج وهو يقول «العاقل لا يأكل رجله». أما في يوم الملوخية التي

كان يحبها كثيرا فكان يفرد يديه على اتساعهما ويقول بلهجة فخمة «طعام الملوك يا ملوكية». وكانت عنده عبارات كثيرة من هذا النوع تجعل فوزية وسالم يضحكان دائما . مع أن العبارات . والحركات أيضا . لم تكن تتغير في أغلب الأحيان.

ولكن كانت هناك أشياء اختص بها الباشكاتب حفيده منذ الصغر ولا تشارك فيها أخته . كانا يجلسان معا فوق السطح ويتسامران، في الشمس شتاء، وفي الأمسيات صيفا . يكلف الجد حفيده بشراء كميات كبيرة من الترمس توضع بينهما في طبق، ويعصر الباشكاتب عليها كثيرا من الليمون قائلا لحفيده فيما يشبه الأمر «كل .. هذا ينقي الدم» ثم يكمل بضحكته الطلقة «لكي لا يصفر وجهك مثل أبيك!».

في يوم الخميس وحده من كل أسبوع تنقطع هذه الجلسات . إذ يخرج الباشكاتب قبل الظهر ويرجع متأخرا في الليل. يرتدي في الغالب (جاكتة) واسعة قديمة من الكتان الأبيض، لكنها نظيفة ومكوية باستمرار ويضع فوقها - في الشتاء فقط - عباءة من الصوف البني . ولم يكن أحد في الأسرة يعرف أين يذهب .

وكان خروجه - باستثناء ذلك - نادرا في الليل، حين يذهب في أمسيات متباعدة وغالبا في المواسم الدينية، إلى حلقات الذكر.

وحافظ الباشكاتب على عادات ورثها عن المرحوم والده. فكان هناك قارىء ضرير يأتي صباح كل يوم جمعة ليرتل آيات من القرآن الكريم متربعا على (كنبة) في الصالة الواسعة، بينما تطوف فوزية بالبخور في حجرات البيت الخمس، وواصل لسنوات طويلة التقليد الذي استنه الحاج السعدي بتفريق ذبيحة في المولد النبوي الشريف واستضافة منشدين يرتلون بردة البوصيري فوق سطح البيت مع دعوة الجيران والأصدقاء إلى الوليمة والاستماع للبردة .

ولكن بعد إحالة الباشكاتب إلى المعاش لم تعد امكانياته تسمح بذلك، فاكتفى في هذه المناسبة وغيرها باستئجار عدد محدود من القارئين يختمون المصحف بتناوب قراءة أرباع أجزاء القرآن الكريم فوق السطح أو في صالة البيت الكبيرة . وكان يحضر هذه (الربعة) ويتطوع بالمشاركة فيها من شاء من الجيران . وفي ذلك اليوم كان سالم يتوجه مع أبوزيد البواب محملين بالأرغفة المحشوة بالفول النابت لتوزيعها على المتسولين والمحتاجين المتحلقين حول مسجد أم العواجز.

(٣)

في جلسات السطح شبه اليومية استمع سالم منذ صغره إلى كثير من قصص جده وذكرياته . وكان كثير من هذه القصص يدور حول مُعلمه وصديق شبابه، الباشمحضر السيد السنانيري، الذى غلب عليه لقب «أبوخطوة». وكان الباشكاتب المحب للضحك والمرح يتهدج صوته وتغيم عيناه عندما يتحدث عن صديقه، الذى لم يكن في العادة يذكره أمام أحد رغم أنه لا يغيب عن باله، ولكنه لسبب ما اعتاد أن يحكي عنه لسالم منذ طفولته. ففي الوقت الذى كان فيه الجد كاتبا [illegible] في محكمة (أسيوط) في مطلع العشرينات من القرن العشرين - سمع عن الكثير من كرامات هذا الرجل المبارك ، بل وشاهد بعضها . لكنه لم يشهد بالطبع الكرامة الرئيسية التي أعطته لقبه : أي أن السنانيري قد شوهد في وقت واحد ذات يوم وهو يؤدي صلاة العصر في مسجد سيدنا الحسين في القاهرة ويمشي متمهلا في سوق أسيوط يصافح أصدقاء ويتحدث إلى غيرهم . أقسم على ذلك أناس صالحون لا يرقى إلى شهادتهم أي شك : رآه بعضهم في العاصمة وكلمه البعض الآخر في أسيوط وجزموا بأن ذلك كان في الساعة الرابعة .

سأل سالم - الذي كان وقتها في التاسعة من عمره - في شيء من الانبهار والحيرة: كيف يمكن أن يحدث ذلك يا جدي؟

فرد جده في خشوع : يمكن يا ولدي. يمكن لمن صفت نفسه وتطهرت روحه أن يفعل ذلك وأكثر منه بأمر ربه .

قال سالم وحيرته تزداد : ولكن كيف يصبح شخصين في الوقت نفسه ، واحد في أسيوط وواحد في القاهرة ؟

انفعل الباشكاتب قليلا وهو يقول : وإذن فما الفرق بين أبو خطوة وبقية الناس؟ أنت الآن طفل ولكن عندما تكبر ستفهم .

سكت سالم ولكن جده شرد لحظة واستغرق في التفكير ثم قال في شيء من التردد : معك حق مع ذلك . لا يمكن أن يصبح شخصين. المقصود بالطبع أنه قطع المسافة من أسيوط للقاهرة في خطوة وصلى هناك ثم خطف رجله عائدا إلى أسيوط في وقت صلاة العصر أيضا.

وبعد ذلك ضم الباشكاتب حفيده إليه وقال بشيء من الفخر : كيف انتبهت إلى هذا في مثل سنك؟ أنا نفسي لم أفكر في المسألة أبدا بهذه الطريقة. بالعقل طبعا لابد يكون قد ذهب ورجع. أنت ذكي ولك مستقبل كبير يا ولدي مادمت تستخدم عقلك .

فرح سالم لذلك كثيرا . ولكن الباشكاتب أصبح بعدها حريصا على ألا يخبر حفيده الطفل بالحديث عن الكرامات الكبرى المشهودة التي لا يستوعبها عقله. لم يحك مثلا قصة إيقاف القطار المتحرك من أسيوط إلى القاهرة الذي كان يقل قاضيا أراد إيذاء أبو خطوة، وأهم من ذلك أنه عرف أن الوقت لم يحن بعد ليحدث حفيده عما يخصهما معا من قصص أبوخطوة، فاقتصر في تلك الفترة على حكايات صغيرة كانت تعجب سالم ويضحك لها في كل مرة. منها عندما طلب أحد المحضرين فنجانا من القهوة في مكتبه والباشمحضر في طرف القاعة الآخر وكلاهما مستغرق في عمله، إذ أخذ المحضر رشفة من القهوة ولكن لما مد يده ليأخذ الرشفة الثانية لم يجد الفنجان أمامه . وفي طرف القاعة البعيد كان أبوخطوة يقول متذمرا والفنجان في يده «قهوتك مسكرة أكثر من اللازم يا أخينا!».

ومنها أيضا حكاية وكيل النيابة المتغطرس الذي (شخط) مرة في أبوخطوة وحين خرج من عنده اكتشف بعد فترة أنه يسير في أروقة المحكمة حافي القدمين، فرجع إلى أبوخطوة يقبل رأسه ويستسمحه.

وكان سالم يستمتع بهذه الحكايات، ويستاء كثيرا عندما ينتقل جده منها ليمتحنه في دروس المحفوظات والقواعد.

لم يكن الباشكاتب قد رأى هذه الوقائع بعينيه، ولكنه رأى ما هو أهم منها، كما أن الكرامات لم تكن هي التي بهرته في شبابه، بل الرجل. عجز عن أن يفهم لماذا اصطفاه هو من بين الكثير من محبيه من موظفي المحكمة . علمه وهو موظف جديد كل تفاصيل العمل وأسراره، وفي أوقات الفراغ من العمل كان يحب أن يصحبه ويتحاور معه، ولم يكن السنانيري يتخذ سمت الأولياء المسبلي العيون الذين يتحدثون همسا ويكثرون في أحاديثهم من الوعظ والإرشاد، بل كان رجلا بشوشا يحب أن يضحك وأن يمازح من حوله . ومع ذلك ظلت هناك هيبة تحيط به، هيبة لم تصنعها قصص الكرامات التي تروى عنه وإنما شيء غير محدد في عينيه وفي حضوره.

وعندما منح توفيق محبته وثقته شعر الكاتب الجديد بأنه يخدع الباشمحضر عن حقيقة نفسه، وصمم ذات يوم على أن يبوح له بالحقيقة. قال له إنه كابن وحيد لوالده الثري نشأ مدللا يجري في يده المال فلم يبخل على نفسه بأي لذة من الملذات، واعترف لأبوخطوة بأنه حتى بعد أن بدأ العمل في الوظيفة وانتهت سنوات الفراغ والطيش لم يستطع أن يكبح نفسه.

ظل جسده العفي أقوى دائما من عزمه. قال للرجل الصالح لا تنخدع بمظهري فأنا لست أهلا لصحبة الأتقياء .

استمع أبوخطوة إلى اعترافاته في هدوء كأنه قد سمع هذا الكلام من قبل وقال:

- ولكنك تندم على ما تفعل يا توفيق أفندي، أليس كذلك ؟

فرد في أسف :

- بلى .. أندم ثم أعود كما كنت .

- الندم باب الحياء، والحياء باب التوبة .

- ولكني قلت لك يا مولانا إنني أندم ثم أعود !

- لا ، أنت لا تعود لأن الزمن لا يعود . أنت لا ترجع إلى ما ندمت عليه لأنه انتهى ولن يرجع .

- إذن فأنا أرجع إلى ذنب جديد ، فما الفرق ؟ وما فائدة الندم ؟ قل لي كيف أجد الطريق.

سكت السنانيري لحظة وبدا أنه يفكر قبل أن يقول :

- أراك تبتسم يا توفيق أفندي وأنت تعمل .. أرى زملاءك يعبسون والناس الذين يأتون للعمل يعبسون. أراك لا تفرق في قضاء مصالح الناس بين الفقير والغني، بل أراك تنجز مصالح الضعيف قبل القوي . كنت أضحك في سري وأنا أراك تفتح ملفات الدعاوى التي يقدمها لك أصحاب القضايا لرفع قضاياهم فتقول لهم إنهم نسوا بداخلها نقودا ثم تردها إليهم. لم يخطر ببالك حتى أن هذه رشاوى وأنهم يدهشون لأنك تردها ثم تقضي لهم مصالحهم بعد ذلك .

- وما علاقة ذلك بما نحن فيه ؟ قلت لك إنني أنتقل من ذنب إلى ذنب!

- فكر معي . إن أنت أحببت وتعذبت في الحب وصبرت طويلا على ذلك العذاب ثم فزت بعد ذلك بمن تحبها، ألا يكون شعورك بهذا الفوز أكبر مما لو نلت الوصال بسرعة ؟

- لا أفهمك تماما يا مولانا وأرجوك أن تحدثني عن التوبة لا عن الحب. فأنا لم يشقني ويضيعني غير هذا الحب!

قال أبوخطوة وكأنه يؤنبه :

- أخطأت هنا يا توفيق . الحب يقرب ولا يبعد.

- ولكن متى ؟

- سيأتي الوقت ، ولكن تعلم يا ولدي ألا تطلب من الوقت إلا ما يأذن به ربك ورب الوقت.

عشرات السنين مرت على ذلك الحوار ومازال توفيق ينتظر الوعد.

ومع ذلك فليعترف بأن الحب أنقذه طويلا . وبأن الحياة بعد زواجه من سمية لم تكن تشبه ما قبلها .

* * *

اهتم الباشكاتب اهتماما كبيرا بدراسة حفيده سالم الذي تنبأ له بمستقبل باهر ... وراجع معه المواد التي يعرفها منذ المرحلة الابتدائية وحتى ... الثانوية التي وصل سالم إلى سنتها الأخيرة في عام ١٩٧٥ . كان الباشكاتب الحاصل على شهادة «الكفاءة» القديمة متضلعا في اللغة العربية، يعرف ... التاريخ والجغرافيا ، ولم يبخل على حفيده بمدرسين في اللغة الإنجليزية رغم إلمامه بها بحكم دراسته ولعمله فترة أثناء توظفه في إحدى المحاكم المختلطة التي كانت تستخدم الإنجليزية والفرنسية. وكان يغضب إذا ما رآه يهمل في الاستذكار ويحذره : لو اهتم أبوك بمذاكرته لكان في حال غير الحال.

وكان سالم يعرف أن أباه لم يتقدم في التعليم بعد السنة الأولى الثانوية من النظام القديم فاضطر الجد أن يوجهه للتجارة. وساعده في إعادة فتح «محل السعدي لتجارة الأقمشة والمانيفاتورة» بالقرب من شارع السد المجاور للبيت والمزدحم بمحلات الأقمشة ولكن تجارة شعبان السعدي لم تزدهر مثل تجارة جده . كان المحل يدر دخلا معقولاً في أوقات حصص التموين التي يروج فيها البيع وأثناء مولد الست الطاهرة الذي تكثر فيه الرجل في الحي، ولكنه كان يغطي

مصاريفه بصعوبة فيما عدا ذلك. وظل الباشكاتب رغم هذا يشجع ابنه ويساعده بالأموال ولم يفقد الأمل في أن المحل سيأتي من ورائه خير كثير ذات يوم. عوّل على عودة بركة الوالد وأيامه القديمة، وسافر مرة إلى أسيوط ملتمسا نصيحة السنانيري ودعاءه لولده . وكانت هي آخر مرة رأى فيها أبوخطوة قبل أن ينتقل إلى رحمة الله.

ولم يكن سالم يتبادل كثيرا من الحديث مع والده أو يقضي معه وقتا كالذي يقضيه مع جده. كان شعبان مختفيا من البيت معظم الوقت وشبه مقيم في محل الأقمشة . وبعد وفاة زوجته المبكرة ترك شئون البيت وتربية ابنه وابنته لجدهما . ومع ذلك فإن شعبان كان صارما مع ابنه في شيء واحد هو منعه منعا باتا من اللعب في الحارة التي يقع البيت على ناصيتها . ضربه ضربا قاسيا ذات يوم عندما رآه يلعب الكرة مع الأطفال هناك . قال له: «هل هؤلاء العيال من مستوانا؟» .

عرك أذن سالم وحذره من العودة إلى اللعب مع هؤلاء الأولاد، وحذره أيضا بصفة خاصة من أن يحتضنه أحد أو يلمس مؤخرته سواء في الحارة أو الشارع أو المدرسة قائلا بشيء من الغضب عبارة لم يفهمها سالم في وقتها «أنت جميل كالبنات فحاسب على نفسك».

ولم يأسف سالم كثيرا لامتناعه عن اللعب في الحارة . كان يحب لعب الكرة ولكنه يتضايق من مشاجرات الأولاد وسبابهم الفاحش للأب والأم أثناء الشجار . وكانوا هم يسخرون منه وراء ظهره ويتندرون على أدبه وإن لم يجرؤوا على إيذائه بسبب مكانة جده في الحي، ولسبب آخر أهم وهو أن سالم منذ صغره كان طويلا وعريضا بالنسبة لسنه وكانوا يحتاجون إليه دائما كحارس مرمى لفريق الحارة لاسيما عند اللعب مع فرق الحارات الأخرى. ثم أنه عندما تشاجر معه ولد مشاغب ذات مرة وجرب قبضته القوية لم يفكر هو أو غيره في إعادة المحاولة .

وكان سالم بطبعه يكره الشجار والعنف بالحركات أو الكلام . لهذا استجاب لأمر والده.

وهكذا فقد شب دون أن يكون له أصدقاء من سنه، سواء من جيرانه أو من زملاء دراسته. ظلت صديقته الوحيدة الحقيقية القريبة من قلبه هي أخته فوزية. فمع أنها لم تكن تكبره إلا بأربع سنوات ، إلا أنها حتى وهي طفلة في الثامنة من عمرها كانت تعامله كأم بعد وفاة والدتهما . اعتادت أن تطعمه بيدها وأن تغير له ثيابه وتأخذه إلى الحمام . وعندما بدأ يذهب إلى المدرسة كانت تصحبه حتى بابها قبل أن تذهب هي إلى مدرستها، أما في العودة فكان أبوه أو جده هما اللذان يصطحبانه إلى أن تعلم العودة بمفرده. وبمجرد رجوع فوزية من المدرسة كانت تعد له ولهما الغداء، وتلعب معه ألعابهما المفضلة التي علمته إياها : «الكوتشينة» و«السلم والثعبان» و«الحواديت» و«الاستغماية». وكانت تسأله عما حدث في المدرسة في يومه فيحكي لها وتراجع بنفسها كراريس واجباته قبل أن يتولى جده هذه المسئولية. كانوا ما دبت بينهما المشاجرات الصغيرة المألوفة بين الاخوة، ولم يحدث أبدا أن اشتكى أحدهما من الآخر إلى والدهما أو جدهما . بل كانا يبكيان معا في خلوة إذا ما تعرض أحدهما لأي عقاب.

وعندما بلغت فوزية سن الخامسة عشرة اضطرت إلى أن تتفرغ تماما للبيت . كانت قد أصبحت امرأة حقيقية طويلة، ذات قوام ناضج كامل الاستدارة، ووجه صبوح تنيره عيناها الزيتونيتان ويحيطه كأمها شعر كستنائي ناعم ومسترسل. وبدأت المشاكل عندما سُمع في البيت أن شبانا يلاحقونها ويعاكسونها منذ خروجها من باب المدرسة، وجرؤ أحدهم ذات مرة أن يتتبعها حتى باب البيت، وكان من سوء حظه أن رآه سالم من الشرفة فهبط بسرعة البرق وفي يده عصا جده الثقيلة وانهال بها ضربا على العاشق الذي اضطر إلى الهرب جرياً . وسالم

الصبي يلاحقه حتى اختفى عن الأنظار . وبعد تلك الحادثة أمر والدها بأن تبقى فوزية في البيت، لم تكن قد أنهت السنة الثانية الثانوية فاعترض جدها قائلاً : انتظر يا شعبان على الأقل حتى تحصل على الشهادة، فرد شعبان : البنت مصيرها للزواج يا والدي، قال والده: ولكن الشهادة سلاح في يدها، فقال شعبان: لن أزوجها لشخص تحتاج معه إلى أي سلاح، ثم أضاف فيما يشبه الضراعة : لا تنقصنا المشاكل يا حضرة الباشكاتب ، البنت بتيمة وفي سن خطرة.

رأى الجد أنه لا يستطيع المجادلة في قرار يصر عليه الأب . أما فوزية نفسها فلم تهتم قالت باستهانة «ومن التي تبكي على (العلام) ؟ . البيت أحسن ألف مرة!».

كانت تعي تماما أنها جميلة وأن الزواج لن يتأخر.

فمنذ وقت كانت تبادل جارها (فراج) الطالب [illegible] والمواعيد دون أن يشعر بذلك أحد في الأسرة، بدأت المعرفة من شباك المطبخ الذي يطل على منزل فراج في الحارة ، وكانت تنتظر معه أن ينتهي من الدراسة في الجامعة ليتم الزواج .

***

وفي تلك الفترة عندما كان سالم في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره حدث شيء غير متوقع .

قبلها لم يكن سالم يثير أي مشكلة في البيت. كان طفلا عاديا ، محبوبا في أسرته، ناجحا في مدرسته ، صديقا مقربا لجده ولأخته ، وإن ظل صموتا معظم الوقت ما لم يكلمه أحد. غير أن تلك لم تكن مشكلة، بل اعتبرها جده ميزة وأسماه «عبادة بن الصامت» تيمناً بالصحابي الجليل . ولم يكن أحد في البيت يعرف من هو عبادة، ولكنهم كانوا يضحكون عندما يطلق اللقب على سالم المنزوي في صمته الطويل ، بل كان سالم نفسه يشترك أحياناً في الضحك .

حدثت المشكلة الحقيقية ذات مساء شتوي ، والأسرة كلها مجتمعة في البيت بعد العشاء في الصالة. وقف سالم بعيدا عنهم بجوار حائط وكان يهتز اليمين واليسار بحركة بسيطة منتظمة ويداه خلف ظهره وكأنه يلعب وحيداً ثم فجأة انطلق يقول بصوت مرتفع «يا غجر ! .. يا لامة !»

التفتوا نحوه في ذهول وكان هو يصوب نحو جده وأبيه وأخته نظرة ثابتة لا يطرف له فيها جفن . وبعد تلك البداية أكمل بنفس الصوت المرتفع والنظرة المركزة أنهم «حوش وتربية حواري وأولاد ستين» ثم راح يسهب في شتائم جنسية بذيئة لا تخطر على بال أحد في هذه الأسرة .

ظلوا ينظرون نحوه مبهوتين وهم لا يصدقون آذانهم، وعندما بدأت الشتائم الجنسية أفلتت من فوزية ضحكة عالية بالرغم منها فنظر لها أبوها نظرة قاسية ثم تنحى في الحال وانهال على ابنه بالضربات واللكمات وهو يأمره أن يخرس فلم يفلح في إيقاف سيل الشتائم المتدفق، ثم سد فمه بيده بينما راح سالم يتملص منه وتنطلق من فمه أنصاف الشتائم كلما استطاع الإفلات من قبضة أبيه .

قامت فوزية أيضا وكانت تحاول أحيانا أن تنقذ أخاها من الضرب وتتلقاه على جسمها بدلا منه . وأحيانا أخرى تشارك في ضربه عندما تجد أن بذاءته قد زادت على الحد، ولكن شيئا لم ينفع في إيقافه لا الضرب من أبيه ولا اللاينة من أخته إلى أن هدأ أخيرا من تلقاء نفسه وجلس على الأرض وهو يلهث.

كان أبوه وأخته يقفان فوق رأسه ، وظل شعبان ينظر له في غضب هائل ثم قال بعد فترة :

– من علمك هذا الكلام القذر يا ولد؟

فقال سالم بصوت مجهد ودهشة شديدة:

– أنا يا أبي ؟ أي كلام قذر ؟

وبدا واضحاً أنه لا يذكر أى شيء مما حدث .

وطوال هذا الوقت ظل الجد جالساً فى مكانه وهو يكرر بصوت متهدج «سلام قولا من رب رحيم .. سلام قولا من رب رحيم» يعلو صوته وينخفض مع إيقاعات عبارات حفيده .

تجاهلت الأسرة ما حدث بعد ذلك ولم يتطرق إليه أحد. ظل جده يراجع له دروسه ويصاحبه إلى صلاة الجمعة كالمعتاد ، ويرقيه بين الحين والآخر وهو يضع يده على رأسه ويتلو المعوذتين ثم إنه علق حجاباً قديماً فى صدره ونصحه بشدة ألا ينزعه من مكانه . وعندما كانت فوزية تطوف بالمبخرة فى البيت صباح الجمعة كانت تبطئ، بشكل خاص وهي تديرها حول رأسه وتدعو له فى سرها. ولكن هذه النوبة من الهذيان تكررت بعد شهرين أو ثلاثة بالطريقة السابقة نفسها.

كانت الأسرة مجتمعة بعد العشاء فى الصالة ودار حديث عابر عن أن تاجراً ثريا فى السوق تقدم إلى شعبان يطلب يد فوزية فرد عليه شعبان بما يعرفونه وما أكدته فوزية أكثر من مرة وهو أنها لن تفكر فى الزواج قبل أن ينتهى سالم من الثانوية العامة. وقال الجد ضاحكا: وكنت تستطيع أن ترد عليه بأنك يمكن أن تدخل السجن لو زوجت فوزية قبل بلوغها السن القانونية: فقال شعبان: لا يمنع هذا من عقد الخطوبة إلى أن تبلغ السن: لوحت فوزية بيدها وقالت مجارية ضحكات جدها: لا سجن ولا خطوبة ولا زواج قبل أن أزوجكم أنتم الثلاثة .. !! لابد أن أطمئن عليكم جميعا أولا في بيت العدل! ثم أكملت بلهجة جادة وحاسمة: ليس قبل أن أطمئن على سالم في الجامعة . وبعد أحاديث أخرى عابرة قاموا جميعا لمشاهدة المسلسل الكوميدي فى التليفزيون الذى اشتراه الجد حديثا وعلت ضحكاتهم، لكن سالم انتبذهم وذهب إلى جوار الحائط وبدأ اهتزازه الطفيف المنتظم ثم بدأ سيل الشتائم من جديد. بعد تلك المرة أصر أبوه على أن يصحبه

إلى طبيب نفسي رغم أن الجد لم يتحمس أبدا لهذه الفكرة. كان يرى أن هذه مشكلة عابرة ستنتهي مع الوقت ومع الدعاء الصادق بأن يكشف الله عن سالم الكرب. لكن شعبان أصر على رأيه .

كان الطبيب النفسي الذي سمع عن مهارته عجوزا يبدو على وجهه الإرهاق وتعبير لفت نظر شعبان، كأنه نفاد الصبر أو الاستعداد للانفجار في أى لحظة. لكن على العكس مما تصوره فقد قضى الطبيب وقتا طويلا مع الأب على انفرد واهتم بأن يسمع وبأن يعرف أوضاع الأسرة والطريقة التى يقضى بها سالم وقته ثم سأل عن حاله فى الدراسة .

قال الأب إن سالم تلميذ عادى لم يرسب فى أى سنة وإن لم يكن أبدا من الأوائل. لكن مدرس الحساب يقول إنه متفوق في مادته، وهو يحصل بالفعل على درجات مرتفعة، بل على الدرجات النهائية في بعض الأحيان. ويتنبأ له مدرسه بمستقبل كبير في علوم الرياضة .

وفي اللغات ؟

لا .. درجاته عادية .

سأل الطبيب إن كان مستواه الدراسي قد تأثر بعد هذه النوبات فقال شعبان إن جده الذي يشرف على دراسته، لم يلاحظ أن مستواه تغير. كما أنهم لم يتلقوا أي شكوى من المدرسة.

سأله أيضا إن كان قد لاحظ عليه أي شيء غير عادي قبل هذه النوبات أو بعدها. هل تصيبه حالة من التشنج مثلا أو الإغماء ؟

لم يلاحظ شيئا من ذلك ولكن أخته تقول إنه تأتيه أحلام وكوابيس في الليل .

ابتسم الطبيب : أخته تقول وجده يذاكر له. أنا أسألك أنت!

هو ، لم يستطع أن يضيف شيئا غير أنه قال إن عيني سالم كانتا تغيمان أثناء النوبة . ويبدو أنه لا يشعر بأى شيء حوله وحين تنتهي يبدو عليه إرهاق شديد ولا يذكر شيئا مما حدث .

ولكنه تذكر شيئا فقال إن سالم ظل يبول في فراشه حتى سن السادسة أو السابعة.

أشاح الطبيب بيده قائلا: عادي! ألم تقل إنه فقد أمه في الثالثة من عمره؟

فحص الطبيب العجوز سالم بعد ذلك بدقة . أجرى عليه كشفا بالأجهزة ووجه إليه أسئلة وأعطاه ألعابا مفككة من الكرتون ليعيد تركيبها وعرض عليه صورا غريبة الأشكال طلب منه أن يحدثه عما يراه فيها .

وأخيراً اختلى الطبيب بالأب مرة أخرى وعاد يسأله فيما يحسبه السبب ما هي المشكلة ؟

شرح الأب من جديد حكاية النوبتين اللتين أصابتا سالم والشتائم التي يطلقها .

قال الطبيب وهو يحول وجهه المحتقن عن الأب والله أنا شخصيا أفعل ذلك في سري طوال اليوم وليتني أبوح بهذه الشتائم مثل إبنك. ما أكثر من يستحقونها !

اشتدت دهشة الأب وبدا ذلك في نظرته فعاجله الطبيب في حسم :

– الولد طفل عادي فاتركوه في حاله !

قال شعبان محتجا :

– ولكن يا دكتور الأطفال العاديون لا يشتمون أباهم !

– بل كثيرا ما يشتمونهم في سرهم .

– أنا لم أشتم أبي في سري أبدا .

– أنت حر !

ثم غير الطبيب الموضوع: إسمع. كنت أستطيع أن أجعلك تذهب وتجيء إلى العيادة دون داع كما يفعل غيري، ولكني فحصت الولد وأجده طفلا أذكى من المتوسط وأنت تقول إن مستواه في المدرسة لم يتغير. وسلوكه عادي باستثناء هذه الحالة التي لا تأتيه إلا في البيت ووسط أسرته فما هو الخطر ؟ هل تعرف ؟ عندما كنت أنا في سن إبنك كنت طفلا منطويا على نفسي وكانت تأتيني حالات نزيف من الأنف وإغماء انزعج لها أهلي ولم يستطع الأطباء علاجها ولكنها توقفت من تلقاء نفسها بعد سن المراهقة.

لم يستطع شعبان أن يفهم العلاقة بين نزيف أنف الطبيب الطفل وحالة ولده ولكنه قال وهو تخير كلماته ولكن ربما يمكن يا دكتور أن تتطور هذه الحالة وتأتيه خارج البيت أيضا

قال الطبيب في هدوء : يمكن جدا إذا استمرت حياته كما هي وكما فهمتها من كلامك. يجب أن يتنزه هذا الولد خارج البيت أكثر مما يفعل الآن.

ورغم إلحاح الأب فإنه لم يكتب دواء، ولم ينصح بأى علاج آخر.

لم يقتنع شعبان بتشخيص هذا الطبيب، وصحب سالم بعد أيام، وبعد أن استشار أكثر من شخص، إلى طبيب آخر مشهور عيادته في باب اللوق .

لم تختلف أسئلة هذا الطبيب ولا طريقته في الكشف عن الطبيب الأول إلا أنه كان أسرع منه في كل شيء،، ولم يقل للأب أى عبارات مطمئنة بل طلب إجراء رسم مخ لسالم. كان يشك في احتمال إصابة الطفل بالصرع.

ومع أن نتيجة هذا الرسم لم تكشف أى شيء غير عادى في مخ سالم. مما حير الطبيب إلى حد ما. فقد كتب (روشتة) طويلة فيها كثير من العقاقير، على أن يعود لرؤية الطبيب مرة أخرى بعد انتهائه من تعاطى الأدوية.

وبعد أيام قليلة من هذا العلاج أصبح سالم يقضي نهاره كله في الفراش وعندما يصحو كان يسير في البيت مترنحا ويرتطم بالأثاث ويسقط أحيانا في الأرض. وانقطع بطبيعة الحال عن المدرسة.

بكت فوزية كثيرا وهي ترى سالم في هذه الحالة وقالت لجدها : دعوه يشتم كما يشاء يا جدي. لن يموت أحد من الشتيمة ولكن أخي سيموت من هذا العلاج! كلم أبي .

وبعد ظهر أحد الأيام دخل الجد إلى غرفة سالم فلم يجده هناك . بحث عنه في كل الغرف الأخرى وفي المطبخ والحمام دون جدوى، وأخيرا عاد الباشكاتب إلى غرفته هو وفتش جيدا فوجد سالم ينام على الأرض متكورا أسفل سرير جده، فحمله برفق إلى غرفته ووضعه على فراشه . شعر به سالم ففتح عينيه بصعوبة وقال لجده بصوت واهن : قل لي يا جدي ، هل أنا مجنون ؟

فانحنى جده وهو يحتضنه في صدره بقوة وقال بصوت مختنق :لا يا ولدي، بل نحن المجانين .

ثم إنه جمع كل العقاقير والأدوية التي اشتراها الأب وألقى بها في القمامة، وفعل شيئا نادرا ما يفعله إذ رفع صوته وقال لابنه في غضب : ابعد يا شعبان عن الولد واتركه في حاله .

احتج الأب باسم الطبيب المشهور وبالمبلغ الكبير الذي دفعوه في رسم الكشف والأدوية، وقال إن العلاج لم يثبته بعد حتى يحكموا على فائدته، لكن غضبة الجد اكتسحت كل الاعتراضات واضطر شعبان إلى أن يترك سالم في حاله بالفعل .

تعودوا بعدها على التزام الصمت وتحويل أنظارهم بعيدا عندما تنتابه تلك الحالة التي أدهشهم، وأراحهم أيضا، أنها لا تأتيه خارج البيت . وكما تنبأ الجد فقد قلت تلك النوبات مع مر السنين وأصبحت نادرة الحدوث حتى أوشكت أن تختفي، ثم بدا للجميع بعد سن المراهقة أنها قد اختفت بالفعل.

(٣)

كان سالم في نهاية السنة الثانية الثانوية - قبل عام تقريبا من حصوله على الشهادة التي انتظرتها فوزية طويلا - عندما تقدم جارهم فراج ليطلب يد أخته .

استقبله رجال الأسرة الثلاثة في حجرة (الصالون) . وتذكر سالم أنه رآه عدة مرات في الطريق خارجا من الحارة أو داخلا إليها، وأنه كان في بعض الأحيان يرفع له يده بالتحية فيردها له سالم بالمثل ولكنهما لم يتبادلا أي كلام . جاء مرتديا قميصا أبيض نظيفا وبنطلونا رماديا. وكان شابا وسيما ، طويلا ومفتول العضل يحيط بوجهه الأسمر شعر غزير فاحم السواد يمشطه بفرق في جانبه . وكانت عيناه السوداوان تلمعان حين يركزهما على محدثه فينبض وجهه كله بالحيوية وترتسم على ملامحه ابتسامة طبيعية دائمة .

وبعد تناول الشراب وعبارات الترحيب والمجاملة قال فراج إنه جار لهم منذ مدة ويعرف الكثير عن سمعة أسرة حضرة الباشكاتب الطيبة والذائعة في الحي كله، وإنه يشرفه كثيرا أن ينتسب إلى هذه الأسرة الكريمة. كان يتكلم بلهجة شديدة التهذيب ولكن مع ثقة واضحة في النفس.

سأله شعبان - الذي استفزه أن يحضر فراج لطلب يد ابنته دون أن يكلف نفسه عناء ارتداء بذلة كاملة - سأله بشيء من الفتور لماذا لم يتشرفوا بمقابلة السيد الوالد في هذه المناسبة؟ فاعتذر بأن والديه المقيمين في القرية عجوزان لا يحتملان مشقة السفر ولكنهما سيحضران بالتأكيد إذا ما تمم الله بخير .

سأل شعبان ، باللهجة نفسها، عن اسم هذه القرية ومكانها ، لكن الباشكاتب قاطع استرسال هذا الاستجواب وخاطب فراج مع ضحكة صغيرة «اسألني أنا يا

ابنى عن مشقة السفر، حتى مشوار العتبة أصبحت أعتبره فى سنى هذه سفرا بعيداء. ودهش شعبان لأن هذا لم يكن صحيحا، إذ كان الباشكاتب يخرج ويمشى كثيرا كل يوم. ومضى الجد يسأل فراج باسماً عن نوع دراسته وعمله فقال إنه تخرج في كلية التجارة قبل شهور وكان محظوظاً إذ عينته القوى العاملة فى شركة قطاع عام للمعادن فى حلوان، والعقبى للأخ سالم إن شاء الله !.

تدخل شعبان مرة أخرى ليسأل عن مرتبه فى هذه الشركة، وعندما سمع المبلغ أصابه الذهول وسأل : وكيف تنوى يا ابنى أن تفتح بيتاً بهذا المرتب؟ رد فراج بأنه والحمد لله مرتب كبير بالفعل يزيد عن مرتب زملائه الذين عينتهم القوى العاملة فى الحكومة، ثم إنه عندما كان فى الجامعة كان يدرس ويعيش بأقل من نصف هذا المبلغ، فكيف لا يكفى بأكمله الآن لاثنين؟

قال الأب : وعندما تنجب أولاداً بإذن الله؟

فرد الخاطب : سيكون المرتب قد زاد. قلت لحضرتك إن هذه الشركة جديدة ومستقبلها كبير. ستكون الترقيات فيها أسرع من غيرها، بل هناك يا عمى كلام عن احتمال سفرى فى بعثة إلى ألمانيا الشرقية، لأننا بعد أن انتصرنا فى حرب أكتوبر بحمد الله ستلتفت الحكومة أكثر إلى الاقتصاد وستركز على الصناعة بالذات. ولو فرجها ربنا بهذه البعثة إلى ألمانيا قريبا فسأتمكن من ادخار مبلغ للمهر والشبكة.

سأله الجد: وبمناسبة الحرب ماذا عن فترة تجنيدك؟

فقال فراج : أنا معفى لأنى وحيد والدىّ. ليس لى سوى أخت واحدة متزوجة فى البلد، ولكنى كنت أتمنى مع ذلك لو شاركت فى حرب أكتوبر.

إبتسم الجد قائلا : إذن ففى هذه الغرفة أربعة معفون من التجنيد للسبب نفسه!

لكن هذه المقاطعة من الباشكاتب للمرة الثانية لم تعجب شعبان الذى عاد يسأل :

- تعنى يا أستاذ فراج أن مبلغ المهر والشبكة غير جاهز؟

فرد ببساطة : بالطبع لا. من أين ؟ تعب والدى المزارع حتى دبر مصاريف تعليمى، والآن يجب ألا أطلب منه شيئا بعد أن توظفت. بل جاء دورى لأرد له الجميل .

مضى شعبان وهو لا يصدق نفسه : إذن فستساعد الأسرة فى البلد أيضا من مرتبك ؟

غاضت ابتسامة فراج لأول مرة وتصلب وجهه وهو يكرر : بالطبع ، يجب أن أرد لأبى وأمى الدين.

تدخل الباشكاتب مرة ثالثة فى الحوار : هكذا يتصرف أولاد الأصول. مبارك عليك برك بوالديك يا أستاذ فراج ولكن أين تنوى أن تسكن عندما تتزوج إن شاء الله ؟

- فى شقتى .

ارتفعت صيحة سالم حادة ورفيعة : فى الحارة ؟!

فنظر له جده نظرة صارمة. كان قد حذره قبل زيارة فراج من أن يفتح فمه بكلمة . قال له هذا موضوع يتكلم فيه الكبار فقط.

أحنى سالم رأسه على مضض وهو يكز على أسنانه لكن فراج رد وهو يعاود الابتسام:

- نعم يا أخ سالم ، فى البداية على الأقل. إلى أن ندخر مبلغا يكفى للسكن فى مكان أفضل. وسيحدث هذا صدقنى. ربما بعد البعثة مباشرة.

ثم اتسعت ابتسامته وأشرق وجهه مرة أخرى وقال : أنا يا حضرة الباشكاتب ويا عمى شعبان ويا أخ سالم إنسان متفائل وواثق من المستقبل بفضل الله. شاركونى فى التفاؤل وستكون ابنتكم فى عينى.

أوشك شعبان أن يقول لفراج إن التفاؤل في هذه الظروف يكاد يكون وقاحة. لكنه ضغط على نفسه وقال :

- ولكن لماذا لا تنتظر يا ابني حتى تكوّن مستقبلك قبل أن..

فاستمرت مقاطعات الباشكاتب لشعبان وقال مخاطبا فراج :

- أنا أيضا يا أستاذ فراج متفائل مثلك دائما، وأحب المتفائلين.

ثم أكمل بلهجة من يريد إنهاء المقابلة : وإذن فعلى خيرة الله. أترك لنا فرصة للتشاور ولكي نسأل ابنتنا عن رأيها وسيكون الرد خيراً بإذن الله.

ثم نهض وصافح الخاطب وسط نظرات الدهشة من الابن والحفيد ، وبعد أن ودعوه عند الباب وانصرف انفجر شعبان مدمدماً :

- كيف واتته الجرأة؟ ماذا جرى لشبان هذه الأيام؟

غير أن الباشكاتب قال : تعال يا شعبان ، أريدك في كلمة.

ودخلا من جديد حجرة الجلوس. أما سالم فقد توجه منفعلا إلى حجرة أخته التي كانت تجلس على السرير مستندة بمرفقها إلى الحاجز وتبدو مستغرقة في التفكير. وعندما فتح سالم الباب في عنف حدست على الفور ما يدور في رأسه فواجهته بابتسامة مقتضبة عندما قال :

- هل رأيت ؟.. جدي بدلاً من أن يطرده.

- لماذا تريد أن يطرده يا سالم ؟

- فلاح ومفلس ويسكن في الحارة ويحلم أن تسكني فيها معه . تصوري !

سكتت فوزية فاستحثها سالم وهو يشعر بالخوف : سترفضين بالطبع ؟

أحنت فوزية رأسها وقالت لست أنا التي تقبل أو ترفض يا سالم . الرأي لأبيك وجدك.

فصاح مستنكرا : ولكنك رفضت أكثر من مرة ولم تسمعي كلام أبيك أو جدك! فما معنى ..

ثم انخرط فجأة في البكاء . .

قامت فوزية واحتضنت أخاها بشدة وراحت تقبله وهي تقول :

- أسكت الآن يا سالم . أرجوك انتظر ما سيقوله أبي.

وكان أبوها وقتها يردد كلاما مشابهاً في مواجهة الباشكاتب. يكاد يلومه لأنه لم يترك له الفرصة ليرفض هذا الخاطب على الفور. كانا يجلسان على مقعدين متقابلين ولكن الباشكاتب ظل محتفظا بهدوئه وهو يستمع إلى ابنه الثائر يكيل الشتائم للجار الوقح الذي تجرأ...

غير الباشكاتب مكانه وجلس على مقعد مجاور لولده وتكلم بصوت خفيض:

- نعم ، معك حق يا شعبان. أنا أيضا مثلك أتمنى مستقبلاً أفضل لفوزية. أعرف أن هذا الشاب لا يملك شيئا غير وسامته، وأعرف أن المسكن الذي يريد أن تعيش فيه فوزية معه لا يزيد على حجرتين صغيرتين .

- بالطبع لن تعيش فيه! لن أوافق أبدا.

ثم انتبه [illegible] في حديث والده فاستدرك: ولكن كيف عرفت حضرتك أن منزله من حجرتين ؟

زاد صوت الجد خفوتا حتى كاد يهمس :

- فوزية هي التي قالت لي .

- وما أدراها هي ؟

-هي تدري .

- كيف ؟

سكت الجد وهو ينظر في عيني ولده ، فارتاع شعبان وهب واقفا وظل ينظر لأبيه صامتاً لفترة قبل أن يهمس بدوره :

- تقصد .. ؟

فعاجله الجد : لا أقصد شيئا يا شعبان!

ثم أحنى رأسه وكأنه يكلم نفسه : تمنيت لو مرت هذه الليلة على خير . تمنيت على الله أن تقبل هذا الشاب لأن ابنتك تريده. تمنيت ألا تسألني عن شيء، ولكن .

سكت مرة أخرى ثم همس وفي صوته غصة : زوج ابنتك بسرعة يا شعبان.

ظل شعبان يقف في مكانه بقامته الطويلة النحيلة مطلا على أبيه بوجه محتقن وعينين محمرتين تحبسان الدموع، ثم قال بصوت مرتجف:

- أنت أفسدت حياتي يا أبي !

وقف الباشكاتب بدوره وعضلات وجهه ترتعش :

- أنا الذي أفسدت حياتك يا شعبان ؟ كيف؟

- أخذت مني أولادي وضيعتهم كما ضيعتني !

كان جسد الباشكاتب كله الآن يرتجف ويجد بصعوبة صوته الذي كان يحتبس أحيانا ويتحول إلى غمغمة غير مفهومة :

- متى ؟ كيف ؟ تكلم ؟.. هل تحسب يا ولد أني كنت أعرف شيئا؟ أنّى يمكن أن أعرف شيئا؟ هي ابنتك. فلماذا بعد أن صممت على أن تقطع دراستها لم تراقبها؟ أنا منعتك يا شعبان؟ وكيف كان يمكن أن أعرف؟ هي بالأمس فقط كلمتني وأنت الذي حددت للشاب الموعد عندما جاءك في المحل.

كيف .. متى كان يمكن أن أكلمك، وماذا كنت سأقول لك؟

ثم فقد القدرة على السيطرة على نفسه فارتفع صوته: خذ أولادك ياشعبان واترك هذا البيت لتربيهم كما تشاء! متى. قل لي متى منعتك أنا من أن تقترب منهما أو من أن تربيهما؟ متى أفسدت حياتك؟ قل . لماذا لا تتكلم ؟ كل شيء حاولته معك ولكن .

ماذا كنت تريدني أن أفعل ؟

كان شعبان يقف مستغرقا في همة لا يكاد يفقه ما يقوله أبوه أو أن يتابع ثورته . غمره إحساسه بالعار والغضب والهزيمة، فترك أباه واقفا وسط الغرفة واندفع خارجا ليجد سالم وفوزية يقفان مذعورين في الصالة لارتفاع صوت أبيهما في وجه الباشكاتب لأول مرة في حياته . حدجهما أبوهما بنظرة غاضبة، تكاد تكون كارهة، قبل أن يخرج من البيت ويصفق الباب وراءه .

* * *

وفي تلك الليلة غزت سالم أحلام وكوابيس كثيرة . في البدء زارته أمه. اقتربت منه واحتضنته وألقمته ثديها لترضعه، فقال أنا كبرت يا أمي ولكنه مع ذلك راح يرضع في نهم شديد قبل أن تنزع ثديها فجاة وتقول كيف؟ ألم تصبح رجلاً يا سالم ؟ قال ولكن يا أمي.. وهو يمد يده في يأس لثديها الذي يشر منه اللبن دون أن يبلغه، فقالت انهض يا سالم واغسل فمك ثم قابلني عند الكوبري ومعك الريحان والفل لأبيك. فظل يجري وراءها وهو يقول لكن يا أمي .. لكن يا أمي! فجاء شعبان ممسكا بعصا الباشكاتب التي أصبحت فجاة أطول من أبيه نفسه وراح يضرب سالم على بطنه وهو يقول أخرجه ! أخرجه يا ولد! وهو يسأل وسط لدغات العصا ما الذي أخرجه؟ خذ كل شيء واتركني . غير أن العصا صارت خنجرا مشرعا في وجهه ولم يكن الشخص الذي يحمل الخنجر أباه فارتعب وراح يصرخ .

ولم يشعر سالم باليد التي جاءت تمسح جبينه وتهدهده وتجفف عرقه وتعدل وضعه في الفراش إلى أن هدأ ارتجافه ونشيجه .

لكنه في الصباح كان مجهدا وكان شاحبا . لم تعاوده نوبة الهذيان كالمعتاد بعد الكوابيس، بل غرق في صمت عميق. وحدث في تلك الليلة شيء كان قد توقف منذ فترة طويلة. إذ بال في فراشه.

* * *

لجأ الباشكاتب إلى شرفته وبقي فيها طويلا. جلس يتطلع مهموما إلى الطريق الذي دائما ما تسري عنه حركته وعابروه ولكنه ظل ينظر دون أن يرى أو يسمع. كيف استطاع شعبان أن يقول ما قاله؟ ضيعه وضيع والديه مرة واحدة؟ ماذا كان بوسعه أن يفعل لهم أكثر مما فعل؟ أعطاهم عمره وماله وحبه. فهل ضيعهم الحب؟ ماذا يقول أبوخطوة في هذا وفي الحب الذي يقرِّب ولا يبعد؟ هناك غلطة ما. فما هي ؟

أي أب كان يستطيع أن يبذل أكثر مما بذل هو لشعبان؟ أحبه قبل أن يولد بقدر حبه لسمية. أحبه كجزء من الغالية التي ملأت حياته قبل أن يكون ولده. ولكن حتى في طفولته الباكرة وقبل أن تموت أمه كان بعيداً ونائياً. يحب أن يلعب وحده ولا يريد الاختلاط بغيره من أطفال الجيران. وبعد أن ماتت سمية عاش له أبا وأما. يطعمه ويلبسه ويذاكر له دروسه ويكاد يلازمه طول الوقت ومع ذلك ظل شعبان مصمتا ووحيدا. راوده الأمل في أن يتغير ولده بعد انتقاله إلى محكمة في القاهرة قبيل وفاة سمية. كان شعبان وقتها في العاشرة من عمره. وسكان البيت كلهم يعيشون كأسرة واحدة. تمنى أن يشجعه ذلك على الخروج من البيت واللعب مع أولاد الجيران لكنه لم يفعل. أراد دائما أن يبقى وحده ولم يعرف هو أبدا ما الذي يدور في رأس ولده. أم أنه في الحقيقة لا يوجد أي شيء يدور في رأسه؟

يذكر دهشته حين كان يذاكر له دروسه في المرحلة الابتدائية. يذكر عجزه عن أن يكتب ولو سطورا قليلة في أي موضوع للإنشاء. اعتاد أن يشرح له الموضوع، ويزوده بالعناصر التي يمكن أن يكتب عنها، ويعطيه ما يسمى بالجمل المفيدة لكي يستعين بها في كتابة موضوعه. فلم يكن يفعل غير أن يعيد كتابة هذه الجمل. كان محروما من أي خيال، وأحزنه كثيرا في آخر الأمر أن يسلم بأن ولده لا يملك أي

ذكاء. لم تكن مسألة الدروس الخصوصية معروفة أيامها في مطلع الأربعينات ولكنه جاء له بمدرسين لكل المواد فاشتكوا جميعا من بطء فهمه .

بالكاد استطاع أن يعبر به مرحلة الدراسة الابتدائية ثم تعسر بعدها. ظل يرسب في أول سنة من المدرسة الثانوية ويعيدها المرة بعد الأخرى إلى أن فصلوه من المدرسة الحكومية. أدخله مدرسة أهلية ظل يدفع لها وللمدرسين الخصوصيين معظم مرتبه ومع ذلك لم ينفع شيء. وأخيرا، بعد أن أصبح له شارب كث وأشرف على العشرين من عمره اضطر أن يستسلم وأن يقطع دراسته. أعاد فتح محل الحاج السعدي على أمل أن يعلم السوق ابنه ما فشلت فيه الدراسة. لكن شعبان لم يكن هو الحاج السعدي الذي عاش عمره صديقا لكل جيرانه في السوق يخدمهم ويخدمونه. يجلب لهم الزبائن ويجلبون له. يحبه زبائنه ويحبون معاملته لهم وسؤاله عن أخبارهم وعن أحوال أولادهم فيرجعون إليه باستمرار. لم يستطع شعبان أن يفعل شيئا من ذلك . عجز عن أن يصادق أحدا في السوق بعد أن عجز قبل ذلك في البيت .

أين كانت غلطته إذن وأين كان تقصيره؟ أو لم يستجب بعد ذلك لطلبه بالزواج بعد أن فتح له المحل؟ ليته ما فعل! فليستغفر الله. كيف كان له أن يعرف ما يخبئه القدر؟ فعل أيضا أقصى ما بوسعه . زوجه فتاة مهذبة من قريبات سمية ومن قريتها. وكانت سعاد جميلة ووديعة. تصحو مبكرة قبل أي إنسان وتقوم بمفردها بكل الأعمال في البيت . تحنو عليه وعلى الأسرة كلها بحب لا تكلف فيه. لم يسمعها يوما تشكو أو تتذمر من زوجها أو من متاعب طفليها. لعلها لهذا السبب ماتت في صمت، دون أن تصرخ ودون أن يسمع أحد صوتها أو تطلب المساعدة. عندما لزمت غرفتها يومين ودخل ليسأل عن صحتها هاله شحوب وجهها. ولما سمع من شعبان أنها تشكو من النزيف من يومين سأله لماذا لم ينقلها إلى

المستشفى على الفور؟ لماذا لم يخبره بحالتها من قبل؟ رد وهو يرتجف خائفا بأنه اعتقد أن هذه الأشياء طبيعية لدى النساء، وأنها ستشفى من تلقاء نفسها! وعندما نقلوها بعد ذلك إلى المستشفى كان الوقت قد فات. قتلها بإهماله، بسذاجته، أو قليقلها : بغبائه ! لا . فليستغفر الله من جديد! حان أجلها هذا كل ما في الأمر . نعم . حان ولكن على يد شعبان: متى إذن ضيع شعبان؟ حين صمم على أن يتعلم ؟ حين ساعده على فتح محل جديد؟ حين زوجه من سعاد؟

اهدأ . اهدأ يا حضرة الباشكاتب!

نعم . كانت نيتك حسنة في كل ما فعلته ، لكن كل شيء انقلب إلى عكس مقصدك . فلماذا إذن بدلا من أن تلوم شعبان لا تحاول أن تفهم السبب؟ هل هي عقوبة من الله؟ إن تكن كذلك فهو يستحقها . يستحقها عن جدارة. عاش عمره كله يطيع نزواته. ألا يستحق عقابا على ذلك؟ ألا يستحق عقابا على ما يفعله الآن بحياته ؟

تواضع يا حضرة الباشكاتب. تواضع قليلا قبل أن ترمي ابنك بالغباء وربما تكون أنت أغبى منه. فكر في أن شعبان لم يقصر عامداً في أي شيء طلبوه منه. حتى في المدرسة لم يكن يهمل دروسه كما اتهمته أمام سالم. كان يقضي ساعات طويلة في الاستذكار وحل الواجبات ولم يكن ذنبه أنه عجز عن النجاح. ثم أنت لا تستطيع أن تنكر أنه ابن بار. ربما كانت هذه أول مرة في حياته يرفع فيها صوته أمامك. له عذره . فلتحمد الله أنه لم يتهور ويحول المسألة إلى فضيحة. لا تنقص الفضائح! فوزية تفعل ذلك؟ أسكت ! أسكت تماماً. فوزية حفيدتك!

ولكن أبوها؟ يستطيع أن يتهم نفسه كما يشاء، غير أنه لا يمكن أن يتهم شعبان. منذ صغره لم يكن يفوته فرض ولا سنة. فهل يستطيع أن يقول إنه يجاري ابنه في ذلك؟ هو ينتظم في الصلاة فقط في شهر رمضان وفي أيام الجمع وتفوته بعد ذلك فرائض كثيرة، فما عذره ؟!

فليسامح ابنه إذن على ثورته. لا ! فليسامحه ابنه ! فليسامحه ربه !

ومع ذلك يقول أبوخطوة إن الندم سينجيه والحب !

فلماذا لم ينجه هذا ولا ذاك من قبل ؟

ومتى وقد قربت ساعته كثيرا سيأتيه الفرج الذي تنبأ به صديقه الصالح؟

وماذا لو عرفت أسرته ما يخفيه أو لو عاش أبوخطوة ليعرف ما صار إليه صديقه النادم ؟ ومن في هذه الدنيا يتغير حقا ؟

انتبه الباشكاتب على صوت قعقعة إغلاق الباب المعدني لأحد الدكاكين.

كانت محال كثيرة قد أغلقت أبوابها ومع ذلك ظل الشارع صاخباً وحياً بالباعة الذين يفترشون الأرصفة وينادون على بضائعهم ، وبأرتال القادمين التي لا تنقطع من اتجاه الميدان .

هو الآن يخلع البيمر يحتمي بأصواتهم لتسكت أصواته. ولكنه عرف أنه قد حان له أن يدخل غرفته عندما سمع الصوت المنغم يقترب قادماً من الميدان . كان يمر كل ليلة في الموعد نفسه. هل يبدأ جولته أم يختمها؟

يعرفه جيدا . يلبس دائما جلبابا نظيفا أبيض فوقه (جاكتة) رمادية ، تغطي عينيه نظارة سوداء، وتقوده فتاة ملابسها نظيفة أيضا. وهو يردد مرة بعد أخرى بلا انقطاع، ببطء ، وبصوت شجي.

توكلت على الله ربي وخالقي ∴ وأيقنت أن الله لا شك رازقي

إن كان لي رزق فليس يفوتني ∴ ورحمة الرحمن ملجأ المؤمن

كان يمر بخطواته البطيئة لا يتوقف في الطريق ولا يسأل أحدا. تأخذ الفتاة ما يجود به المحسنون وتضعه صامتة في جيب جلبابها.

ظل الباشكاتب يتابع الصوت الجميل وهو يبتعد ثم همس لنفسه وهو ينهض : لو تدلني كيف تطمئن القلوب !

(٤)

لم تأت بعثة ألمانيا الشرقية وازدهار الصناعة بعد الحرب بسرعة كما توقع فراج، ولكن زواج فوزية هو الذي تم بسرعة.

قال فراج إنه لا يريد شيئا من الأسرة لأنه لم يدفع شيئا. كل ما يريده هو امرأته وأن تشاركه حياته كما هي ، على أن يبنيا مستقبلهما خطوة خطوة كلما تحسنت الأحوال . لكن الباشكاتب أصر على تجديد طلاء شقته الصغيرة وأن يفرشها من جديد على حسابه وظل فراج يعارض في عناد أن يدخل شقته شيء لا يدفع ثمنه. حاول الباشكاتب أن يشرح بأن العرف جرى على أن تجهز أسرة العروس بيتها ، فرد فراج بأن المجتمع تغير وينبغي نبذ التقاليد البالية. لكن الباشكاتب نجح في النهاية في إقناعه بأن يتقاسما التكاليف باعتبار نصف المبلغ هدية الأسرة لابنتها والنصف الآخر قرضاً يرده فراج عندما يتوفر له المال. فوافق على مضض بشرط أن يكتب إيصالات بالمبلغ لتكون التزاما عليه برد الدين. وأجمل في مبلغ الدين (الشبكة) التي اشتراها الجد ليقدمها فراج إلى عروسه.

ثم فرح فوزية حسب الأصول ودفع تكاليفه الباشكاتب الذي تغلب على ممانعة فراج هذه المرة بأن قال له ضاحكا «يا أخ فراج لا تحضر أنت إن كان لا يعجبك ، ولكن نحن نريد أن نفرح بابنتنا!» وهكذا فقد علقت زينات كهربائية ملونة في مدخل البيت وفوق السطح الذي أقيم فيه شادر ورصت مقاعد تكفي لكل الجيران والمدعوين، وعلق مكبر صوت ليصدح فيه المطرب ولتقدم الفرقة ألحانها لأهل الحي.

حضر والدا فراج مع أخته وزوجها وأولادها، وكانوا يلبسون ثيابا ريفية من جلابيب جديدة ويجلسون منزوين في ركن السطح، وكانوا يتمنعون كلما قُدم لهم شراب أو طعام، ولا يتناولون بعد إلحاح سوى القليل. على عكس بقية المدعوين القاهريين. حاول الباشكاتب أن يتغلب على إحساسهم بالغربة بالجلوس معهم والمبالغة في الترحيب بهم ولكن حياءهم كان أقوى من كل محاولات الجد ومداعباته. ولم تنفع أيضا جهود فراج الذي كان يترك مكانه إلى جوار عروسه في (الكوشة) ويقوم ليجلس مع أسرته مقبلا المرة بعد المرة يد والده ورأس أمه. ولكن الراقصة نجحت في خلق جو آخر عندما تمهلت في رقصها أمام الباشكاتب ووالد العريس وراحت تميل عليهما في دلال. فملأ صفير الشباب وضحكهم. وأخذ الباشكاتب يصفق ويتمايل بجسمه، ولم يشاركه نسيبه في ذلك، بل أطرق رأسه مبتسما في ارتباك وإن لم يفته أن يضع يده في جيبه ليعطي للراقصة وطبالها (النقطة). ورحب شعبان بأنسبائه في حدود الواجب ولكنه اختفى معظم الوقت معتذرا بانشغاله في تنظيم الفرح و(البوفيه) والترحيب ببقية المدعوين. أما سالم فاحتل مقعدا أمام الكوشة لازمه طوال الفرح تقريبا، وكان الجميع يعرفون مسألة قلة كلامه فلم ينتظروا منه أكثر من التحية الموجزة قبل أن يعود إلى مكانه وصمته .

وفي نهاية الفرح قدمت والدة فراج (كردانها) هدية لفوزية وهي تقول بصوت خافت «تمنيت يابنتي لو كان عندي مال قارون» فقبلتها العروس التي كانت في قمة جمالها وسعادتها وقالت «يكفيني دعاؤك يا أمي».

وعندما شبك فراج ذراعه في ذراع فوزية وزفتهما الراقصة حتى سلم البيت وسط طبول عالية وزغاريد أعلى صوتاً أطلقتها جارات فوزية وحبيباتها، تبع المدعوون جميعا الزفة التي استمرت لفترة طويلة على السلم .

خلا الشادر والسطح إلا من المصابيح الملونة المعلقة التي كانت أفرعها تهتز اهتزازا طفيفاً.

ووسط المقاعد الشاغرة والمتداخلة وقف شعبان وسالم متباعدين.

* * *

بعد زواج فوزية تغيرت الحياة في البيت .

أصبح من الضروري الاستعانة بشغالة ، كانت تأتي مرتين في الأسبوع لتنظيف البيت والطبخ، ولكن الباشكاتب لم يعد يشعر براحة في دخول المطبخ وإعطاء تعليماته لهذه الشغالة . غير أن فوزية ظلت تتردد على البيت بانتظام من شقتها القريبة وتحاول تنظيم الأمور قدر الإمكان : تراجع أعمال الشغالة وتقضي وقتا طويلا مع سالم ومع جدها لتوحي بأن شيئا لم يتغير في علاقتها بالأسرة، كما أنها لم تفقد امتياز ترتيب غرفة جدها التي كانت محرمة على الشغالة. وكانت تأتي أحيانا بمفردها لتتناول معهم الغداء، أو العشاء، ، ولكن فراج الذي أحبه الجد كثيرا وارتاح لصحبته لم يكن يستطيع أن يزورهم إلا في يوم الجمعة. كان يعمل في الشركة في فترتين صباحية ومسائية، ولم يعد لديه أي فراغ.

وهكذا أصبح سالم وجده يقضيان معظم الوقت بمفردهما . لم يكن شعبان يظهر إلا عند العشاء، يبدو عليه الإرهاق دائما ويرد باقتضاب وأدب على أسئلة والده عن أحوال العمل، التي لم تكن جيدة في معظم الأحيان. كان بعد ثورته الوحيدة والقصيرة الأجل قد قبل رأس والده طالبا الصفح قائلاً إنه لا يستطيع أن يعيش دون رضاه عنه، وقال الباشكاتب إنه نسي ما حدث وإنه ربما لو كان مكانه لفعل ما فعله ولده. رجعت أحوال شعبان وغيابه عما يدور في البيت مثلما كانت من قبل، ولكنه اعتاد قبل أن يدخل غرفته ليصلي العشاء، وينام أن يسأل سالم عن دراسته، فيرد الجد بأنها على ما يرام، فيما عدا ذلك كان الجد والحفيد يتبادلان الحديث والسمر بحرية في البيت وفوق السطح على السواء.

وفي تلك الأيام وفي إحدى جلسات السطح طلب سالم من جده أن يحكي له عن جدته التي لم يرها، فسمع منه قصة زواجه، وكان زواج حب.

كان توفيق أفندي قد انتقل من أسيوط كاتبا في محكمة المنصورة ورأى (سمية) وهي تتردد مع والدتها على المحكمة فأحبها من أول نظرة. كانت بيضاء، وممتلئة امتلاء حسنا، ولم يهتم بأنها تصغره كثيرا في السن أو بأنها لم تتجاوز السادسة عشرة. ففي ذلك الوقت في مطلع الثلاثينات، كانت هذه سنا معقولة جداً لزواج البنت. وكان مرتبه كبيرا في حينها ولديه إيراد هذا البيت الذي ورثه عن والده، أي أنه كان مستعدا ومكتمل الرجولة فلم يتردد. ثم إنه نبه سالم إلى درس مهم جدا لينفعه في الحياة: مفتاح أي بنت في الدنيا هو أمها، وهكذا فقد سلك الطريق الناجح وكسب ثقة الأم. ساعدها هي وابنتها في نزاعهما مع الأعمام على الميراث. لم يكن قد بقى لهما الكثير بعد توزيع الأرض بينهما وبين الأعمام ولكن حتى بالنسبة لهذا القليل الذي كان يكفيهما بالكاد، بدأ أعمامها يرفعون قضايا ويقدمون إيصالات قديمة وتوكيلات موقعة من الأب لانتزاع بقية الأرض، وحين راجع توفيق ملفات القضايا في المحكمة أحس بخبرته أن هناك تزويرا وتلاعبا في المستندات وساوره الشك في أن المحامي الذي وكلتاه يعمل لصالح الأعمام، فنصح بتغييره وبالطعن في المستندات، وأمكن بالفعل بفضل نصائحه استنقاذ القليل الذي بقي لهما من قبضة الأقرباء. وفي تلك الفترة بدأ يتردد بنفسه على البيت ليتابع الأخبار وليرشد الأم إلى ما ينبغي أن تفعله، ولما كان قصده شريفا فإنه لم يتردد أثناء زياراته تلك في استخدام لغة النظرات مع سمية، فسقطت الجدة كالثمرة الناضجة.

قال لسالم : كان فرق السن بيني وبينها يزيد على خمس عشرة سنة، أتظن أني شعرت بذلك أو أنها شعرت به؟ الحب يا ولدي التقاء روحين والأرواح لا عمر

لها وحين ضمنا في النهاية بيت كنت أستعجل الوقت الذى أرجع فيه من المحكمة، أكاد أجرى في الطريق فتفتح لي الباب قبل أن أطرقه وشوقها مثل شوقي.. تلهث كأنها هي التي صعدت السلم وثباً لا أنا. نادرا ما كنا نخرج من البيت، لم يكن أحدنا يحتاج غير الآخر. الآن أسأل نفسي من أين كنا نأتي بكل هذا الكلام؟ ولم كان كل كلام يهجة؟ من أين كان يأتينا ذلك الفرح ونحن معا؟ لماذا كانت كل أيامنا ولياليها يوما واحدا ممتدا من النعيم ولماذا صارت الأيام بعدها طويلة كالدهور؟

قال الجد ودموع في عينيه إنه عرف معها سعادة لا تعوضه عنها نساء الدنيا .

ثم شرد طويلا وحول نظره عن حفيده في اتجاه بيوت الحارة المتلاصقة حتى ظن سالم أنه نسيه، لكنه عاد يقول بصوت أكثر خفوتا دون أن ينظر في اتجاه حفيده:

– لما أنجبنا أباك فرحنا بالطبع، أحببناه ورعيناه، كنت أقول إني أراها فيه فتقول إنها تراني أنا. حتى طفلنا لم يكن ثالثنا في البيت، بل كنا كلانا فيه معا، لم يكن في دنيانا غيرها وغيري.

ثم تنهد طويلا وهو يلتفت من جديد إلى حفيده قائلا :

– كنت أفكر دائما أني سأموت قبلها فأحاول أن أحدثها برفق عما تملك، عن هذا البيت وعن نقود كنت أدخرها وعن المعاش الذى ستقبضه بعد أن أرحل، فترد: بدونك أنت لا حياة لي ولا له. ولكن انظر، ها أنذا قد عشت كل هذه السنين الطويلة بعد أن رحلت هي :

كانت الدموع تغطي وجه الجد وهو يتحدث عن زوجته الراحلة، غير أنه لم يكن يطيق الحزن طويلا فمسح خده وقال متضاحكا :

– هانت ! قريبا نلقاها ونلقى الأحبة .

ولكن سالم لم يسمع هذه العبارة الأخيرة، كان هو الذى شرد الآن بعيدا ثم قال فجأة :

– ولكن ما الذى فعله أبي لتموت أمي وأمه؟

انتفض الجد في فزع :

– استغفر الله! جدتك وأمك ماتتا ميتة ربنا. الله وحده ياولد.

– لكن أمي ماتت صغيرة جدا.

– هذا أمر الله . حكمه وحكمته .

ثم بدا على الباشكاتب شيء من التوجس فقال لحفيده :

– ولكن لماذا تسأل عن ذلك الآن ؟ هل سمعت شيئا ؟ هل قال لك أحد شيئا ما ؟

فانطلق سالم في سرعة وغضب : لا تكذب يا جدي !.. لماذا يهرب أبي مني، لماذا يهرب من كل إنسان ومن فوزية ومنك؟ لماذا ليس له أصحاب؟ لماذا لا يزوره أحد ولا يزور هو أحدا ؟ لماذا يحول وجهه بعيدا كلما كلمته أنا ولماذا ينظر في الأرض حين تكلمه أنت ؟ ما الذى فعله أبي ؟

قام الجد من مكانه وتقدم من حفيده بخطوات مهددة وهو يوجه نحوه سبابته في غضب: إياك أن تتكلم عن أبيك هكذا!

ثم تمالك نفسه وقال وهو يضع يديه على كتفي سالم: اهدأ يا سالم ربنا يهديك.

لكن سالم لم يسمع تأنيب جده ولا دعاءه، بل واصل ثورته وهو ينتفض:

– أبي فعل شيئا يخفيه هو وتخفيه أنت، أبي لايحبنا، كان يريد أن يضعني منذ زمن مع المجانين، وزوج فوزية لرجل فلاح في الحارة لأنه يريد أن يتخلص منها ويريد أن يعاقبنا لأننا نحبها ولانحبه، لاتكذب ياجدي؛ أنت لاتحبه وأنا لا أحبه ولا أحد يحبه ولهذا لا يأتيه زبائن في المحل، ولهذا يعاقبه ربنا!.

حاول الباشكاتب أن يتغلب على انفعال سالم بالمبالغة في الهدوء:

- لا ياولدى أنت تخطئ، أبوك رجل طيب ياسالم ويعرف ربنا، هو أكثر صلاحا مني ومنك فلماذا يعاقبه ربنا؟، أنت لاتعرف الآن ما تقول ، أبوك يحبنا وأنا لم أكرهه أبدا، ولا أنت أيضا ياولدى لأننا نعرف أن حمله ثقيل. ماتت أمك وكانت سنه أصغر مني بكثير عندما فقدت جدتك. كنت أنا رجلا كبيرا فاحتملت أما هو فكان في بدء شبابه.. هل فهمت؟! إهدأ ياسالم .

ظل الجد يربت على كتفي حفيده ويمسد رأسه ويتحسس بين الحين والآخر صدره في موضع الحجاب إلى أن هدأ سالم وعاد إلى صمته وإن ظل جسده يرتجف. فعاد الجد يجلس في مكانه. هجمت عليه من جديد بكلمات سالم أشياء كثيرة يحاول أن ينساها، فلزم بدوره الصمت.

كانت الشمس قد غابت، وظل طبق الترمس بينهما دون أن يمسه أحدهما

فأشار له الجد دون حماس: كل ياسالم.

- لاأريد. عن إذنك. سأنزل إلى البيت.

قال الجد في شرود: ابق قليلا ياسالم.

فرد باقتضاب: أشعر بالبرد.

بقي الباشكاتب بمفرده فوق السطح ولم يكن يكره شيئا قدر كراهيته للوحدة والصمت.

في شبابه لم يكن هناك مجال لهما، كان مشغولا بمغامراته وعمله ورفاقه، وفي كهولته اعتاد أن يذهب إلى مقهى قريب من البيت ليلتقي بالجيران والأصحاب، يتبادلون الأحاديث والذكريات والضحكات، ثم بدأ رفاق العمر يرحلون واحدا بعد الآخر، ولم يعد يرى في المقهى حين يذهب إليه وجوه من بقي منهم، وإنما صور من رحلوا، فاعتكف في بيته معظم الوقت وشغلته صحبة ولده وحفيديه.

كان يعرف أنه يخاف في شيخوخته أن ينظر إلى نفسه وأن يحاسبها. يكرر لنفسه دائما فات الوقت ولكن سالم أيقظ من جديد الأشياء، التي يجب أن تظل نائمة.

سأله أبوخطوة في شبابه لماذا تهرب من نفسك ياتوفيق أفندي؟

فرد عليه بصراحة «لأني لا أرى فيها مايسر!» فقال له: «ولكن كيف يمكن أن أراك أنا ولاترى أنت نفسك؟».

لم يفهم توفيق في كثير من الأحيان ما يعنيه أبوخطوة بحديثه وتجنب التعمق في السؤال. بل أخذ يتهرب منه بالفعل بعد أن اعترف له بحقيقة حاله. غير أنه آمن بعد أن التقى بسمية بأن الحب قد أنقذه بالفعل. لم تشبه حياته معها أي شيء عرفه عن النساء قبلها. كانت كما قال لسالم كفايته من الدنيا. لم تكن أجمل من عرف من النساء، ولا أكثرهن فتنة كامرأة. ومع ذلك فهو لم يعرف في حياته متعة في ممارسة الحب كالتي عرفها مع سمية. كان هو الذي طالما عذبته قسوة جسده، ينسى تلك المتعة تماما في كثير من الأحيان. طوال حياتهما معا لم تكن سمية زوجته فقط. فأي شيء كان ذلك الحب؟ كان يشتهيها ويشفق عليها ويريد أن يحميها من الدنيا ويريدها هي أن تحميه في حضنها وأن ترعاه هو الكهل كطفل. فإن جاء التقاء الجسدين فكأنما هو استمرار لذلك كله. كان الحب معها امتلاء ورحمة.

- سأل الباشكاتب نفسه وهو يشعر بلذعة البرد فوق السطح فلماذا إذن وقد عرف الحب الحقيقي لم ينقذه ذلك الحب حتى نهاية الرحلة؟.

وأين يعثر على إجابة للأسئلة التي عذبته من مطلع العمر؟.

نهض توفيق ورفع رأسه للسماء، التي ازدحمت بالنجوم وكرر لنفسه:

- هانت!.

(٥)

استعصى النوم على الباشكاتب في تلك الليلة ، بقى في غرفته بسبب البرد ولازمته في فراشه الافكار التى طالما حاول أن يهرب منها، ومع ذلك فقد كان يعرف، بل كان واثقا فى قرارة نفسه أن ذلك الهم لن يستمر معه سوى يومين أو ثلاثة ثم يرجع بعدها إلى طبيعته. اكتشف منذ زمن طويل أن الإنسان مهما يصادف في الدنيا من مشكلات أو حتى من مآس فهو لايستطيع أن يكون غير نفسه، لم يصدق أبدا أن أحدا يمكن أن يتغير تغييرا حقيقيا، لاهو نفسه ولا غيره، سيبقى سالم هو سالم بصمته الطويل ونوبات الهياج التى تأتيه بين الحين والحين، وسيبقى شعبان ذلك الكائن الصمت الذى لايفهمه أبدا ولايعرف مايدور في رأسه، وستبقى فوزية على حنانها وحبها للضحك أيا كان مايحدث لها في الحياة. سمع هذه السنة أن جارهم الأسطى حميد الكهربائي العجوز قد هده الحزن بعد أن ماتت زوجته، وأن جارتهم الست إنصاف قد لزمت البيت لاتكف عن البكاء منذ أصاب شلل نصفي زوجها الحاج إبراهيم المنجد، لكنه كان واثقا فى قرارة نفسه أن المحنة لن تغير أيا منهما، وطلب من الله أن يسامحه على ظنه، وبالفعل فإنه بعد أسابيع من مرض زوجها رجعت الست إنصاف تساوم الباعة الجائلين كعادتها وتتشاجر معهم بصوتها العالي من شرفتها في الطابق الثاني دون أن يردعها الحزن، ورجعت إلى هواياتها الأخرى التى يعرفها تماما، تدق الباب في الظهيرة فى حضور فوزية لتشرب معها القهوة وتنقل لها أخبار السكان، ثم تحاول رغم مراوغات حفيدته أن تعرف أيضا مايدور فى بيت الباشكاتب، رجعت كذلك إلى هواياتها الأغرب، إذ لم تكن تخرج أبدا خاوية اليدين، بل تطلب من فوزية ومن غيرها من الجارات وتجمع - حتى من الشارع - كل الأشياء القديمة التى لاتنفع

منها: الثياب المهترئة، والأحذية الممزقة الجلود والنعال، والصناديق الورقية والزجاجات الصغيرة الفارغة، وتفضّل بصفة خاصة الأشياء المعدنية : الأقفال والمزاليج الصدئة، عدد مواقد الكيروسين التالفة، مقابض الأبواب المكسورة.. إلخ، ويعرف الجميع أنها تخزن هذه الأشياء في «السحارة» الخشبية الضخمة التى تشغل كل مساحة شرفتها، ظل يعتقد لفترة طويلة أنها تستفيد بشكل ما من هذه الأشياء القديمة، ولكنها بعد إصابة زوجها بالشلل استدعت بائع الروبابيكيا لتبيع بعض مقتنياتها، فقال البائع إن الشيء الوحيد الذى يصلح للشراء من هذه النفايات هو (السحارة) نفسها ونزل متبوعا بشتائم الست إنصاف حتى الدرجة الأخيرة من السلم ثم لاحقته بسبابها من الشرفة إلى أن اختفى بعربته عن الأنظار. ومنذ ذلك اليوم طلبت من أبوزيد البواب أن يعطيها الإيصال فى أول كل شهر دون أن يأخذ منها الإيجار، قال إنه سيحصله بنفسه من الحاج إبراهيم بعد أن يقوم بالسلامة، شكرته الست إنصاف ودعت له كثيرا وطويلا ولكنها ظلت تدق الباب فى الظهيرة ولاتخرج أبدا إلا وفي يدها شيء .

انتبه منذ مدة طويلة إلى أنه كلما كانت العادات غريبة وغير مفهومة استحال التخلص منها، واعتقد لفترة أنه أخطأ في الحكم على جاره الأسطى حميد الوحيد من السكان الذى يقاربه في السن. ظل الكهربائي بالفعل مهموما ومهدما بعد وفاة زوجته، كان يمشي في جنازتها وهو يسنده بيده من ناحية وجار آخر يسنده من الناحية الأخرى، وهما يحملانه تقريبا بينما يجرجر بالكاد قدميه، واعتكف في بيته أسابيع طويلة بعدها، واعتاد أن يقضي معه أمسيات كثيرة يحثه على الرجوع إلى عمله والتسليم بقضاء الله، وعندما فتح الكهربائي دكانه أخيرا رجع بعد قليل مثلما كان من قبل بالضبط، يستوقفه على السلم حين يلقاه ليهمس في أذنه بآخر النكات المكشوفة التى ظل الأسطى حميد عمره كله يحب الاستماع إليها وروايتها

وهو يضحك من قلبه فى الحالتين. لم يدهشه ذلك كثيرا ولم يدهشه أيضا أن الكهربائى لم يغير عادته الغريبة الأخرى، إذ ظل دائما آخر من يدفع الإيجار من السكان بعد أن ينقضى من الشهر معظمه، يقول للبواب حين يحمل له الإيصال أن ينتظر بضعة أيام إلى أن يفرجها ربنا. ويشكوه أبوزيد الذى لم يعد يستطيع احتمال صعود السلم ونزوله، كان البواب قد فقد أسنانه كلها وأصبح يتكلم لغة غريبة لايفهم منها غير عبارة «الأشطى حمى». فيقول له ألا يطالبه مرة أخرى لأنه سيدفع من تلقاء نفسه حين يريد. كان يعرف أن حميد لايعانى أى مشكلة مالية، بل ويثق أنه ليس بخيلا. فهو يتطوع دائما فى المناسبات بتركيب الزينات الكهربائية فى البيت على حسابه ويصلح الأعطال لجيرانه بالمجان. ولكنه لسبب ما يكره أن يخرج نقودا من جيبه ويرجئ ذلك مادام يستطيع ، ولم تغير مأساته شيئا من ذلك.

نعم، هو يعرف حدود أحزان البشر، ويعرف أن هذا من رحمة الله بعباده، ولكنه يفهم أيضا معنى ذلك، لا أحد يتغير بسبب الحزن، وأقل من ذلك بكثير بسبب شجار مع ولده أو نقاش مع حفيده أو ذكريات من أيامه التى مضت.

لماذا يريد أن يكون هو الاستثناء؟. ستنتهى هذه الحالة بعد يومين أو ثلاثة أيام.

مع ذلك قضى الباشكاتب معظم ليلته مؤرقا، تزوره وجوه أحبائه الذين رحلوا حين تغفل عينه، ثم صحا مجهدا على غير عادته فى الصباح، لكن أحزانه لم تطل حتى يومين أو ثلاثة كما تنبأ لنفسه.

نفى الصباح كان يتلقى فوزية فى أحضانه وكانا يضحكان معا، بدأت تظهر عليها أعراض الحمل وكانت تدخل البيت لاهثة من طلوع السلم وهى تضحك واضعة يدها على بطنها وتسأل: لماذا اخترت الدور الثالث ياجدى؟ ومتى تركب مصعدا للبيت؟ لسنا جميعا شبابا مثلك!.

وكانت تعرف أنه طلب مستحيل فى بيت لايكاد يتبقى من إيجار مساكنه شئ

بعد دفع العوائد وإنارة السلم ومرتب البواب، لكنها كانت ترغم جدها على الاعتذار وهو يحتضنها ويسندها إلى أقرب مقعد فى الصالة.

اعتادت أن تأتى أكثر من مرة فى الأسبوع خلال النهار، ترتب غرفة جدها وتختلى به قليلا، تحدد للشغالة أصناف الطعام التى تطبخها، وتجلس مع سالم كثيرا إن كان فى البيت لتتحدث معه عن أحواله وعن دراسته، تحاول أيضا أن تذيب نفوره من فراج الذى حدسته منذ البدء، لم يقل لها سالم أى شئ، بعد احتجاجه الأول على خطبتها ولكن صمته كان يصبح أعمق وأطول عندما تأتى بصحبة زوجها، بل بدأ بعد الزواج يتباعد عنها كأنه يعاقبها، وحاولت فوزية كثيرا، غمرته بحبها واهتمامها أكثر مما كانت تفعل من قبل واعتادت أن تقضى معه أوقاتا طويلة دون أن تعتذر له، كما كانت تفعل مع جدها، بأنها يجب أن تنصرف لتنجز الأعمال فى بيتها.

ولم تكن تتكلف هذا كله إذ كان حبها لأخيها كبيرا، اعتادت ألا تشير كثيرا إلى فراج أمام سالم فى بداية زواجها، وبدأت بعد فترة تقول بشكل عابر إنها تعتقد أن عرق (العبط) الموجود فيها يرجع إلى أن أمها وجدتها فلاحتان، وقالت إن فراج أيضا (عبيط) مثلها يصدق كل مايسمع، بنى مستقبله كله على كلمة سمعها عن أنه سيسافر إلى بعثة، ولما انتهى أمر هذه البعثة جاءت فى رأسه فكرة الدراسة ليحصل على شهادة عالية فيزيد مرتبه، لوحت بيديها أمام أخيها وهى تضحك «وحلنى ياسيدى»، وقالت إنها تعتقد أن من أسباب عبطه أنه عندما كان طالبا فى الجامعة أدخلوه فى معهد اسمه المعهد الاشتراكى وهناك علموه أن كل الأمور (تمام) وهو مازال يصدق هذا الكلام، تصور! يقضى فى عمله ساعات أكثر من زملائه لكى «يزيد الإنتاج» ولكن سواء، زاد إنتاج المصنع أو قل فسيظل مرتبه كما هو لايزيد ولاينقص أليس كذلك ياسالم ؟ فلماذا لايفعل مثل زملائه العقلاء؟.

لماذا يهلك نفسه في العمل؟، ولماذا يصمم على أن يخصم من مرتبه الصغير كل شهر ليرد إلى جدها أقساط دين لم يطالبه به؟، بذمتك هل يفعل هذا أحد سوى العبط؟.

كانت مقاومة سالم أعمق بكثير من كل محاولات فوزية، ولكنه أراد أن يرضي أخته فحاول أن يقترب قليلا من فراج، وعندما كان يرى سعادتها وهو يرحب بزوجها قليلا أو يتبادل معه الحديث أو يشاركه الضحك كان يرجع إلى صمته على الفور، وفهمت فوزية ذلك أيضا فبدأت تتجاهل وجودهما معا، ثم إنها منذ بدأ الحمل انشغلت عنهما.

وساعدت ظروف سالم في تلك الأيام فوزية، كان مستغرقا تماما في دراسته واستعداده للثانوية العامة، اختار أولا قسم الرياضة بناء على نصيحة أستاذه الذي رأى مستقبله في كلية الهندسة ولكن عندما رأى في وجه جده الحزن وخيبة الأمل عدل اختياره ودخل القسم الأدبي، ولم يكن الباشكاتب قد قال شيئا قط عندما علم باختياره قسم الرياضة غير أنه احتضنه في فرح بعد أن غير اختياره، قال إنه واثق - ويكاد يقسم - أن سالم سيصبح وكيلا للنيابة وربما قاضيا!، كان يثق في ذكاء حفيده وفي نبوءة سمعها من أبوخطوة وإن لم يدرك معناها تماما، ومع ذلك أصر على أن يستعين سالم بمدرسين خصوصيين في التاريخ والجغرافيا واللغة الإنجليزية، وأشرف بنفسه بهمة مضاعفة على مقرر اللغة العربية.

ولكن كيف إذن حدث الخصام في تلك الأيام الحاسمة؟، وفي عز المذاكرة؟.

فبينما كان الباشكاتب يتابع سالم ولايكف عن تشجيعه ليكون منذ البدء من الأوائل في كلية الحقوق، غضب على حفيده فجأة غضبا شديدا دون سبب واضح، كان في العادة سريع الصفح إذا ما أساء سالم التصرف، لايشير بكلمة واحدة إلى ما يسمعه من إساءة له أو لغيره في نوبات الهذيان التي تصيب حفيده، أما

في هذه المرة فلم تحدث نوبة من هذا النوع، ولم يستطع سالم أن يعرف سر تحول جده الذي ظل أياما يكلمه بطريقة جافة وفي الأمور المهمة وحدها وامتنع عن الصعود معه إلى السطح وعن دخول غرفته، حاول مرات عديدة أن يسترضي جده وأن يستوضح سبب غضبته فلم يفلح أبدا.

لجأ سالم إلى أبيه وهو في غاية الحزن، وكانت تلك إحدى المرات النادرة التي تحدث فيها مع أبيه عن جده أو عن أي موضوع آخر، غير أن شعبان قال لابنه بلهجة تأنيب صارمة:

- أنت أغضبت حضرة الباشكاتب فقبل يده ورأسه حتى يرضى عنك، لن تنجح في الشهادة مالم يرض عنك.

لكن سالم اكتشف أن حال أبيه كحاله وأنه لايعرف أي شيء عن سبب انقلاب جده المفاجيء، وعندما حاول مع ذلك أن يعمل بالنصيحة، لم يسمح له الباشكاتب أن يلمس يده ناهيك عن أن يقبلها، نظر نحو حفيده في غضب وهو يتقدم منه مادا يده فتراجع سالم على الفور.

فوزية وحدها هي التي استطاعت فيما يبدو أن تفعل شيئا لمساعدة سالم في تلك الأيام الصعبة، ففي أول زيارة لها بعد ذلك الخصام الكئيب حكى لها شقيقها عما يجري ففكرت لحظة ثم قالت بابتسامة:

- هل حدثته مثلا عن خروجه يوم الخميس؟، هل سألته أين يذهب؟.

- لا بالطبع، ماشأني بذلك؟.

- فهل تعرف أنت إذن أين يذهب؟، هل تابعته مرة؟.

- أنت مجنونة يا فوزية؟ كيف يمكن أن أتجسس على جدي؟.

- أنا مستعدة أن أتجسس لو استطعت! أدفع نصف عمري وأعرف أين يذهب يوم الخميس!.

ثم أضافت وهي تضحك: ماذا يفعل جدنا المكار؟.

قال سالم نافد الصبر: يافوزية ليس هذا هو موضوعنا، هو حر يفعل مايشاء، ولكن لماذا..

فجأة أسكتته فوزية بحركة من يدها، وبدا أن فكرة طرأت على بالها، ثم انطلقت في ضحكة عالية وقالت: فهمت! أظن أن جدك يعتقد أنك تسرق المجلات من الأدراج، لايمكن أن يكون هناك سبب آخر.

سأل سالم في حيرة : أية مجلات؟.

فقالت وهي تنظر في عيني شقيقها مباشرة وابتسامة عابثة على شفتيها:

ـ ال م ج ل ااا ت! الصور!.

لم يفهم أيضا فظلت تنظر إليه من أعلى إلى أسفل، ثم حدجته بنظرة فيها شيء من الإشفاق وهي تقول:

ـ معقول أنك لاتعرف ياسالم؟، مع كل هذا الطول والعرض؟.هل هذا عبط أو استعباط؟.

قال ولهجته تشي بأنه على وشك الانفجار: عن أي شيء تتكلمين يافوزية؟ أنا لاأفهم أي شيء، مما تقولين. أي مجلات؟ أنا لا أفكر في أن أمد يدي على أوراق جدي.

فرفعت فوزية يدها مرة أخرى تسكت أخاها وقالت:

ـ إنس. سأتكلم أنا مع جدي وسأعرف منه كل شيء، لاتقلق، من لجدك غيرك في هذا البيت؟، لو صبرت قليلا لن يستمر هذا الخصام.

ثم انصرف عنه إلى جدها المعتكف في غرفته، ولايعرف سالم ماالذي فعلته فوزية أو ما الذي قالته لجدها، ولكن في عصر ذلك اليوم حدث شيئان: صمم الباشكاتب على طرد الشغالة الجديدة، وهش في وجه حفيده من جديد وهو يسأله:

ـ هل اشتريت الترمس؟.

ثم إنهما رجعا صاحبين.

(٦)

عندما كان الباشكاتب ينزل السلم يوم الخميس طرأ على ذهنه أنه بعد أيام سيبلغ الخامسة والسبعين، لم يتعود أن يحتفل بعيد ميلاده ولاحتى أن يذكره إلا بعد أن ينقضي بمدة، غير أنه توقف لحظة عندما تذكر وقال لنفسه:

ـ ها أنذا أبلغ الخامسة والسبعين ومازلت مبتلى بالصحة والعافية!، ولدت في أول سنة من القرن فهل سيكتب على أن أحمله على كتفي حتى نهايته؟.

بدأ ينزل الدرجات بطيئا على غير عادته، تمنى لو يقابل أحدا من الجيران ليقف معه قليلا ويتحدث إليه، ولكن في ذلك الوقت من النهار يكون الكبار في أعمالهم والصغار في مدارسهم، كان هناك الصمت الذي يقلقه ويحاول أن يهرب منه دائما، صمت يغلف السلم والعمارة كلها، ثقيلا وسميكا يوحي بالفراغ والوحشة، يؤكده وقع خطواته وإيقاع عصاه.

توقف على بسطة السلم وحدث نفسه مرة أخرى : صمت أثقل من ذلك سيجيء عما قريب، فكيف ستواجهه؟ لا ياسيدي، لاتخدع نفسك ، لانهاية القرن وربما حتى ولانهاية العام.

أسرعت خطواته على الدرج الخالي كأن هناك من يطارده، وتنفس بعمق حين خرج إلى الطريق المزدحم، اتجه كالعادة نحو محطة (الأتوبيس)، لكنه حاد فجأة عن طريقه وجلس على مقهى كان يتردد عليه من قبل في بعض الأحيان. جلس يطل على ميدان السيدة زينب الواسع، يغزو سمعه صليل عربات الترام المتتابعة ونداءات باعة السبح والبخور، وباعة الفاكهة الجائلين وصيحة مجذوب الست الطاهرة الملتحي الذي يلبس فوق الجلباب سترة صفراء، ويصيح أمام بابها «مدااااد» وهو يلوح بعصاه الطويلة، وأشعرته هذه الضجة المألوفة بالطمأنينة، ركز

بصره على قبة المسجد البيضاوية، وقال لنفسه إنه ملزم الآن أن يفكر في مصيره بطريقة أخرى.

في الدقائق الخمس الأخيرة قبل جمع الأوراق تذكر أبو خطوة وزيارته الأخيرة له قبل خمسة عشر عاما، هو واثق أنه لو أجهد ذهنه ليفهم معنى ماحدث في هذه الزيارة فسيجد حلا لكل مايؤرقه، لكن في تلك اللحظة جاء جرسون المقهى العجوز الذي «بيبريش» بجفنيه ورحب به بحرارة وهو يهتف: عاش من شافك ياحضرة الباشكاتب! ثم أضاف بلهجة تمثيلية: «أين أنت وأين أيامك الحلوة؟ شابت الرؤوس وأصبحنا عجوزين».

تغلبت على الباشكاتب طبيعته: أنت الذي أصبحت عجوزا وحدك ياجابر، أنا كالحصان.هذا ليس شيبا، هذه صبغة.

انصرف الجرسون ضاحكا ليحضر له القهوة التي طلبها وعاد الباشكاتب يفكر: نعم، هو لم يكذب، مازال بالفعل كالحصان ولكن حتى متى؟

وكيف انقضت سنوات عمره الطويلة دون أن يشعر بالزمن؟ لو كان أبوخطوة حيا لسافر إليه مرة أخرى ليسأله عن المغزى، بل لسافر إليه ليعاتبه لأنه لم يدله مباشرة على الطريق بدلا من أن يتركه سادرا فيما هو فيه بكلام غامض عن الحب وعن الندم وعن الحياء، الذي هو باب لباب آخر.

لم تفده كثيرا أيضا تلك الكتب التي أعطاها له أبوخطوة لكي يقرأها، لم تكن كتبا دينية بالضبط، بل كتبا عن سير الصالحين وطرائق السالكين، أحب قراءتها كثيرا كما كان يحب في شبابه قراءة الشعر، وجد فيها كلاما جميلا مازال يذكره، بل مازال يحفظه: «سوابق الهمم لاتخرق أسوار القدر» و«رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده» و«إن قل ماتفرح به قل ماتحزن عليه».

فكر وهو يبتسم لنفسه: هو يحفظ هذه العبارات لأنها تلخص حالته

بالضبط!لا، ليس تماما، فهو في الواقع طمع في الفرح الكثير، لا، ليكن صريحا هو مازال حتى الآن يطمع، ربما لهذا أتته الأحزان الكبيرة منذ فقد سمية.

جاء الجرسون بالقهوة وقال بلهجته الاستعراضية وهو يصبها أمامه في الفنجان:

- ها أنت ذا ترى ياحضرة الباشكاتب، جابر أيضا ليس عجوزا ، لم أنس طوال هذه المدة قهوتك، هاهي ذي : «على الريحة».

ابتسم الباشكاتب بالرغم منه وهو يقول: فضحت نفسك ياجابر! أنا أشربها طول عمري (زيادة).

أراد جابر أن يرفع الفنجان معتذرا: غبت عنا أطول من اللازم ياأستاذ.

لكن الباشكاتب أزاح يده قائلا: اتركه، زيادة أو ناقص كلها سموم، لا تفرق.

قل لي ياجابر كيف حال زبائنك؟.

- انتهوا يا أستاذ، الدنيا تغيرت والزبائن تغيروا.

- حقا؟ قل لي كيف يتغير الناس، أحب أن أعرف.

قال بانفعال وهو يضرب كفا على كف: يتغيرون بسرعة! الزبائن القدامى اختفوا، يأتيني الآن في المساء شباب وعواجيز لايتحدثون إلا عن السفر إلى بيروت وتمرير البضاعة من الجمرك وتغيير الدولارات، حتى زبائن زمان المحترمون مثل حضرتك بعضهم الآن يا أستاذ يشتغلون تجار شنطة، (يسبسبون) شعورهم ويلبسون نظارات سوداء في عز الليل ولا أعرف لماذا؟، والكل الآن يشتري أرضا ويبني بيوتا، متر الأرض الذي كان بسعر التراب في حواري السيدة أصبح الآن يباع بالشيء الفلاني.

لم تكن هذه الأخبار تهم الباشكاتب في شيء، فقال وهو يأخذ رشفة من فنجان قهوته:

- ذكرتني ياجابر فشكرا لك، جاءني خطاب قبل أيام من تنظيم الحي بأن

هناك شرخا في جانب البيت.

سأل جابر بلهفة وجفناه (بيرفشان) بسرعة أكبر: ستهدم البيت يا أستاذ؟.

رد الباشكاتب في دهشة:

ـ لماذا أهدمه ياجابر؟، سأرممه طبعا.

فتكلم بلهجة المشفق على زبونه القديم:

ـ غيرك يا أستاذ يدفع أموالا ليحصل على هذا الخطاب!، كل الملاك يتمنون الآن هدم بيوت الإيجار القديم لكي يبنوا عمارات للتمليك.

هز الباشكاتب رأسه دون اكتراث وسكت لكي يفهم جابر أنه لايريد مواصلة الحديث، ولكن جابر ظل متكئا إلى جواره وأخيرا تنحنح وقال وهو يشيح بوجهه قليلا:

ـ قل لي ياحضرة الباشكاتب، بالأمس أخبرني أحد الزبائن أن الحكومة تسمح الآن بتغيير الدولارات في السوق السوداء، فهل هذا صحيح؟ الزبون يريد أن أعمل معه في تغيير الدولارات ويعطيني عمولة لكني خائف.

ـ معك حق ياجابر، تغيير العملات خارج البنوك جريمة عقوبتها السجن.

ـ ياساتر يارب، الله الغني.

ولكن عندما انصرف جابر متظاهرا بالذعر تساءل الباشكاتب إن كان يسأله النصيحة بالفعل أم يعرض عليه الدولارات؟ لم يتغير جابر، من قبل كان يعرض على زبائنه القائف (الكيف) في ورق (السيلوفان)، لعله مازال يفعل ولعله الآن يجمع بين الحسنيين، ماله هو وذاك ؟، المهم الآن أن يتغير هو نفسه لو استطاع.

ابتسم حين تذكر عبارة أبو خطوة المهم ألا تيأس من الاستقامة إن وقع منك ذنب فقد يكون هو آخر ذنب كتب عليك، إن يئست يا توفيق أفندي كنت كشخص سقط من فوق فرس، فإن ظل ساقطا على الأرض فاته بلوغ مقصده وإن جاهد

ليركب فرسه من جديد وصل إلى غايته.

ولكن كم مرة عاود هو امتطاء الفرس دون أن يصل إلى أي مكان.

أزاح فنجان القهوة من أمامه في شيء من الضيق وهو يزفر: لماذا يظلم نفسه؟ هو ليس إنسانا سيئا إلى هذا الحد. أكد لنفسه: أنا لم أؤذ إنسانا في حياتي، أحببت الناس جميعا، ولم يعرف البغض طريقه إلى قلبي ضد إنسان حتى ولو أساء إليّ.

وبعد أن ماتت سمية ألم أبق وافيا لذكراها عشرات السنين؟ نسيت هذا الجسد الذي ابتلاني به الله وكرست حياتي لولدي ولولديه من بعده، حتى عندما زرت أبوخطوة آخر مرة لم يكن هذا من أجل نفسي، بل من أجل شعبان. ومرة أخرى حيرني الرجل الطيب بما قال وبما فعل.

ولكن ربما تكون تلك هي اللحظة التي سيكتشف كل شيء، ربما تكون هي لحظة النداء، فليحاول الآن استعادة كل شيء، كلمة كلمة، خطوة خطوة، كان قد أصبح عجوزا جدا عندما زرته، كنت أنا نفسي قد خرجت إلى المعاش وخرج هو قبلي بكثير لكني وجدته مع ذلك في مكتبه القديم نفسه، تعللوا في المحكمة بأعذار دائمة للإبقاء عليه في الخدمة، «للاستفادة من خبرته»، حتى ولو لم يفعل شيئا على الإطلاق، أرادوا فقط أن يظل معهم ليشعروا بأن (البركة) باقية في المكان، احتضنني حين رآني وقال: كنت أعرف أنه لن تفوتك المناسبة، وأنك ستلبي الدعوة!، لم أفهم معنى ذلك في حينها ولكني اختليت به وحدثته عن شعبان، إنني استخرت الله وأعدت فتح محل جده لكن أحواله في العمل ليست على مايرام، قلت إني جئت ألتمس النصح والدعاء، استمع إلي بانتباه وحين انتهيت سألني باهتمام: «ما اسم حفيدك الصغير يا أخ توفيق؟»، ثم أخرج مفكرة من جيبه وكتب فيها اسم سالم، خشيت أن يكون قد أساء الفهم فقلت له يا مولانا ولدي اسمه

شعبان وهو الذى من أجله جئت، لكنه أكمل وكأنه لم يسمعنى «أمهلنى حتى الغد يا أخى توفيق، غدا ستجد ماتطلبه حاضرا بإذن الله»، ثم غام بصره قليلا وهو يتطلع نحو السقف قبل أن يقول «معك حق يا أخى، أحيانا يكون أحفادنا أحفى بنا من أبنائنا الذين هم أصلابنا، أحيانا أيضا يكونون آباء لنا دون أن ندرى!». لم أجرؤ على مراجعته لأقول له إنى مانطقت بشىء، من ذلك كله، لكنى غمغمت «سالم صغير يامولانا، لم يدخل المدرسة بعد، أما أبوه فيحتاج حقا أن تدعو له». فرد: «ومن منا لايحتاج إلى الدعاء، وإلى رحمة ربه ياحضرة الباشكاتب؟ غير أن الطريق طويل وخطانا التى نحسبها تمضى بنا على الطريق تقودنا أحيانا إلى عكس الطريق!، سعيد من تهتدى خطاه فلا يضل، ولاتحسب ياتوفيق أن عملك أو عملى هو المنجى وإنما هى رحمة مولاك».

لابد أن يكون قد رأى فى وجهى وقتها الحزن لأنه مد يده ووضعها على كتفى كأنه يضمنى إليه ونظر إلى بحنو كما ينظر إلى طفل صغير وقال: «لا تخش شيئا ياحضرة الباشكاتب، أنت رجل صالح وستحل بك وبنسلك البركة بإذن الله».

تحاشيت من أول اللقاء أن أحدثه عن نفسى ولكنه حين تكلم عن صلاحى طفرت من عينى الدموع وقلت بصوت مختنق «أنت تقول لى ذلك وأنت أدرى الناس بحياتى؟» فرد: «ولأننى أدرى فأنا أتكلم، الأرواح وحدها هى التى تتلوث يا أخى توفيق وأنت روحك أصفى من البلور، من أدراك بحياتى أنا أو بذنوبى؟ أنا كنت أسوأ مما يمكن لخيالك أن يتصور، أتحسب أن الصالحين يولدون ملائكة؟ ألم تعلم أنه كـان منهم الغوانى واللصـوص؟». قلت : «ولكنهم تابوا فى الوقت الصالح فأصبحوا من الصالحين، أما أنا كما ترى فقد مرت بى السنون وصرت شيخا أشيب». فقال: «لاييأس من الوقت إلا من يجهل أن الرحمة تسبق الوقت ولايسبقها الوقت، وأنت كابدت وستكابد أكثر فادع لى يا أخى توفيق!». وحين قال ذلك نظر

نحوى بعينين مغرورقتين بالدمع ثم رفع يدى فقبلها، هو الذى كان يأبى على الآخرين أن يقبلوا يده ويزجرهم إن حاولوا ذلك، سألته فى ذهول وسط دموعى «أنت تفعل ذلك، وأنا الذي أدعو لك يامولانا؟».

فهز رأسه وقال بصوت خافت: نعم، فكم أحتاج إلى دعائك.

ليلتها لم أكد أعرف النوم فى غرفة الفندق الصغير فى أسيوط، أتتنى فى المنام سمية ورأيت وجهها يشبه وجه أبو خطوة أو ربما كان أبو خطوة يقف إلى جانبها وسط زحام كثير فاستيقظت من النوم وأنا أنشج وأرتجف، ثم أسبغت الوضوء، وصليت وأنا أطلب المغفرة وأدعو لأبو خطوة طويلا وكثيرا كان تنفيذ وصيته تلك سيفتح لى باب النجاة!

وفى الصباح الباكر ذهبت إلى المكتب القديم، ابتسم لى أحد السعاة وقال مولانا لايأتى فى مثل هذا الوقت المبكر.

لكن أبوخطوة أتى مبكرا فى ذلك الصباح.

احتضننى بوجه باش وهو يقول: «رأيت لك الليلة رؤيا وبشرى» فقلت «وأنا أيضا رأيتك فى المنام»، ثم سألته بلهفة: «ماهى البشرى؟»، فهز رأسه دون أن تفارق الابتسامة شفتيه وقال: «لسنا مأذونين بالبوح، ولكن هى خير»، ثم وضع يده فى جيبه وأخرج ورقة مطوية أعطاها لى وهو يقول: «هذه لحفيدك سالم ياسيد توفيق، عندما يأتى الوقت لاتدعها تفارق صدره، فلتكن دائما قرب قلبه»، أمسكت الحجاب المطوى بين يدى ورحت أقلبه وأنظر إليه فتحولت ابتسامة أبوخطوة إلى ضحكة طلقة وهو يقول: «لاتخف ياحضرة الباشكاتب!، نحن لانصنع سحرا ولانكتب تمائم ولا خرافات، هى أدعية كتبتها من قلبى وأرجو أن يقبلها الله»، فغمغمت أعرف ذلك بالطبع يامولانا ولكنى أردت أن أسأل عما طلبته منك لولدى فرد باقتضاب: «سيكون بخير بإذن الله»، سألته بإلحاح «دعوت له يامولانا أن

يبسر له الله؟». فقال: «كثيرا ياولدي، وادع له أنت أيضا دون أن تفقد الأمل، واعلم أن الأمر كما قال أشياخنا: «فقد يفتح للمرء باب الطاعة دون أن يفتح عليه بالقبول، وربما يقضي عليه بالذنب فيكون سبب الوصول».

* * *

ظل الباشكاتب في المقهى مستغرقا في التفكير، راح للمرة الألف يستعيد التفاصيل والعبارات التي حفظها ليدرك معناها، وهاهو ذا في الهزيع الأخير من العمر مازال متحيرا كما كان في البدء. قال لنفسه: أفهم بالطبع أنه حدس أن سالم سيكون في حاجة إلى المساعدة أكثر من أبيه، أما كيف حدس ذلك فلا أدري، وأفهم بالطبع أنه تنبأ لي بحسن الختام، ولكن متى ونحن الآن بالفعل في الختام؟.

ثم تساءل الباشكاتب ساخطا: ولماذا لاتفهم أنه كان يشجعك على أن تغير طريقك في الحياة؟ ألم يقل إن خطانا تقودنا أحيانا دون أن ندري إلى عكس الطريق، وأن السعيد من تهتدي خطاه؟ فما الذي يشل خطاك؟ أنت يا توفيق تعرف كل شيء، وتفهم كل شيء. إن شئت أن تبدأ اليوم فلن يمنعك أحد، وإن شئت أن تظل كما أنت فلن ينفعك مائة أبوخطوة ولو هبوا لنجدتك من القبور!. نعم، ولكن شيئا في نفسي يقول مع ذلك إن هناك رسالة خفية وراء ذلك الواضح والمفهوم، ليكن، حتى لو كان هذا صحيحا فهو ليس عذرا للإرجاء، ولا التمادي.

مرة أخرى زفر الباشكاتب وقال وهو يستعد للنهوض «هانت!».

نادى على جابر ليدفع له الحساب فقال له: بدري يا أستاذ!.

فرد الباشكاتب وهو يضحك: بل متأخر جدا ياجابر!.

ولكن جابر كان مشغولا بالبحث عن شيء في جيوبه وأخيرا أخرج بطاقة

زيارة مصفرة ومتجعدة وقدمها للباشكاتب الذي نظر إليها في دهشة وهو يسأل ما هذا ياجابر؟.

- عنوان السمسار الذي حدثتك عنه ياحضرة الباشكاتب.

- أي سمسار؟.

- إن شئت حضرتك أن تهدم البيت أو تبيعه!.

سأل في ذهول:

- أنا حدثتك ياجابر عن هدم البيت أو بيعه؟، أنا قلت لك يا إبني إني سأرممه.

فقال وهو مازال يضع البطاقة تحت أنف الباشكاتب:

- هو يعمل أيضا في الترميم!.

انقل حضرتك رقم تليفونه فقد تحتاج إليه.

ابتعد الباشكاتب عنه وهو يقول: إن احتجت إليه فسأعود إليك، شكرا!.

ثم انصرف من المقهى وظل يقف فترة في الطريق، فكر للحظة أن يرجع إلى البيت ولكن خطاه قادته إلى محطة الأتوبيس وهو يقول لنفسه:

- تأخرنا على الهانم!.

* * *

عندما رجع الباشكاتب إلى البيت متأخرا في الليل كالعادة وجد سالم مستغرقا في الاستذكار، فجلس إلى جواره يراجع معه ما أكمل من دروس، لكن سالم قال له:

- قبل أن أنسى، فوزية كانت هنا.

- في الليل؟ هل كانت تريد شيئا؟.

- نعم، قالت كلاما غريبا، سألت إن كان من الممكن أن نبني مكان (الجنينة)

بعض الدكاكين ونؤجرها بالإيجارات الجديدة.

هب الجد واقفا وهو يهتف:

ـ بدأنا!.

ومضى سالم يقول:

ـ لا أظن أن هذه الفكرة السخيفة من عندها، أعتقد أن هذه من أفكار الأستاذ فراج!.

لكن جده كان يفكر في شيء آخر، فقال بصوت أكثر خفوتا:

ـ أو ربما نكون انتهينا!.

(٧)

عرف سالم البنات لأول مرة وهو في السنة الثانية الثانوية. كان يقف عند سور السطح وفي يده كتاب يذاكر فيه بعد زواج فوزية وانتقالها من البيت فرأى بنتا من الجيران تتلكأ فوق السطح المقابل وتتطلع نحوه بين فترة وأخرى وعلى شفتيها شبح ابتسامة. حوّل بصره على الفور وانهمك في كتابه، وعندما رأت البنت ذلك نادته باسمه بصوت خافت مرتين فالتفت نحوها. ابتسمت ابتسامة كبيرة وهي تستخدم يديها لغة الإشارات وأعطته موعدا.

كانت ثريا تلميذة أيضا في مدرسة السنية. انتظرها بعد خروجها من المدرسة وسارا معا يحملان حقائب الكتب الثقيلة. انتبه إلى أنها أقصر منه بكثير وإلى أن هناك (نمشا) في وجهها. سارا معا صامتين وأخيرا انفجرت هي بالضحك وقالت «أنت مكسوف؟». فازداد ارتباكه ولم يقل شيئا. بدأت تسأله أسئلة «هل يتابع مسلسل محمد صبحي في التليفزيون؟». «هل يذكر أنها سلمت عليه يوم فرح فوزية؟». «هل ينوي أن يدخل القسم العلمي؟».

وعن كل تلك الأسئلة كان سالم يجيب بنعم أو لا دون زيادة، فبدأت هي تتكلم. قالت إنها تحب سعاد حسني جدا ورأت فيلمها الأخير أربع مرات، وتتمنى أن تنجح في الثانوية العامة بمجموع لكي تدخل كلية الإعلام وتشتغل بعد التخرج مذيعة في التليفزيون، والمشكلة أنهم في الإعلام يطلبون «مجاميع» كبيرة وهي لاتحب المذاكرة، وقالت إن أباها يملك محلا وورشة لصناعة المفاتيح والأقفال وإنه صاحب جده الباشكاتب ولكن لو رآها أبوها تمشي معه الآن فسوف يقتلها، وقالت إن لها أخا أصغر منها في الابتدائية (شقي) جدا ويتعمد إغاظتها بعمل ضجة

وصراخ أثناء مشاهدتها للمسلسل ولكن أمها تضربه لأنها هي أيضا تتابع التمثيليات.

ثم سألت سالم هل هو مغرور جدا أو أنها بصراحة لاتعجبه ولهذا لا يريد أن يتكلم؟.

فقال وهو يشعر بدوار وبساقيه تخذلانه إنه ليس مغرورا ولكنه في العادة لا يتكلم كثيرا.

قالت ثريا: لاحظت هذا يوم فرح فوزية.

ثم أضافت وهي تضحك: ومع ذلك لاتبالغ!.

لم تعرف أن معجزة هي التي جعلت سالم يذهب للقائها في الموعد، ولا شعرت بالمحنة التي يعيشها وهو يسير إلى جوارها في الطريق. كان كلامها يصل إلى سمعه مكتوما ومتقطعا كأنه يأتي من بوق بعيد، وعندما تسأله سؤالا كان الدم يصعد إلى رأسه ويجف ريقه فلا يكاد يستطيع تحريك لسانه، ولم تعرف أنه كان يحاول باستماتة أن يبحث عن كلام يرد به على كلامها فلا يجد في رأسه غير الفراغ والنبض المتلاحق. لم تدرك أن ذلك ليس غرورا ولا حتى خجلا، وإنما ببساطة أن الكلام قد هرب منه مثلما اعتاد أن يهرب عندما يلتقي بالغرباء.

وبعد أن افترقا راح يسأل نفسه في غضب لماذا؟ لماذا كان خائفا إلى هذا الحد؟ لماذا تستطيع ثريا أن تتكلم ولايستطيع هو؟ ما الذي يشل لسانه؟ لماذا يمكنه أن يتكلم مع جده ومع فوزية عن أشياء كثيرة والآن ضاعت كل الأفكار والألفاظ؟، ولماذا لم يعالجه الطبيب الذي أخذه أبوه إليه قبل سنوات؟ لكن يعالجه من ماذا؟، هو ليس مجنونا، أستاذ الرياضيات يقول إنه نابغ، يستطيع أن يحل أي مسألة أو معادلة قبل أي تلميذ آخر. فما الذي يمنعه من أن يتكلم مع ثريا؟ ولماذا كان يخاف من مقابلتها والخروج معها؟ لولا مشاجرته مع

الطالب الذي قال له إنه ليس رجلا مادام لايعرف بنات لما استجاب لموعدها من الأصل. والآن ما العمل؟.

حاول سالم من جديد. التقى مع ثريا مرتين بعد ذلك. مشيا معا على شاطئ النيل ناحية قصر العيني. رأى سالم أزواجا كثيرة من الأولاد والبنات في ذلك المكان الذي تحجب الأشجار نور مصابيحه المطلية باللون الأزرق منذ أيام الحرب. كان المحبون يشعرون هناك بالأمن فيمسك الأولاد بأيادي البنات ويتهامسون. لايرتفع أي صوت وإن لم ينقطع الهمس. ولكن سالم ظل صامتا وهو يستمع إلى حكايات ثريا. كان قد أعد كلاما يقوله لها لكنه عندما فتش عنه في رأسه لم يجده. حاول أن يسترق السمع ليعرف عن أي شيء يتكلم الشبان إلى صاحباتهم ووجد ذلك صعبا فهو بعيد لم يكن يسمع غير ضحكات خافتة وكلمات متفرقة ليس فيها شيء من الغزل الذي توقعه: «قلت لابن خالتها».. «لكن أنا رفضت».. «نجمع العنب في فرنسا في الإجازة».. «بعد سنة التجنيد».. الخ.. وإذا ما اقترب سالم أو ثريا أكثر من اللازم كانوا يبترون أحاديثهم وينظرون نحوه صامتين إلى أن يبتعد.

في المرة الثانية حكت له ثريا بانفعال أنها من يومين وجدت قطة وليدة أمام البيت لونها مشمشي وكانت تموء وتكاد تموت لأن أمها تركتها. قالت إنها أحبت القطة جدا وأخذتها وتعتقد أن القطة أيضا أحبتها لأنها ترفض أن تشرب اللبن إلا إذا قدمته لها ثريا بنفسها. ثم سألته: ما الاسم الذي يفضله للقطة: مشمشة أو فافي؟.

فافي.

قالت في غضب: وخلاص؟ هذا كل ماعندك؟.

ثم طلبت في نفاد صبر وبما يشبه الأمر: إحك أنت حكاية!..

كما لو كان يقتطع من لحمه الحي حكى لها بإيجاز شديد حكاية أبوخطوة وزميل جده الذي اختفى فنجان القهوة من أمامه، كان يريدها أن تضحك مثلما ضحك هو عندما سمعها، لكن ثريا ظلت تتابعه بنظرة ثابتة ولما انتهى بلعت ريقها وقالت:

- إسمع! أنا أخاف من حكايات العفاريت والجن، هل تريد أن أموت من الرعب بالليل؟ ثم ضحكت فجأة وأكملت في عصبية:

- بذمتك هذا كلام تقوله لصاحبتك؟.

سألها في يأس: ماذا أقول؟.

لوحت بيدها في اتجاه الشبان الآخرين، كما يقول كل الناس!.

وكان ذلك هو اللقاء الأخير، لم تعد تظهر على الشاطئ، وعندما قابلها مرة بالمصادفة في الطريق تجاهلته، ولم يحزن سالم لذلك أبدا، بل شعر براحة كبيرة.

ولكنه عرف بعد ذلك في الإجازة التي سبقت سنة الثانوية العامة أرملة من قريبات أبيه من بعيد، طلب أبوه أن يساعدها في إنهاء أوراق لها في بعض المصالح الحكومية لأنه ليس لها رجل يقف بجانبها، كانت عنايات تكبره بخمس عشرة سنة على الأقل وكانت امرأة ذات جسد ناضج وعينين ملونتين، وكانت تقول له ضاحكة إنها عندما تنظر إلى عينيه هو تشعر كأنها تنظر إلى مرآة، أخذ أوراقها إلى مصلحة المعاشات فطلبوا أوراقا ومستندات أخرى لاحصر لها، زارها في بيتها أكثر من مرة أيام الإجازة الصيفية، وكانا يجلسان في صالون بيتها متقابلين وهي ترتدي ثيابها البيتية الخفيفة، أحيانا كانت تأتي لتجلس إلى جواره على (الكنبة) لكي تطلعه على الأوراق التي تريد تقديمها، كان جسده كله يلتهب حين تلمسه ذراعها العارية أو حين يتلامس كتفاهما ويشعر بضغط صدرها عليه. يتزحزح مبتعدا عنها وعرق غزير يقطر من جبهته، وفي لحظتها تحتبس الكلمات

أيضا في حلقه وتهرب من رأسه، يبقى كل شيء فيه مشلولا سوى قلبه الذي ينبض في عنف يكاد يسمع طنينه . في الزيارة الثالثة وهي تودعه عند الباب كان وجهها محتقنا جدا وقالت بصوت خافت متحشرج إلى حد ما:

- سأكمل الأوراق ثم اتصل بك، مع السلامة.

أغلقت الباب بشيء من العنف ولم تتصل به بعدها أبدا - ومرة أخرى شعر سالم بأنه قد نجا وعاهد نفسه على أن يتجنب أي علاقة من أي نوع مع البنات أو النساء.. وحين سأله أبوه ذات مرة عما تم بالنسبة لأوراق «الست عنايات» أجابه باقتضاب : إن موضوعها انتهى.

* * *

كان هناك على كل حال مايشغله، انهمك تماما في المذاكرة للثانوية العامة، ثم إن فوزية وضعت طفلها بعد أقل من سنة من زواجها، رجعت البنت القديمة بكل مرحها، اعتادت أن تأتي بصحبة طفلها كل يوم تقريبا بعد أن يذهب زوجها إلى عمله مبكرا جدا في الصباح، أراد فراج أن يسمي ابنه مسعد على اسم أبيه وصممت فوزية على تسميته سالم، وأخيرا أسموه في شهادة الميلاد (عاطف) ولكن فوزية تناديه باستمرار (سالم الصغير) أو سلوم.

كانت تأتي في الصباح قبل أن ينزل أخوها إلى مدرسته وأبوها إلى دكانه وهي تحمل الصغير الذي تعلق به الجميع، لم تكن قد ظهرت له أي ملامح غير شعر أسود غزير كشعر أبيه ويدين ضئيلتين مضمومتين يضرب بهما الهواء، غير أن الجميع كانوا يتناوبون حمله ويكتشفون فيه جمالا غير عادي، كانت فوزية تضن بأن تتركه طويلا مع أي منهم إذ تمد يديها بسرعة وهي تقول ضاحكة: «هاته لأمه الخايبة!، صح ياسلوم؟، أمك خايبة فإياك أن تطلع خايبا مثلها!، ذاكر ياولد وانجح واشتغل، أريد أن أراك (باشكاتب) قد الدنيا!».

ترفعه نحو جدها وتسأل: ألا يبدو ذكيا ياجدي؟ ألا ينفع (باشكاتب)؟.

فيرد جدها مبتسما: (الباشكتبة) راحت عليهم يافوزية؛ حتى لقبهم لم يعد له الآن وجود ، تمنى بدلا من ذلك أن يصبح ابنك ضابطا!.

فتحتضنه متظاهرة بالفزع وهي تقول: لاتنك ياحبيبي! جدك لايقصد.

أحيانا كان فراج يأتي أيضا مع فوزية في المساء. كان يبدو على وجهه الإرهاق من كثرة العمل، لكنه لم يفقد شيئا من عاداته، ظل يقتطع من مرتبه في أول كل شهر مبلغا صغيرا ليسدد دين الباشكاتب ، ثم اضطر للتوقف قبل ولادة فوزية وبعد إنجابها، وعد الجد بأن يعود للانتظام في السداد عندما يقبض مكافآت تشجيعية طلبها له رئيسه وينتظرها منذ مدة . قال له الباشكاتب ألا يهتم وإنه لم يطالبه بشيء، من الأصل لكن فراج ر... الدين ... وذات مرة في إحدى زياراته المسائية قال سالم بطريقة عابرة دون أن يوجهه لخطاب لأحد:

ـ تنظيم الحي رفض مشروع (الدكاكين)!.

فظل فراج ينظر إليه مبتسما وهو يسأل في دهشة: أي دكاكين؟

ـ دكاكين الجنينة!.

لم يفهم فراج أيضا وظل ينقل بصره بين سالم وشعبان وزوجته والباشكاتب ولكن فوزية نظرت إلى أخيها مقطبة الجبين وقالت بلهجة معاتبة:

ـ فراج لايعرف شيئا عن الموضوع ياسالم، هذه كانت فكرتي أنا.

وحين عرف فراج الحكاية قال بدهشة: دكاكين في هذه (الزنقة)؟ ما هو عرض الجنينة؟، متر ونصف أو متران ؟ أي بضاعة يمكن وضعها في هذه المساحة؟ وأين يقف البائع؟ على الرصيف؟.

قال شعبان: ربما يمكن أن نستعملها كمخزن.

قال أبوه في يأس: لتخزين أي شيء ياشعبان؟.

وسكت فراج لحظة وشاب صوته شيء من الحزن وهو يقول:

ـ ومع ذلك فوزية معها حق، كل الناس الآن يفكرون في طريقة تزيد من دخلهم أو في مشروع يجلب مالا، ما هذا الغلاء ياحضرة الباشكاتب؟ كيف تكفي المرتبات الناس مع هذا الغلاء؟.

ظل ينظر في حيرة إلى الجد الذي كان مستغرقا في فكرة أخرى وقال ساهما:

ـ إذن ربما يكون جابر على حق.

لم يبحث أحد عن تفسير لهذه العبارة، وقال شعبان: جاءتني فكرة، يمكن أن نضع ثلاجة مياه غازية في الحديقة يتولى البيع فيها عم أبوزيد البواب. هناك الآن كثير من الشركات الأجنبية ويقال إنها تعطي الثلاجات مجانا أو بالتقسيط.

سأل الباشكاتب: وفي هذه الحالة تصبح ثلاجتنا أم ثلاجة أبوزيد؟.

ضحك بمرارة وهو يقول:

ـ أبوزيد يمكن أن يموت وهو يفتح زجاجة!.

ثم سكت ولم يتكلم أحد.

كان سالم يشعر بالخجل من نفسه فانسحب إلى صمته، وأطرقت فوزية برأسها في حزن، وظل الباشكاتب وفراج ينظر كل منهما إلى الآخر دون أن يجد مايقوله، ولما طال الصمت راحت فوزية تنقل بصرها بينهم، كانت حزينة وغاضبة لكن شعورا أقوى من ذلك غلبها وهي تنظر نحو رجالها الغارقين في التفكير فضحكت وهي تقول:

ـ مالكم ساكتين؟ بسيطة! نبني الدكاكين فوق السطح!.

فضحكوا أيضا، ولكن بلا روح.

ترفعه نحو جدها وتسأل: ألا يبدو ذكيا ياجدي؟ ألا ينفع (باشكاتب)؟.

فيرد جدها مبتسما: (الباشكتبة) راحت عليهم يافوزية؛ حتى لقبهم لم يعد له الآن وجود . تمنى بدلا من ذلك أن يصبح ابنك ضابطا!.

فتحتضنه متظاهرة بالفزع وهى تقول: لاتنك ياحبيبي! جدك لايقصد.

أحيانا كان فراج يأتي أيضا مع فوزية في المساء. كان يبدو على وجهه الإرهاق من كثرة العمل، لكنه لم يفقد شيئا من عاداته، ظل يقتطع من مرتبه في أول كل شهر مبلغا صغيرا ليسدد دين الباشكاتب . ثم اضطر للتوقف قبل ولادة فوزية وبعد إنجابها، وعد الجد بأن يعود للانتظام في السداد عندما يقبض مكافآت تشجيعية طلبها له رئيسه وينتظرها منذ مدة . قال له الباشكاتب ألا يهتم وإنه لم يطالبه بشيء من الأصل لكن فراج رأى بأن الدين دين، وذات مرة في إحدى زياراته المسائية قال سالم بطريقة عابرة دون أن يوجه الخطاب لأحد:

ـ تنظيم الحي رفض مشروع (الدكاكين)!.

فظل فراج ينظر إليه مبتسما وهو يسأل في دهشة: أي دكاكين؟.

ـ دكاكين الجنينة!.

لم يفهم فراج أيضا وظل ينقل بصره بين سالم وشعبان وزوجته والباشكاتب ولكن فوزية نظرت إلى أخيها مقطبة الجبين وقالت بلهجة معاتبة:

ـ فراج لايعرف شيئا عن الموضوع ياسالم، هذه كانت فكرتي أنا.

وحين عرف فراج الحكاية قال بدهشة: دكاكين في هذه (الزنقة)؟ ما هو عرض الجنينة؟، متر ونصف أو متران ؟ أي بضاعة يمكن وضعها في هذه المساحة؟ وأين يقف البائع؟ على الرصيف؟.

قال شعبان: ربما يمكن أن نستعملها كمخزن.

قال أبوه في يأس: لتخزين أي شيء ياشعبان؟.

وسكت فراج لحظة وشاب صوته شيء من الحزن وهو يقول:

– ومع ذلك فوزية معها حق. كل الناس الآن يفكرون في طريقة تزيد من دخلهم أو في مشروع يجلب مالا. ما هذا الغلاء ياحضرة الباشكاتب؟. كيف تكفي المرتبات الناس مع هذا الغلاء؟.

ظل ينظر في حيرة إلى الجد الذي كان مستغرقا في فكرة أخرى وقال ساهما:

– إذن ربما يكون جابر على حق.

لم يبحث أحد عن تفسير لهذه العبارة، وقال شعبان: جاءتني فكرة، يمكن أن نضع ثلاجة مياه غازية في الجنينة، يتولى البيع فيها عم أبوزيد البواب. هناك الآن كثير من الشركات الأجنبية ويقال إنها تعطي الثلاجات مجانا أو بالتقسيط.

سأل الباشكاتب: وفي هذه الحالة تصبح ثلاجتنا أم ثلاجة أبوزيد؟.

ثم ضحك بمرارة وهو يقول:

– أبوزيد يمكن أن يموت وهو يفتح زجاجة!.

ثم سكت ولم يتكلم أحد.

كان سالم يشعر بالخجل من نفسه فانسحب إلى صمته، وأطرقت فوزية برأسها في حزن. وظل الباشكاتب وفراج ينظر كل منهما إلى الآخر دون أن يجد مايقوله. ولما طال الصمت راحت فوزية تنقل بصرها بينهم. كانت حزينة وغاضبة لكن شعورا أقوى من ذلك غلبها وهي تنظر نحو رجالها الغارقين في التفكير فضحكت وهي تقول:

– مالكم ساكتين؟ بسيطة! نبني الدكاكين فوق السطح!.

فضحكوا أيضا، ولكن بلا روح.

(٨)

بالرغم من كل شيء، فقد كانت تلك أياما سعيدة للأسرة. ملأت فوزية وسالم الصغير البيت بالحركة والضحك، وانهمك سالم الكبير في مذاكرته ولم تعاوده الحالة في تلك الأيام الحاسمة، وانشغل الباشكاتب مع حفيده يوما بيوم كما لو كان هو الذي يستعد للامتحان، فنسي أيضا كثيرا مما كان يقلقه، وكانت فرحة عمره عندما اجتاز سالم الثانوية العامة بالمجموع الذي يكفي ليحقق حلمه ويلتحق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة.

وكافأ الباشكاتب حفيده على نجاحه بإطلاعه على سر الملفات الموضوعة فوق مكتبه، شرح له أنها تضم القضايا التي حيرته أثناء عمله في المحاكم. قرأ في حياته وسمع الكثير عن أسباب الجرائم والانحرافات، قرأ عن الفقر وتفكك الأسر والأمراض النفسية والجشع والميول الإجرامية الغريزية وكثير غير ذلك، ولكن أي شيء من هذه الدوافع للجريمة كلها يجعل رجلا مشهودا له بالطيبة في الحي الذي يسكنه يقتل جارا له لأن ابنه البالغ خمس سنين من العمر تشاجر مع ابن جاره الطفل؟.

ولماذا يقدم صراف معروف بالأمانة لعشرات السنين على اختلاس خزينة الحكومة ليقضي أسبوعا في الاسكندرية يعرف أنه سيقضي بعده سنوات في السجن؟ ولماذا يقتل زوج زوجته التي عاش معها سنوات طويلة لأن طعام العشاء لم يعجبه؟.

ولماذا غير ذلك كله من التفاهات التي تضمها الملفات؟ كلها جرائم ليس لأصحابها تاريخ سابق في الإجرام ومع ذلك فهم جميعا في لحظة ما ولسبب شديد التفاهة يرتكبون الجريمة التي تضيعهم وتضيع غيرهم.

قال الباشكاتب إنه قضى عمرا طويلا يبحث عن سر تلك الأسباب التافهة للجريمة فلم يتوصل إلى شيء يطمئن إليه، تمنى لو يكتب كتابا عن هذا الموضوع ولكن الوقت متأخر وسيترك لسالم هذه المهمة بعد أن ينتهي من دراسته للقانون.

قال سالم: وسوسة الشيطان هي السبب.

فرد جده: وسوسة الشيطان وراء كل الجرائم يا سالم والشيطان يوسوس للإنسان طوال الوقت فلماذا في مثل هذه الحالات بالذات لايستجيب الناس إلا للوسوسة التافهة؟.

– فما رأيك أنت ياجدي؟.

– لو كان لي رأي لما تحيرت ولوضعت الكتاب منذ زمن طويل.

ثم بدا لسالم أن جده قد شرد قليلا وهو يقول: ما الذي يجعل خطانا تقودنا إلى عكس الطريق ونحن نعرف أنه عكس الطريق؟.

– لا أظن ياجدي أن من يرتكبون هذه الجرائم التي تتكلم عنها حضرتك يكونون بعقولهم في لحظة الجريمة.

– بالضبط لماذا إذن يغيب العقل وتسيطر التفاهة؟.

– لماذا؟.

– ستدلني أنت بعد أن تدرس.

– وهذه الكتب القديمة التي تقرؤها حضرتك والموجودة جنب الملفات ألا تساعد على فهم السبب؟.

تنهد الجد وسكت طويلا قبل أن يرد:

– هذه كتب تتحدث عن النور، لا شأن لها بظلمة النفس.

* * *

بعد أن دخل سالم الكلية، وبدأت الدراسة لم يتركه جده في حاله. ظل يسأل كل يوم عن المحاضرات التي يتلقاها، ويضيف – بفخر – إلى المعلومات النظرية

التي تعلمها حفيده خبرات عملية مستمدة من عمله في المحاكم، ويلقي عليه بعض الأسئلة الألغاز عن إجراءات المحاكمات أو عن دقائق القانون وحين يعجز سالم عن الرد يقول له:

ـ أرأيت؟ ليس كل العلم في المحاضرات ولا في الكتب.

وحين يدافع سالم عن نفسه محتجا: ولكن ياجدي أنا مازلت في أول السنة الأولى!

يرد الباشكاتب في حسم: لايهم، أنت لست كبقية الطلبة، أنت يجب أن تتفوق من أول السنة الأولى.

ولكن ذات خميس بعد أسابيع من بدء الدراسة وبعد أن رجع الجد من جولته الأسبوعية التي لايعرف حفيده عنها شيئا، دخل الباشكاتب إلى غرفة سالم وهو يراجع بعض المواد وجلس قبالته صامتا، توقع أن يسأله كعادته عن الجو المحاضرات غير أنه اكتفى هذه المرة بأن أمسك بالكتاب الذي يقرؤه سالم وألقى عليه نظرة ثم وضعه جانبا.

أحكم العباءة حول جسده وظل يتطلع نحو حفيده صامتا لفترة قبل أن يسأله بهدوء:

ـ قل لي ياولدي، أنت جميل حقا وفي عز الشباب، ألم تلفت نظرك واحدة في الحي أو في الكلية؟ أقصد ألم تحب؟.

أحنى سالم رأسه وخرج صوته مبحوحا بعد فترة وهو يقول:

ـ نعم ياجدي، أنا أحب.

ظل الباشكاتب صامتا وهو يقلب في الكتاب دون هدف، ثم رفع وجهه إلى حفيده وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

ـ هل تعرف أني رأيت ذلك في وجهك منذ مدة؟ رأيته ربما قبل أن تعرف أنت ولكني أردت أن أتأكد.

ثم قام وهو ينزع عباءته الصوفية وقال لحفيده بشيء من التردد وهو يقف عند الباب:

ـ لا أريد أن أعرف أسرارك ولكن تجنب المعصية ياسالم.

ثم خرج قبل أن يسمع ردا من حفيده الذي ظل ينظر نحو الباب المغلق شاردا وهو يتساءل: هل هذا صحيح؟ هل عرف جده قبل أن يعرف هو نفسه؟ ربما، ظل يقاوم طويلا الاعتراف بأنه يحب لبنى، كان لها في الكلية أصحاب وصاحبات وكثيرا ما رآها وسط مجموعات من الطلبة أما هو فلم يكن له في الكلية أصدقاء، قلة من الزملاء، كان يتبادل معهم التحية في المدرج وربما أسئلة عابرة عن الأساتذة والمحاضرات وتنتهي علاقته بهم عند هذا الحد، وعندما كانت بعض البنات ينظرن نحوه وفي عيونهن إعجاب ودهشة كان يبذل كل جهده ليبتعد ويختفي عن الأنظار.

لم ينس سالم أبدا تجربته مع الأطباء في صغره ولا ما كان يسمعه من همس بين أمه وجده عن حالته، وفهم إصرار الجد على أن يعلق الحجاب على صدره والأدعية التي كان يهمس بها حين يضع يده على رأسه، عرف أنه عندما تأتيه الحالة يقول أشياء سيئة ثم ينساها وأن الأفضل له أن يلزم الصمت ويتجنب الناس قدر الإمكان.

أحيانا كان يثور على نفسه، يود لو يصبح مثل بقية الأولاد من سنه.

وعندما قال له تلميذ في المدرسة إنه ليس رجلا مادام لايعرف أي بنات تشاجر مع هذا التلميذ، لكنه بكى وحيدا في البيت، وجاءت دعوة ثريا بعدها لتنقذه من إحساسه بالقهر والعجز، أراد أن يقاوم خوفه ويثبت أنه مثل غيره، ولكن حكايته مع جارته أقنعته بألا يكرر المحاولة.

ابتعد في الكلية عن لبنى بالذات، لم تكن هي أجمل البنات لكنها لفتت نظره منذ رآها.

كانت تلبس باستمرار (بلوزة) بيضاء، قصيرة الكمين و(جونلة) واسعة، تضع يدها في جيبها وتمشي وسط ممرات الكلية كما لو كانت مسرعة إلى هدف ما، لكنها تتوقف بين حين وآخر وتتلفت حولها ويبدو عليها أنها غير واثقة من وجهتها، أو تميل بنصف جسمها إلى الخلف دفعة واحدة كأنها ستعود أدراجها بالسرعة نفسها لكنها تمضي في طريقها، عندما تتكلم أيضا كانت تميل برأسها قليلا إلى جانب وتخرج الكلمات من فمها متقطعة ومترددة.

ظل سالم يراقبها من بعيد حريصا ألا تنتبه إليه، أحب عينيها العسليتين وشعرها الكستنائي المقصوص الذي يصنع دائرة حول وجهها، وتتدلى منه خصلتان صغيرتان كعلامتي استفهام بجانب الأذنين، أحب أكثر من ذلك شيئا ما في مشيتها وطريقة كلامها، لكنه كان يراها مع أصحابها وصاحباتها في الكلية يقفون في (شلل) ويتكلمون بصوت عال.

فقال سالم لنفسه هم جميعا أنجح مني مع البنات ومن المؤكد أن واحدا منهم يحبها، أراد أن يقول لجده إن تكن قد رأيت في وجهي الحب، فهل رأيت أيضا أنني لم أبح بهذا الحب؟.

* * *

مر شهران أو أكثر على بدء الدراسة دون أن يخرج سالم من وحدته.

وفي مرة في الفاصل بين محاضرتين كان يقف وحده في ركن مزدحم بمجلات الحائط التي يحررها الطلبة، كانت هناك مجلات كثيرة داخل إطارات زجاجية تنشر كلاما مع الرئيس السادات ومجلات أخرى بعضها مثبتة إلى الحائط مباشرة بدبابيس وقد تمزقت أجزاء منها وتكتب كلاما ضد الرئيس، وقف لمجرد أن يضيع الوقت في قراءة واحدة من هذه المجلات الممزقة لكن الكلام بدا له كالألغاز فهز رأسه وهو يهم بالانصراف، تذكر تحذيرات جده الصارمة، السياسة

مستنقع لا شأن الذي به، من يخوض فيه يضيع، لم يهتم الباشكاتب أبدا بالسياسة واعتاد أن يغلق الراديو أو التليفزيون عندما تبدأ نشرة الأخبار، علمه عمله في الوظيفة من صغره الحذر والتحفظ وأكدت له تطورات الأمور في البلد صواب رأيه فورث حفيده النفور من السياسة.

لكن بينما كان سالم يهم بالانصراف سمع صوتا خلفه وحين التفت وجد لبنى ومعها طالب آخر يذكر شكله تماما، كان متوسط الطول عريض الكتفين يترك شعره الأسود مهوشا وقميصه مفتوحا عند الصدر، وكانت له شفتان غليظتان مميزتان.

سمع لبنى تقول بصوت خافت صارخ: ابتعد عني يامرتضى! قلت لك أن تبتعد عني.

- يقول مرتضى في إلحاح ولكنك وعدت.

ردت بعصبية: رجعت في كلامي يا أخي، ارتحت؟.

- لا... لابد أن أعرف السبب.

قالت وصوتها يرتفع قليلا وكأنها على وشك أن تصرخ، يا أخي أنت مصيبة؟ قلت لك اتركني في حالي!.

توجه سالم نحوهما وكأنه سمع استغاثة ولم يقل غير كلمة واحدة:

- ممكن؟...

فرمقه الآخر بنظرة كارهة واستدار مبتعدا، أوشك هو أيضا أن يمضي في طريقه ولكن لبنى قالت له بلهجة ممتنة: أشكرك.

قال: وماذا فعلت؟.

ثم أكمل بشيء من التردد: أنا أعرف هذا الطالب.

سألته باستغراب: كيف تعرفه؟.

- مرة اصطدم بي عند باب المدرج فاعتذرت أنا له لكنه قال لي أن أنتبه في المرة المقبلة.

ضحكت ليلى بعصبية: نعم، هذا بالضبط هو مرتضى، تعطيه يدك فيريد أن يأخذ ذراعك.

ثم لوحت بيدها: دعنا منه رأيتك تقرأ المجلات، مارأيك في الكلام؟.

رفع سالم يده الخالية من الكتب أمام صدره كأنه يدفع تهمة وقال: أنا في السياسة صفر!.

فهزت رأسها: هذا أفضل شيء.

كانا يسيران جنبا إلى جنب بخطوات بطيئة وأراد سالم أن يسألها عن سبب شجارها مع مرتضى لكن شيئا في داخله قال له أن يسكت، كانت هي التي واصلت الحديث:

- أراك من أول السنة في المحاضرات لكني حتى الآن لا أعرف اسمك.

قال لها عن اسمه وكان هو يعرف اسمها منذ زمن طويل لكنه سأل كأنه يجهله.

ظلا يسيران معا وكانت هي التي تنقل الحديث من موضوع إلى آخر، وفجأة وجد سالم الكلمات التي كانت تحتبس في حلقه تخرج دون عناء، لا يذكر حتى عن أي شيء تكلما بعد أن تبادلا الأسماء، لكنهما ظلا يسيران جنبا إلى جنب.

تركا المحاضرة التي كانت توشك أن تبدأ وخرجا معا من الكلية كأن بينهما موعدا ، واتجها دون اتفاق نحو كلية الآداب المقابلة، وكانت على عادتها تتوقف لحظة وهما يسيران وتلتفت فجأة إلى الخلف فيفعل سالم مثلها، لكن أحدا لم يكن يتبعهما، دخلا كلية الآداب ومشيا معا في ممرات وصعدا الدرجات الحجرية وهبطا أكثر من مرة وهما يثرثران دون هدف عن الزملاء والمواصلات والأساتذة وعن أي شيء يخطر على البال، وجلسا على إفريز حجري في أحد الممرات وراحا

يكملان الحديث الذي استغرقا فيه ، يهمسان أحيانا، يضحكان كثيرا، يصمتان عندما يحملق طالب أو طالبة يجريان ليدخلا مدرجا بدأت فيه المحاضرات لكنهما لايقومان من مكانهما، عندما يحل أي صمت كانت ليلى تمد أصابعها لتعبث بخصلة الشعر المتدلية بجانب أذنها، أو تلتفت نحوه فجأة بعينيها العسليتين وهما يتكلمان فترى ارتعاشة أهدابه لحظتها ويتضرج وجهها وهي تحني رأسها على الفور، تعبث في كتبها لحظة ثم تعود لتتطلع نحو السقف تأتيهما الأصوات مكتومة ورتيبة من قاعات المحاضرات المغلقة فيشعران في عزلتهما بسلام، يهمسان وتزيد فترات الصمت، ودون أن يتعمد وضع يده على يدها وهو يحكي شيئا فسحبتها على الفور ونظرت نحوه بعتاب، ارتبك وتمتم باعتذار وهو يتزحزح مبتعدا عنها، لكنها تلفتت بعد ذلك بنظرات سريعة لليمين واليسار في الممر الخالي ثم مدت يدها وأمسكت بيده دون أن تنظر إليه ووضعتها ببطء فوق يدها كما كانت من قبل، كانت تجلس إلى جواره مشدودة كالرمح ولكنها حين وضعت يده الساخنة فوق يدها الملتهبة أسندت ظهرها للحائط وهي تتنهد بعمق، وراح هو يتحسس يدها برفق وكأن أنامله تقبل تلك اليد. غير أنهما يفزعان معا وينهضان حين يفتح باب إحدى القاعات ويخرج منه الطلاب بضجيجهم المألوف، يذهبان إلى ممرات أخرى، إلى كليات أخرى في الجامعة، تتماسك أيديهما حين يشعران بالأمان وينفصلان مسرعين حين يلوح أي شخص أو يسمعان أي صوت، تمر الساعات دون أن يدريا بالوقت وهما يتنقلان من مبنى إلى آخر في الجامعة الواسعة.

قرب الغروب قالت: ياه، نحن تأخرنا، ولكنهما ظلا يسيران تائهين حتى وصلا قرب السور الخلفي للجامعة، ووراء أحد المباني سقطت الكتب من يدها فانحنى ليلتقطها وانحنت هي في اللحظة نفسها وتلامس الجسدان وهما ينهضان معا ووجد وجهها قرب وجهه تماما متوردا بلون الشمس الغاربة فمس خدها بشفتيه

برقة وسرى ملمس بشرتها الناعمة من فمه إلى جسده كله.

ابتعدت لبنى وراحت تتطلع إلى الأمام والخلف في فزع ثم قالت: كان يمكن أن يطردونا معا لو رأوك! فقال سالم وقد عاوده الفزع أيضا: لم أقصد صدقيني. لا أعرف كيف.

لكنها لم تكن تسمعه. ضحكت ضحكة صغيرة وهي تقول: كل هذه الجرأة! فلماذا إذن ظللت من أول السنة تنظر إلي دون أن تكلمني؟ وكيف لم تفهم لماذا أنظر أنا إليك؟.

ثم فجأة طوحت بكل الكتب التي ناولها لها بامتداد ذراعها وقالت بنبرة فرحة ملعون الخوف!. ملعونة الـ... الـ..... ولم تكمل لبنى ليعرف ما الذي تلعنه لكنها جذبته من يده وقالت تعال... تعال نجمع هذه الكتب مرة أخرى.

* * *

مشى سالم دون أن يدري حتى وصل إلى البيت مبهور الأنفاس.

سأله جده في دهشة:

ـ ماذا بك. لماذا تلهث هكذا؟ كنت في الجامعة أو كنت تلعب الرياضة؟ لماذا تأخرت حتى الآن؟.

لم يرد سالم على أي من هذه الأسئلة. ألقى على جده السلام ثم دخل إلى غرفته، جلس إلى المكتب واضعا رأسه بين يديه. لم يكن يفكر في شيء.. لم يسترجع حتى لحظات النعمة التي عاشها. كان يرتجف وهو يتحسس يديه ويسأل نفسه في دهشة: هل حدث لي هذا بالفعل؟ هل كان هذا أنا؟ ولم يخرجه من الدوامة غير طرقات جده على الباب وهو يسأل في تذمر:

ـ وبعد؟ ألن نتعشى في ليلتنا هذه؟.

فتح سالم الباب وقال لجده بابتسامة:

ـ سامحني ياجدي. الليلة لا أريد.

القسم الثاني

لبنى

(١)

فتحت لبنى باب الشقة فواجهها الظلام، وعندما لمست المفتاح غمر نور النجفة الكبيرة الأثاث الثقيل الذى تكزهه فى ردهة الاستقبال الواسعة : المقاعد الذهبية ببطانتها الفضية ، والمائدة الرخامية الطويلة التى تعلوها مزهرية (الكريستال) البيضاوية الضخمة والخالية من الزهور ، ودولاب المكتبة الزجاجية الذى يضم وسط الكتب دمى وتماثيل فضية .

وقفت لحظة تتطلع إلى تلك الأشياء، وابتسمت لنفسها : ماذا كانت تنتظر ؟ أن تدخل فتجد بدلاً منها بستانا أثيريا تسبح فيه؟.

تساءلت ولم لا ؟ إن تغيرنا نحن فلماذا لا يتغير ما حولنا ؟ ولماذا يظل العالم جامدا ؟ لماذا لا يمكن أن نعديه بفرحتنا فيصبح أجمل وأرق .

اجتازت ممرا إلى يمين الردهة ووقفت أمام باب غرفة مغلقة ونادت : دادة سنية .

أتاها صوت ناعس : نعم يا لبنى ؟ ؟

فضحكت ضحكة خافتة : أنا سعيدة يا دادة ؟

فاكمل صوت الدادة الناعس : الصباح رباح يا لبنى .

ظلت واقفة للحظة ثم رجعت أدراجها فى الممر وقطعت الردهة الطويلة وذهبت إلى غرفتها فى الطرف الآخر من البيت . وقفت أمام المرآة تتطلع إلى وجهها المتضرج وكررت برزانة :

- أنا سعيدة .

ثم أغرقت فى الضحك وقالت : كيف يعبر السعداء عن فرحتهم ؟ يرقصون ؟

بدأت تدور حول نفسها أمام المرآة حتى أصابها الدوار ثم جلست على طرف سريرها وهى تلهث وهمست بصوت مسموع : وقبلة أيضا ؟ وفى الجامعة ؟ من يصدق ؟ أحكى لمن؟ من يمكن أن يسمعنى فى هذا البيت الخالى ؟ من يمكن أن يسمعنى فى هذه الدنيا؟ ولماذا تنام دادة سنية الآن ؟ .. حسن أنها نامت على كل حال . أحتاج أن أبقى وحدى . أحتاج أن أفهم . احتضنت كتفيها بذراعيها وراحت تتطلع لنفسها فى المرآة وقالت : ينسى من يحبون همومهم ؟ نسيتها بالفعل . نسيتها كأنها لم تكن .

رفعت إصبعها السبابة ووجهتها إلى نفسها فى المرآة ها أنذا الآن أكذب . هناك أشياء لا تنسى . ليكن . ولكنى بالفعل سعيدة . إذن أفتح درجاً داخل روحى وأضع فيه تلك الأشياء وأغلقه بإحكام . سأفتح ذلك الدرج ذات يوم وأخرج الأشياء . ليس الآن بالطبع . ولكن كيف كان يمكن للحب أن يجىء لو لم أكن نسيتها بالفعل ؟ كيف كنت سأجرؤ أنا . على أن أبدأه بالكلام اليوم ؟

تطور فى نفس البشع على أية حال . لولا بشاعته ما جاءت الفرصة اليوم . ثم لو لم أكن قد نسيت بالفعل فهل كان يمكن أن يغزونى من الأصل حبه : ذلك الجميل الخجول . المتباعد طوال الوقت الذى تقول البنات فى غيظ : ربما يكون شاذاً ؟

نهضت لبنى وهى تكلم نفسها : ولكنى بالفعل أريد أن أحكى . هل أوقظ دادة برغم كل شىء ؟ أذهب إلى أمى ؟

ابتسمت لبنى لنفسها . أكون محظوظة لو لم تطردنى الآن إذا ذهبت إلى بيتها دون تليفون ولا موعد !

وقفت مرة أخرى أمام المرآة ولوحت بيدها :

لا . لا داعي للمبالغة . لن تطردني . ستبتسم ابتسامة كبيرة وترفع حاجباً مستغرباً «حبيبتي ! ما الذي ذكرك بي ؟ حسبت أنك نسيتني!» هذا إن كانت لم تخرج مع زوجها إلى السينما أو إلى المسرح أو إلى عشاء في فندق من الفنادق الكبيرة التي يحبانها معاً .

ثم ما الذي يمكن أن يقوله أمها عن الحب؟ أي شيء تعرفه الدكتورة صفاء عن الحب ؟

وبابا ؟

سيرجع الدكتور العظيم متأخراً جدا ، ثم يذهب مباشرة إلى غرفته حتى لو كنت صاحية . يخشى أن أشم في فمه رائحة الويسكي ؟

كأنني لا أعرف ! كأن ما يفعله يهمني في شيء ولكن بابا حريص على أصول التربية !

اتجهت لبنى إلى مكتبتها في ركن الغرفة . أمسكت بدواوين الشعر . كانت تمسك ديوانا ثم تضعه في مكانه : عبد الصبور ونازك ونزار وشوقي وسيلفي وويتمان . يمكن أن تسألهم أيضا . لكنها ظلت تقلب صفحات الدواوين دون أن تفتح واحدا منها . شيء في داخلها قال لها إنها ليس في هذه اللحظة يمكن أن تقرأ شعراً . إنها الآن يمكن أن تكتب شعرا لو كانت تستطيعه . أعادت الدواوين إلى مكانها .

تذكرت ما حدث قبل شهور عندما دخل والدها الدكتور شوكت إلى غرفتها بعد أن نجحت في الثانوية العامة . ليلتها لم تكن تفوح منه رائحة الويسكي ولكن ، كالعادة ، رائحة عطر امرأة . وقف هو يقلب الدواوين والروايات، دون أن يكلف نفسه حتى قراءة العناوين . وقال بلهجة حازمة : نويت على كلية الآداب طبعا ؟

قررت على الفور : لا . الحقوق طبعاً .

نظر إليها بدهشة : ولكنك منذ المدرسة الابتدائية وأنت يختارونك دائما لإلقاء الشعر، وكانت درجاتك في اللغات شبه نهائية . حتى في الثانوية العامة درجاتك ..

فكررت في تصميم : الحقوق طبعاً !

لو لم يسألها ويجب بالنيابة عنها فهل كانت ستفكر في كلية الحقوق ذات يوم ؟!

ثم فكرت : ولو لم يسألها وتدخل الحقوق فهل كانت ستقابل سالم ؟ هل كانت ستعرف هذا الفرح ؟

وتساءلت وهي تتجه نحو فراشها بخطى بطيئة : وهل الحب أيضا هو كل هذا التعب ؟ هل يملأ الروح والجسد فنصبح أكبر من أن تحملنا الأقدام ؟

***

قالت لنفسها وهي تتمدد على فراشها بثيابها : وأين كان الحب في حكاية زواج أبيها وأمها ؟ تستطيع أن تفهم أنه كانت بينهما حسابات العقل . تستطيع أن تفهم لماذا تزوجت الدكتورة صفاء من الدكتور شوكت : كان منذ شبابه الطبيب النابغ، وفيما بعد ، أشهر طبيب نساء في البلد. لابد إذن أنه كانت له كثير من المعجبات من زميلات المهنة . حتى الآن مازالت له كثيرات من المعجبات من المهنة وخارج المهنة . ربما المعجبات الآن أكثر بعد أن تحرر بالطلاق! ثم إنه لا يبدى أى اهتمام بالنساء، ولا بالرجال ! هو مشغول طوال النهار والليل في عيادته وفي مستشفاه . لم تعرف له أي أصدقاء غير الأطباء الذين يعملون معه في المستشفى. ولكن هؤلاء جميعا مرؤوسون له : العلاقة تقف عند حد. أيكون هذا التباعد عن الآخرين هو الذي استهوى الدكتورة صفاء العنيدة ؟ صممت أن تفوز به ؟ وهل هذا أيضا هو ما استهواها هي في سالم؟ أنه جميل وبعيد وصعب ؟

ولكن يمكن أيضا أن تكون المسألة عكس ذلك بالضبط . يمكن أن يكون الدكتور شوكت هو الذى سعى وراء الدكتورة صفاء . كانت جميلة الجميلات . مازالت جميلة الجميلات . لو ورثت نصف جمالها ! لو ورثت تلك القامة المشوقة ، هاتين العينين السوداوين الواسعتين . هاتين الشفتين الشهيتين . تلك الشفة السفلى الممتلئة والشفة العليا البارزة بروزا طفيفا فى وسطها تماما . وهى تنطبق على الشفة السفلى . أى رجل لا يشتهى تقبيل هذا الفم المكتمل ! وتلك البشرة البيضاء الناعمة التى كانت فى طفولتها تحب أن تلمسها بيدها وخدها وأن تقبلها .

التفتت بجانب وجهها إلى المرآة . رأت وجهها . رأت عينيها العسليتين . أنفها المستقيم، بشرتها القمحية، شفتيها الممتلئتين . ليست قبيحة .

كل إنسان يقول إنها جذابة . ولكن جذابة شىء وجميلة شىء آخر ! أمها هى الجميلة حقا . وما أهمية الجمال يا مثقفة يا من قرأت كثيرا ! ألم يقل لك كل شعرائك إن الجمال فى عين الرائى ؟

هاها! فليقولوا ما يشاءون ! لو لم يكن سالم جميلا . جميلا حقا، فهل كانت ستفكر فيه، ذلك الانطوائى الذى لا يحسن أن يتكلم ؟ كم من ليال قضتها ووجهه يزاحم كل الوجوه التى تراها وكل السطور التى تقرؤها !

وهل كانت تلك القراءة ضرورية ؟ هل كان ضروريا ألا تورثها الدكتورة صفاء جمالها وأن تورثها حب القراءة ؟ وكيف استطاعت الدكتورة أن تجمع بين هذين الشيئين الغريبين، حب القراءة وفتنتها بجسدها ؟ تقضى ساعات طويلة فى التزين أمام المرآة . وساعات أطول فى التسوق واختيار ثيابها الجميلة دائما، وتأكل باستمتاع . ذواقة حقيقية . وبعد ذلك كله تقرأ الكتب فى نهم ! مازالت حتى الآن تسأل ابنتها عن آخر كتاب قرأته وتهز رأسها حين تسمع الجواب . تكون قد قرأته

من زمن ! من أين تجد الوقت لتفعل ذلك كله ؟ وكيف تزوجت من هذا البغل . أنكل صدقى؟ هو لا يطيق القراءة ولكنه يترك الدكتورة فى حالها حين تقرأ . يحب الأكل مثلها مع ذلك !

لكن لابد أن لديه مواهب أخرى غير ذلك وغير كونه ماكينة فلوس يضخها من شركاته للاستيراد والتصدير . بالطبع يحتاج هذا الجسد الجميل لمن يعتنى به! ولكن الدكتور شوكت يبدو جيداً أيضا من هذه الناحية لا تمر شهور إلا وتتغير رائحة عطر النساء فى ثيابه .

تساءلت لبنى : إذن أيكون هذا هو السبب فى أنها تركته ؟ هل كان يخونها مع غيرها ؟ هل كان ينشغل عنها كثيرا بعمله ؟ كيف ستعرف ؟ كانت صغيرة جدا عندما حدث الطلاق فى العاشرة من عمرها . تركتها أمها لأبيها دون أى شجار. دون أى ندم ؟ كيف تعرف إن كان هذا صحيحا؟ لا أحد منهما يتكلم. أبوها لا يذكر أمها أبدا . وأمها تكتفى بالتهكم حين تأتى سيرته وتسأل لبنى : كيف حال عبقرى الطب وبطلنا الوطنى ؟

تعرف بالطبع مغزى هذه العبارة : أنه كان لأبيها ماض سياسى . قضى فى شبابه شهورا فى السجن لأنه كان عضوا فى تنظيم شيوعى . ترك السياسة مبكرا بعد أن بدأ العمل يستغرق كل وقته . ولكنها تذكر قبل الطلاق مشاجرات لم تفهم معناها فى حينها . تذكر أمها وقد انقلبت سحنتها الجميلة وتشوه وجهها وهى تصرخ «فلقتنا بالإمبريالية والبروليتاريا ! لماذا لا تعالج مريضاتك مجانا يا دكتور شوكت؟ لماذا لا تفعل مثل الدكتور شفايتزر . تذهب إلى غابات أفريقيا وتريحنا؟» تذكر لبنى جيدا تلك المشاحنات بين أبيها وأمها التى كانت تتابعها وهى ترتجف . هل بدأ من أيامها الخوف الذى يلازمها حتى الآن فى كل خطوة ؟ هل بدأ الخوف عندما كانت تسمع فى فراشها أصوات شجار أبويها فيملؤها الرعب

وتضع الملاءة فوق رأسها والمخدة فوق أذنها؟ لا . هذه مبالغة . الخوف معها من زمن أبعد . الخوف رفيقها منذ وعت على الدنيا وربما من قبل أن تعي . ولكنها تذكر مع ذلك رعبها حين كانت تلك الألفاظ التي لا تفهمهـا تصل إلى سمعها : الإمبريالية .. الدكتور شفايتزر .. والبرجسية . تلك الكلمة التي كان أبوها يكررها دائما في المشاجرات بصوته الرفيع الحاد، وفي وسط تلك الألغاز كلها تسمع اسمها على لسان أبيها أو أمها . لا يهم ! الآن يمكنك أن تطمئني تماما يا دكتورة صفاء!

لم تعد لدينا في البيت إمبريالية ولا بروليتاريا! بيتنا الآن مليء بلوحات غالية وتحف غالية يشتريها بابا لأنها غالية. ربما يكون بابا الآن أغنى من أنكل صدقي والبركة في المستشفى! لم يعد لديه وقت حتى لقراءة الجرائد. يسمع الراديو في الصباح على الإفطار دون انتباه . تدهشه أخبار مرت عليها أسابيع وشهور فيسألني ياه! تيتو في المستشفى ؟ وأضحك أنا في سري: كيف أصبح جاهلا بأخبار الرفاق إلى هذا الحد ؟

في الواقع أصبح جاهلا بكل شيء ، عدا المال طبعا ، والطب ربما ، والنساء طبعا. طبعاً! ولكن لا تهتمي يا دكتورة؛ مازلت أنا هنا! لا إمبريالية ولا بروليتاريا . نحن الآن نهتف للرجل الذي كنتم تلعنونه : بابا لأنه البطل الثوري الذي أدخله السجن، وأنت لأنك سليلة المجد والشرف الدكتورة صفاء، بنت الدكتور عبد العظيم بك.

جلست لبنى ووضعت يدها في حجرها وهي تنظر في المرآة إلى وجهها المقطب وتتساءل : بالذمة هذه أفكار سعيدة؟ ألم أقل إني سعيدة؟ لماذا إذن تهرب السعادة بسرعة وتأتي هذه الأفكار ؟ لماذا أحوم دائما حول حكاية الطلاق؟ ما لي أنا الآن وبابا وماما والثورة العالمية والمحلية ؟ ألا أستطيع أن أركز على سالم وحده ؟ أن أظل سعيدة لليلة واحدة ؟

ما الذي يفعله الناس ليعيشوا السرور وينسوا أي شيء غيره؟

قالت لنفسها وهي تحول عينيها عن المرآة : هذا الدرج ليس متيناً جداً ؛ ستخرج الآن كل الأشياء التي أردت أن أدفنها فيه. أعرف أنها ستخرج . لا لأنني أهتم حقيقة لما حدث. لا لأنني أعتبره نهاية العالم، ولكن لأن الإهانة ترفض أن تزول ولأنني لا أعرف طريقة أرد بها هذه الإهانة .

غامت عيناها وشردت قليلا ثم تنهدت ورفعت رأسها تستكمل الفكرة التي سيطرت عليها : بالطبع لو سألني سالم سأقول كل شيء.

لا تستحق حكاية مرتضى أي اهتمام. لا توجد أي حكاية أصلاً . لو سألها سالم عنه ستفرغ من أمره في دقيقتين . مرتضى نفسه لا يستحق من الحياة أكثر من دقيقتين . ولكن ماذا لو سأل عن الحكاية الأخرى ؟ وحتى لو لم يسأل فلابد أن أقول الحقيقة . أنا لا أخاف ولكن من الذي يستحق الاستماع إلى الحقيقة؟ الأنبياء وحدهم مثل دادة سنية . أنا لم أقل شيئاً لبابا ولا لماما لا لأنني خفت منهما ولكن لأنهما لا يستحقان الاستماع إلى الحقيقة .

ومع ذلك فهي حقيقة بسيطة جدا . ليست معقدة ولا غريبة . أستطيع أن أحكيها بدون تمثيليات ولا مبالغات . سأقول كنا في غرفة المكتب مثل ظهر كل يوم. كان عمري ١٦ سنة وكنت في السنة الأولى الثانوية . كان يجلس أمامي على المكتب . يعطيني درس الرياضة. سأقول كان مدرساً عادياً . ربما في الخامسة والأربعين من عمره، ربما أكثر . قلت البنات في المدرسة إنه يشبه نجيب الريحاني في فيلم غزل البنات، وكان يشبهه بالفعل . أسميناه فيما بيننا الأستاذ حمام . لم يكن يصلح فتى الأحلام لأي بنت. كان أكبر من أبي . ومع ذلك فسأقول الحقيقة . لن أقول إنه اغتصبني . سأقول إنني لا أذكر اللحظة. سأقول لا أذكر كيف قام من مكانه أمامي وكيف جاء بمقعده إلى جواري . هل قلت شيئاً أو فعلت ما شجعه على ذلك أم كان هو الذي فعل كل شيء؟ أذكر أن جسمي كله كان ينتفض وأني شعرت بسخونة كالحمى وهو يعبث بيده في جسمي. ولكن بعد ذلك أيضا .

هل كان هو الذي قادني إلى الكنبة أم أنا التي سحبته من يده إليها؟ سأقول لا أدري ولكني سأقول إني أذكر ما بعد ذلك بكل وضوح. سأقول إنه ذهب إلى باب الغرفة المفتوح وأغلقه فأفقت كمن يصحو فجأة من النوم. كنت أعرف أن أبي في العيادة وأن عم حسن الطباخ خارج البيت وأن دادة سنية في غرفتها البعيدة لا تسمع أي شيء . خفت . كنت راقدة على الكنبة فقمت ووزعت رجلي في الأرض وسألته بصوت عال . لكنه مذعور . ماذا تفعل يا حيوان؟ سأقول إنه رجع ودفعني بيده على الكنبة وهو يحل ثيابه . قلت سأصرخ ولكن صوتي أصبح ضعيفاً جداً. وأخلت الحمى التي كانت تلهب جسدي مكانها لبرودة كالثلج في أطرافي . كان يدفعني بيده لأرقد وكنت أنا أدفعه لأبعده عني لكني لم أصرخ لم أجد صوتي. سأقول إنه صفعني وإنني أصبحت خائفة منه جدا . فكرت وأنا أنظر إلى وجهه المشوه بالشهوة أنه سيقتلني وشعرت وأنا أرقد رعباً. كالإعصار . وعندما جاءني الألم أخيرا وصرخت قفز فجأة ووقف فوقي وراح ينظر إلى بوجه محتقن وخائف وهو يسألني «لماذا لم تقولي إنك بنت؟ لم أكن أتصور ! »ثم وجه نحوي سبابته وهو يضم ثيابه بيده الأخرى «أنا لن أتزوج ! أنا رجل متزوج!» سأقول إني قمت نهضت رغم الألم والإعياء. وكنت أصرخ : إمش ! اخرج يا كلب يا ابن الكلب. قذفت نحوه كتباً وأشياء أخرى ثقيلة كانت على المكتب وجريت وراءه وهو يعدل ثيابه ويجرى متفادياً سقوط الأشياء عليه إلى أن خرج من البيت ولكني ظللت أصرخ. ونادت دادة سنية من غرفتها في ذعر فجريت إليها وحكيت لها كل شيء. ويومها بكيت.

وتمتمت لبنى لنفسها في المرآة . سأقول إذن إني بكيت ، وسأقول إني من لحظتها كرهت الرجال . كل الرجال. إلى أن جئت أنت يا سالم . فهل ستفهم الحقيقة كما كانت ؟ هل أنت برئ، بالفعل؟

وكانت الآن ترفع رأسها كعادتها لتمنع دموعها فقابلت صورتها في المرآة.

(٢)

أصبحت تقابل سالم كل يوم تقريبا . يلتقيان في الكلية ويخرجان معا أو يتفقان سلفاً على لقاء خارج الجامعة . تركا كثيرا من المحاضرات واكتشفا معاً مخابىء العشاق في القاهرة: الشوارع الجانبية نصف المظلمة في وسط البلد. الكازينوهـات المنتشرة على النهر والتي تضع مظلات مائلة بخشبي، خلفها المحبون ، الزوارق النيلية التي تتيح الخلوة .

ولم تقترح لبنى أبداً الذهاب إلى أي من الفنادق الكبيرة التي كانت تلتقي فيها بأمها وأبيها .

اعتادا أن يسيرا معا بالساعات . يدها في يده . يجمعهما الكلام ويضمهما الصمت. ولم يتحدثا مرة واحدة عن الحب . لم يكن أي منهما خبيرا بكلمات الغزل.

وكانت تسأل نفسها أحيانا ما جدوى كل الشعر الذي قرأته وكل الأدب الذي درسته إن كانت لا تستطيع أن تنقل له بالكلمات كيف تحبه؟ وما جدوى ما كان يقوله أبوها وأمها ومدرسوها من أنها ذكية جدا وأنها أكبر من سنها بكثير . وما جدوى أنها ظلت طوال عمرها الأولى في مدرسة اللغات وكانت فخر هذه المدرسة، يعرضونها على المفتشين كما يعرضون البضاعة النادرة . لتردد محفوظات الشعر العربي والإنجليزي . ولكي تجيب عن الأسئلة الألغاز عن عاصمة تايلاند وتاريخ ميلاد طه حسين ومعركة واترلو؟ بماذا أفادها هذا العلم وهذا الذكاء. وهي لم تعرف السرور الحقيقي أبدا؟ من الصغر تؤنب نفسها وتكتشف أخطاء لم ترتكبها . ثم اعتقدت أنها هي السبب في طلاق أبيها وأمها وإن لم تستطع أن تحدد كيف؟ حين كانت تسمع اسمها يتردد وهما يتشاجران في غرفتهما بصوت

عال كانت تظن أنهما يتشاجران بسببها ولم تستطع أبدا أن تتغلب على نوبات الخوف الكاسحة التى تغزوها وتشل تفكيرها . وبماذا نفعها أنها الأولى والأذكى والأكبر من سنها عندما اغتصبها حمام؟ وهل كانت هذه القراءة وخلوتها بالكتاب هي طريقتها للهروب من العالم الذى يرعبها؟ تلك على كل حال هى هدية أمها الوحيدة لتحميها من الدنيا فشكرا لها . وماذا كانت ستفعل بنفسها فى ليالى الوحدة والخوف لو لم تكن الكتب هناك ؟

لن تحدث سالم عن ذلك الخوف. لن تحدثه عن قراءتها فمن الواضح أنه لا يقرأ شيئا . لن تحدثه عن حمام ولا عن مرتضى . لن تفعل أى شىء يبعده عنها . لن تحدثه عن السياسة. هى نفسها لا تعرف ما الذى أدخلها فى هذه الحكاية المضحكة من الأصل! لا .. لا معنى لأن تظلم نفسها . ليست حكاية مضحكة. هى لم تدخل تنظيماً ثوريا سريا كالذى دخله الدكتور شوكت . كانوا مجرد مجموعة من الطلبة والطالبات التقت بهم فور دخولها إلى الجامعة ووجدت أنهم يفكرون بطريقة أعجبتها . تغضبهم التغيرات العجيبة التى تحدث فى البلد : تجار التهريب وتجار العملة والغلاء البشع وبذاءة الأغنياء الجدد وفقدان الكرامة وغياب فكرة الوطن ونسيان تضحيات الحرب القريبة وظهور نساء فى السياسة يستعرضن جمالهن وأزياءهن على شاشات التليفزيون ويتاجرن بظهورهن مع مشوهى الحرب على مقاعدهم المتحركة، وذلك فى الوقت الذى ظهر فيه فى الجامعة عشرات من الطلبة بجلابيب بيضاء ولحى يمزقون مجلات الحائط التى تكتب هذا الكلام ويضربون زملاءهم الذين يكتبونه بينما يحميهم حرس الجامعة حين يمزقون وحين يضربون . أحبت ليلى زملاءها الغاضبين الذين يحنون إلى أيام لم يكن فيها شىء من ذلك، ويحنون إلى الزعيم الذى أحبت صورته وصوته وهى طفلة . وكانت تغضب عندما تسمع أباها وأمها يسبانه كلما أطلت صورته من شاشة التليفزيون.

وجدت نفسها وسط هؤلاء الطلبة الممتلئين بالحماس وأحست أنها تحتمى بهم من وحدتها ومخاوفها . شاركت فى اجتماعاتهم فى مدرجات الجامعة وفى كتابة المقالات لمجلات الحائط . وعندما عرف أبوها ذات مرة أنها تكتب مقالا عن الرجل الذى يكرهه من كل قلبه غضب بشدة واتهمها بالسذاجة وبأنها لا تفهم شيئاً عن «الطاغية» الذى ضيع البلد ! وقال إنها تدافع عنه لمجرد أنه يكرهه . ولو قرأت بما فيه الكفاية عن عقدة أوديب لكفت عن هذه البلاهة . أمرها وهو يمزق المقال بانفعال ألا تعود أبدا إلى مثل هذه الغلطة فقالت وهى تبتسم «حاضر يا بابا» . كانت واثقة من أنه لن يتيسر له وقت ليتابع ما تفعله أو ما تتركه . ولكنها تساءلت : إن كانت عندى عقدة أوديب فما هى العقدة التى تجعل الدكتور شوكت يعتقد أنه محور الدنيا وأن كل شىء تفعله لابد أن يكون بسببه؟ وهل طلقته أمها لهذا السبب؟

ظلت ليلى تشارك زملاءها ولم يفسد عليها صحبتهم إلا وجود مرتضى وسطهم . لم يكن يكتفى بالوجود معهم . بل أراد أن يكون زعيما لهم . وبدأ يصنف الطلبة على هواه ويستخدم مصطلحات لا يعرفون معظمها : الطفولة اليسارية . الهلال الخصيب . الخلاف البعثى القومى. الماركسية التروتسكية. وكلام كثير من هذا النوع. ستعترف أنه خدعها أول الأمر اعتقدت أنه أكثرهم علما وحماسا للفكرة. سمحت له أن يقترب منها على أمل أن تتعلم منه . كان على عكسها يعرف أن يتكلم بفصاحة ويهاجم الحكومة والطبقة الجديدة التى سرقت الثورة، فبهرها بكلامه وجرأته. ووافقت للمرة الأولى منذ تجربة المدرس على أن تقابله خارج الجامعة لكنها ظلت ترجىء ذلك الموعد باستمرار .

لم تكن المسألة مجرد انتباهها لسالم الذى أسمته فى سرها (أبولو) وافتتنت به منذ شعرت بنظراته الحذرة الحيية. بل كان هناك نفور يتصاعد فى داخلها من

مرتضى . لاحظت الانقسامات التي بدأت في المجموعة بسببه، واكتشفت أن حقده لا يقتصر على الحكومة وأمريكا والطبقة الجديدة بل يشمل الجميع . لم يكن الحقد الطبقي الذي صدعوها بالحديث عنه، بل الحقد الصافي البسيط على كل من يمتلك شيئاً لا يملكه هو . وبفضل مرتضى استطاعت لبنى أخيرا أن تفهم شخصية ياجو عند شكسبير التي طالما حيرها أمرها . فهمت أنه لم يكن هناك سبب حقيقي لكراهيته لعطيل وسعيه لتدمير حياته غير أن المغربي كان يملك حب ديدمونة ! كذلك مرتضى ! لم يكن يحتمل أن يملك أحد شيئاً لا يملكه هو . سواء كان هذا الشيء هو المال أو المركز أو الشكل أو السمعة أو أي شيء آخر . كان يعتبر امتلاك غيره لهذه الأشياء إهانة شخصية له . هو الذي قال عن سالم إنه شاذ عندما لاحظ إعجاب البنات به . ولاحظت لبنى أنه لم يكن يطيق بالذات الأساتذة الذين يحبهم الطلبة . يجد في كل منهم عيباً منكراً . هذا الأستاذ سليل الإقطاع ومصاص دم الفلاحين، والآخر يسرق محاضراته من كتب الدكتور السنهوري (التي كانت لبنى واثقة أن مرتضى لم يقرأ منها حرفاً) وهذا الدكتور الثالث عميل للحكومة والأجهزة . ومع ذلك فقد انتهى أمره بالنسبة لها حين ضبطته ذات مرة وهو يتملق هذا الأستاذ العميل ويتذلل له لكي يضمه إلى الأسرة الشبابية التي كان يكونها في الكلية . رأته يقف منكمشا أمام الأستاذ عن بعد ، وبدا لها أن جسده أصبح أكثر ضآلة وصوته مرتعشا وخائفا . ولم تكن هي وحدها التي اكتشفت امره وبدأت تتهرب منه، بل عرف حقيقته بسرعة معظم زملائها وزميلاتها وصاروا يتجنبون وجوده في وسطهم . لم يبق على علاقة به إلا من كانوا يخافون من قدرته على جرح الآخرين وإيذائهم .

ومع ذلك ألا ينبغي لها أن تشكر مرتضى؟ هل كانت بدون مطاردته ووقاحته ستعرف فرحة هذا الاقتراب الذي ملأ حياتها ؟

***

وكانت تسير مع سالم في ليلة شتوية باردة في شارع الفلكي الضيق الذي تحفه الأشجار وتكسر نور مصابيحه القليلة العالية، عندما انتزعت يدها فجأة من يده والتفتت خلفها . لم يكن هناك أحد فعاد يحتضن يدها وهما يسيران صامتين وسألها في همس :

- مم تخافين يا لبنى ؟

- من كل شيء !

أفلتت منها العبارة دون تدبر فسألها وهو يضم يدها بقوة : ولكن لماذا ؟

- لا أعرف . أحيانا أصحو في الصباح فيخيفني كل شيء . أصوات الشارع. جدران البيت . صوت الراديو. ضحكات الشغالات على السلم. كل الأصوات وكل الألوان والروائح . أشعر أن كل شيء فيه خطر. وحين أخرج من البيت في هذه الأيام أتلفت خلفي خائفاً . وبالليل أضيء النور حين أنام . أخاف بالذات من الظلام .

هز سالم رأسه وقال : أنا لا أخاف من الظلام ولكني أخاف من نفسي، وأضاف بعد فترة صمت : عندما كنت صغيرا اعتقد أهلي أنني مجنون .

وهكذا حكى للبنى ما لم يقله قبلها لأحد . اعترف أنه تأتيه حالات لا يعرف فيها هو نفسه إن كان مجنوناً أو عاقلاً . وأن الكوابيس كثيرا ما تحرمه من النوم فيصحو مجهدا وعاجزا عن الكلام .

كان سالم يتكلم ببساطة شديدة وبهدوء، وشعر براحة تغمره لأنه تكلم أخيرا عما ظل يخفيه في نفسه . ضغطت لبنى بدورها على يده . وقالت :

- لا تهتم لذلك، أنا شخصياً أعتقد أنك عاقل أكثر من اللازم .

ثم أكملت وهي تضحك : أتدري . عندما كنت أراك في الكلية تمشي ثابتا كالعملاق . لا تتلصص بعينيك الجميلتين للبنات كما يفعل بقية الطلبة كنت أقول لنفسي في يأس لماذا لا تتعطف علي يا أبولو بنظرة ؟

- من .. من هو أبولو ؟

- هو إله ال.. هو شخص جميل مثلك والسلام .

تقلص وجه سالم وابتعد عن لبنى ووقفا متواجهين فى العتمة وهو يقول بصوت خشن :

- لا أحد أن يقول أحد إنى جميل!

- لماذا ؟

- لا أحب . البنات فقط جميلات . أنا رجل .

- وما العيب أن يكون الرجل جميلا ؟

قال وصوته ينذر بالغضب : قلت لك لا أحب ذلك . ألا تفهمين ؟

كانت شفتها ترتعش . كان جسدها يرتعش :

- نعم .. أنا لا أفهم .. أنا غبية .. سامحنى .

عندما بدا من صوتها أنها على وشك البكاء، أصابه هو أيضا الفزع ثم تمالك نفسه وقال بصوت متحشرج : أنا آسف .

مد يده يمسك يدها مرة أخرى فكانت باردة كالثلج . سارا فترة دون أن يتكلم أحدهما . وأخيرا سألها :

- عن أى شىء كنا نتكلم من قبل ؟

- عن الخوف !

- نعم . الخوف هو الذى منعنى من أن أكلمك . منذ رأيتك فى الكلية لم أفكر إلا فيك أنت . ولكنى لم أستطع ..

فقالت شاردة : ربما حدست خوفى . ربما تتراسل النفوس الخائفة بإشارات خفية . ثم هزت رأسها وقالت : لا ! لن أسمح ! لن أسمح لنفسى بأن أخاف بعد اليوم ولن أسمح لك . وإلا فما فائدة الحب؟ قلت إنك تفكر فى. هل تجدنى جميلة ؟

- بالطبع .

- ولكن أنا أعرف أنى لست جميلة . لا يهم ! معك حق يا سالم . أنت لست جميلا ولا أنا جميلة . الحب وحده هو الجميل والحب وحده يرينا الجمال ..

انتبهت لبنى إلى ظلال الأشجار الغريبة الرجراجة التى تصنعها مصابيح الطريق العالية وقالت لنفسها نعم ؛ لو لم يكن سالم معى لأخافتنى هذه الظلال . تجر إلى ذهنى عشرات الأفكار الكئيبة التى لا أستطيع الخروج منها وتجعلنى منقبضة طوال الليل . أما الآن فأنا أراها ظلالا لا غير . ظلالا كبساط ناعم يفرش طريقا نمشى فوقه، ويفرشه من أجلنا لأننا نحب. قالت وهى تضغط على يده من جديد : معك يا سالم لا أشعر بالخوف !

انتقلت إلى سالم عدوى انفعالها ولكنه لم يكن يستطيع أن يعبر عن نفسه مثلها . خطر له أنه هو أيضا لم يستطع فى حياته أن يتكلم مع أى بنت غيرها وأنه ظل طول عمره يخاف فيمنعه الخوف من الكلام . يخاف أن يخطىء أو أن يقول شيئا لا ينبغى قوله فيلزم الصمت . معها وحدها يستطيع - ولكن ليس تماما . إذ قال فجأة :

- الآن أيضا أخاف أن أقول شيئاً يغضبك !

- ولكن أنا يستحيل أن أغضب منك . كيف ؟ ألن تسامحنى أنت إن أنا أخطأت ؟

تردد قليلا ثم قال : نعم . إلا إن تركتنى .

ابتسمت : الآن يا سالم أنت مجنون بالفعل !

تطلعت إلى جانب وجهه فى الطريق المعتم وكانت تقاوم دموعها بصعوبة حين استطاعت أن تقول لأول مرة :

- كيف ؟ ألا ترى كم أحبك !

ولكنها كانت سعيدة. الآن كانت خائفة من سعادتها .

***

عاشت لبنى فرحا لم تعرفه في حياتها من قبل ولم تتخيل مجرد وجوده في هذه الدنيا . أن تنسى نفسها تماما . أن تكون وحيدة في فراشها بالليل تسمع الموسيقى فلا تأتيها الوساوس والمخاوف بل يحيط بها وجهه من كل جانب . طيف عينيه الرماديتين . شعره الغزير المهوش الذي لا يعرف أبدا كيف يمشطه . حاجباه الكثيفان. كل تفاصيل الوجه. ملمس أنامله الطويلة . نبرة صوته وعباراته تحيط بها وتغزوها هي والموسيقى في وقت واحد . وهي وحيدة في الليل وهو يعيش بداخلها . لم تكن الدموع التي تنساب دون إرادتها تكفي لتخفف وطأة ذلك الامتلاء الذي تتشبث به وتتمنى في الوقت نفسه وهي تتقلب في فراشها لو تتخفف منه . تقول لنفسها لا يحتمل الجسم كل ذلك الامتلاء بالفرح !

كيف كانت دون سالم ستعرف ذلك كله؟ كيف كانت ستعرف الدوار المخمور وخفقان القلب حين تلقاه والدفء في الأبدان والخدر في الأطراف والرعشة في تلامس الشفاه ورغبتها في التحليق بعيدا لأن الأرض أصغر من أن تتسع لهذه النشوة والجسم أضيق من أن يستوعبها ؟

كيف كانت ستعرف ما يحدث لجسمها حين يضمها إليه فتسري في الجسم كله رعشة وعرق خفيف كالندى وتتفتح المسام كزهور تنثر عطر روحها وجسدها. وتعود جنينا . وتحلم مغمضة العينين لو ينفتح هو أيضا رحما يحتويها فلا يفلتها إلى الأبد؟

كيف كانت ستعرف هذا كله ؟

(٣)

عاش سالم أيضا أياما وأسابيع سعيدة . كان يطوف بخاطره أحيانا ويقلقه أن لبنى تنتمي إلى حياة غير حياته . فهي تعرف لغات ولا تجد أي مشكلة في دروس الفرنسية في الكلية. وقد سمع أن أباها طبيب مشهور . فهي لابد أن تكون غنية . أغنى منه بالتأكيد . ولكنه لم يفكر في ذلك كثيرا . رضي بالقليل الذي يعرفه عن لبنى وبنعمة السكينة التي وجدها معها . وكان جده يتركه في حاله . لا يلح على أن يسهرا معاً ولا على أن يتسامرا فوق السطح. وعندما يتطوع سالم في بعض الأحيان بأن يحكي له شيئاً عن لبنى كان يستمع إليه صامتا وعلى شفتيه ابتسامة ثم يقول في النهاية :

- اللهم لا يصرفك هذا عن المذاكرة .

ولم يهتم سالم أيامها كثيراً بمسألة المذاكرة . نادراً ما كان هو أو لبنى يدخلان إلى المحاضرات حتى عندما يذهبان إلى الجامعة . ولكن القليل الذي كان يقرؤه في كتب القانون أو يسمعه في المحاضرات كان يثبت في ذهنه على الفور، بل وكان يشرحه للبنى عندما تطلب منه. وصار جده يدهش في بعض الأحيان من إجاباته على الألغاز القانونية التي يطرحها عليه أثناء مراجعته لدروسه يقول مغتبطا : كنت متأكداً أنك ستنبغ في القانون . دعالك رحمة الله عليه في آخر مرة رأيته فيها وأنت طفل صغير . عرف سالم بالطبع أنه يعني أبو خطوة . كما كان يعرف كثيرا من تفاصيل هذه الزيارة الأخيرة التي تركت بنهايتها الغريبة بصمة لا تمحى على جده . ولم تكن لديه في هذه الأيام رغبة في استعادة قصص جده المألوفة . ولا كان الجد أيضا يبدو راغبا في الإفاضة . ففي الفترة الأخيرة بدأ الباشكاتب يميل إلى الصمت والتأمل على غير عادته .

ولكن فوزية سألته مرة بابتسامة وهي تجلس قبالته ترضع طفلها سالم الصغير :

- قل لي يا سالم ، من هي التي (لخبطت) أخي العاقل ؟

تضرج وجهه وراح يداعب بسبابته الرضيع الذي ترك ثدي أمه وحول عينيه نحو خاله وقال : ألا ترين أن سلوم يشبهني بالفعل؟ أنا أعشق ابنك يا فوزية .

لكن فوزية أصرت : هل هي واحدة أعرفها ؟ واحدة من الجيران ؟

فرد متظاهرا باللامبالاة : لماذا تسألين ؟ ومن أدراك أن هناك واحدة ؟

وضعت سبابتها في جانب رأسها وقالت : أتظن أن أختك لا تفهم ؟ صحيح أنك في الجامعة وأنني لم أتعلم مثلك، ولكن لي عينين وعندي هنا مخ !

انهمك سالم في مداعبة الصغير الذي بدأ الآن يبتسم له ولكن حين مد يده ليحمله حول رأسه فجأة وعاد يلقم ثدي أمه .

قالت فوزية وهي تربت على رأس طفلها ببط : أنت كتوم طول عمرك . لا أحد يعرف منك الحق ولا الباطل ، ولكن لو كانت واحدة من الجيران لعرفت . أظن أنها زميلة لك في الجامعة .

كان يقف أمامها وهي تجلس في الصالة على الكنبة منهمكة في الإرضاع لكنها ضحكت فجأة ومدت ذراعها فجذبت سالم نحوها وقبلته في خده قبلة حارة وهي تقول :

- افعل ما بدا لك يا سالم . المهم أن تكون سعيدا . سأفرح لك ما دمت سعيدا .

جلس إلى جوار أخته وسألها :

- وأنت ؟ هل أنت سعيدة يا فوزية ؟

قالت دون أن تنظر في وجه أخيها : الحمد لله . فراج رجل طيب وسلوم يملأ علينا البيت.

ثم سكتت وهي تتساءل : هل تستطيع أن تحكي لسالم عن مشاكلها الحقيقية ؟

هل يمكن أن تكلمه عن فراج الذي تعرف رغم كل ما فعلت أن أخاها لا يحبه؟ هل سيفهمها ويفهمه ؟ كيف يمكن أن تحكي له عن التغير السريع الذي أصاب زوجها خلال سنة واحدة؟ غاضت الابتسامة من وجهه وأصبح عصبيا يثور لأتفه شيء ويختلق شجارا في البيت . وحين تحاول تهدئته وتقول له إنها لا تقصر في واجبها وإنها تخدم في البيت كالجارية يرد بأن أمه تعمل في بيتها أضعاف ما تعمله فوزية دون أن تشكو ودون أن تنطق بكلمة واحدة! هي تعرف مع ذلك سبب ذلك كله . فراج لم يصبح سيئا لكنه يرهق نفسه في الشغل أكثر من اللازم وكل الأشياء التي توقعها لم تحدث: لا البعثة ولا المكافأة التشجيعية ولا الوقت الذي يسمح له بالدراسة العليا التي حلم بها . والمرتب الذي كان يكفي تماما قبل سنتين أصبح الآن يتبخر قبل آخر الشهر بكثير ، رغم كل ما تفعله لتدبير أمور المعيشة في البيت ورغم ما يعطيه لها جدها .

أخيرا رفعت فوزية رأسها وقالت لأخيها بصوت متردد :

- أريد أن آخذ رأيك في موضوع يا سالم.

جلس إلى جوارها على الكنبة وهي تحمل طفلها على كتفها وراحت تربت على ظهره ، ثم سكتت لحظة وبدا أنها قد عدلت عما تريد قوله وسألت أخاها بابتسامة :

- على فكرة ، هل عرفت يا سالم أين يذهب جدك يوم الخميس ؟

- لا . قلت لك إنني حتى لم أحاول . هل عرفت أنت ؟

- لماذا إذن أسألك ؟

ثم أكملت بضحكة مفتعلة : مصيبة يا سالم أن يكون جدك متزوجاً في السر!

تزحزح مبتعداً عنها وقال في ارتياع : جدي ! لا يمكن !

قالت وهي تواصل التربيت على الصغير : ولم لا يا صاحبي ؟ تحدث كثيراً وتكتشف الحكاية بعد .. بعد فوات الأوان .

ثم أمسكت بابنها وأبعدته عنها قليلاً وراحت تؤرجحه : لكن أنت لن تكون كذلك يا سلوم ! أنت ستقول الحقيقة دائماً . لن تصدم أولادك عندما تكبر بأن لهم أخوة لا يعرفونهم ، كما أن أمك وخالك قد يكون لهما أعمام وعمات لا يعرفانهم !

ابتعد سالم عن أخته لينظر في عينيها مباشرة وفي صوته هلع :

- فوزية ! ليس هذا موضوعاً للمزاح ! إلا جدي !

فواصلت حديثها لابنها : إلا جده يا سلوم ! كخالك طيب وعلى نياته لا يعرف أن جده رجل كبقية الرجال !

لكن فوزية شعرت أنها ذهبت بعيداً في الكلام فعادت تحتضن طفلها ونظرت في عين أخيها وهي تقول بهدوء : لا تقلق يا سالم . أنا أمزح بالفعل . أقسم لك إنني لا أعرف شيئاً وأنا مثلك تماما يمكن أن أشك في كل الرجال إلا جدي . أنت ترى كم يحبنا . أتظن لو كانت له زوجة وأولاد فسيكتفي بأن يراهم يوم الخميس ؟

ثم قالت بضحكة عابرة وهي تنهض : ومع ذلك كما قلت لك . أدفع نصف عمري وأعرف أين يذهب يوم الخميس !

سار سالم خلفها نحو الباب وهو يداعب الصغير بإصبعه في خده مستجدياً منه ابتسامة أخرى ، لكن فوزية توقفت لحظة ، ثم بدا أنها تغلبت على ترددها :

- اسمع يا سالم ، ما رأيك في حكاية البيت ؟

قبل أن تنتظر رده عادت تجلس على الكنبة فجلس سالم إلى جوارها وهو يسأل :

- أي حكاية ؟

- أنت سمعت بحكاية الشرخ الذي في جانب البيت ؟

- نعم وجدي ينوي أن يرممه ، لكن السكان لا يريدون المشاركة في التكاليف .

فقالت فوزية وكأنها تنتزع كلماتها : سمعت يا سالم أن الأرض في حينا ارتفع ثمنها : سمعت أننا يمكن أن نبيع نصف الأرض بثمن كبير تبنى به عمارة جديدة في النصف الآخر ثم نبيع شققها بالشيء الفلاني . يمكن .. قاطعها سالم وهو يسأل بدهشة : نهدم ونبني ؟ لماذا ؟ هذا بيتنا يا فوزية !

ثم استدرك : لا ، في الحقيقة هو بيت جدي . ولا يمكن لجدي أن يفرط فيه . يهدم ! هل هذا معقول ؟

كان سالم الصغير قد نام على حجرها فتكلمت بصوت خافت :

- أعرف أنه غير معقول . وأعرف أن جدك لن يوافق .

- وأين أنت تكلمت معه بالفعل ؟

- لمحت له فضحك . قال مثلك : هل هذا معقول ؟ وأين نذهب نحن وأين يذهب الجيران .

ثم أكملت بغيظ مكتوم : كأن هؤلاء الجيران يفكرون فينا ! يدفعون ملاليم للإيجار ويستخسرون حتى أن يدفعوا نور السلم ! نحن . الذين ندفع كل شيء ..

رفع سبابته : جدك هو الذي يدفع كل شيء ، لا نحن ، وهو ..

نظرت في عين أخيها مباشرة وقالت بلهجة باترة دون أن ترفع صوتها : أنا بحاجة إلى فلوس يا سالم ! مرتب فراج لا يكفي للبيت . وأنا لا أشتغل ولا أساعد في المصاريف ..

قال متعجبا : ولكنكما كنتما تعرفان ذلك من قبل الزواج . كان يعرف جيداً أنك لا تشتغلين .

ثم استدرك بصوت خافت : وأظن أن جدي يساعدك .

قالت وهي تنظر شاردة إلى طفلها النائم : نعم .

ثم واصلت دون أن ترفع رأسها : جدي يدفع ما يقدر عليه ولكنه لا يكفي .

كيف يكون عندنا هذا الكنز ونعيش فقرا؟

نهض سالم وقال وقد بدأ يتملكه الغضب : هذا الكنز ليس ملك فراج ولا ملكك ولا ملكي هذا بيت جدي ربنا يعطيه طول العمر .

مدت فوزية يدها فامكست بيد أخيها وجذبته ليجلس إلى جوارها حيث كان :

– اهدأ يا سالم . اهدأ . أنا أيضا أدعو له بطول العمر . أنا لا أحب أحداً في الدنيا كما أحبه . ثم اغرورقت عيناها بالدموع وهي تسأل :

– قل لي ماذا أفعل ؟ فراج أخذني رخيصة . والواحدة منا يا سالم لابد أن تكون عزيزة في بيتها . كيف تكون لي قيمة وأنا لا أعمل ولا أملك شيئاً ؟ الرجل الآن يزن زوجته بما تدفعه للبيت .

قال مغتاظا : والحب يا فوزية ؟ ألا يزن الرجل زوجته بالحب ؟ ألا تكون عزيزة لأنه يحبها ؟

قالت ودموعها تنساب بلا انقطاع : في الحكايات فقط يا سالم ؛ عند الهبط مثلي ومثلك . أنا لست عزيزة على فراج لأنه لم يتعب في زواجي . هو يعتقد أنني أنا التي اشتريته ولكني لم أدفع كل الثمن الذي يستحقه . ومعه حق لأن الغلطة غلطتي .

أفلتت منها العبارة الأخيرة دون قصد فعادت تكرر .

– قل لي ماذا أفعل يا سالم .

نظر سالم إلى أخته الباكية في حيرة وعجز . ثم مد يده إلى كتفها وضمها إليه برفق وهو يقول بصوت مرتجف .

– ولكن .. ولكنك عزيزة جدا يا فوزية !

ثم اختنق صوته وسكت .

(٤)

بعد تلميحات جابر جاءت فوزية . وسأل الباشكاتب نفسه : من عليه الدور بعدهما ؟ شعبان الذي جاء قبل أيام يشكو له من مطالبة الضرائب الباهظة ؟ أو ربما سالم الذي وقع في حب بنت غنية ؟ أو فراج الذي تبخر كل تفاؤله مع تبخر مرتبه ؟

كان الباشكاتب يجلس وحيدا في شرفته في الليل ، يراقب الشارع الذي بدأ يزدحم لاقتراب مولد السيدة وأصبحت أرصفته مأوى لزوار الست . كما بدأ أصحاب المحال يعلقون أفرع المصابيح الملونة بعرض الواجهات . ولكن أشياء كثيرة كانت تشغل بال الباشكاتب.

لم يكف عن محاسبة نفسه منذ جلسته وحيدا في المقهى ، ولاحقته أمور بعضها من نفسه . فاجأه أولا اقتراح فوزية ببناء المحلات في مدخل العمارة ، ولكنه بعد تفكير قال ولم لا ؟ عز عليه أنه سيفقد شجرة التمر حنة التي كان عمرها من عمره ثم تساءل : وكم بقي من هذا العمر على أي حال؟ .. كان يعرف جيدا الحالة التي تعيشها فوزية وفراج ويعلم أن ما يعطيه لحفيدته خفية لا يساعد كثيرا على تغيير هذه الحالة . ثم بدأ هو أيضا يشعر بالغلاء الذي يتحدث عنه الجميع . اعتاد ألا يفكر أبدا في المال . كان معاشه وادخاره وإيراد قطعة الأرض الصغيرة التي ورثها هو وشعبان عن سمية يفيض عن احتياجاته القليلة ويكفي لتلبية حاجة أسرته كلها . وتوقف من زمن بعيد عن الاعتماد على إيراد البيت الذي لم تعد إيجارات مساكنه تغطي مصروفاته . والآن بدأ يسحب من مدخراته لمصروفات الشهر العادية . واكتشف أن هذه المدخرات ستضيع كلها في تكاليف

الترميم الذي اعتذر السكان عن المشاركة فيه لأنه «ليس ملكهم» كما قالت الست إنصاف وكأنها تمزح قبل أن تضيف في أسى حقيقي «من أين ونحن نقترض لمصاريف علاج الحاج إبراهيم ؟» فما العمل .. يهدم البيت بالفعل وليكن ما يكون؟ يفقد البيت والجيران معا ؟ هو يصدقهم . أن لكل واحد منهم عذره بالفعل . تربى في هذا البيت مع آبائهم الذين أجر لهم الحاج السعدى المساكن . وظل الأبناء الذين خلفوهم يحفظون له الود ويسألونه النصح .

كان يعتبرهم مثل ابنه شعبان . رآهم أطفالا يكبرون ويتزوجون وينجبون . يقولون له «يا عمى» وأطفالهم يقولون «يا جدى توفيق» لم يعد يعرف أيهم هو ابن من ولا في أي طابق يسكن لكنه يحفظ وجوههم ويفرح بهم حين يلقاهم على السلم أو أمام باب البيت . يقف ليسألهم عن حالة الأسرة وحالة المدرسة فيردون عليه في خجل وود .

أحزنه أن شعبان لم يشأ أن يكون له من هؤلاء الجيران أصدقاء وأنه رفض أيضا أن يختلط سالم بأولادهم ويصادقهم . ليكن . شعبان حر . أما هو فبدون هؤلاء الجيران ستفقد حياته طعمها . سيشتاق لكل سكانه حتى للست إنصاف صاحبة الصوت العالى والمشاجرات التى لا تنتهى مع البائعة .

يود أن يعيش حتى آخر عمره في البيت الذى تربى فيه ويعرف ناسه والذى شهد أيضاً آخر أيام سمية . يشعر منذ يوم المقهى أن صفحته الأخيرة قد دنت ويريدها أن تطوى بسلام . لم يكذب حين قال إن صحته كالحصان . حالته مازالت أفضل مما يطمع أى إنسان في سنه أو حتى أصغر منه . عذبته هذه الصحة كثيرا منذ شبابه . ومازال جسده «المدكوك» ووجهه العريض المتناسق القسمات والمتورد بالدماء يوحيان بالقوة والعافية ورغم التجاعيد الطولية العميقة والشعر الأشيب فهو يبدو أصغر من سنه بكثير . لم يشكُ في حياته من المرض باستثناء

وعكات البرد وحالات طارئة من عسر الهضم لم تكن غريبة . وهو الذى يعترف دائما بعجزه عن مقاومة إغراء الطعام الجيد وبأنه لا يعرف متى ينبغى عليه أن يتوقف . تجاوزه حتى ألم الأسنان الذى أرغم كل أصحابه في مراحل من أعمارهم على استخدام الأطقم الصناعية وظل بدنه على فتوته التى عجز عن السيطرة عليها في شبابه وفي شيخوخته . ولكنه يحلم أيضا باللقاء المقبل الذى بشره به أبو خطوة منذ مطلع الشباب. بدا له بعد موت سمية المبكر أنه كان لابد من وقوع المأساة لكى يجد الطريق. غير أن رغبات جسده لم تكن وحدها هى التى ماتت طوال السنوات التى أعقبت رحيل سمية، بل ماتت تطلعات روحه أيضا . عاش يؤدى ما عليه من (واجبات) نحو ولده ونحو ولديه من بعده . نسى الرغبات طوال سنوات السنين . ولكن روحه لم تحلق بعيدا .

فقرأ أيامها الكتب التى أعطاها له أبو خطوة . قرأها طويلا وأحبها كثيرا. ووجد الفكرة في كل هذه الكتب بسيطة وجميلة : أن يتحلى بأخلاق معينة تصل به إلى الزهد الذى يميت الدنيا في قلبه فتزدهر جنة في نفسه ويقبض على المعجزات. ورأى أنه لا توجد أى مشكلة في ممارسة الحياة كما توصى الكتب. كان يعمل بتلك الوصايا بشكل طبيعى حتى وهو في عز شبابه وانطلاقه وراء نزوات. بدا له أنه قد ولد بهذه الأخلاق . كان متواضعا دون افتعال لمن هو أدنى منه . بعيداً كل البعد عن تملق من هو أقوى منه بجاهه أو ماله . يبذل من ماله ووده دون منّ ولا استعلاء . يكره انتظار المدح للعطاء، وينسى بحق إساءة المسيء إليه. ينساها لا بأن يغفرها فحسب . بل بمعنى أنه إن غضب لها في حينها فإنه لا يذكر بعدها فيم كان غضبه . يحب من قلبه أن يساعد الناس وأن يقضى حوائجهم . كل تلك السجايا وغيرها مما أوصت به الكتب لم تكن غريبة عليه . غير أن الخطوة التالية التى نصت عليها بعد ذلك لم تكن لها علاقة بأخلاقه ولا بإرادته.

وانما بنور يحل عليه وينشرح له صدره فيسلك طريق الصالحين وتجرى على يديه الكرامات . أبطأ عليه النور ولكنه لم يفقد الأمل حتى في هذا الهزيع المتأخر من عمره . غير أنه أدرك عن يقين أن الرياء لن يقوده إلى الطريق . حين يحضر حلقات الذكر يدور في الحلقة أطول من غيره فينهك جسمه تماما ولكن روحه لم تكن تستيقظ . شعر بأنه يخدع نفسه ويخدع أولئك الناس الطيبين من حوله الذين تنطلق منهم بعد طول التطوح آهات الخشوع ودموع الرجاء .

ومع ذلك فقد ظل واثقاً من أن هذا لا يعني وقوعه في قبضة الشيطان . كان إيمانه بسيطا وعميقا مثل إيمان أبيه الحاج السعدي . وكان ندمه على خطاياه صادقا كما شعر بذلك صديقه الصالح . وظل يكرر سيظهر في الوقت ما يؤذن به الوقت . وظل قلبه يقول له إن الوقوع في الرياء معصية تفوق ما سواها .

أخذ يجاهد مع ذلك منذ موت سمية مقتنعاً باقتراب اللحظة والوقت بعد أن قمع جسده حتى نسيه . انشغل تماما بهموم حياته مع والده وحفيديه ، ولم يفكر في امرأة أخرى . الأصح أنه نجح في إخماد شهوته للنساء، التي لم تنطفئ تماما رغم ما حوله . ظل طوال تلك السنين يرى في عمله وفي جيرته نساء من كل نوع ، بعضهن يلمحن وأخريات يرمينه بالنظرات التي يعرفها جيدا كأنهن يقرأن دخيلة نفسه : لماذا تكذب يا توفيق ؟ وجهك يفضح النداء الذي تخفيه خلف قناع الزهد وجسمك يكاد يمزق جلدك كي ينطلق . لماذا تكذب ؟

ولكنه ظل صامدا ، ونجح عبر السنين في أن يكف نفسه إذا ما هو هم بشيء أكثر من النظر .

فمن أين جاءته تلك العاصفة المتأخرة التي اجتاحت كل صموده ومقاومته؟ دهمته في الشهور الأخيرة التي كان يلملم فيها أوراقه لكي يخرج إلى المعاش .. ليتقاعد مثل عجوز طيب أدى ما عليه في العمل وفي الحياة .عندها ظهرت هي . لا، الأصح أنها ظهرت بعد أن بدأ يستبد به شوق غريب إلى الحياة وحنين جارف

إلى النساء، كأنما هو في بدء حياته لا في نهايتها . حاول أن يتغلب على ذلك الإغراء المتأخر الذي غزا جسده كالحمى . كان يؤنب نفسه على نظراته التي تفضحه لزميلاته في المكتب والمتعاملات معه. راح يسأل نفسه : ما الذي جرى له؟ يخرج من عمله ويمشي في الطرقات إلى أن يهده التعب . ولكن الشوارع كانت تعطيه النساء أجمل مما رآهن في عمره كله . تتجه عينه مباشرة بقوة قاهرة نحو السيقان الملفوفة والصدور النافرة والشفاه الممتلئة والعيون الجميلة . لا يفوته أصغر تفصيل وهو يمشي مع ذلك بخطوته المسرعة كأنه يهرب .

يقول لنفسه وماذا في ذلك كله ؟ السيقان أعضاء للمشي والعيون للنظر والصدور للرضاعة . لكل انسان في الدنيا ساقان لا ينتبه إليهما . ولكنه إذ يمشي في الطريق يرى امرأة تتطلع إلى أزياء في واجهة محل . ترفع قدمها تخلع نصف الحذاء وتمس ساقها انثناءة بسيطة فتحتل فكره رغم كل محاولاته . هاتان الساقان لتلك المرأة الممشوقة القامة . ساقان طويلتان تنسابان من امتلاء مستدير منحسر عند السمانة إلى أن تنسحبا بتدرج ونعومة نحو البيضة المرمرية الملساء لكعب القدم .. يرى نفسه يكاد يلمس هذه الساق بأنامله ، يتحسس نعومتها البضة ، يرى شفتيه تمسان تلك السمانة الشهية ، ويشعر أنه يصعد بشفتيه في تلك النعومة ، فيتوقف في هلع وهو يغمض عينيه ، يزفر ويستغفر ، يدق الأرض بقدمه غاضبا على نفسه ومن نفسه. ويعاود المشي كأنه يعدو دون أن ينظر حوله. ولكن لا فائدة . الساقان الناعمتان هناك وهما ليسا عضوين للمشي وإنما لتعذيبه وهلاكه .

وفي جولته المحمومة تلك دخل محلاً للكتب القديمة وراح يقلب في الكتب لمجرد أن يهرب من خيالاته وأطيافه . ظل البائع يحوم حوله دون أن يتكلم وهو يتأمله من بعيد بنظرة فاحصة . وأخيرا اقترب منه وقال بابتسامة ماكرة «عندي شيء لا يوجد فوق الأرفف ، تحب أن تراه ؟» وعندما عرض عليه المجلات أوشك أن يرميها

في وجهه ويخرج من المحل، لكنه لم يفعل، بل وقف يقلب فيها وهو يشعر بنبض سريع في صدغه وجبينه وبرعشة في يديه . كانت الصور الملونة تذهب إلى ما هو أبعد من خيالاته الجامحة التي يهرب منها ولم يستطع أن يتوقف عن التقليب فيها رغم شعوره بخجل وبأنه يتضاءل أمام نفسه . لم يخرج من المكتبة إلا بعد أن اشترى تلك المجلات ثم بدأ بعد ذلك يبحث عن غيرها وغيرها وهو يقنع نفسه في تلك الشهور التي استبدت به خلالها شهوة العودة إلى النساء، بأن ما يفعله هو الشر الأهون ، بأن هذه الزلة تعصمه من زلة الزنا الحقيقية . اجتهد في جمع المجلات واجتهد في إخفائها عن أنظار أهل البيت . ابتكر له صانع المفاتيح مفاتيح خاصة غالية الثمن للمكتب وقال له إنه يستحيل تقليدها أو فتح أدراج المكتب بدونها . وظل هو يحتفظ معه بتلك المفاتيح باستمرار ، لا تفارقه لحظة . كان يشعر بالعار إذ يفعل شيئاً كهذا في مثل سنه ، لكنه لم ينجح أبدا في التخلص من تلك الهواية التي تعلمها في شيخوخته . لم ينقطع تأنيب النفس أبدا ولم يفلح في الإقلاع أبدا . يبرر لنفسه : المجلات موجودة سواء اشتريتها أو تركتها، وأنا لا أؤذي أحدا ولا أرتكب شرا . ولكن عقله كان يقول له غير ذلك .

وفي تلك الأيام ظهرت نازلي هانم . ترددت على مكتبه أياما متعاقبة . كانت تنتزعه من استيفاء أوراقه وإجراءاته الخاصة بالمعاش لكي ينجز لها معاملاتها . كان معروفا بأنه يخدم كل أصحاب القضايا على السواء، وأن مكتبه مفتوح لهم جميعا وإن حاول أن يتخفف من هذا العبء قبل المعاش تاركا تصريف الأمور لمرؤوسيه . لكن نازلي كانت تدخل مكتبه دون استئذان . تقدم أوراقا ومستندات لقضايا عديدة لإثبات الملكية ولمنازعات قانونية مع شركاء لزوجها الراحل . كانت تقترب من الخمسين من عمرها بالتأكيد لكنها تعتني كثيرا بمظهرها وملبسها فلا تبدو سنها الحقيقية . ومع أنها لم تكن تصبغ شعرها ، أو ربما تصبغه وتتعمد ترك خصلات بيضاء، فقد كان جسدها فتياً .

واعتادت أن ترتدي دائما الملابس والألوان الهادئة ، وتعرف كيف تبرز أنوثتها الناضجة . كانت تتجاوز معاونيه وتدخل إلى مكتبه ثم تجلس مباشرة على المقعد الجلدي المواجه له وتقول بلهجة شديدة التهذيب ، فيها شيء آمر مع ذلك «يا حضرة الباشكاتب، سيادتك بالأمس .. » فيترك كل ما بيده ويستدعي مرؤوسيه ليتابع بنفسه ما تطلبه . ومرة كانت تجلس أمامه واضعة ساقا على ساق فراح دون وعي يتطلع إلى جمال وتناسق ساقيها البيضاوين . وضبط نفسه يعريها بعينيه من ثوبها الرمادي المحبوك حول ردفيها المستديرين المتماسكين ويتخيلها في صورة من تلك الصور التي أدمنها، فصعد الدم إلى وجهه . وارتاع من انحلال تفكيره ثم كأنما حدست هي في لحظتها ما يفكر فيه فتضرج وجهها وهي تعتدل في جلستها وتطرق برأسها على الفور .

ولكن وربما من تلك اللحظة حدث بينهما تفاهم ما . اتفاق مضمر على أن شيئاً آخر غير الأوراق بدأ يجمع بينهما . وجد الباشكاتب نفسه ينتظر حضورها إلى مكتبه بلهفة وصارت هي تتلكأ في الانصراف بعد انتهاء أعمالها. ولاحظ الباشكاتب زينة جديدة بسيطة حول عينيها وحمرة خفيفة فوق شفتيها . لم يعد الحديث يدور عن العمل وحده، بل صار يتطرق إلى مشاكل الحياة . وإلى مقارنات بين أحوال الحاضر والماضي الذي كان أجمل بكثير أيام الشباب . شبابها وشبابه .

وعلت ضحكات الباشكاتب المشرف على التقاعد وأدهشت معاونيه الذين لم يعتادوا منه الاهتمام الخاص بإحدى المتعاملات مع المحكمة . بدأوا يتغامزون ويهمسون . ولاحظ الباشكاتب فضول زملائه لكنه لم يهتم مطلقا . أخذت تعلو في داخله موجة من الاستهانة بكل شيء، كلما اقترب موعد خروجه إلى التقاعد . وكانت نازلي أول امرأة من لحم ودم تقتحم حياته منذ رحيل سمية . وعندما تغيبت

يومين أو ثلاثة عن الحضور إلى مكتبه أصبح قلقا وعصبيا . ومنع نفسه بالكاد من أن يتصل بها ليسأل «ما الأخبار؟» قال لنفسه «اثبت يا حضرة الباشكاتب . لم نصبح مراهقين إلى هذا الحد!» .

ولما أطلت عليه في اليوم الثالث أو الرابع وجد نفسه يقوم من مكتبه ليستقبلها عند الباب مرحباً بعبارات كثيرة لا معنى لها وهو يصافحها بيديه الإثنتين ويضغط على يدها . وكانت هي أيضا تبتسم متوردة الوجه والتماعة في عينيها . قادها عبر الحجرة الواسعة إلى مقعدها المألوف أمام المكتب وهو يقول «أوحشتنا» فقالت بصوتها الناعم الهامس «وأنتم أيضا» فأكمل ضاحكا وهو يتجه إلى مقعده خلف المكتب «إذن لماذا لا نجمع الشمل؟» .

لم يكن في نيته أن يقول شيئا من هذا النوع ، لا يدري في الحقيقة كيف أفلتت منه العبارة، لكن نازلي قالت وهي تتأمله دون دهشة «بهذه السرعة؟ أنت لا تضيع وقتك يا حضرة الباشكاتب» .

وعندما وجدته ينظر إليها متحيراً وقد فاجأه ردها الذي يعني أيضا الموافقة بسرعة ضحكت بدورها ضحكة خافته وقالت :

– أنت أربكتني كنت قد أعددت كلاما في رأسي ولكنه طار.

سألها وصوته يرتجف قليلا : إذن فأنت توافقين ؟

رفعت إليه وجها باسما وهي تقول : أين ذكاؤك يا حضرة الباشكاتب ؟ لو لم تتكلم أنت اليوم لتكلمت أنا . لماذا ينبغي أن يبدأ الرجال دائما ؟

عقدت الدهشة لسانه وراحت هي ترنو إليها بعينيها الخضراوين الضيقتين وقد ارتسم على وجهها تعبير جاد تماما وأكملت بنبرة واثقة :

– سألت عنك وعرفت كل شيء . أنت أرمل مثلي .

ثم قالت ببساطة بصوتها الهادئ : ولكن لي شروطي .

ولم يستطع توفيق أن يحسم لنفسه أيامها وهو يتكلم ويتصرف كالمنوم إن كان ما يحدث قد جرى ضد إرادته أو لأنه يريده حقا . كان يعرف بالطبع من متابعة قضاياها وأوراقها في الملفات أنها امرأة شديدة الثراء ، تملك أراضي وعقارات وشركات وتسكن في فيلا في جاردن سيتي . يعرفها جميع السعاة والكتبة والمحضرين في المحكمة ويناديونها جميعا «نازلي هانم» وعرف أيضا أنها أم لشابين أحدهما وكيل للنيابة والآخر طبيب كما أن لها ابنة متزوجة ولديها منها أحفاد . وأدهشه قليلا أنها تعرف عنه المعلومات المهمة : أسرته والبيت الذي يملكه والمحل الذي يديره ابنه والأرض التي ورثها هو وشعبان عن سمية والأماكن التي عمل فيها قبل أن يأتي إلى هذه المحكمة . وكل التفاصيل الأخرى في حياته .

ولكن ما أدهشه حقا هو شروطها : سيتزوجان عرفيا حتى لا ترثه ولا يرثها . لن تقيم معه في بيته ولن يقيم معها في الفيلا ولكنهما سيسكنان شقة صغيرة في وسط البلد، ولن يلتقيا كل يوم وإنما في الأيام التي يحددانها .

اعترض الباشكاتب على الفور على فكرة الزواج العرفي، فقالت نازلي لماذا ؟ مسألة الإشهار يعني ؟ عن نفسي أنا بالطبع سأقول لأولادي وتستطيع أنت إن شئت أن تقول لأسرتك . نحن لا نفعل شيئاً محرما .

وهل سيقبل أولادها هذا الوضع ؟

ضحكت وهي تقول : سيرفضون فقط لو عرفوا أن الزواج يمكن أن يحرمهم من الميراث أو أنه يمكن أن يضيع أموال أمهم . ولكن قلت لك إني سألت عنك وإني أعرفك .

ثم أكملت بصوتها الخافت : وأظن أن هذا الترتيب يناسبك أنت أيضا يا أستاذ توفيق يناسبك تماما !

كانت نازلي هانم تعرف كل شيء وتحسب كل شيء . فهل عرفت أنه سيظل يرجيء «الإشهار» لأسرته ولغير أسرته باستثناء الشاهدين اللذين جلبتهما هي؟

لم يستطع أن يقول حتى لأبو خطوة ولكنه أدرك من نظرة وجه صديقه الصالح أنه يعرف . تحدثه نفسه : زواج شرعي وشهود فلماذا إذن لو كان مقتنعا بذلك حقا في قرارة قلبه ينصرف كلص يخفي ما سرق ؟ ولماذا لم يشعر طوال هذه السنين بطمأنينة النفس التي عرفها مع سمية؟ سمية . أي مجال للمقارنة ؟

ولكن فليقل الآن ما يقول . في حينها كان الترتيب مناسبا وكان العلاج ناجحا. لن يجديه الآن الإنكار ولن ينفعه الرياء .

لم يعرف نازلي هانم على حقيقتها إلا في تلك الشقة الصغيرة التي استأجرها بناء على نصيحتها في عمارة مزدحمة بعيادات الأطباء. ولم يكن ذلك متفقا تماما مع الإشهار ولكنه كان ترتيبها المناسب بالفعل . وإلا ففي أي مكان آخر. غير تلك العمارة المليئة بالضوضاء في السلالم والعيادات، كانت نازلي ستسمح لنفسها بتلك الأصوات والصرخات التي أذهلته في لقائهما الأول في فراش الزوجية ؟ لكن تلك المرأة الخافتة الصوت، الناعمة والهادئة ، التي توقع أن يقودها ويعلمها من فنونه المكتسبة منذ الشباب كانت تتحول ساعتها دون فاصل وسط الآهات والصرخات من أميرة متحكمة تطلب إلى جارية خاضعة تبذل ومن التمنع السافر إلى الحياء، والتمنع ومن نمرة إلى شاة . غير أنها كانت تتألق بالذات في دور الجارية الخاضعة التي تحب أن تؤمر وأن يعاقبها سيدها وأن تستجيب في تذلل فيستثير ذلك كله السيد ليعطي أحسن ما عنده . وقالت له مرة بصوت مختنق وهي في حضنه : هذه الأرض ظلت جرداء طويلا وتريد الآن أن ترتوي . لم تكن وحدها . فليعترف . كان السيد أيضا يريد أن يعوض كل ما فاته في السنين الطويلة التي قمع فيها جسده ويريد أن يشفى من الحمى التي اجتاحته في الشهور الأخيرة .

راح يتعامل مع كل ذرة في جسمها ، وكأنه يريد أن يستقطر منها كل ما يمكن للجسم أن يعطيه . كأنه يريد أن يرتشف مرة وإلى الأبد خلاصة المرأة.

خلاصة كل نساء الأرض . في تمهل وتلذذ تارة . وفي اجتياح عاصف تارة أخرى .

اتفقا في بدء الزواج على أن يلتقيا مرتين في الأسبوع في الظهيرة ليقضيا الوقت معا حتى المساء . ولكن في الشهور الأولى التي سبقت خروجه إلى المعاش والتي أعقبته كان ذلك اللقاء يتم أربع أو خمس مرات في الأسبوع لم تشتك الأرض الجرداء من نقص الري ولا انتهى العاشق الذي طال حرمانه من اكتشافه لأعماقها . أيامها كان اللقاء الذي اتفقا على إنهائه في المساء يمتد أحيانا إلى عمق الليل . وذلك قبل أن تنتظم أمورهما بالتدريج . قبل أن تهدأ الثورة وينهك كل منهما الآخر بما يتجاوز قدرة جسديهما . حتى ولو كانا جسدين عفيين ومشوقين للعشق . انتهت المسألة إلى هذا اللقاء الأسبوعي الواحد يوم الخميس، وظل كلاهما يحرص عليه .

بعد كل لقاء، كانت نازلي الجارية تأخذ وقتا طويلاً أمام المرآة لتضع زينتها البسيطة . المرسومة مع ذلك بكل دقة، لكي ترجع قبل الخروج نازلي هانم بكل كبريائها وشموخها . ولفت نظر الباشكاتب، ولكن فيما بعد، أنه لم يكن يدور بينه وبين نازلي . خارج العشق، أي حديث له معناه . أحيانا حين كانا يجلسان معاً في هدوء قبل الخروج من شقتهما ليشربا الشاي ويأكلا الحلوى . كانت تسأله عن رأيه في بعض قضاياها التي لا تنتهي . أو تحسب بدقة أرقام إيرادات ستحصلها أو مصاريف ستدفعها وترجوه أن يراجعها معها . أو تشكو له أحيانا من أن أولادها يتركون كل العبء عليها وكل ما يهمهم أن يجدوا النقود جاهزة في النهاية. أحيانا أيضا كانت تنتقد زوجها الراحل لأنه قبل أن يموت لم يرتب أمور الثروة والتركة ترتيبا مناسبا .

وحين كان توفيق يحدثها عن قلقه أو عن ندمه لأنه يعيش حياة مزدوجة أو لأنه يخون ثقة أسرته التي تحبه كانت تقول له بصوتها الناعم وكأنها لم تسمع ما قاله: يا توفيق . نحن كبرنا على هذه الأشياء !

ولفت نظره أن نازلي التي كانت تمارس العشق بجنون لم تتحدث مرة واحدة عن الحب ، ولا هو ايضا .

ولفت نظره أنه لم يحدثها مرة واحدة عن سمية ولا عن أبو خطوة .

لكنه استمر مع ذلك في «الترتيب» لأنه كان يحتاج إليه وكان يناسبه .

وعاد الباشكاتب يسأل نفسه، للمرة الألف أيضا ، وهو جالس في شرفته هل كانت نازلي هي التي أخذت روحه أم أنه وقع عليها لأن روحه خامدة بالفعل ولا أمل له ؟

هل يجب عليه أن يسلم بأنه انتهى ؟

(٥)

أغلقت الدكتورة صفاء عيادتها مبكرة عن موعدها في الظهيرة وتوجهت إلى فندق (شبرد) لتقابل لبنى التي طلبتها وقالت إنها تريد أن تراها اليوم . اقترحت صفاء أن تلتقيا في العيادة أو عندها في البيت ولكن لبنى أصرت على أن يكون اللقاء في الخارج .

جلستا في الصالة التي تطل على النيل ، على مقعدين متقابلين بجوار الحاجز الزجاجي ، ولم يكن هناك غير بضعة رواد متناثرين في المكان . راحت صفاء تتأمل ابنتها بابتسامة ونظرة مستفهمة قبل تسألها «خيراً يا لبنى . ما الذي ذكرك بي ؟» وابتسمت لبنى بدورها لعبارة أمها المألوفة وقالت «اشتقت لك وأريد أن أتحدث معك في مسألة ..»

كانت الدكتورة صفاء كعادتها تترك شعرها الأسود الطويل مسترسلا ومرجلا بعناية حتى منتصف ظهرها ، وتستخدم زينة كالكحل حول عينيها الواسعتين وتصبغ شفتيها الجميلتين برقة وإحكام . وكانت تلبس (تايير) أزرق و(بلوزة) سماوية اللون . كان كل شيء فيها جميلا . وارتدت لبنى بلوزتها البيضاء العادية وفوقها (بلوفر) من الصوف الأزرق أيضا . راحت تتأمل أمها وتفكر بأن مجرد النظر إليها متعة .

عندما طال الصمت بدأت صفاء الكلام : كيف حال دادة سنية ؟

هزت لبنى رأسها وقالت: بخير . ثم أطرقت وعادت إلي الصمت .

شعرت صفاء بشوق حقيقي إلي مربيتها القديمة ولكنها شعرت أيضا بحرج من التطرق للحديث عنها . بقاؤها مع لبنى جزء من اتفاق الطلاق . تعلقت بها منذ

الصغر أكثر من تعلقها بأمها . ومع أنها تعرف أن شوكت لا يحبها . إلا أنه فهم أن بقاءها ضروري مع لبنى بعد خروج أمها من البيت . واعتادت الدادة سنية أن تزور صفاء مرة في الأسبوع وأن تبيت عندها أحيانا بعد أن تستأذن لبنى. لم تكن المربية كثيرة الكلام . في الواقع أنها نادرا ما تتكلم . لكنها تسمع لصفاء وكان هذا يكفيها . لم تنصحها أو تؤنبها بل كانت تسمع فقط وكانت تحبها . لكم تفتقدها الآن بعد أن أصبحت عاجزة عن الخروج والحركة ! صوتها المرتعش في التليفون يزيد شوقها إليها وخوفها عليها . أحيانا تفكر فيها بالليل وتحلم بها ثم تصحو وهي تبكي . هل ستفقد حتى صوتها عما قريب ؟ ما علاقتها الآن بلبنى ؟ هل تحكي لها هي الأخرى أسرارها ؟ وهل مازالت الدادة قادرة على أن تسمع وتفهم ؟ومن أين لها كل تلك الطاقة على الحنان والحب وهي التي ظلمتها الدنيا ؟

نظرت صفاء شاردة عبر الواجهة الزجاجية إلى النيل، كانت سحب بيضاء كثيفة في السماء، وكان النهر رماديا .

أخيرا تكلمت لبنى وهي مطرقة وقالت لأمها أريد أن أسألك عن شيء : كيف يكون الإنسان سعيدا ؟

ضحكت صفاء ضحكة خافتة ثم قالت لابنتها : أنت تقرئين كثيرا يا لبنى . ألم تجدي إجابة عن هذا السؤال في الكتب ؟

- لا أريد إجابات الكتب . أريد أن أسمع منك أنت .

- أنا بليدة في الأسئلة النظرية ! ربما لكل إنسان سعادته التي تختلف عن سعادة غيره .

- ولكني أريد أن أكون سعيدة .

ابتسمت صفاء : الإنسان لا يريد أن يكون سعيداً يا حبيبتي . هو إما أن يكون سعيدا أو لا يكون . إرادته لا دخل لها بالموضوع .

- وأنت ، هل وجدت السعادة ؟

سكتت صفاء وهي تفكر : هل هذا فخ ؟ ربما تكون لبنى قد جاءت الآن لتحاسبها . لم تعد الطفلة التي اقتصرت علاقتها بها على أن تغمرها بالهدايا ، وعلى الثرثرة الفارغة في لقاءاتهما القليلة. الآن جاء وقت الأسئلة الصعبة ! ومن يدري ؟ ربما يكون شوكت قد ملأ رأسها بكلام عنها فقالت صفاء متهربة من الرد : هل تعرفين كلمة دادة سنية التقليدية . الرضا ؟ أن يرضى الإنسان بما يجده . هي مثلا لم تجد في حياتها سوى القليل . ترملت في شبابها دون أن تنجب ولكنها رضيت بي وبك أحبتنا وأحببناها .

وفكرت لحظة قبل أن تقول : وربما أيضا أن يرضى الإنسان بنفسه . ألا يطلب من نفسه غير ما يمكن أن تعطيه. أن يرضى حتى بضعفه الذي لا يستطيع أن يغيره .

قالت لبنى متبرمة : يا أمي يا حبيبتي أنا لم أطلبك اليوم لأستمع إلى حكم ومواعظ . أنا أريد أن تكلميني عن حياتك . هل وجدت السعادة وكيف ؟

نظرت صفاء إلى ساعتها وتكلمت بهدوء لتخفي انفعالها : لا أستطيع بعد عمل كذا ساعة في العيادة أن أدخل امتحانا في .. ولكن عموما ما السبب في هذه الأسئلة ؟

قالت لبنى وهي لا تزال مطرقة : لأني أحب .

أشرق وجه صفاء وبدا فيه فرح حقيقي : أخيرا ! مبروك ! كنت أظن أنك أنت .. ثم وضعت يدها على يد ابنتها وقالت : أترين ؟ الآن أنا سعيدة بحق . سعيدة بك ومن أجلك .

لم تهتز لبنى لانفعال أمها وقالت وهي تحول وجهها نحو زجاج الواجهة : فلماذا أنا لست سعيدة ؟

- كيف ؟ آه ! أنت تحبينه وهو لا يحبك ، أو ربما لا يعرف أنك تحبينه ؟

- لا ، أنا أحبه وهو يحبني ، أو يقول إنه يحبني . لا أعرف . أظن أنه بالفعل يحبني .

- إذن ما هي المشكلة ؟ هل هو شخص صعب ؟

وأوشكت أن تفلت منها عبارة «مثل أبيك» لكنها توقفت في اللحظة المناسبة وكانت لبنى تقول :

- لا ، هو أطيب إنسان في العالم ! وأنا أحبه جدا وأكون سعيدة معه، المشكلة ..

وضعت يدها على جبينها وصفاء تنظر إليها لكي تكمل فقالت لبنى : أريد أن تساعديني ؟

المشكلة أني أخاف من كل شيء !

- لا يمكن أن يكون هذا بدون سبب يا لبنى . لو قالت واحدة غيرك هذا الكلام سأقول لها ببساطة أن ترى طبيبا نفسيا ، ولكن أنت بذكائك .. أنت حتى أذكى مني بكثير . لو فكرت ..

وتساءلت صفاء إن كانت ابنتها ، قد فقدت بالفعل الثقة بسبب تجربة انفصالها عن أبيها . عادت لبنى تتكلم مطرقة فيما يشبه الهمس : لا أعرف السبب . أو أعرف أسبابا كثيرة، ولكن هذا لا يساعدني في ...

ثم نظرت إلى أمها بما يشبه من التحدي وقالت : أتريدين أن تعرفي ؟ الخوف أعيش معه منذ صغري . بعد أن كنت تضعينني في الفراش وتطفئين النور ، كنت أقوم وأضيئه من جديد فور خروجك وفي أكثر الليالي لم يكن هذا يساعدني ، كنت أخرج وأنا أرتجف من الرعب لأنام في حضن دادة سنية ، وكانت هي تحملني بعد ذلك ناعسة إلى الفراش .

- وكيف لم تقل لي هي ولم تقولي أنت ؟ .. ولكن هذا طبيعي دادة سنية لا تتكلم وأنت .. ثم سكتت لحظة قبل أن تكمل : عندما كنت في مدرسة الراهبات كنّ يخوفننا من الشيطان الذي يوجد في كل شيء، حتى في أظافر أصابعنا ، وأذكر جيدا أني كنت أخاف بالفعل . هل كنّ يخوفنك أنت أيضا؟

قالت لبنى نافدة الصبر : يا أمي الخوف يعيش معي من قبل أن أدخل المدرسة . أنا ولدت بالخوف. أنا مازلت حتى الآن .. !

- ولماذا لم تكلميني عن هذا من قبل يا لبنى ؟ ربما لو تحدثنا معا .. ثم استدركت : أنا لا ألومك الآن ولكني ألوم نفسي ..

عبر وجه صفاء الجميل حزن حقيقي وهي تنظر إلى ابنتها . أرادت أن تقول لها سامحيني ولكنها كانت تكره العبارات العاطفية وتعرف أن لبنى أيضا لا تطيقها . رباها الدكتور شوكت على اعتبار الدموع والكلام العاطفي ضعفا لا يليق حتى وهي طفلة كان يعاقبها إذا ما بكت ! ولم يقبل أن تتدخل صفاء في أساليبه الحديثة لتربية لبنى لتكون قوية . ولكن لماذا استسلمت لذلك ؟ لماذا قبلت أن ترى ابنتها الصغيرة تصارع لتحبس دموعها وتشعر بالعار إذا ما بكت ؟ كيف صبرت على هذه القسوة ؟

لحظتها فاجأتها لبنى مرة أخرى حين سألتها وهي تنظر عبر الزجاج إلى النهر :

- هناك مسألة حيرتني منذ الصغر . لماذا كان الطلاق بينك وبين أبي ؟ هل كان لي أنا علاقة بالموضوع ؟ هل كنت من بين أسباب الطلاق ؟

تراجعت صفاء في مقعدها وقالت باستغراب : كيف تكونين أنت السبب ؟ بالعكس ربما كنت أنت السبب في تأجيل الطلاق. لا يوجد أي شيء مشترك بيني

وبين أبيك غير أننا نحن الاثنين نحبك ! .. كيف يخطر ببالك !

وحولت صفاء وجهها أيضا نحو النهر وهى تفكر : بالفعل . كيف يخطر ببال لبنى شيء كهذا ! وما الذى يمكن أن تقوله لهذه الطفلة . التى ما زالت طفلة رغم ذكائها وقراءاتها . عن أبيها العظيم؟ غلطتها الأولى والكبرى بالطبع أنها لم تكتشفه على حقيقته قبل الزواج . لم تكتشف أن ثقته بنفسه التى أعجبتها وجذبتها إليه لم تكن سوى غرور أعمى يجعله يرى نفسه محور الكون . غرور بعلمه . وبنجاحه . وبوسامته . وبماضيه الثورى . ثم بتنكره للثورة وبأفكاره العملية الجديدة . يجد فى كل ما فعله أو يفعله فى حياته مصدرا للتباهى ودرساً يجب أن يتعلم منه الآخرون . غرور يجعله لا يرى من أمامه ولا حتى من تشاركه فراشه ! فى البدء كانت تتعذب فى صمت . تخجل أن تقول له شيئاً وهى تراه ينصرف عنها فور أن يرضى رغبته. تتقزز من نفسها إذ تضطر إلى أن تنهى توترها بنفسها خفية. ولما لم تعد تحتمل صارحته . وجدت صعوبة فى التغلب على خجلها وتكلمت بتردد. بأنصاف جمل وبتلميحات مبهمة . وكانت تنتظر منه بعدها أى شيء غير ما سمعته أذنها. قال شوكت وهو ينظر إليها مباشرة دون أى انفعال إنه يفهم مؤامرتها لتحطيمه ! قال إنه ينجح مع كل النساء غيرها فلماذا تتعمد هى ألا تضبط نفسها معه ؟ هى بالطبع تغار منه ومن نجاحه ومن تفوقه فى الطب وتعجز عن اللحاق به ولهذا تريد إذلاله بهذه الحكاية ! لكنه لن يسمح لها بأن تهز ثقته فى نفسه أو أن تعطله . إن كان عندها برود فلتعالج نفسها دون أن تحمله مشاكلها ! أضاف إلى عذاب التوتر إشعارها بالذنب دون أن تهتز فيه شعرة .

ياه ! كل تلك السنين من التعاسة التى عاشتها مع هذا المجنون !

التفتت إلى لبنى الصامتة وقالت لها : حدث الطلاق كما يحدث أى طلاق. لم نتفق ولا ذنب لك فيما حدث بالطبع . بل الذنب ذنبنا . نحن أخطأنا فى حقك . أنا أشعر الآن بالذنب لأننى لم أعرف بحكاية مخاوف طفولتك ولكن أنت تعرفين

يالبنى من قراءاتك أن الإنسان لا يعيش بمخاوف الطفولة ولا حتى بالمشاكل الحقيقية التى يمر بها فى طفولته وشبابه. وكل إنسان يصنع نفسه يالبنى . وفى الغالب يصنع نفسه ضد ماضيه ..

لوحت لبنى بيدها وهى تقول : لا داعى لهذا الكلام يا أمى. قلت لك من البدء إنى لا أحتاج إلى مواعظ. أريد أن أسمع كلاما مفيدا. قولى مثلا ماذا أفعل فى حكاية الأستاذ حمام ؟

بدأت تحكى لأمها بهمس محايد تماما . دون انفعال ودون تهدج. ولكن حين انتهت كانت ترفع رأسها كعادتها لتقاوم الدموع التى تريد أن تطفر . أما صفاء فتركت دموعها تنساب فى صمت. لم تسألها هذه المرة لماذا لم تقولى لى من قبل. كانت تفكر أنها لم تقترب أبدا حقيقة من ابنتها وأنها مسئولة بشكل ما عما أصابها.

أمسكت بيدى لبنى الموضوعتين على المنضدة دون أن تقول أى شيء ثم سألتها هامسة أيضا :

– هل حدثت أحدا غيرى عن ذلك ؟

– دادة سنية .

– أقصد حدثت أحداً غيرها ؟

– لا . ولكن لابد أن أقول لسالم. من حقه أن يعرف .

فقالت صفاء ببطء وبنبرة حاسمة دون أن ترفع صوتها: ولا كلمة ! لا هو ولا أى إنسان غيره. هذا شيء يمكن علاجه .

– بالخداع ؟

تركت صفاء يدى ابنتها وسألتها : هل تريدين أن تفقديه ؟

فدارت لبنى رأسها مرة أخرى: لاأريد أن أعيش في الكذب.

قالت صفاء دون أن تنظر في وجه ابنتها: لا أنت ولا غيرك . لا أحد يريد أن يعيش في الكذب ولكن ما العمل وحياتنا نفسها كذبة كبيرة ؟

ثم فتحت حقيبة يدها وأخرجت مرآة صغيرة وراحت تصلح زينتها التي أفسدتها الدموع. استغرقت وقتا طويلا لأنها كانت تفتش في رأسها عن كلام آخر تقوله للبنى الغارقة في الصمت ، ولكنها شعرت أن ابنتها قد انسحبت داخل نفسها من جديد ، وأنها قد أصبحت الآن بعيدة عنها تماماً.

ومع ذلك لم تترك صفاء لبنى إلا بعد أن انتزعت منها وعدا بألا تبوح لأحد بقصة المدرس قبل أن تتكلما مرة أخرى، وعدت أن تتصل بها في الغد بعد أن تفكر جيدا في الموضوع ثم تلتقي بها وتواصلا الكلام .

لم تتابع لبنى أمها بتركيز. أخذت تهز رأسها وتقول نعم - بالطبع - غدا ، ولكنها كانت تفكر في شيء آخر كانت تقول لنفسها : إذن لا حل سوى الانتحار أو أن أترك سالم. ولكنها كانت تعرف أنها أجبن من أن تفعل هذا أو ذاك .

وخارج الفندق كان الجو باردا . عرضت الدكتورة صفاء على لبنى أن توصلها بسيارتها إلى أي مكان تريده لكنها قالت إنها تحب أن تمشي. سألتها أمها تمشين في هذا الجو؟ فهزت رأسها وقالت صفاء بابتسامة متكلفة وهي تصعد إلى سيارتها «مجنونة مثل أمك ! لا تنسي موعدنا غدا» .

هزت لبنى رأسها مرة أخرى وتذكرت وهي تلوح لأمها بالتحية : لم أقل لها حتى لماذا أردت حقيقة مقابلتها اليوم !

* * *

سارت لبنى على شاطيء النيل في اتجاه جزيرة الروضة لكي تقابل سالم في الموعد. كان الجو باردا بالفعل فضمت (البلوفر) على جسدها وأسرعت خطواتها.

لكنها توقفت فجأة أمام حاجز الكورنيش الحجري. فكرت وهي تنظر إلى الأمواج الرمادية المتواثبة : ومع ذلك فسوف أفقده! شئت أو أبيت فسوف أفقده. رأت في الصباح مرتضى فتشاءمت ولم تكن مخطئة.

شبكت يديها أمام صدرها وراحت تنقل بصرها بين السحب البيضاء في السماء، وشراع مركب كبير منتفخ بالهواء، يتجه نحو الجنوب. كان الشراع مشدودا ومتوترا فبدأ (المراكبية) يتسلقون الصارى ويطوون الشراع. راقبتهم وهي تحاول كالعادة أن تمنع الدموع من عينيها وفكرة واحدة تتكرر في رأسها . كل شيء إذن سينتهي. كل ذلك الفرح القصير العمر. كل تلك الشهور من الأحلام. كلها ستضيع .

بدأت تمشي ببطء في اتجاه الكازينو الذي ستقابله فيه.

سترجع إذن إلى الحياة القديمة. سترجع إلى التلفت للوراء، في خوف واحتباس الصوت والهروب في القراءة والرعب من الناس والأشياء . سترجع إلى الوقت الذي يقتل الوقت ويميتني معه !.

ولنفرض أنها قالت له عن قصتها مع حسام وأنه فهم وغفر. (كيف؟ بأية معجزة؟ لا تدري!) فهل سيغفر لها أنها أخفت عنه حكاية المقالات والمنشورات والمظاهرات؟ هل سيفهم أنها كذبت عليه لكي لا تفقده؟ هل سيصدق ؟ هل سيفهم ؟

ولنفرض أنها سكتت وأن المسألة مرت بسلام فهل سيفوت مرتضى الفرصة؟ عرف رغم كل محاولاتها للتخفي أن هناك شيئا بينها وبين سالم. وحين يتصادف أن يراهما معا يرمقها بابتسامة بغيضة ونظرة كارهة. لديه سبب للحقد أكثر من (باجو) على أي حال ! يعتبر أن سالم سرقها منه! تعمدت المجموعة ألا تشركه في أي شيء. لا في الاجتماعات ولا في تحرير المقالات لكنه جاءها مع ذلك في

الصباح بابتسامته التي تمقتها وقال لها بسنة حلوة ياجميل ! إذن سنحتفل غدا وننسى المنشورات ؟ غدا ١٥ يناير؟ أليس كذلك؟

ابتعدت عنه وجاءها الدوار على الفور. خافت منه وكانت خائفة من الأصل. لماذا لم تقل لهم الحقيقة وهم يوزعون المهام؟ لماذا لم تقل على الأقل أنا جبانة وأرجوكم أن تعفوني من هذا العمل؟ خافت حتى أن تقول ذلك. جاء غثيان الخوف والعرق البارد لكنها لم تنطق، وشعرت بالعار وهي ترى زملاءها وزميلاتها يقبلون المطلوب منهم ببساطة وحتى بحماس. كان يجب أن تنسحب، لا في تلك اللحظة وإنما قبلها بكثير. كان يجب أن تعترف لنفسها بأن هذه اللعبة ليست لعبتها. ستعترف بهذا لسالم. ستكون أصرح مع نفسها. ستقول إنها حتى وهي في قلب اللعبة لم تقتنع تماما بما تفعله. حدثتها نفسها بأن هؤلاء الطلبة الفقراء يدافعون بالفعل عن مصالحهم، أما هي فعن أي شيء تدافع؟ الدكتور شوكت معه كل الأموال ويعطيها كل ما تطلب.

هل أراحت ضميرها عندما امتنعت عن أن يوصلها سائقه بسيارته إلى الجامعة؟ عندما صممت ألا تلبس الثياب الغالية مثل الدكتورة صفا؟ أبدا. هي ليست منهم. أكثر من ذلك، لتعترف بأنها كانت في وسط اجتماعاتهم تشعر بنفور وتقزز من روائحهم! أحيانا تبتعد خطوات عمن يقترب منها ليكلمها ورائحة فمه وجسمه وثيابه تصيبها بالدوار. تسأل نفسها لماذا لا يستحمون ياربي؟ لا يوجد في مصر أكثر من الماء ولا أرخص منه. لماذا لا يغسلون ملابسهم ليزيلوا رائحة العرق على الأقل؟ كيف لا يشعرون بقذارتهم؟ كيف لا يتقززون من روائح أجسادهم وهم طلبة جامعة؟ المفروض أن يكون أحد قد علمهم شيئا عن النظافة وأنهم يفهمون هذه الكلمة. فلماذا يا ربي كل هذا الاستهتار؟ لو كانت لديها ذرة من الشجاعة لصرخت فيهم أنهم قبل أن يثوروا على السياسة يجب أن يثوروا على

قذارة أجسامهم! لكنها لم تفعل. لم تقل رأيها في أي شيء. بل كانت تشعر بالذنب حين تأتيها هذه الأفكار، وإن لم تستطع التخلص منها أبدا.

أهم من ذلك أنها كان يجب أن تعترف بأن حبها لسالم يشغل كل حياتها. لكنها لم تفعل. تركت نفسها لعمل لا تستطيع تحمله وأخفت أمره عن سالم. أقنعت نفسها ببيت من الشعر لشكسبير يقول «لا تدخل معركة ولكن إذا دخلت فاثبت». برافو! ولكن ماذا وهي لا تستطيع أن تثبت؟ حقيقة لا تستطيع.

بدأ رذاذ خفيف في السقوط. فأسرعت لبنى خطواتها ولكن ساقيها عادتا ترتجفان أكثر من المعتاد.

ستذهب إلى الكازينو فتجد أن سالم عرف كل شيء من مرتضى. سيتهمها بأنها تخونه. تخفي عنه أفعالها. سيكون قد عرف بحكاية الأستاذ حمام. ليس بعيدا أن تكون قد وصلته بطريقة ما. سيشتمها. سيضربها. ستفقده إلى الأبد! الأفضل ألا تقابله. الأفضل أن تموت الآن حالا! لماذا لا يأتي الموت عندما يتمناه الإنسان؟

لكنها وجدت نفسها رغم كل شيء في الكازينو. لم تكن ساقاها وحدهما ترتعشان بل شفتاها وقلبها.

وحين رآها سالم مقبلة عليه وقف وقال منزعجا: ماذا بك يالبنى ؟

فجلست قبالته دون أن تنطق بكلمة.

قال لها : تحبين أن ندخل في الصالة؟ الدنيا برد وشفتاك زرقاوان.

هزت رأسها وتمتمت : لا بأس.

لكنها ظلت في مكانها . وكرر سالم في قلق: ماذا حدث ؟

فردت شاردة : قابلت أمي.

ثم استجمعت نفسها بجهد خارق وقالت: معك حق. فلندخل إلى الصالة.

قامت وتبعها. كانت الصالة الزجاجية للكازينو التي يغطونها في الشتاء أشد برودة من المكان المفتوح. يتسرب إليها هواء بارد من فرجات الزجاج. لم يكن هناك غيرهما في المكان وعدد من الجرسونات في سترات بيضاء، لاحظت أنهم جميعا يركزون أنظارهم عليها فقالت لسالم: نشرب الشاي ونمشي.

ولكنها استرخت قليلا وهي تشرب الشاي الساخن وسالم ينظر إليها صامتا. راحت تتطلع إلى هاتين العينين الحبيبتين وكأنها تريد أن تحفرهما في ذهنها. كأنها لن تراهما مرة أخرى. وراح هو أيضا ينظر في وجهها متأملا ثم قال بصوت خفيض:

- هناك شيء يحزنك.

- نعم.

سكت مرة أخرى قبل أن يقول في شيء من الحزن: تمنيت من أجلك ياليتني لو كنت أحسن مما أنا.

سألته في قلق: ماذا تقصد؟

- من مدة أفكر .. أحاول أن أنسى ولكني لا أستطيع. أنت ذكية وتقرئين كتبا لا أعرفها بلغات لا أعرفها، وأنت جميلة وغنية وأنا .. كان يمكن أن تجدي إنسانا أفضل مني بكثير.

قالت لبنى في يأس: أنت تريد أن تتركني. هل هذا ما تقصده؟

- لا. كيف تفكرين في ذلك؟ أنا أريد فقط أن تعرفي .. وربما تعتقدين أنني الآن أو لأنني كنت .. لأنه كانت تأتيني الحالة التي جعلت أبي يعتقد إنني مجنون.. وربما تعتقدين أنني لا أعرف .. ولكن أنا أعرف الفرق .. أعرف أني لا أستحقك .. ولكن لو تركتني .. أظن أني .. ربما بالفعل ..

نظرت لبنى إلى وجهه المعذب. تابعت محاولاته لكي ينتزع الكلمات بصعوبة فغمرها إحساس جارف أنساها كل شيء آخر غير أن سالم يتألم. وأنه يتألم من أجلها فقالت بنبرة فيها شيء من الاستسلام:

- وكيف يمكن لي أنا أن أتركك؟ ألم أقل لك أكثر من مرة إنك أحسن شيء حدث في حياتي؟ ثم إنني لست جميلة ولا ذكية. لست أذكى منك. أنسيت أنك أنت الذي تشرح لي مسائل القانون الصعبة التي لا أفهمها؟ وأنا أحبك لأنك أنت كما أنت. أحب جدك الذي لم أقابله وأحب أختك وابنها عندما تتحدث عنهما لأنك أنت تحبهما. ولو كنت تحبني فأنت تحبني لأنني أنا كما أنا ..

أشرق وجه سالم قليلا وهو يتذكر شيئا: جدي أيضا يقول ذلك. عندما حدثته عنك قال لي إن الحب الحقيقي التقاء روحين والأرواح لا تتنافس في الجمال ولا في الذكاء لأن كل الأرواح جميلة وذكية.

قالت لبنى: لو كان جدك معنا لقبلته لأنه يقول هذا الكلام!

ولكنها ابتسمت لنفسها حين طرأ على ذهنها ما يمكن أن يحدث لو سمع الدكتور شوكت أو الدكتورة صفاء هذا الكلام عن الأرواح. ليس علميا على الإطلاق!.

وقالت لسالم في دهشة حقيقية: لو نبقى معا ياسالم هكذا إلى الأبد! فقط هكذا! ولو في هذا المكان. في هذا البرد! عندما جئت قلت لي إن هناك شيئا يحزنني. نعم. هناك أشياء تحزنني ولكني معك أنساها. وأرجوك ألا تسألني اليوم عن الحزن.

وأكملت لنفسها سيأتي في موعده قدعنا على الأقل ننساه في هذه اللحظة. ثم حكت جبينها بيدها وقالت:

- لكي أنساها إلى الأبد. فلابد أن تبقى معي إلى الأبد! لا تتركني لحظة ..

- ولكن أنا أحدثك عن كل شيء، ولا أعرف عنك إلا القليل.

سألته في توجس وقد عاودها ما تهرب منه: ما الذي تريد أن تعرفه ؟

- عندما سألتك قلت إنك قابلت أمك، هل حدث شيء، عندما قابلتها ؟

تنهدت بشيء من الارتياح وهي تقول: نعم قلت لك من قبل أنت لك جد تحبه وأسرة تحبها وأنا ليس لي أحد أبدا. أرى أمي قليلا. أما أبي الذي أعيش معه فربما أراه أقل مما أرى أمي. هو طول الوقت في العيادة أو في المستشفى. لولا دادة سنية لانتحرت !

قال في انزعاج شديد: تنتحرين ! كيف تفكرين في ذلك ؟

ابتسمت بالرغم منها : لا تخف هكذا ! أنا أجبن من أن أنتحر !

سكت لحظة قبل أن يسألها: هل تحبين والدك؟

رجعت في كرسيها ورفعت رأسها وهي تقول: لا.. أقصد نعم.. نعم بالطبع أحبه. هو أبي. ولكنا لسنا صاحبين.. لماذا بدأت هذه الحكاية من الأصل. ما السبب في كل هذه الأسئلة ؟

- كنت أقول .. كنت أريد .. أردت أن أتعرف عليك. على حياتك وعلى أسرتك.

فقالت دون تفكير : هذا سهل جدا ياسالم!

(٦)

عندما دخل العمارة توقف لحظة في المدخل. كان فسيحا، من رخام أبيض على جانبيه رسوم فسيفسائية ملونة لغزلان ترعى وسط حشائش، وتحف به من الناحيتين أصص نباتات أوراقها خضراء لامعة، ومن السقف تتدلى ثريات ضخمة باهرة الضوء من الكريستال. وفور دخولهما هب واحد من حراس الأمن الجالسين إلى مكتب في الركن بأزيائهم الزرقاء، وحيا لبنى في أدب شديد ثم أسرع قبلهما ليفتح باب المصعد. وانتبه سالم إلى أن لبنى لم تنظر نحو الحارس وأنها لم تشكره.

انتبه أيضا إلى فخامة الشقة عندما واجهته الصالة الواسعة التي توشك أن تكون في مساحة شقتهم كلها. بهره كل شيء.. قطع الأثاث وطريقة ترتيبه والمكتبة الجميلة بتحفها الزخرف فقال وهو ينظر حوله:

- بيتك جميل يا لبنى.

- شكرا. هو بيت أبي.

أراد أن يسألها وهل هناك فرق؟ ولكنه لزم الصمت. منذ رآها هذا المساء وهي تثرثر كثيرا ولايبدو عليها أنها تسمع ما يقوله. تبدأ كلاما وتتوقف قبل أن تكمله، يمتقع وجهها أحيانا وتضحك ضحكات عصبية في أحيان أخرى. وعندما عرضت عليه أن يأتي معها لم تترك له فرصة للتفكير.

قالت : ما دمت تريد أن تعرف كيف أعيش لماذا لا تأتي وترى بنفسك؟ سأعرفك على دادة سنية ولو أسعدنا الحظ فسأعرفك على الدكتور شوكت ! هيا !

قامت وجذبته من يده، وفي الطريق أشارت إلى تاكسي ثم خلال دقائق كانا أمام العمارة الشاهقة التي تطل على نيل الجيزة في الضفة الأخرى.

ضغطت على الجرس قبل أن تفتح الباب بمفتاحها فاستقبلهما في الردهة

خادم يلبس سترة بيضاء مثل الجرسونات، سألته فور دخولها :

– الدكتور هنا ؟

– لا . الدكتور اتصل وقال إنه لن يأتي للعشاء.

وأشار بيده لسالم في اتجاه الصالون المختفي في آخر الصالة الشاسعة وهو يقول : تفضل يا أستاذ .

لكن لبنى جذبت سالم من يده قائلة: تعال! أنت تحب النيل فاحتمل البرد !

جلسا في الشرفة العالية على مقعدين مبطنين بقماش اسفنجي، وكانت الشمس الغاربة قد بددت بعض السحب وصبغتها بلون وردي ينعكس على سطح النهر أطيافاً ذهبية متقاطعة . تبتلعها الأمواج ثم تطفو على السطح في ألق خاطف.

استغرق سالم في متابعة تلك الالتماعات الرجراجة في الماء قبل أن تحجب الشمس سحابة كبيرة فتختفي هذه الأطياف ويتحول النهر إلى مجرى رمادي داكن مستطيل يشق كتل المباني على جانبيه ويجتاز الجسور التي [illegible] العربات . لم يسبق له أن رأى السيارات من هذا الارتفاع صغيرة الحجم وضجتها تأتي من بعيد خافتة كالصدى، لكن النهر الممتد أمامه يبدو كأنه هو الشيء الوحيد الهادي، الذي يوحي بالسكون حين يركز نظره عليه .

التفت إلى لبنى التي كانت تنظر مثله صامتة إلى النيل وقال : معك حق عندما تنظر إلى النيل من بعيد ..

ثم سكت فأكملت هي : يكون النيل وحده هو الجميل . أليس كذلك؟

– هذا ما أردت أن أقوله .

ظلت تنظر نحو النهر وقالت بصوت خافت: أحب أيضاً قصيدة النهر الخالد . مليئة بالصور الجميلة – مسافر زاده الخيال،، . وظمآن والكأس في يديه .. . ولم يزل ينشد الديارا ويسأل الليل والنهارا ، أحب بالذات البيت الذي يقول ياليتني موجة فأحكي إلى لياليك ما شجاني وأغتدي للرياح جارا . أي هروب أجمل من

هذا الهروب ؟ أن تصبح موجة في النيل وأن تهمس للريح بشكواك . لا مشاكل على الإطلاق!

قال وفي صوته نبرة من الأسى : أنا لا أقرأ الشعر مثلك يا لبنى.

ضحكت ضحكة خافتة وهي تحول وجهها نحوه : أي قراءة يا سالم؟ هذه أغنية يذيعها الراديو كل يوم تقريباً . ألم تسمعها أبداً؟

– سمعتها ولكنها لم تطرأ الآن على بالي ولم أفكر فيها كما فكرت أنت.

أنت فكرت هكذا لأنك تقرئين كثيراً . ليتني أستطيع أن أصبح مثلك!

قالت متظاهرة باللامبالاة : نعم قبل أن أعرفك كنت أقرأ . عندي وقت كثير لا أعرف ما أفعله به . قلت لك أنت عندك أسرة تحبها وتشغلك . أما أنا، فليس لي أحد . أعطني هذه الأسرة يا سيدي وخذ كل القراءة التي قرأتها!

ثم أطرقت وهي تفكر لنفسها : ليتنا يا سالم لانتحدث الآن بالذات عما يفرق بيننا [illegible]!

مالت نحوه فجأة وهي في مقعدها وجذبت ذراعه ثم قبلته قبلة سريعة في جبينه وابتعدت عنه بالسرعة نفسها.

في تلك اللحظة سمعا صوت خطوات بطيئة تقترب ، ثم ظهرت بالباب سيدة عجوز تستند إلى الجدار وهي تنقل خطواتها بصعوبة. لم يتحقق سالم من ملامحها جيداً في عتمة الغروب التي حلت . رأى فقط أنها تلبس جلباباً من قماش مشجر وتضع على رأسها طرحة بيضاء، تحيط بوجهها كله.

هبت لبنى من مكانها وقالت وفي صوتها انزعاج : دادة ! لماذا تركت غرفتك ؟ ما الذي جعلك تقومين وتخرجين إلى هنا في هذا البرد؟ منذ متى تفعلين ذلك؟

احتضنتها لبنى وهي تضيء نور الغرفة فرأى سالم وجهها المتغضن بالتجاعيد مثل إسفنجة متكورة تطل منه عينان كابيتان . لم يبد أنها رأت سالم لأنها قالت بصوت ضعيف: متى رجعت يا لبنى؟ ولماذا تأخرت؟ قلبي ياكلني عليك طول النهار.

قالت لبنى وهى تقبلها : مساء الخير يا دادة . أنا . أنا جئت منذ قليل وكنت سأمر عليك الآن فى غرفتك ..

ثم أشارت بيدها إلى الشرفة وهى مازالت تحتضن مربيتها : هذا زميلى سالم الذى كلمتك عنه . سنذاكر الآن معا.

راحت العجوز تتفحصه من بعيد بعينيها الكليلتين وهى تسند يدها إلى باب الشرفة قالت : مساء الخير يا ابنى . بالنجاح إن شاء الله.

نهض من مكانه ورد عليها من بعيد بارتباك فقالت وهى لاتزال تتفحصه :

- أنت إنسان طيب.

أشرق وجه لبنى حين سمعت هذا وقالت لسالم بنبرة ظافرة : أرأيت ؟

فقالت المربية بصوت بدا لسالم حزينا: وأنت أيضا طيبة يا لبنى و .

غير أن لبنى قاطعتها وهى تضع يدها حول كتفها وتقودها بعيدا مبتعدة عن الشرفة : تكفى هذه «الشقاوة» يادادة ! الآن نرجع إلى غرفتنا وتأخذ دواءك..

قالت العجوز وهى تبتعد مستندة إلى لبنى: ولكن لماذا تجلسان فى الهواء؟ سيصيبكما البرد..

فردت لبنى : لاتقلقى أنت يا دادة . سأقول لعم حسن أن يعد لنا فنجانين من الشاي، وسنشربهما فى غرفة المكتب ونحن نذاكر..

عادت لبنى بعد فترة فوجدت سالم يقف مستندا إلى سياج الشرفة وهو يتطلع إلى النهر . كانت أنوار الشوارع والإعلانات الملونة قد أضيئت وانعكست على صفحة النيل. وقفت لبنى إلى جانب سالم وكان إعلان فى أعلى عمارة بالضفة المقابلة يتوهج بنور أحمر ينطفئ ويضئ بانتظام . وكان يلقى على النيل أشعة حمراء متوازية ورجراجة . وقالت لسالم إنها تكره هذا الإعلان لأنه يعطى النيل لونا كاذبا مثل وجه مهرج السيرك.

لم يرد سالم . شعرت به يقف متوترا رغم أنه كان يرتجف ارتجافة خفيفة. مدت يدها وأمسكت بيده : وقالت يدك باردة بالفعل وستصاب بالبرد كما قالت

دادة سنية . تعال ندخل ..

ظل يقف مكانه وسألها دون أن يحول وجهه نحوها : ماذا قلت لدادة سنية عنى؟

فردت ببساطة : كل شيء . أنا لا أخفى عنها أى شيء ..

فقال ونبرة التوتر تتصاعد فى صوته : ولكن ماذا قلت لها بالضبط؟ نحن فقراء ولكننا لانسكن فى حارة !

قالت فى دهشة : وماذا لو كنت تسكن فى حارة ؟ ما أهمية ذلك يا سالم ؟ ألم يقل جدك..

ثم توقفت فجأة وراحت تربت على ذراعه برفق وهى تقول : لا يا سالم . لم أقل لها عنك أى شيء غير أنك زميلى وأننى أحبك وكانت هى سعيدة لأنها تحبنى ، والعجوز رأيت بنفسك أنها تحبك أنت أيضا . تعال .. تعال ندخل..

* * *

كانت غرفة المكتب واسعة ودافئة تحف بحوائطها كلها مكتبة من خشب أبيض صفت فى رفوفها كتب ومجلدات مختلفة، ويتصدرها مكتب من الخشب نفسه وكرسى عالى الظهر . وفى ركن من الغرفة منضدة صغيرة حولها مقعدان وبالقرب منها كنبة من الجلد الفاتح اللون.

قال سالم وهو يجول وسط الكتب : هذه معظمها كتب علمية وكتب فى التاريخ. قلت لى إنك تقرئين روايات ولكنى لا أرى أي روايات هنا.

فقالت لبنى التى كانت تسير وراءه متابعة خطواته : هذه كتب أبى وبعض كتب أمى التى تركتها . مكتبتى الصغيرة فى غرفتى.

ثم أضافت وهى تبتسم : ولا تقلق . كلها روايات ويمكن أن أعيرك منها لو كان عندك وقت لقراءة الروايات.

فقال بانفعال : نعم أريد أن أعرف كل ما تعرفين . أريد أن أصبح مثلك. فهزت لبنى رأسها وهى تقول لنفسها : ليتك لاتصبح مثلى!

جلسا متواجهين يرتشفان الشاي الساخن في صمت . كان ينظر لها بعينين تموج فيهما غشاوة رقيقة كالدمع ويتضرج وجهه كلما التقت عيونهما . وكانت هي مستغرقة في التفكير . تتحرك في مقعدها بقلق . يرتعش فنجان الشاي في يدها ويحدث صلصلة في الطبق كلما رفعته إلى شفتيها أو أعادته إلى مكانه. وبدا أنها مثله تريد الصمت أن يستمر. لكن عم حسن العجوز ظهر بالباب. كان يمشي دون أن ينقل قدميه كأنه يزحف وقال وهو يحمل التليفون بيد والسماعة بيد أخرى ويجرجر وراءه السلك الطويل:

- مكالمة لك يا آنسة ابتي.

أمسكت بالسماعة وراحت ترد على المتكلم بصوت خافت : نعم .. نعم .. ثم امتقع وجهها فجأة وقامت من مكانها وابتعدت عدة خطوات وهي تقول :

- نعم . قابلت هذا الكارثة في الصباح وأعرف أنه يعرفه ..

ثم ارتفع صوتها فجأة وهي تقول : أنت فقط تشكين .. بالطبع هو يعرف كل الأسماء، نعم .. وما العمل الآن ؟ فات الوقت ! مع السلامة . نعم . نعم ، سأتخلص منها ..

كان عم حسن يقف في انتظار أن تنهي المكالمة ولكنها ظلت تمسك السماعة مطرقة الرأس قبل أن تناولها له بيد شاردة وهي تقول:

- لا أريد أي مكالمات أخرى.

سألها وهو يمسك التليفون كطفل رضيع: هل أجهز العشاء لك وللأستاذ؟

لوحت بيدها لا . أنا لن أتعشى. يمكنك أن تنصرف إذا شئت.

قال دون حماس : ولكن يمكن أن أبقى يا آنسة ..

قاطعته بنفاد صبر : إفعل ما تشاء يا عم حسن . ولكن أنا لن أتعشى.

- إذن بعد إذنك.

وعندما انصرف الخادم بخطواته الزاحفة قالت وهي تنظر نحو سالم دون وعي: ما الفائدة؟

- ما الفائدة من ماذا؟

فلوحت بيدها دون أن ترد.

قال سالم وهو ينهض من كرسيه : هناك شيء مهم تخفينه عني الليلة.

أنت لست طبيعية منذ قابلتك وتخفين شيئا . أنا قلت لك ما لا أقوله لأي إنسان .. حتى الحالة التي .. حتى الطبيب الذي .. حتى أبي ،وأنتي ربما ..

أضاف اضطرابه واحتقان وجهه وهو يتحرك في الغرفة بعصبية إلى خوفها فعادت تجلس مكانها وتضع يديها أمام وجهها كأنها تحمي نفسها من خطر ما :

- نعم يا سالم . نعم .. أنا أخفي عنك شيئا لأنك لو عرفته فقد أخسرك. وأنا لا أريد أن أخسرك .. لو وعدتني..

قال ووجهه يزداد احمرارا : المسألة مفهومة . هناك رجل آخر ؟

وضعت وجهها بين يديها ومالت على المنضدة وهي تتكلم بصوت متهدج : أي رجل آخر ؟ أي رجل وأنا قبل أن أعرفك كنت أكره كل الرجال . كلهم بلا استثناء. سأقول لك لماذا ولكن ليس الآن .. أعدك .. المسألة أنني لا أريد أن أدخلك في .. أمر كهذا ويجب ألا تدخل في .. أنا . أنا خائفة !

انصرف الآن يا سالم من فضلك . أرجوك. الليلة لن تستطيع أن تساعدني.

سمع سالم صوت إغلاق الباب الخارجي فانتبه فجأة وقال :

- أنا أيضا سأنصرف .

قالت وهي لاتزال منكفئة على وجهها وجسدها كله يرتجف :

- نعم يا سالم قلت لك لا فائدة . انصرف الآن ! حتى هذا كذب ! لا أحد يحمي أحدا من خوفه .

لكن سالم تلكأ في مكانه . ظل واقفا يتطلع إلى الجسد المقوس المرتجف يسمع كلاما لايفهمه . يدور رأسه ويكاد يترنح وهو يتقدم نحوها.

يضع يديه الكبيرتين على كتفيها المرتعدتين ويمسدهما بأنامله برفق كأنه

يساعد طفلا على النوم . ولم يكن يدرك تماما ما الذي يفعله ولا ما الذي يريده .
لكن ليلى كفت عن ارتعادها بعد فترة ورفعت رأسها فاسندتها إلى ذراعها الموضوعة على المنضدة ونظرت له بعينيها المحتقنتين وقالت في همس لايكاد يبين كأنما لنفسها، كأنها تحاول أن تفهم : وكل هذا لأني قابلتك أنت ..

فامسك ذراعيها برفق وساعدها على أن تنهض وتقف على قدميها واحتضنها إليه واستمر يمسد برفق على كتفيها وذراعيها وهي مستسلمة له كأنما هو الذي يرفعها بيديه القويتين من أن تسقط في الأرض. وضعت رأسها في صدره وهي هامدة تماما. وظلا واقفين في سكون كامل وهو يضمها إليه فتمتمت وهي مغمضة العينين تستمع إلى نبض قلبه المنتظم : لو يأتي النوم هكذا ! لو يأتي نوم طويل ونسيان !

ولكنها أحست وهي في حضنه بصدره يعلو ويهبط وهو يتنفس بصعوبة وبأصابعه التي تتحسسها برفق تزداد سرعة وهي تهبط من كتفيها إلى ذراعيها ووجدت نفسها تقبل صدره قبلات صغيرة متقطعة وهي تقول بهمس معتذر : أريد أن أمسك . وكانت تضع يدها تحت البلوفر السميك الذي يلبسه وتحل أزرار قميصه بيد أخرى مرتبكة وتتسلل لتلمس صدره بأصابعها المرتعشة وتجذب برفق شعيرات ناعمة وجدتها هناك ثم تزيح البلوفر والقميص ككتلة واحدة إلى أعلى وتغوص بوجهها كله في صدره وهي تستنشق بعمق رائحة جسده وتصدر همهمات متقطعة وسط أنفاسها اللاهثة: نعم هذا هو أنت ! هذا سالم .. هذا جسده وهذه رائحته .

وكان هو يتنفس بصوت مسموع كلهاث متقطعة بينما يدفع بديه الكبيرتين من كمي بلوزتها اللذين تمزقا وصدرها يرتجف في صدره وكان يقول بصوت متحشرج وهما ينزلقان معا فوق السجادة : هذا لايجب ..لايجب ..

ولكن كل شيء كان يقول غير ذلك.

***

(٧)

كانت تجلس وحيدة على الأرض في المكان نفسه، تمد ساقيها وتسند ظهرها ومرفقيها إلى الكنبة الجلدية. لاتريد أن تفكر في شئ: تتمنى فقط ما تمنته منذ البدء.. أن تنام، أن يستحيل الهمود الذي حل بها إلى نوم طويل تنسى فيه كل شئ. لكنها فجأة خبطت جبينها بيدها وهمست لنفسها وهي تعتدل في جلستها:

- ياربي: كل هذه الضجة عن الحب تنتهي هذه النهاية؟

كل أفراح الأسابيع والشهور لم تكن سوى أكاذيب؟ كل حياتنا كذب كما قالت الدكتورة صفاء؟ أوهام نصنعها بأنفسنا لأنفسنا وفي النهاية لا فرق بين سالم والحب والأستاذ حمام والإغتصاب؟

لا أمل إذن أبدا في أن يخرج الجسم من حصار جلده؟ لا أمل في الحب الحقيقي ولا في تلك المسرات الموعودة التي كذب بها علينا الشعراء والموسيقى ؟

لاوجود لتلك المسرات؟

موجودة ولكن لا يمكن الحصول عليها؟

البعض يصلون اليها ولهذا تستمر الحياة؟

كيف يمكن أن تعرف؟

همت بأن تقوم من مكانها وهي تسند يدها إلى الكنبة الجلدية لكنها شعرت بتعب شديد وثقل في أطرافها فظلت جالسة كما هي. كان رأسها محموما ولكن جسدها ظل خائرا . راحت تهز رأسها وهي تقول لنفسها نعم، لا فرق بين سالم وحمام.

ها هي مرة أخرى لا تعرف إن كانت هي التي قادته أم هو الذي قادها . هل يخونها حتى جسدها؟ ولكن النتيجة هي نفسها: تحور وجهه وتشوه وهو يعدل

ثيابه ويقف فوقها. ولكن هناك فرق مع ذلك . حسام كان مذعورا . استطاعت أن تشتمه وأن تضربه . أما سالم فتركته يشتمها دون أي رد. من أين أمكن أن يأتي بكل هذه الشتائم؟ أين كان يختزن كل هذه البذاءات التي لم تحلم حتى بأنه يمكن أن يعرفها؟

تنهدت وهي تفكر : لم يكن ينقص شيء ليكون مثل حسام سوى أن يسألها وهو يقف فوقها: لماذا لم تقولي إنك لست بنتا؟! غريب أنه لم يذكر ذلك . هل اكتفى إذن بالشتائم ليعبر عن رأيه؟

وهل تكون هذه هي (الحالة) التي حدثها عنها؟ الجنون الذي يأتيه ويخافه؟ وما الفرق؟. فلتعترف . كان هناك شيء يختلف . مع حسام لم يكن شيء غير الذعر والاشمئزاز والألم. هنا حل عليها في البدء سلام وسكينة لم تعرفهما في حياتها وهي في حضنه تحلم لو يستمر هذا الهدوء إلى الأبد. كان الحب آخر ما تفكر فيه. ذهنها كان مشوشا بعد مكالمة دعاء . مشغولا بالمشاكل التي يجب أن تحلها والأشياء التي لابد أن تتخلص منها، ولكن كل شيء انمحى من رأسها فجأة ولم يبق غير أنها هنا مع سالم . بدأ جسدها يتصرف وحده، يداها تلمسه وشفتاها تقبله وهي تلتصق به أكثر فأكثر كأنها تريد أن تصبح وإياه جسدا واحدا. ثم بدأت دون فاصل تحلق معه في نشوة أخذتها بعيدا عن الأرض وهي ترى مغمضة العينين نجوما لم تر مثل بريقها وأنوارا لم تحلم بمثل جمالها وجسدها يتقلب في ذلك الفضاء النور إلى أن أطلقت آهة الفرح وهي ترفع ذراعيها ويدها وتقبض أخيرا، أخيرا، على تلك النجوم المستحيلة وتدور معها في عاصفة دوامتها الأبدية.

وفي اللحظة التي تفجر فيها كل ذلك الفرح وهي تحلق عاليا وبعيدا أهوى سالم على رأسها بمطرقة تعيدها إلى الأرض. إلى باطن الأرض، إلى الذعر

الميت . ظلت في مكانها على الأرض منكمشة على نفسها وهو يميل عليها بوجهه الذي فقد كل جماله فجأة وهو يهذر بعبارات لم تفهمها على الفور إلى أن فهمت أنه يشتمها ويشتم أباها وأمها ودادة سنية وعم حسن بعبارات فاحشة . ويقول كلاما غريبا آخر عن أبيه وعن أخته لم تفهمه أيضا وقد أصابها الخرس والشلل. كان ينظر نحوها بكراهية وتقزز وهي تنظر إليه ضارعة لا تجسر حتى أن تطلب منه أن يشتم بصوت خافت . ومع ذلك كانت تطفو لحظات في قلب ذلك الذعر يجتاحها فيها إشفاق غريب عليه، تود لو تقول سالم هذا ليس أنت ! هذا ليس صحيحا ! هو كابوس ستفيق منه لتجده مرة أخرى إلى جوارها تحتمي به من خوفها ويحميها من نفسها. ولكنها لم تستطع أن تخرج صوتا أو أن ترفع إصبعا إلى أن نهض من تلقاء نفسه وخرج كأنه يترنح.

هذه حالة. هي لا تستطيع أن تنقذ نفسها من حالاتها !

من يمكن أن يشرح لها ما يحدث ؟ من يمكن أن يساعدها؟

نهضت بصعوبة وبدأت تتحرك ببطء، ووقفت لحظة أمام مرآة جانبية فوجدت شعرها مهوشا وثيابها مهوشة وممزقة الأكمام، ورأت وجهها شاحبا وممتقعا . حاولت أن ترتب نفسها قليلا. بدأت تزرر بلوزتها ثم عدلت عن ذلك وسارت نحو الباب ببطء . قطعت الصالة وانحرفت إلى اليسار وهي تضيء في طريقها كل الأنوار في البيت وطرقت الباب وهي تقول في همس:

– دادة سنية، أنت صاحية؟

فجاءها الصوت المتعب: ادخلي يا ليلى . أنا أنتظرك.

توجهت نحو العجوز الجالسة على فراشها وهي تستند إلى وسادة وجلست إلى جوارها وهي تقول : دادة ، أريد أن أحكي لك..

فمدت المربية يدها المتغضنة تبحث عن يدها وقالت :

- لا تحكي شيئا يا لبنى..

مالت على صدر مربيتها فراحت تربت على شعرها وهي تقول:

- لا تحكي شيئا يا بنت صفاء . أنا أعرف هي كأس تدور .

وكان النعاس يتسلل إلى عيني لبنى ومربيتها تهدهدها .

وقالت دادة سنية لنفسها قلبي حدثني منذ الصباح . لم يكذب على أبدا. أصحو منقبضة فأعرف أن شيئا سيحدث لصفاء أو لابنتها. أقول ليت ظني يخيب فلا يخيب . ياحسرتي! وهما نصيبي من الدنيا . لو كانت واحدة منهما بنت بطني لما أحببتها أكثر مما أحبهما . حكمتك يارب! صفاء كانت كالقطة المغمضة العينين حتى تزوجت . دكتوره قد الدنيا ولاتعرف شيئا عن هذه الدنيا أكثر ما تعرفه طفلة. كنت أضحك على عبطها وهي تأتي لتبكي في حضني لأن واحدة صاحبتها خاصمتها أو لأن واحدة في كتاب تقرؤه ماتت. أضحك في سرى على عبطها وأقول لها (معلهش) ياصفاء ! ولا أتركها حتى تهدأ . ولكن شوكت عذبها . وعندما كانت تأتي لتبكي أو تشكو لم أكن أعرف ماذا أقول؟ ماذا كان يمكن أن أقول لو كان شوكت يكلمني مثل صفاء لنصحته . ولكنه لم يكن ينظر حتى في وجهي. هو حتى الآن لا ينظر في وجهي ولا يكلمني. لولا لبنى لتركت له البيت من زمن . تزوجت صفاء من سيده . ورضى ربنا عنها . ولكن هل سيغفر لها ربنا ما فعلته؟ يارب! هذه الأميرة بنت الناس ! لماذا يقع أولاد الناس على أولاد الحرام؟ لماذا وقعت صفاء في شوكت ووقعت لبنى في المدرس؟ لبنى أخيب حتى من أمها ولهذا ياكلني قلبي عليها أكثر أنا لا أخاف الآن على صفاء ولكني أخاف على لبنى . هذا التلميذ الذي تحبه ابن حرام ثان؟ يارب! نجها يارب!

كانت لبنى قد نامت فراحت العجوز تعدل وضعها في الفراش بجهد شديد . لم تشأ أن توقظها لتعود إلى غرفتها قالت لنفسها النوم رحمة.

***

لايذكر سالم كيف رجع إلى البيت.

لايذكر إن كان قد ركب أو مشى لا يذكر أى شئ يسبق وجوده في صالة البيت وجده يقول في شئ من الفزع:

- ماذا حدث يا ولدي؟ وجهك كالبفتة البيضاء ! هل حدث شئ؟ شكلك..

ظل سالم واقفا ينظر إلى جده في صمت وتكلم مجهدا : حدث شئ . أريد أن أتكلم معك يا جدي حدث شئ . أنا لا أذكر . لا أعرف . ولكن ربما . يا جدي تكون قد رجعت الحالة.. أنا.. سأستحم أولا ثم نتكلم . يجب أن تساعدني . يجب أن نتكلم..

قال الباشكاتب متوجسا : كنت مع لبنى؟

- نعم . نعم كنت معها . ولكن أين كنت بعدها ؟ أنا خائف . يجب أن نتكلم .

قام الجد من مقعدة في بطء وقال بهدوء وهو يحني رأسه:

- أنت متعب الآن . وأنا كذلك . سأدخل لأنام.

- ولكن يجب..

فقال جده في حسم وهو يتجه إلى غرفته : في الصباح يا سالم . حاول الآن أن تنام.

ولكن بعد الحمام، بعد أن دعك سالم جسمه تحت الماء حتى كاد يدميه. كان يرقد في فراشه وعيناه مفتوحتان وهو يتساءل: ماذا حدث؟

كانا يتعانقان. يذكر هذا جيدا . يذكره تماما يرى نفسه يقبل وجهها وشفتيهاورقبتها وكل قبلة تبعث في جسده رجفة لم يعرفها من قبل، ولا حتى حين كان يقبلها خلسة في الكازينو أو وهما يسيران في طريق مظلم. كانت نشوة ترج جسده كله ولبنى أيضا ترتجف وهي تقبل صدره وتتنفس بصوت مسموع وتنتزع يده بعنف لتقبل راحته بلهفة وعمق كما لو كانت ترتشف منها ثم تمسح بها وجهها

الذي لم يره أبدا مثل هذا الاحمرار من قبل. ويذكر كيف هبطا معا على السجادة وهما يتمتمان بكلمات غير مسموعة ويذكر كيف كانت هناك يد جبارة تطوح به بعيدا في الفضاء، وتدور به وتغوص به في باطن الأرض في اللحظة ذاتها . ويذكر الصيحة التي أفلتت منه وكيف وضعت لبنى يدها على فمه لتكتمها. كل ذلك يذكره ولكن ماذا بعد؟

يذكر أنه كان سعيدا جدا، ثم ماذا؟

كيف تركها وكيف خرج من الشقة؟ أجهد ذهنه فلم يكن هناك سوى ظلام كامل. هل طلبت منه مرة ثانية أن يخرج كما طلبت من قبل ؟ هل خرج من تلقاء نفسه؟ هل قبلته وأوصلته بنفسها حتى الباب ؟ هل نزل السلم على قدميه أم ركب المصعد؟ عاد مشيا على قدميه أو ركب الأتوبيس؟ كل تلك اللحظات تلاشت من ذهنه تماما. انتهت. فما معنى ذلك يا سالم؟

لا تحاول أن تهرب . ليس له سوى معنى واحد. رجعت الحالة . فماذا فعلت أثناءها وماذا قلت؟

جلس في الفراش وصدغه ينبض . ولكن الحالة انتهت من زمن . منذ سنين لم أخطئ معها ولا أخطأت في البيت مرة واحدة . أراقب كلامي جيدا وأراقب ما أفعله . ألزم الصمت عند ما أخاف أن أخطئ في الكلام ولكن ماذا إذن لو كانت الحالة التي جعلتهم يعتبرونني مجنونا قد رجعت؟ هل شتمت لبنى؟ هل ضربتها؟

نزل من سريره وبدأ يرتدي ثيابه بسرعة سيكلمها في التليفون لابد! لابد!.

ولكن ماذا سيقول لها؟ هل سيقول من فضلك أنا مجنون فذكريني ما الذي حدث بيننا؟ وهل ستصدقه لو كان بالفعل قد أساء اليها؟

عاد يجلس على فراشه بعد أن ارتدى القميص والبنطلون.

لا لن تصدق شيئا مما يقول . هل يأخذها إلى الطبيب الذي كان يعالجه ؟ يطلعها على حجاب جده؟ يستشهد بفوزية وبأبيه ؟ وماذا ستفعل لو صدقته؟

ستقول أنا وقعت في مجنون حقيقي ويجب أن أهرب منه. لا فائدة! خسرها وانتهى الأمر.

ولماذا قالت في أول الليل سأخسرك؟ لماذا لم تقل ستخسرني ؟ ألا تعرف أنه لن يحتمل أن يخسرها؟ هذا بالفعل هو الشيء الأسوأ من الجنون ومن الموت نفسه هو يعرف بالطبع أن ما فعله معها خطيئة عظيمة. ولكنه سيكفر عنها على الفور. سيقول لجده وسيوافق على أن يزوجها له . سيعترف لأبيها وسيقبل أي عقاب ينزله به ربنا.

سمع سالم لحظتها صوت الجرس . ثم سمع بعده صوت المفتاح وفتح الباب وجاء صوت أبيه وهو يقول في دهشة : لماذا الشقة كلها مظلمة؟

ثم نادى : يا سالم! وخفت صوته وهو يتساءل: هل نام الجميع؟

قام سالم وأخذ يخلع ثيابه مرة أخرى دون أن يحدث صوتا ثم رقد في فراشه. تخلت الأسئلة التي تتدافع في رأسه مكانها لخواء كامل وكانت كلمة واحدة تتكرر في ذهنه سأخسرها... سأخسرها.. ثم جاءت صحراء واسعة بامتداد البصر وكان ظمآن وراح يتلفت حوله في ذعر وهو يبحث عن شيء ما يعرف أنه ضاع منه فجاءته غزالة تعدو وتلهث وقفت إلى جانبه وراحت تتمسح به وتكلمت بصوت يعرفه ولا يستطيع أن يحدده وقالت لو فككت سحري سأعطيك ما تبحث عنه. فقال أنا أخاف من الساحرة التي رمتني في الصحراء . وأخذت البيت من جدي وسحرت فوزية . ثم أخذ يجري والغزالة تعدو خلفه وهو يريد أن يهرب منها ولكنه يقع على الأرض فتقف الغزالة فوقه ودموع تنزل من عينيها الواسعتين مثل مطر غزير ثم ترفع ساقها وفيسيل من ظلفها ماء، غمر وجهه ولكنه خاف أن يشرب من هذا الماء.

أو هذه الدموع فانطلق فمه وسده بيده ثم قام وأخذ يجرى من جديد والغزالة وراءه وشب حريق فى مكان ما وكانت ألسنة كبيرة جدا من اللهب تقترب منه فأسرع فى عدوه وصار فى جبل فى أعلاه خضرة ورأى الغزالة فرسا بيضاء، لم يخف منها فراح يمسح شعر رقبتها ويقبلها وراحت الفرس تقبله أيضا وقالت يا سلوم إن صعدت الجبل يمكن أن تفك السحر فقال ولكننى عطشان..

وكانت شفته جافة ولسانه فى فمه كقطعة من الخشب عندما صحا وهو يلهث، فقام وشرب ، لكن أشباحه لم تفارقه طول الليل.

***

فى الصباح لم يذكر سالم جده بالليلة الفائتة ولم يطلب منه أن يتكلما كما ألح عليه بالليل..

نظر جده إلى وجهه المكدود وعينيه الغائبتين بعد ليلة الأرق وعندما رآه يرتدى ثيابه كاملة سأله:

- عندك محاضرات اليوم فى الصباح ؟ فقال نعم.

سأله مرة أخرى بلهجة عابرة دون أن ينظر فى وجهه : الحجاب الذى أعطيته لك يا سالم ، أما زال معك؟

- نعم يا جدى.
- أين هو؟
- فى جيبى فى المحفظة باستمرار.

فقال جده بلهجة حزينة: قلت لك يا سالم أن يكون دائما فى رقبتك وأن يلمس قلبك فلم تنسى؟

فرد سالم شاردا : حاضرا يا جدى!

***

(٨)

كان يعرف أنها لن تذهب إلى الجامعة فى مثل هذا الوقت المبكر من الصباح، فطلبها فى التليفون من كشك للسجائر قرب البيت . وبمجرد رفع السماعة قال فى لهفة: لبنى ؟ فرد الصوت : لا أنا، الشغالة. الستّ لبنى..

ثم ترددت وسكتت.

قال بشئ من الارتباك: يمكن أن أكلمها؟ أنا سالم . أنا زميلها..

فكررت الشغالة بترددها نفسه: الست لبنى.. (ثم سمع صوتا بجوارها يقول شيئا لم يتبينه) . أكملت الشغالة بعده فى حسم : غير موجودة. ثم وضعت السماعة..

لم ينجح سالم فى دخول الجامعة عندما وصلها. رأى مظاهرات ومناقشات فى داخلها ورأى البوليس يحاصر الطلبة المتظاهرين داخل الجامعة ويمنع الموجودين خارجها من الدخول . فوجئ سالم بما يحدث لكن فكره كان فى مكان آخر . وقف أمام حديقة (الأورمان) قبالة الجامعة ينتظر . قال لنفسه لا يمكن أن تكون لبنى داخل الجامعة. ستصل بعد قليل وسأكون هنا وسأشرح لها كل شئ .

كان الطلبة المحتشدون بالقرب منه يتناقشون مع الجنود والضباط بصوت عال ويتشاجرون معهم وهم يتدافعون ليعبروا الحصار ويدخلوا الجامعة.. وكان الضباط الذين يلبسون نظارات شمس سوداء يكتفون بكلمة واحدة «ممنوع» دون أن يلتفتوا بوجوههم للطلبة وراح الجنود المتراصون يدفعون الطلبة والطالبات بعصيهم إلى الخلف.

ظل سالم بعيدا عنهم وهو يتطلع فى كل اتجاه بحثا عن لبنى لم يجدها وسط هؤلاء المتدافعين لعبور الحصار. وبينما كان واقفا يفتش ببصره بين القادمين من

ناحية تمثال النهضة اقتربت منه فتاة سمراء، كثيرا ما رآها مع لبنى وحيته بهزة من رأسها ثم وقفت إلى جواره وقالت في همس:

- أنا دعاء . صديقة لبنى..

قال بارتباك : أهلا .. هل تعرفين أين هي ؟ هي ليست في البيت...

- أعرف .. (ثم أكملت في همس وهي تتلفت حولها) قبضوا عليها في الفجر مثل الآخرين..

ظل سالم واقفا يتطلع إليها دون فهم كأنه لم يسمع شيئا فقالت وهي تحول وجهها عنه:

- أعرف أنك لا تعرف أي شيء . كانت لبنى حريصة على الا تعرف . تخاف منك أكثر مما تخاف من البوليس..

- تخاف من البوليس ومني أنا؟ مم كانت تخاف ؟ أنا؟

فردت دعاء، وهي تحني رأسها نحو الأرض.. كانت تخاف أن تعرف عملها في السياسة.. قالت لي لو عرف سالم فسأخسره. لم أفهم أبداً مع ذلك لماذا كانت تخاف إلى هذا الحد. هل أنت ضد الناصريين؟ .. كانت واثقة تماما أنها ستخسرك لو عرفت.. (ثم تطلعت إليه وهي تبتسم) شكلك إقطاعي على كل حال!..

- أنا .. أنا ضد من ؟ ثم احتبست الكلمات في حلقه ووقف ينظر إلى دعاء عاجزا عن النطق..

- سيسرها مع ذلك أن المظاهرة نجحت (ولوحت بيدها) يعني!

أخيرا وجد سالم صوته فقال لدعاء بهمس شديد الخفوت : ولكن لماذا ؟ لماذا قبضوا على لبنى؟

أجابته وفي صوتها غضب: مرتضى الكلب أبلغ عن الجميع، ولكن من المؤكد أنهم سيفرجون عنها. لا يوجد أي دليل ضدها . أنا حذرتها في الوقت المناسب فقالت إنها ستتخلص من .. من الدليل..

- وفي أي سجن هي؟

- وماذا يفيدك أن تعرف؟ لن تزورها. لست زوجها ولا قريبها.

لم يفهم سالم ما قالته . ظل مطرقا وهو يقف في مكانه مشلول القدمين وقد غابت كل الأصوات من حوله وبدأ طنين غريب في أذنيه. وحين رفع رأسه أخيرا لم يجد دعاء إلى جانبه. بدأ يجري هنا وهناك بحثا عنها وسط تجمعات الطلبة. لكنه لم يستطع أن يعثر عليها.

واصل الجري بعيدا عن الجامعة وكان يكلم نفسه : يجب أن أسألها يجب أن أراها. يجب أن أعرف لماذا قبضوا عليها. يجب أن أفهم ما حدث ليلة أمس.. لماذا كانت تخفي عني. وما الذي أخفته عني ، وما معنى أنني ضد الناصريين؟ وماهو الدليل الذي تكلمت عنه دعاء؟ دليل على ماذا؟ ما الذي تفعله بالضبط وما الذي كانت تريده مني ؟

وجد سالم نفسه في عيادة الدكتور شوكت الذي استقبله في غضب وكان سالم يجد مرة أخرى صعوبة في الكلام.

كان الدكتور شوكت أشقر، شعره ناعم ومرجل. أخذت منه لبنى لون العينين العسليتين الفاتحتين والأنف المستقيم. وكان يتكلم برخاوة رغم غضبه، بصوت يكاد يخرج من أنفه. وفي وجهه الأبيض الناعم البشرة تعبير من الاستعلاء، نفر منه سالم أكثر من نفوره من غضبه وهو يتكلم بنبرته الرخوة:

- ما معنى زميلها؟.. ومادمت زميلها وأنت بهذا الطول والعرض فلماذا لم تطبع أنت المنشورات وتوزعها بدلا من أن تترك بنتاً تحتفظ بمنشورات؟

- منشورات ؟ أي منشورات ؟ أنا لا أعرف أي ..أنا ..

- أنت ماذا ؟ من أدخل في عقولكم لعب العيال الذي تعملونه الآن ؟ كنتم تريدون الحرب والحمد لله حاربنا وانتصرنا. البلد بالكاد تشم نفسها وأنتم تريدون أن نرجع إلى أيام الخراب...

- يادكتور أنا لا أفهمك !... أنا لا علاقة لي بهذا كله . أنا لست زميلها في السياسة ولا أعرف أي شئ في السياسة...

ظل الدكتور شوكت صامتا لفترة وهو ينظر نحوه بوجهه المحتقن ، ثم قال:

- إذن من تكون؟

- أنا زميلها في الكلية.

- وماذا تريد الآن؟ لماذا جئت إلى هنا؟

تردد سالم لحظة ثم قال باندفاع:

- أريد أن أراها . أريد أن أعتذر لها عن شئ حدث بالأمس ...

ظل الدكتور شوكت ينظر نحوه في دهشة ونفاد صبر قبل أن يقول:

- تريد أن تعتذر لها الآن وهي في السجن عن شئ حدث بالأمس؟ هل هذا كلام عاقل؟ إذهب إلى مأمور السجن واطلب مقابلتها لتعتذر . لماذا جئت لي أنا؟

- لأني أحبها!

أفلتت منه العبارة فانتبه الدكتور شوكت . كان قد قرر أن يعود ولكنه بدأ ينظر نحوه بتركيز شديد منتظراً أن يكمل كلامه ... ولما وجده ساكتا ومطرقا قال:

- ما شاء الله ! وهل جئت الآن لتخطبها؟

لم يتكلم سالم ووقف أمام الدكتور ينقل كتبا يحملها من يد إلى أخرى وقد بدأ عرق يتفصد من جبينه وراح ينظر حوله دون تركيز ثم بدأ يلوح بيده بجوار أذنه كما لو كان يهش ذبابا . فقال الدكتور شوكت بنبرة أهدأ ليشجعه على الكلام:

- ولبنى .. هل هي تحبك؟

- هي تحب دادة سنية!

ضحك الدكتور شوكت ضحكة عصبية بالرغم منه:

- إذن فأنت تعرفها حقا! انتظر .. أنت !.. ما اسمك ؟ تعال..

ولكن سالم كان قد استدار وخرج من الغرفة بخطواته الواسعة وهو مستمر في التلويح بجانب أذنه ووقف الدكتور شوكت خلف مكتبه ينظر في اتجاه الباب فكر أن يخرج وراءه ويطلب منه العودة ليحدثه عما بينه وبين لبنى .

لكنه لم يتحرك من مكانه . وبعد فترة استدعى الممرضة وطلب ألا يدخل عليه أحد .

جلس وهو يفكر: إذن فهي أيضا لها قصة ! لا تكفي حكاية السجن ولكن هناك غرام أيضا! لا يكفي الغرام ولكن هناك سجن ! كان يجب أن يتوقع كل شئ من بنت صفاء! فاجأته حين عرف أنها تهتم بالسياسة. كانت تبدو قانعة بالدراسة والتفوق وقراءة كتب الأدب الفارغة مثل أمها. لم يلاحظ أبدأ أنها تهتم بشئ آخر. لم تتكلم أمامه عن السياسة لكي يشرح لها ما يجعلها تفهم قليلا . وتحن أيضا للأيام السوداء تحب الرجل الذي لم يكره في حياته أحدا كما كرهه ؟ وتدخل من أجله السجن رغم تحذيراته لها؟ صباح الخير يا عم فرويد! هي تتحداه لا أكثر . تتمرد عليه . سيعرف كيف يعيد إليها عقلها. ولكن لماذا لا تتمرد أيضا على أمها؟ لماذا لا تكرهها وهي التي تستحق بغضها. على العموم لحسن الحظ أنه هنا . عندما كلم صديقه الكبير في الداخلية بعد أن جاءوا إلى البيت وقبضوا عليها في الفجر قال له ألا يهتم . قال إنه مجرد «قرص اذن» وإنهم سيفرجون عنها خلال أيام . ولكن أي سذاجة وغباء يليقان تماما بأفكارها السياسية ! تحتفظ بالمنشورات في غرفة النوم! لو كان يمثل هذا الغباء أيام عمله في السياسة لظل في السجن حتى الآن! نعم، من حسن حظ لبنى أنه هنا وأنه يستطيع أن يكلم أحدا في الداخلية وأن يطمئن عليها. عندما قبضوا عليه في أول أيام ثورتهم لم يستطع أحد أن يعرف حتى مكانه . والآن فإن الآنسة لبنى تحن إلى هذه الحرية ! تحن إلى الزعيم الخالد الذي لا يأتينا من ورائه إلا السجن حيا وميتا! خالد فعلا!

وما الذى تريده بالضبط ؟ تريد مع مجموعة من العيال أن يغيروا التاريخ! فليعترف أنه كان ساذجا مثلها فى شبابه، ولكن عقله عاد إليه منذ زمن طويل. أصحابه وزملاؤه الذين ظلوا يعيشون بالمبادئ لايعرفون غير السجون والفقر . يخرجون من السجون ليدخلوها من جديد، أما الفقر الوطنى العام الذى كانوا يحلمون بتغييره فمازال كما هو وسيظل كما هو . هكذا كانت الدنيا وهكذا سوف تبقى . لم يفهم هذا جيدا فى شبابه . كان يصدق خرافة المساواة بين الناس. ولكنه فكر كثيرا وهو فى السجن واكتشف الحقيقة . الناس يتفاوتون فى الذكاء ومن الطبيعى أن تتفاوت قدرتهم فيما يحصلون عليه من الدنيا . بعد ذلك عندما سافر للخارج أدرك فى رحلاته أن الفقر موجود فى كل مكان . فى البلاد التى ترفع الشعارات والبلاد التى تعيش بلا شعارات . الفقر هنا وهناك على السواء والفرق فى الدرجة لا أكثر . ومع ذلك فقد استمر هو نفسه يكرر الشعارات القديمة لفترة حتى بعد أن ترك التنظيم . كانت صفقات عالم الأرستقراطية تستفزه بأفكارها المتخلفة . لكنه كف عن ذلك مع الوقت أيضا . بعد أن ركز كل جهده على عمله . العاقل من يدرك أنه إذا استطاع أن ينقذ نفسه فليفعل.

لن ينفع فقراء العالم أن يضاف إليهم فقير آخر . ولكن الأنسة لبنى وأصحابها يريدون الآن أن يستمر الفقر للجميع . من حسن الحظ أنه لم يستثمر كل شئ فى البلد. قد تستجيب الحكومة لمظاهرات هؤلاء العيال وتؤمم المصالح من جديد . من حسن الحظ أن لديه مبلغا لا بأس به فى الخارج وأنه يرسل المدخرات إلى هناك أولا بأول . ولكن مم يخاف ؟ لا يمس أحد المستشفيات . طالما بقى الإنسان فستبقى الأمراض وستبقى الحاجة للمستشفيات . ومع ذلك ياصاحبى الخارج أضمن!

- نعم . الخارج!

ظل يتطلع فترة إلى صورة لبنى فى إطارها على المكتب وقال هذه أحسن فكرة!

سأكلم سيادة اللواء، وأطرح عليه الفكرة . من السجن إلى المطار ! كيف فاتته هذه الفكرة؟ تبقى فى السجن يومين ليرجع لها عقلها ويكون هو خلالهما قد اتفق مع اللواء، وأعد الجواز والتأشيرة وبعدها تذهب إلى ايطاليا وتقيم هناك مع عمتها. ثم إن من يريد أن يدرس القانون عليه أن يدرس فى إيطاليا . تدرس هناك القانون الرومانى . نعم . الطب فى انجلترا والقانون فى إيطاليا هذا هو الصح! يضرب عصفورين يبعدها عن لعب العيال فى السياسة وفى الحب . لأنه من هو فى النهاية هذا الأبله الذى يحبها ؟

ما الذى يدريه أنه أبله؟ قد يكون أخبث مما يظهر عليه وربما يطمع فى أموال لبنى . فى أمواله هو ! وشكله بصراحة . جذاب فليعطه حقه. أكثر من ذلك قليلا يا دكتور ! هو جميل بالفعل، عندها ذوق لبنى!

إن كان عندها ذوق فقد ورثته منى ولم ترثه عن أمها التى تقع على الخنازير أصحاب الكروش . ولكن هل ورثت من أمها شيئا آخر؟ هل هذه الأشياء تورث أيضا؟ لا أظن . هى لم ترث لحسن الحظ جسد أمها الحيوانى . بل ورثت عقلى أنا وجسدها يكاد يكون غلاميا . ولكن ما الذى يحتويه هذا الجسد وهذا العقل؟ هل شككت أنا لحظة واحدة فى صفاء؟ اعتبرتها ساذجة منذ عرفتها فى الكلية . وبعد الزواج كانت تبدو منهمكة طول الوقت فى البيت وفى العيادة وفى القراءة النهمة حتى فى الفراش كانت تقرأ وتنام والكتاب فى يدها. الهانم مثقفة ! لم يكن سيعرف شيئا أبدا لولا ذلك الطبيب الصديق الذى همس له . شتمه وطرده لكنه كاد يجن . أراد مع ذلك أن يقطع الشك باليقين. عمل كالأفلام البوليسية . تابع سيارتها بسيارته، رآها تدخل العمارة فانتظر قليلا ثم دخل وراءها أزاح بيده البواب الذى جرى وراءه ليقول له إن صدقى بك ليس فى شقته . الخنزير كان صديقه . لا . بل مجرد معرفة . مع ذلك فقد سمح له بدخول بيته وبأن يتعرف على

صفاء . عندما فتح له الباب نظر إليه في ذهول وتمتم في ارتباك : تفضل .. تفضل يادكتور.

تكلم بهدوء دون أن يدخل من الباب : قل لها الا ترجع إلى البيت . ثم انصرف.

ولكن هل هذا يكفي؟ ألم يكن من الواجب أن يضربه ويضربها بالرصاص مثل أولاد البلد؟

ويضيع من أجل ساقطة وخنزير؟ لا . لا. هكذا أفضل لافضائح . بل ولا كلمة. من أجل لبنى ومن أجل نفسه أيضا تغور ! ربما يقتلها صدقي الخنزير نفسه ذات يوم . في داهية هي وهو ! لم تجادل بالطبع في مسألة حضانة لبنى ولكنه لم يستطع أن يمنعها من رؤيتها. كيف كان سيفسر المسألة للبنى الطفلة؟ كيف يستطيع أن يفسرها لها حتى الآن؟ لم يستطع أيضا أن يمنع لبنى من تشبثها بهذه الدادة الملعونة. مجرد وجودها في البيت يذكره بصفاء الساقطة . أما الآن فثلاثة عصافير ! لا . بل أربعة ! تسافر لبنى . تبعد عن السياسة وعن هذا الولد وعن صفاء وعن الدادة . بعد سفرها تأخذ صفاء لو شاءت هذه الدادة الجثة وتريحه من بقائها في بيته .

نعم، عملية ناجحة!

***

(٩)

رجع سالم في المساء فرأى جده حالته أسوأ من البارحة . وجهه الشاحب والنظرة المنطفئة في عينيه وخطاه البطيئة وهو يقطع المسافة من باب الشقة إلى غرفته . سأله الباشكاتب مشفقاً : لماذا تأخرت يا ولدي ؟ أين كنت يا سالم ؟

فهز رأسه وغمغم بشئ لم يتبينه جده وهو يدخل إلى غرفته .

ظل الباشكاتب مترددا أمام غرفة سالم بعد أن بقي فيها فترة طويلة دون أن يند عنه صوت ولا حركة. وأخيرا طرق الباب برفق ثم دخل ليجد سالم مستلقيا على فراشه بثيابه الكاملة وهو يحدق في السقف . ناداه وهو يهزه برفق فالتفت نحوه. نظر إلى جده كأنه لا يراه وقال بصوت عميق : رأيتهم بعيني . كانوا يركبون الأتوبيس معي ويمشون في الشارع معي وصعدوا السلم معي ..

قال جده بقلق : من هم ؟

ولكن سالم رفع إصبعه إلى سقف الغرفة وراح يدور بعينيه من اليمين إلى اليسار . ورفع الجد رأسه أيضا بصورة تلقائية وراح ينظر إلى حيث يشير حفيده وهو يغمغم :

- لا يا سالم . بيتنا طاهر لا تدخله الشياطين . اهدأ يا ولدي . لماذا لا تقوم الآن فنتوضأ ونصلي معا ركعتين ؟

أخذ يمسح بيده على رأس حفيده وهو يتلو في سره أدعية بينما كان سالم يضحك ضحكات خافتة متقطعة وهو يحول رأسه ببطء من اليمين إلى اليسار وبالعكس يتابع حركة تدور هناك . ثم نظر إلى جده وقال :

- أتعرف ؟ أنا لا يهمني ! أنا كشفتهم ! لا أخاف الآن منهم ...

قال الباشكاتب بلهجة مشجعة : بالطبع يا سالم أنت لا تخاف لأنه لا يوجد ما تخاف منه .

فأكمل سالم دون أن يتحرك من مكانه : يأتون أحيانا كالأراجوزات وأحيانا يلبسون فساتين وعساكر بوليس ومعاطف بيضاء ، وأحيانا يكونون غزلاناً وخيولا ولكني اكتشفهم حتى لو كانوا أشجاراً أو أحجارا . يعرفون أني أكتشفهم ولهذا لم يتركوني اليوم لحظة ، وركبوا معي الأتوبيس ويعملون ضجة كبيره جدا ، حتى هنا .

أشار بإصبعه للسقف ثم أمسك رأسه بكلتا يديه ليسد أذنيه وهو يقول : لو تتوقف هذه الضجة : رأسي يوجعني ، يكاد ينفجر .. رأى جده جبينه يتندى بالعرق وعندما مسحه وجده عرقا باردا . قلب سالم على جنبه وراح يرتعش ارتعاشة هينة ومنتظمة ، وكان جفناه يرتخيان على عينيه الذابلتين وهو يقول بصوت خافت متعب : لا تخف منهم يا جدي . في الصباح سأتصرف معهم ولكني الآن أريد أن أنام .

فقال الجد : نعم يا سالم ، نم . اهدأ . كل شئ سيتغير في الصباح إن شاء الله .

وكان يتكلم وهو يضع يده على صدر سالم ويفتش في ملابسه لم تبدر عن حفيده أي مقاومة ولم يبد أنه يشعر بما يفعله جده .

لكن الباشكاتب تمتم أخيرا في يأس : أين ذهب يا سالم ؟ رميته ؟ ضاع ؟ ألا تعرف أنك إن تركته تركنا ؟

غير أن سالم كان قد أغلق عينيه وراح في النوم دون أن تكف انتفاضة جسده.

***

جلس الباشكاتب وحيدا في الصالة المظلمة دون أن يضئ المصباح وراح يتساءل مهموما ما الذي يحدث لهذه الأسرة ؟ لماذا وقع سالم في هذه المحنة ولماذا لم تسعد فوزية في زواجها ولماذا لا يفلح ابني في تجارته ؟

أتكون الغلطة مرة أخرى غلطتي أنا وحدي ؟ قال شعبان إني أفسدت حياته ولكنه لم يشرح لي كيف أفسدتها ، ولكن فليكن أني قصرت مع شعبان فماهي غلطتي مع فوزية وسالم ؟ ما الذي كنت أستطيعه لفوزية مثلا ؟ لم أعرف بسرها إلا بعد أن وقعت الفأس في الرأس فماذا كنت أملك لها غير أن أحاول إنقاذها ؟

كفى ! لماذا تهرب يا حضرة الباشكاتب ؟ ليست المشكلة الآن شعبان ولا فوزية. المشكلة هي سالم . لماذا سكت عنه حتى سقط وضاع ؟ لماذا قلت له منذ البداية افرح لأنه أحب ؟

كنت أقصد الحب . الحب البرئ لمن هم في مثل سنه. يحبها ثم يتزوجها بعد أن يتخرجا في الجامعة . هكذا تحدث الأمور . تمنيت له أن يعيش حياة عادية كالشبان ظننت أن هذا سيساعد على شفائه وعلى أن يصبح عاديا مثل بقية زملائه . وبالفعل تحسنت أحواله كثيرا بعد أن أحب . لم تعاوده الحالة قبل هذه المصيبة الأخيرة . قبل أن يسقط هو مثلما سقطت أنت من قبل . وكيف كان لي أن أعرف أن هذا سيحدث . وأن الحب بدلا من أن ينقذه سيرجع به إلى أسوأ مما كان عليه ؟

كان يجب أن تعرف ! قبل أن تشجع على البدايات كان يجب أن تفهم أنك لا تستطيع أن ترسم النهايات . كان يجب أن تصمت تماما . أن تفهم من تجربة حياتك أنك لست أهلا لأن تنصح غيرك بعد أن عجزت عن نصح نفسك . لكنك خفت على سالم أن يصبح مثل أبيه ! ما عيبه أبوه ؟ شعبان أفضل منك بكثير يا حضرة الباشكاتب ! على الأقل هو لا يخفي أسرارا مشينة في حياته .

ثم يقول لك أبو خطوة إنك تكابد وإن المكابدة ستنقذك !

أي شيء أكابده أنا الآن سوى الكذب ؟

حتى في شبابي لم أكن بهذا السوء . لم أكذب على الناس ولا على نفسي كنت أخطئ فاعترف بذنبي وأعزم في كل مرة على التوبة وعلى أن تكون هذه آخر مرة لكني لا أتظاهر بالتقوى . لا أمام أبي ولا حتى أمام أبو خطوة . وعندما أحببت سمية لم يكن هناك غش في حبي لها ولم أخنها ولا حتى بفكري . ولما وهبت وقتي وحياتي بعد ذلك لشعبان وأولاده لم يصرفني شيء . فكيف إذن قاد كل هذا الصدق إلى كذبة نازلي ؟

أعرف أنني لم أكن ملاكا في أي يوم . ظللت عمري كله أغمز بعين للدنيا وبعين للآخرة دون أن استقر على حال . ولكن لماذا نزلت إلى هذا الحد ؟ أخفى عن الجميع سري مثل لص يخفي ما سرق . لص شديد البراعة نجح سنين طويلة في أن يخفي سرقته . عمر طويل آخر وأنا أكذب على الناس وعلى نفسي . وتتساءل بعد ذلك لماذا يحدث لسالم ولأسرتك ما يحدث ؟ لا يمكن لذلك بالطبع إلا أن يفسد حياة من حوله . شعبان على حق ! والآن تأخرت التوبة . وتأخرت كثيرا يا سيد توفيق .

اجتاحت الباشكاتب . من جديد . موجة من الغضب على نفسه وقال لا . في هذه المرة إن لم يأت التغيير حالا فهو الهلاك إلى الأبد . حالا !

سمع الباشكاتب المفتاح يدور في الباب . وحين دخل شعبان وأضاء النور فوجئ بوجود والده فقال في دهشة :

– لماذا تجلس في الظلام يا حضرة الباشكاتب ؟ ماذا حدث ؟

نظر إلى ولده نظرة مذنبة وهو يتمتم «لاشيء» . ولاحظ أن وجه شعبان مشرق على غير العادة . جاء فجلس قبالة والده وهو يقول :

– عندي أخبار جيدة يا حضرة الباشكاتب !

عبرت وجه توفيق المستغرق في أفكاره نظرة استفهام وهو يتطلع إلى شعبان الذي أكمل . كنت قد حدثت حضرتك عن مطالبة الضرائب . الحمد لله استطعت أن أخفضها كثيرا جدا .

قال الباشكاتب وهو يزر عينيه : وكيف حدث ذلك يا شعبان ؟

بدا على شعبان بعض الإحراج وهو يتفادى نظرة والده قائلا :

– لي صاحب في السوق يفهم في هذه الأشياء ساعدني على تسوية المسألة .

– كيف ؟ نحن يا شعبان منذ أيام جدك المرحوم نسوي كل أمورنا بالأمانة والقانون . واعلم يا ولدي أني لو اخترت طريقا آخر لكان عندنا بدل هذه العمارة التي بناها جدك عمارات كثيرة . بعض الموظفين كانوا يعتبرونني ساذجا أو أبله لأنني لم أمد يدي إلى مليم خارج مرتبي ولهذا يبارك لنا الله فيما نملك ونعيش مستورين رغم كل شيء . فقل لي كيف سوى صاحبك هذه المسألة مع الضرائب ؟

تراجع شعبان قليلا في مقعده وقال : بالقانون طبعا يا حضرة الباشكاتب . بالقانون . راجعنا معا دفاتر الحسابات وخصمنا من الايرادات مصروفات لم تكن مخصومة . بالقانون . ولكني كنت أريد رأي حضرتك في موضوع آخر . صاحبي هذا يتاجر في السجائر المستوردة ويريد أن أؤجر له زاوية من المحل ليبيع سجائره سنكسب في شهر واحد من الإيجار أكثر من مكسبنا الصافي في شهور . فما رأي حضرتك ؟

– وهذه السجائر مستوردة فعلا أو مهربة ؟ إن تكن ..

ثم عدل الباشكاتب عن إكمال ما بدأ : وقال وهو يحك جبينه : اسمع يا شعبان ! افعل ما بدا لك. أنت تصلي وتعرف ربنا وأنت أدري بمصلحتك . أنت أدرى مني. تنهد شعبان بارتياح وهو يقول : على خيرة الله !

أراد أن يقوم ولكن والده استبقاه بإشارة من يده :

– اجلس يا شعبان . تمنيت أن تكون عندى أنا أيضا أخبار طيبة ولكن ..

بدا القلق فى وجه الابن وهو ينظر إلى أبيه الذى كان من الواضح أنه لا يعرف من أين يبدأ . وأخيرا ، حكى لولده بكلمات موجزة حالة سالم والوساوس التى حلت به وسأله فى قلق : «ما العمل؟» .

قال شعبان بلهجة محايدة وكأنه يخلى مسئوليته :

– رأيى من زمن أن هذا الولد غير طبيعى وأنه يحتاج إلى علاج .

قال الباشكاتب دون اقتناع : فلننتظر حتى الصباح . قد يأذن الله بالفرج كما حدث من قبل .

– كما تشاء يا والدى .

ثم قام شعبان ودخل إلى غرفته .

ولكن فى الصباح عندما وصلت فوزية تحمل ابنها الرضيع لم يكن سالم قد خرج من غرفته . ورأت جدها ، الذى ترك ذقنه النابتة دون حلاقة على غير عادته يجلس متهدلا على مقعد فى الصالة . وقد بدا أنه شاخ فجأة . حكى لحفيدته بعبارات متعثرة ما حدث لسالم . طرقت فوزية باب غرفة أخيها برفق . ثم طرقته بشدة فلم تسمع أى رد . فتحت الباب بيد وهى تحمل ابنها باليد الأخرى . لم تبق هناك طويلا .. صرخت وفى وجهها فزع وهى تسأل جدها :

– ما الذى جرى له ؟ كأنه لا يعرفنى . كأنه لا يعرف سلوم ..

ثم قالت ودموعها تنساب دون إرادتها : ادخل يا جدى وانظر بنفسك .

قام الباشكاتب يجرجر قدميه مترددا نحو غرفة حفيده . لم يكن يريد أن يعرف ما الذى جرى . وحين دخل فاجأه منظر سالم وهو يجلس بثياب الأمس ويكتب بسرعة فائقة أشياء على ورقة فولسكاب وأمامه على المكتب أكوام أخرى

من الورق وأجزاء مفككة من جهاز الراديو الترانزستور . كانت هناك أيضا أوراق مبعثرة على الأرض وفوق السرير . ورفع الجد ورقة من الأرض فوجدها مزدحمة بأرقام كثيرة ومعادلات رياضية مكتوبة بخط صغير .

سأل الباشكاتب حفيده بهدوء مبالغ فيه : ماذا تفعل يا سالم ؟

نظر سالم إلى جده وعلى شفته ابتسامة غريبة وقال : أوشكت أن انتهى .

– تنتهى من ماذا يا ولدى ؟

– من حساب الذبذبات ! هم يعملون ذبذبات فى الجو ويحدثون بها هذه الضجة الشديدة .

قال سالم وهو يضع يدا على أذنه دون أن يتوقف عن الكتابة : سأتوصل بالحساب إلى موجات هذه الذبذبات . هى معادلة بسيطة جدا . سين وصاد المهم أين السين وأين الصاد ؟ عندما أعرف سيسكتون تماما . سنصبح أغنياء وسنعيش فى بيت كبير لأن اكتشافى سيريح العالم منهم . لن تسمع لهم أى صوت مثل هذا . هل تسمع صوته ؟

وأشار سالم بيده إلى الأجزاء المبعثرة من جهاز الراديو الذى فككه إلى قطع صغيرة .

وقفت فوزية بالباب وهى تحمل طفلها وقالت وفى صوتها أثر البكاء:

– هل أكلت شيئا يا سالم ؟

رد جده نيابة عنه : لا . لم يأكل شيئا منذ الأمس .

– سأعمل كوبا من الشاى وأى لقمة .

فصاح سالم فى غضب : اخرجوا من فضلكم . أنتم تعطلوننى !

وانكب ثانية على أوراقه ينبش فيها بسرعة وعصبية ويلتقط بين الحين والآخر قطعة من بقايا الراديو يقربها من أذنه وينصت باهتمام .

تبادل الباشكاتب النظر مع فوزية التي بدأت دموعها تسيل من جديد . ثم خرجا من الغرفة . عاد الجد إلى مقعده في الصالة بينما ذهبت فوزية لتعمل الشاي.

***

في مساء اليوم نفسه ذهب شعبان لاستشارة الطبيب النفسي المشهور في باب اللوق . ذهب بمفرده وبدأ يشرح للطبيب حالة ولده وحكاية المعادلات والكلام الذي يقوله عن الذبذبات والأصوات . قال له إنه لا يكاد الآن يأكل أو ينام .

سأله الطبيب : هل تعرض ابنك لصدمة قبل أن تأتيه هذه الحالة ؟

- لست متأكدا . نستطيع أن نسأل جده . ولكن على العموم هو ليس طبيعيا من زمن . كنا قد عرضناه على حضرتك قبل سنوات .

- نعم قرأت ملفه عندي قبل أن أقابلك . ولكن تلك الحالة لا تنتهي إلى هذه التصرفات . لابد وأن يكون ابنك قد تعرض لصدمة حديثة .

كرر شعبان : ربما . سنسأل إن كان أحد في البيت يعرف .

كان الدكتور قد بدأ يكتب (روشتة) طويلة من الحقن والأدوية الأخرى وقال لشعبان :

- ستجد صعوبة في إعطائه هذه الأدوية . هم عادة يرفضون العلاج في هذه الحالة ولكن لابد منه . وعندما يهدأ قليلا أحضره لي لأراه . هذا علاج مؤقت وإذا لم ينفع فقد نضطر إلى أشياء أقوى . ربما نحتاج حتى إلى الكهرباء . قد نعالج الصدمة بصدمة .

***

في هذه المرة لم يعترض الباشكاتب على شيء . لا على العلاج بالحقن ولا بالعقاقير ولا على عودة سالم إلى النوم الطويل بالليل والنهار . لم يكن يستطيع

أن يعترض حتى لو أراد . لأنه للمرة الأولى لزم هو أيضا الفراش دون أن تكون هناك وعكة برد أو أزمة معدة . فاجأته وفاجأت الأسرة إغماءة طويلة حلت به . وأمر الطبيب الذي استدعوه إلى البيت على عجل بأن يلزم الراحة التامة وينتظم في العلاج . وبقي الباشكاتب رغما منه أياما في الفراش لأن الدوار كان يعاوده كلما حاول النهوض .

لهذا أيضا أخفوا عن الباشكاتب خبر جلستي الكهرباء اللتين عالج بهما الطبيب الكبير حفيده .

***

كانت تلك أيام مولد السيدة زينب الذي اعتاد الباشكاتب أن يتابعه من شرفته ويشارك فيه بنفسه كل عام . في هذه المرة أعجزه المرض فكان يتابع بأذنيه كل شيء وهو يرقد في فراشه ويكاد يرى الصور من خلال الأصوات . لاحظ الضجة وهي تزداد يوما بعد يوم مع وفود الآلاف الجديدة من الزوار من كل مكان والذين يعلم أنهم احتلوا الآن كل الأرصفة في الميدان والشوارع المتفرعة منه وأنهم زحفوا حتى جنينة البيت . ميزت أذنه ، إلى جانب النداءات وصياح الصبية وضجيج الميكروفونات . تلك الوشوشة الجماعية الموحدة لآلاف الأصوات . تلك النغمة المبهمة التي تتموج وحدها فوق كل الطنين بين مد وجزر . والتي كان يسميها لنفسه «روح الأصوات» . يتعرف مع ذلك على كل التفاصيل المفردة في الضجة الآتية من الطريق ومن الخيام والأكشاك المنصوبة في شارعهم للمولد .

يسمع صوت ربابة وإنشاد مداحين ، وفرقعات بنادق النشين ، وأزيز (المراجيح) ، ونداءات باعة الأطعمة ، وباعة العطور وباعة كتب الأدعية الدينية ، وخشخشة ميكروفون الساحر الذي يشطر ابنته بالمنشار إلى نصفين أمام أعين المتفرجين والدخول بقرش صاغ واحد . يكاد يراهم جميعا ويلمسهم ولكنه ينتظر

مع ذلك في كل مساء ، في آخر الليل ، صوتا شجيا لا يخطئه أبدا رغم كل الضجيج، يعبر من أذنه إلى قلبه على الفور وهو يكرر بندائه المنغم «توكلت على الله ربي وخالقي ..» ، يمتزج في سمعه بالنغمة الجماعية المتواترة كموج البحر وهو يناجي رحمة الرحمن ملجأ المؤمن فيتمتم الباشكاتب الراقد في فراشه «يارب!» .

***

ولما جاء يوم المولد قرر شعبان أن يحتفل به كما كان جده السعدي يفعل وكما ظل الباشكاتب يحييه لسنوات طويلة . فكر أن هذه هي الطريقة التي يمكن أن تعود بها البركة إلى البيت ويرفع بها الدعاء إلى الله ليشفي أباه وابنه . أراد أيضا أن يشكر الله على المال الذي بدأ يجري في يده منذ أن نجح الزاوية لتاجر السجائر وبعد أن راجت مبيعات الأقمشة هذه السنة لزوار المولد .

استأجر شعبان يومها عشرات من المقاعد الخيرزان ورصها فوق السطح ، وشارك السكان أيضا بإضافة مقاعد من بيوتهم حتى امتلا المكان وشمل الجميع العمارة كلها ، فتطوع كل واحد بما يقدر عليه ، ركب حميد الكهربائي الميكروفونات ومكبرات الصوت ، ووضع أفرع المصابيح الملونة في مدخل البيت وفوقه لتضاء في المساء ، ونصب أبو عزوز النجار أعمدة خشبية فوق السطح وعلق فيها أثوابا من قماش الخيام المزخرف كأعلام مطوية لمجرد الزينة . وشاركت بنات البيت منذ الصباح بمسح السلالم في أدوارهن ، واستطاع أبو زيد أن يكنس المدخل .

وفي الظهيرة ضحى شعبان بعجل كبير ذبحه أمام باب البيت ووزع لحومه على زوار أم هاشم ، وفي لحظة الذبح هلل أبو زيد وكبر بصوته المرتعش مثلما كان يفعل في الزمن القديم ، وارتفعت أدعية أطفال البيت وأطفال الجيران

المتحلقين للفرجة على الذبح بترديد الصلاة على النبي ودعاء المدد من حفيدته الطاهرة ، ثم علت بعد ذلك من مكبر الصوت الموضوع فوق البيت آيات القرآن الكريم يتناوبها المقرئون الذين يختمون المصحف الشريف .

وفي المساء، أصر شعبان على أن يرتدي والده بذلته وعباءته واصطحب سالم المخدر وهو يسنده من تحت إبطيه بينما يسند بيده الأخرى ذراع والده المعتمد على عصاه وصعد بهما معا إلى السطح . أجلسهما متجاورين في الصف الأول في مقعدين كبيرين مبطنين بالقماش ، إلى جوار الحاج إبراهيم المشلول الذي صعدوا به محمولا على المقعد .

وكان المكان قد امتلأ حتى آخره بالجيران من العمارة ومن البيوت المجاورة الذين لم تكفهم كل المقاعد فظل البعض واقفين ، وكان شعبان يطوف على الموجودين وفي يده قارورة عطر معدنية كبيرة ينثر منها على أكفهم المبسوطة قطرات فيمسحون وجوههم وهم يدعون له ، وكان غيره يطوف بأكواب ماء معطر بالزهر ويوالي إرساله الحاج مرعي العطار من شقته في الدور الرابع في أباريق نحاسية كبيرة .

وتأمل الباشكاتب فرقة المنشدين كانوا خمسة يرتدون جلابيب صوفية رمادية اللون وعمائم ، ويضع كبيرهم شالا من حرير أبيض يتدلى من على كتفيه وقف أمام الميكروفون واصطف الأربعة الآخرون خلفه ، وكان الباشكاتب يعرف من تجاربه أي مقاطع سيتلوها وحده ، وأية أبيات سترددها وراءه الفرقة ، وارتاح قلبه عندما وجده جميل الصوت منذ بدأ ينشد مع فرقته مدائح قصيرة لصاحبة المولد والمقام .

وأخيرا جاءت اللحظة التي انتظرها الجميع ، حين علت من فوق سطح البيت بعد انقطاع طويل أبيات البردة التي اعتادوا على سماعها منذ الصغر ، تنقلها

مكبرات الصوت للحي كله . واغرورقت عينا الباشكاتب بالدموع وهو يسمع الأبيات الأولى التي يهتز لها قلبه :

أمن تذكـر جيـران بـذى سـلم ... مزجتَ دمعا جرى من مقلتي بدمِ ؟

لولا الهوى لم تُرق دمعـا على طـلل ... ولا أرِقت لذكـرى البـان والعلم

فكيف تنكر حبـا بعد ما شـهـدت ... به عليك عدول الدمـع والسـقم ؟

وكانت شفتا الباشكاتب تسبقان المنشدين ، ووضع وجهه بين يديه مخافة أن يجهش بالبكاء ، وهو يترنم في سره :

محضتني النصحَ لكن لستُ أسمعه ... إن المحبَ عن العذّال في صمم

فإن أمّارتي بالسـوء ما اتعظـت ... من جهلها بنذير الشيب والهرم

وتساءل الباشكاتب هل يتحدث البوصيرى عن نفسه أو عنه ؟ إن يكن هناك من لم يردعه الشيب فلا يمكن أن يكون ذلك الشاعر التقي وإنما هو من جالت أماده وقلت أمداده ، ولكنه انتبه من خواطره إلى المنشدين يكررون مرة بعد مرة وحشد الجيران يردد وراءهم بعاطفة جياشة :

محمدٌ سيد الكونين والثّقلين ... والفريقين مـن عـرب ومن عجم

نبيُنا الآمـر النـاهي فلا أحـدٌ ... أبرُ في قـولٍ لا منـه ولا نعـم

هو الحبيب الذى ترجى شفاعته ... لـكل هـولٍ من الأهوال مقتحم

ازاح الباشكاتب يده عن وجهه وبدأ يردد مع الجميع بصوت خافت مجهد أول الأمر تلك الضراعة الواحدة للحبيب الذى ترجى شفاعته ، ثم نسى نفسه بعد ذلك تماما ، وانطلق ينشد في سره حينا متابعا المداحين ، ويجهر حينا آخر مع الجميع وكان ثقل السنين وثقل المرض قد انزاحا بالفعل عن كاهله وعاد مرة أخرى إلى شبابه وهو يردد أبيات البردة عن مولد المصطفى عليه السلام وعما قاساه في حياته وأثناء دعوته ، «وقد اشتكت قدماه من ورم وشد من سغب

أحشاءه وطوى» . ويرى بعينيه معجزات الغار في هجرته «ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تَنسج ولم تَحُم» . ويسرى معه من «حرم إلى حرم كما سرى البدرُ في داجٍ من الظلم» ويعيش أيام جهاده وغزواته «وسل حنينا وسل بدرا وسل أحدا» ، ثم يعلو صوته مع المنشدين ومع جيرانه :

يارب بالمصطفى بلّغ مقاصـدنا ... واغفـر لنا ما مضـى يا واسـعَ الكرم

واغـفر إلهـى لكل المسـلمين ... بما يتلون فى المسجد الأقصى وفى الحرم

بجاه من بيتُه فى طيبةٍ حـرمُ ... واسـمُه قسـمٌ من أعظـم القسـم

ولم يعد الباشكاتب الآن ينتبه إلى الدموع التي غطت وجهه ووجوها كثيرة حوله . وكان يقف على قدميه عندما أنهى المداحون البردة وهو يرفع يديه ويتلو الفاتحة معهم . وعاد شعبان إلى الظهور وهو يحمل مبخرة راح يطوحها أمام أبيه وأمام سالم التي كان يغنيق ويعفو ، ثم بدأ يطوف بها بين صفوف المقاعد وبين الجيران الواقفين وهو يصيح بأعلى صوته «مدااااد» ! فيغمر المكان كله الهتاف «صلى على النبي» .

وكان الليل يتقدم وأصوات الزحمة صاخبة في الطريق مثلما كانت منذ مطلع النهار ، تعلو من هناك ومن فوق السطح أصوات التهليل والتكبير والدعاء لصاحبة الليلة الحبيبة السيدة زينب ، الست الطاهرة ، أم هاشم ، بنت بنت النبي ، أخت الحسن والحسين ، أم العواجز وجابرة المنكسرين .

مدد يا ست مدد !

***

القسم الثالث

(الباشكاتب)

(٩)

عرف الباشكاتب متى بدأت عملية ترميم البيت لكنه لم يعرف أبدا متى ستنتهي.

اصر المقاول على الحصول على الجزء الأكبر من أتعابه مقدماً لشراء المواد واتفق على إنهاء العمل في خلال شهر أو شهرين على الأكثر. لكن شهوراً كثيرة مضت ومبالغ كبيرة أخرى ضاعت دون أن يحدث شيء؛ إذ فجأة يختفي المقاول وعماله بعد أن يتركوا البيت مصلوبا بالأعمدة الخشبية ومن حوله أكياس الجير والأسمنت وأسياخ الحديد، وتحفى قدما الباشكاتب وراءه فلا يرجع إلا بعد أن يتقاضى مبلغاً جديداً غير الذي اتفقا عليه، وبدا أنه لن ينتهي إلا مع انتهاء آخر قرش يملكه صاحب البيت..

وفي هذه الأثناء اضطر الباشكاتب أيضاً إلى استشارة أكثر من طبيب بعد أن تكررت نوبات الدوار وإصابة هزال مفاجئ: كان الطبيب الذي زاره بعد إغماءته الأولى قد أنّبه وسأله كيف سكت على نفسه حتى ارتفع ضغط دمه إلى هذا الحد واضطربت نبضات قلبه؟ ومع أنه التزم بالعلاج الذي وصفه له الطبيب حتى استطاع أن يقف على قدميه، إلا أنه بدأ بعد ذلك يفقد الكثير من وزنه بالتدريج فاتضح أنه أصيب بمرض السكر. أصبح من الضروري أن يعالج بحقن يومية وأن يتعاطى أدوية كثيرة أخرى. وبالكاد كان المعاش والإيراد الضئيل الذي يأتي من أرض سمية يكفيان لسداد أثمان هذه الأدوية ولزيارات الطبيب الكبير الدورية . والتحليلات المستمرة التي يطلبها في معامل يحددها بنفسه. كان يغضب إذا ما أجرى الباشكاتب التحليل في مستوصف شعبي أو في معامل رخيصة.

يقول إنه لا يثق في هذه النتائج أبدا ولا يمكنه الاعتماد عليها في كتابة العلاج، فيضطر الباشكاتب إلى إعادة التحليل في المعامل الغالية. ولم يعد يستطيع، حتى لو أراد، أن يدفع لفوزية ما كان يعطيه لها من قبل، لكنه على الأقل لم يطالب فراج أبدا بسداد ما اعتبره دينا عليه، وكف فراج أيضاً عن الاعتذار لعدم سداد هذا الدين.

ما كانت تشغل الباشكاتب قبل كل شيء آخر في هذه الأيام هي حالة سالم. ظل مرضه على حالة رغم العقاقير المنومة والمخدرة، وكان «يراهم» كلما أفاق ويشير إلى أبيه أو أخته طالبا بصوت مجهد إبعادهم عنه . اعتادوا أن يأتوا إليه في معظم الوقت في معاطف بيضاء، وأن يحدثوا ضجيجا يسبب له صداعاً مؤلما فيسد أذنيه بكفيه ويعصر جبينه دون جدوى . لكنه كف بعد العلاج عن محاولة اكتشاف المعادلات التي ستطردهم ثم انقطع ظهورهم تماما بعد جلستي الصدمات الكهربائية، طردت هاتان الجلستان الأشباح المألوفة واستبدلتا بهما أشباحا أشد شراسة. إذ ظل سالم يقوم مفزوعا في الليل ويصيح صيحات أقرب إلى العواء، وهو يلوح بيديه محاولا أن يطرد الخفافيش والصقور التي تنقض على رأسه وتنهشه.

بكت فوزية وهي تقبل يد والدها ضارعة إليه، مرة أخرى، أن يرحم أخاها من هذا العذاب - سألته هل يمكن أن يحدث لسالم ضرر أكبر مما هو فيه الآن لو تركوه دون علاج؟

أراد شعبان أن يستمر مع ذلك حتى تنتهي الجلسات التي حددها الطبيب لتظهر النتيجة، لكن الباشكاتب الذي غادر فراشه بمجرد أن عاد له شيء من نشاطه . فزع عندما رأى حالة حفيده، لم يستطع أن يأمر شعبان كما فعل من قبل بأن يوقف العلاج على الفور. اكتفى مثل فوزية بالإشارة إلى ما جرى لحفيده

بعد العلاج، إذ امتنع سالم عن الأكل وأصبح يشكو بعد الجلستين، إلى جانب الصداع، من غثيان مستمر وهو يمسك بطنه والألم يعصر وجهه محاولاً إرجاع طعام لم يذقه.

قال الباشكاتب لولده متظاهراً بالهدوء: يا شعبان. هذا الولد سيموت لو استمر على هذا الحال. لنعطه على الأقل فترة راحة من الجلسات، فإن ساءت حالته أكثر يمكننا أن نفكر فيها من جديد.

رد شعبان على والده بهدوء أيضاً لم يخل من نبرة تأنيب: ربما يا حضرة الباشكاتب لو كنا أكملنا علاجه من البداية لما اضطررنا الآن إلى هذه الصدمات.

– معك حق يا شعبان . أنا كل ما أطلبه الآن منك هو فترة راحة لسالم ترجع بعدها إلى هذه الجلسات إن شئت.

زفر شعبان ثم قال وكأنه يخلي مسئوليته مرة أخرى: كما تشاء يا والدي. يعلم الله ما الذي فعلته لأدبر تكاليف هذه الجلسات وها نحن الآن نوقفها!

أوشك الباشكاتب أن يقول: أهذا هو ما يشغلك يا شعبان؟ حالة سالم كادت أن تقضي علي. تكاد حتى الآن أن تقضي علي وأنت تحسبها بالتكاليف؟ أليس ابنك؟ لم لا أراك جزعاً عليه مثل فوزية؟.. ولكن لا! كفى! توقف! من أدراك بما يدور في قلب شعبان أو في عقله؟

ألم تتفق على أنك لست أهلاً لتحكم عليه أو على غيره؟ تواضع! تواضع! ثم أنت تجرؤ على أن تلوم شعبان؟ هل هو السبب فيما حل بسالم أم أنت؟ من الذي شجعه من الأصل؟

قال الباشكاتب بلهجة كسيرة لا تشبه لهجته في شيء: لا تقلق يا ولدي سينجو سالم من هذه الأزمة بإذن الله.

طافت بذهنه لحظتها نبوءة أبو خطوة الغامضة لحفيده فبحث عن الحجاب وأعاد تعليقه من جديد في صدره، لكن فوزية دفعته إلى التفكير في شيء آخر.

كانت تلازم أخاها ليل نهار. تطعمه بيدها اللقيمات القليلة التي يقبلها مثلما اعتادت أن تفعل وهو صغير. تأخذه في حضنها وتهدهده عندما تهجم عليه الوحوش التي تنهش رأسه. تؤلف حكايات كثيرة وتحكيها لسلوم الذي كان يتعلم المشي دون أن تفارق عينها أخاها الراقد في الفراش. إن لاحظت أنه قد شرد أو كف عن متابعتها تبدأ في اختراع شيء جديد لتبقيه صاحياً ومنتبهاً. وصارحت جدها بأنها تدعي لأبيها، أنها تعطي لسالم الأدوية في مواعيدها لكنها في الحقيقة تسقيه بدلاً منها الينسون أو التيليو. ولم تلاحظ أي فرق يحدث في حالته حين تعطيه الأدوية أو حين تمنعها.

لجأ الباشكاتب بعد أن سمع ذلك إلى الحاج مرعي العطار. ذهب إلي جاره في دكانه القريب الذي تفوح منه من بعيد روائح البخور والأعشاب والمكتوب على واجهته تأسس سنة ١٨٨٠ . كان يشبه والده الراحل صديق الباشكاتب في كل شيء؛ يرتسم على وجهه تعبير الجد والانشغال طول الوقت، ويلبس مثله الجلباب البلدي وطربوشاً نظيفاً ومكوياً باستمرار. وكان ذلك يحير الباشكاتب بسبب اقتراض محلات كي الطرابيش من الحي ومن البلد . استقبله مرعي بترحيب كبير وأدخله مكتبه الواقع في عمق محله الواسع الذي وجده الباشكاتب مزدحماً بأكداس من الكتب القديمة المجلدة، وقوارير زجاجية صغيرة مرصوصة فوق أرفف خمن أنها تضم الأعشاب الثمينة.

وعندما عرف مرعي ما يطلبه الباشكاتب تحول تعبير وجهه الجاد إلى ما يشبه الصرامة وهو يسأله بدقة أدهشته عن كل تفاصيل حالة سالم. ما الذي يحدث له بالضبط في نومه وفي يقظته، وهل يستقر الطعام في بطنه أو يرجعه، وهل ترتفع درجة حرارته أحياناً؟ سأل أيضاً عن لون البول وما إذا كان يشعر بجفاف في الحلق، وهل يسيل لعابه حين تأتيه الحالة؟ وما هي، بلا مؤاخذة، حالة «الطبيعة» عنده؟ كم مرة؟ وهل تميل إلى الإمساك أو العكس؟

ابتسم الباشكاتب وهو يقول: لا أعرف يا حاج مرعي إجابات كل هذه الأسئلة، حتى الطبيب لا يسأل عن كل هذه التفاصيل!

أزاح مرعي طربوشه قليلا إلى الخلف وقال دون أن يبتسم: ما لدينا يا حضرة الباشكاتب هو أبو الطب. ليتك جئت لي منذ البدء!

أراد الباشكاتب أن يداعبه «خفها حبة» لكنه قدّر على الفور أن مرعي ليس من النوع الذي يقبل المزاح، فنهض وهو يقول:

– سآتيك بأجوبة لكل أسئلتك إن شاء الله.

قام مرعي بدوره وهو يضبط طربوشه فوق رأسه قائلا: في أسرع وقت!

كانت فوزية تعرف كل الأجوبة التي يطلبها العطار فدونها الباشكاتب في ورقة عاد بها إلى مرعي الذي راجعها بكل دقة ثم طلب من الباشكاتب أن يعطيه مهلة يومين بالضبط. وعندما ذهب في الموعد كان العطار قد أعد أربعة أكياس تضم أعشابا مختلفة مكتوبا عليها بخط رقعة بالغ الجمال وبالقلم البسط إرشادات مفصلة «ينقع في المساء، ويشرب باردا على الريق».. «يغلى جيدا ويشرب ساخنا أربع مرات في اليوم».. «قبل النوم بساعة».. «ملعقة صغيرة سفوف بعد الأكل».

وعندما مد الباشكاتب يده ليأخذ الأكياس سحبها مرعي بشيء من التردد وهو يقول: سهرت ليلتين يا حضرة الباشكاتب ورجعت إلى كل ما عندي من الكتب لأنك غال عندنا. الشافي هو الله، ولكن إن أعطيت سالم هذه الأعشاب فيجب ألا يأخذ معها أي دواء آخر. وأرجوك أن تخبرني كيف تتطور حالته لأننا قد نغير بعض الجرعات أو الأعشاب وقد نلغيها كلها إن لم تنفع. الشيء الوحيد الذي يمكن أن أقوله لك باطمئنان إنه سيسترد شهيته إن شاء الله..

وأخيراً أعطاه الأكياس في حرص شديد وهو يقول: وتذكره يا حضرة الباشكاتب بالدعاء، وتذكرني معه، وربنا يقبل بجاه الست..

فقال الباشكاتب وهو يتناول الأكياس بالحرص نفسه: آمين.

وعندما أراد أن يدفع شيئاً للعطار رد يده الممدودة في تصميم لا يقبل جدلا :

– عندما يأذن الله بالشفاء، يا حضرة الباشكاتب، ستحيي لنا فوق السطح ليلة من لياليك الجميلة.

اتفق الباشكاتب مع فوزية على أن تعطي لسالم هذا العلاج دون علم شعبان. لم يكن واثقاً أن ابنه سيوافق على إيقاف الأدوية الغالية. ولا كان واثقاً أن ما يفعله هو الشيء الصحيح.

لكنه حاول شيئاً آخر ليساعد حفيده – ذهب بنفسه إلى كلية الحقوق ليسأل عن الطالبة لبنى التي أبوها طبيب – كانت تلك هي كل المعلومات التي يعرفها عنها، وحين اهتدى إلى صاحباتها عرف منهن أنها سافرت إلى إيطاليا وأنها ستكمل تعليمها هناك. أخذ اسم والدها واستدل على عيادته...

لم يستقبله الدكتور شوكت على الفور عندما أخبرته الممرضة إن هناك رجلا عجوزا يريده في مسألة شخصية. سألها هل شكله ممن يطلبون إعانة أو كشفا مجانيا لإحدى قريباتهم ؟ قالت إنها لا تظن ولكنه سأل عن أخبار الآنسة لبنى. قطب الدكتور قائلاً : ربما هو مخبر؟ فابتسمت الممرضة وهي تقول هو عجوز جداً لا يصلح مخبراً!. لوح الدكتور شوكت بيده قائلا.. فلينتظر حتى ينتهي العمل في العيادة. إن كان هناك وقت فسأقابله.

بعد أن انتظر الباشكاتب ساعتين استقبله الدكتور شوكت وهو يجلس إلى مكتبه. وباغته بمجرد دخوله: كيف تعرف ابنتي؟

غالب الباشكاتب دهشته وقال: مساء الخير أولا!

لم يرد عليه شوكت وظل ينظر نحوه وهو يعتمد ذقنه بيده فبدأ الباشكاتب يشرح بارتباك أن حفيده سالم كان صديقاً للآنسة لبنى قبل سفرها. وأنه أصيب بحالة نفسية سيئة، ولذلك فهو يسأل الآن إن كان يمكنه أو الآنسة لبنى مساعدة

حفيده بأي شكل، ولو عن طريق رسالة أو زيارة.. تذكر الدكتور شوكت كل شئ عن الشاب الذي زاره يوم سجنت لبنى وقال لنفسه يجب أن تضع نهاية حاسمة لهذه الحكاية.

قال بلهجته الرخوة مخاطبا الباشكاتب: تسألني إن كان يمكنني مساعدة حفيدك؟ يمكنني بالطبع . أنصحك بأن تضعه في مصحة للأمراض النفسية أو العقلية ثم لا تجعلني أراه أو أسمع عنه أو عنك بعد اليوم ! ليس عندي وقت لهذا العبث.

قال الباشكاتب في ذهول : على أيامي كنا نكلم من هم أكبر منّا سنا بطريقة مختلفة . أنا في سنّ والدك يا دكتور!

قال شوكت وهو ينهض: أنت لست مثل والدي.. والدي كان يعرف...

استشاط الباشكاتب غضبا وهو يقول: أحمد الله أني لست مثل والدك! على الأقل أنا استطعت أن أربي أولادي!

واستدار خارجا وهو يضرب الأرض بعصاه بعنف وقال شوكت لنفسه دون أن يهتز: أظن أننا فرغنا من هذه المسألة. نهائيا!

غير أن سالم لم يعد بحاجة إلى المستشفى التي نصح بها الدكتور شوكت . استرد شهيته بالفعل كما تنبأ الحاج مرعي وأصبح الطعام يستقر في بطنه. وشيئاً فشيئاً أخذ يستعيد بعض الوزن فقده وأصبح نومه أهدأ مما كان . ظل مرعي يمر على بيت الباشكاتب كل يوم تقريباً في نزوله وصعوده، يسأل عن تطور «الحالة»، ويغير أحيانا خلطة الأعشاب معتبرا الصراع مع الوحوش التي تتشبث برأس سالم معركة تخصه هو بالذات، وإن ظل يعتب على الباشكاتب، برزانته المعهودة: لو جئتني منذ البدء يا والدي لما استغرق العلاج كل هذا الوقت!

وكان الباشكاتب يبالغ في الاعتذار عن هذا التقصير، مجاملة لمرعي في بعض الأحيان، وصادقاً في أحيان أخرى حين لاحظ التحسن الذي بدأ يطرأ على حالة

حفيده. أخذت الوحوش تنسحب التدريج، وبدأ سالم يعود ببطء من العالم الذي غاب فيه طويلا. يتحدث أحيانا بجمل قصيرة إلى جده وإلى فوزية، ويطلب الطعام بنفسه، ويوم تعرف على سلوم الصغير وبدأ يداعبه همست فوزية لجدها بنبرة ظافرة «أرأيت؟ البركة في عم مرعي!» . فقال جدها وهو يقبل رأسها «وفيك أنت يا فوزية!».

بقيت بعد ذلك فقط حين رجع لهم سالم تلك النظرة المنطفئة في عينيه وبسمة ثابتة على شفتيه وعاد إلى صمته الطويل. غير أن ذلك كان شيئاً ألفوه منذ زمن طويل.

وكان الباشكاتب قد فعل شيئاً آخر يوم ذهب إلى الجامعة بحثا عن لبنى.. إذ قدم شهادة مرضية لإعفاء سالم من الامتحان في هذه السنة. لم تكن حالته تسمح بذلك.

ولكن في السنة التالية كانت هذه الحالة تسمح بأن ينزل سالم للعمل..

* * *

وبينما كان الباشكاتب يتابع مع فوزية حالة سالم وجد الوقت أيضاً ليفعل أشياء أخرى مؤجلة. كان عزمه قد استقر منذ ليلة المولد. حلت به ليلتها سكينة افتقدها طويلا وهو ينصهر مع جيرانه في تلك الليلة من المحبة الخالصة. لم يكن يردد أبياتا من الشعر ويسمعها فحسب، ولكنه كان يسترد عافية نفسه.

في أول خميس استطاع فيه الخروج ذهب للقاء نازلي وجلسا معا كصديقين غابا عن بعضهما لفترة. أعطته نازلي نصائح بشأن صحته وزودته باسم الطبيب الكبير الذي أصبح بعد ذلك يتابع حالته. قالت بلهجة جازمة:

– هو أحسن طبيب في البلد فاسمع كلامه يا توفيق.. وحاسب على نفسك. لم تعد صغيرا!.

وكان هو يعرف أنه قد أصبح كبيرا جدا! في السنتين الأخيرتين ظل يحافظ على موعد الخميس بحكم العادة لا أكثر، واعتادا أن يقضيا الوقت في الثرثرة عن قضاياها ومشاكلها مع المحامين ومع أبنائها. فإذا جاء العشق بعد ذلك أو قبله، ثم بصعوبة وفتور، لا شيء فيه من حرارة الزمن القديم، كاد لقاء الخميس أن يقتصر على الثرثرة حتى لو كانت لدى الباشكاتب الرغبة، وحتى لو توافرت القدرة التي أصبحت تزداد صعوبة أسبوعا بعد الآخر.

لزم الباشكاتب الصمت فترة وهو يتأمل وجه نازلي الذي أجرت له عملية شد جلد فأصبحت عيناها الخضراوان الصغيرتان كخرزتين لا تطرفان، ثم قال بهدوء وهو يبتسم:

- وما رأيك يا بنت الناس...

لم يكمل كلامه لكن نازلي قالت بلهفة: عمرك أطول من عمري!

- أنت تعرفين ما كنت أريد أن أقوله؟

فابتسمت وعادت تتكلم بنبرتها الهادئة الهامسة:

- طبعا يا توفيق! من مدة أعرف أنك تريد أن تقولها.. وأنا أيضاً..

ثم هزت رأسها وقالت بأسف: أصبحنا عجوزين!

ورجعت تبتسم وهي تضع يدها فوق يده: ولكن لي شروطي!

فاجأه ردها بالفعل، كان قد فكر قبلها كثيراً كيف يصارحها.. شعر بكثير من الإحراج والارتباك مخافة أن يجرح مشاعرها بعد «عشرة» هذه السنين الطويلة، لكن نازلي أنهت المسألة بكلمتين وابتسامة. لم ير في وجهها أي حزن حقيقي. تصرفت كأنها ستفترق عن شخص قابلته بالمصادفة. ليست غلطتها على أي حال!

وكانت «شروطها» بسيطة هذه المرة: أن يتم الطلاق كتابيا أيضاً وأمام شهود وأن يسجلا فيه أنه ليس لأي منهما حقوق لدى الآخر.

لم يملك الباشاكاتب نفسه فقال ضاحكاً: يا نازلي هانم هذا ليس طلاقا. هذا رد كمبيالة ومخالصة!

فردت دون أن تضحك: لمصلحتك ومصلحتي يا توفيق.

وبعد أن اتفقا على موعد الطلاق والشهود، قالت نازلي وهي تنظر حولها:

- على فكرة، يمكنك أن تطلب «خلوا» كبيرا لهذه الشقة. الموقع مطلوب. ستسترد الإيجار الذي دفعته طول هذه السنين، وربما أكثر.

جال الباشكاتب بنظرة في الشقة ولم يرد. ظل ينظر إلى نازلي وهو يفكر: هل يقتل الحرص الشديد على المال الأرواح أم أن الأرواح الميتة من الأصل هي التي تتكالب على المال بهذا الحرص؟ وهل موات الأرواح يعدي؟.. لا. هي لم تفرض نفسها علي، بل أنا الذي سعيت وراءها. فهل تنتحر الأرواح عن عمد كما تنتحر الأجساد؟ ولماذا؟ كأنني كنت أبحث عنها لكي أهرب في الوقت ومن الوقت. ألم أسمع من أبو خطوة أن العاقل من يمر على الأوقات لا الذي تمر به الأوقات؟ من يحكمها لا من تحكمه؟ وأنا لم تمر بي الأوقات فحسب، بل تركتها تزحف بي عمرا اتسعت أماده وانعدمت أمداده. حتى أعذاري الوجيهة لم تكن في الحق وجيهة. قلت لن أنافق. سأنتظر ألا أشتهي الدنيا لا توجه بعده. نقيا خالصا. ولكن كيف توقعت أن يأتي هذا النقاء؟ لماذا لم تكن تصبر أبدا على ظمأ جسدك واستطال صبرك على ظمأ روحك؟ ولماذا مثلا لا تظمأ روح نازلي؟ وهل هي تعرف أصلا أن هناك ظمأ للروح؟

توقف يا حضرة الباشكاتب! ها هو ضلال آخر! هل اكتشفت نازلى الآن فجأة؟ قد تكون أفضل منك! على الأقل هى لم تفعل شيئاً تعتقد فى قرارة نفسها أنه خطأ. ألم تصمم هى على أن يكون هناك زواج وإشهار؟ إن كنت أنت تطمع فى الرحمة رغم كل خطاياك فلماذا تضن بها على نازلى؟ لا. إن أردت أن أطوى هذه الصفحة فيجب ألا ألوم نازلى على شىء أبدا. بل ربما كان يجب أن أطلب منها الصفح.

سألته نازلى حين طال صمته:

– لماذا تنظر إلى كأنك لا ترانى؟ فيم تفكر يا توفيق؟

فقال بهدوء: فى الطلاق.

* * *

(٢)

عندما كان عاطف – أو سلوم – فى الرابعة من عمره تقريبا رجعت فوزية إلى بيت الأسرة بصحبة ولدها . لم تكن تلك هى المرة الأولى فى الفترة الأخيرة . تكرر مجيئهما ومبيتهما ليلة أو ليلتين أو أكثر . فى البدء كانت تقول إنها اشتاقت لهم أو إنها تريد أن ترعى «رجالها» قليلا لأنها لا تطمئن تماما إلى عمل الشغالة التى أصبحت تأتى مرة واحدة كل أسبوع . ولكن فوزية لم تكن ترجع إلى بيتها إلا بعد أن يأتى فراج لاصطحابها . وفهم الجميع ما يجرى دون حاجة إلى كلام . ولكنهم سكتوا لأن فوزية لم تشأ أن تقول شيئا .

كان فراج يأتى فى العادة متجهما . يجلس فترة مع الجد . ومع شعبان أو سالم إن كان أيهما موجودا . بينما تختفى فوزية فى غرفتها . فى تلك الأحوال يجلس مطرقا ويلزم الصمت معظم الوقت مكتفيا بتبادل التحيات والمجاملات . وأحيانا يشكو من ظروف العمل . يقول إن كل «الشغل» فوق رأسه ولكن لا أحد يقدّر . وإن من يحصلون على المكافآت والعلاوات هم محاسيب رئيس مجلس الإدارة الذين «يعطلون الإنتاج» لأنهم لا يفعلون شيئا للشركة ويقومون بأعمال خارجها . سأله الباشكاتب مرة كيف يفعلون ذلك وهو ممنوع بحكم قوانين العمل؟ فنظر فراج نحوه بإشفاق وشرح له أن الدنيا تغيرت . وأن هؤلاء الموظفين يدبرون أمورهم . يدفعون «المعلوم» ويقدمون الهدايا للرؤساء ليسمحوا لهم بالتفرغ لأعمالهم الخارجية ولإرسالهم أيضا فى إعارات للبلاد العربية . واعتادوا أن يتركوا فراج يتكلم أو يصمت كما يشاء وهم يعرفون كيف سينتهى ذلك كله . فبعد أن يشرب الشاى يسأل «أين فوزية ؟» وينادى عليها جدها أو يخرج أخوها أو

أبوها لاستدعائها . فتأتى وتقف بباب الغرفة مطرقة وهى تشبك يديها أمام حجرها أو وهى تدفع أمامها طفلها الصغير الذى يجرى نحو حضن أبيه فى ضجة كبيرة بمجرد أن يراه . ويقول فراج عابسا دون أن ينظر نحوها كلمة واحدة «البسى» .

ومع أن فوزية لم تحدث أحدا عن أسباب خلافاتها مع زوجها فقد كان مفهوما أن مرتبه لم يعد يكفى مصاريف البيت حتى منتصف الشهر . وأن الديون التى تراكمت عليه كانت سببا مستمرا فى اتهامه لزوجته بالإسراف وعدم التدبير . كانت فى كل مرة تحسبها له بالورقة والقلم وهى تبكى . ولم يكن يقتنع .

وفى هذه المرة طال بقاء فوزية مع ابنها فى البيت . لم يأت فراج لاصطحابها بعد يومين أو ثلاثة ولا أسبوعين أو ثلاثة . ولم يكن [illegible] أن يستطيع مساعدتها .

اعتقد (شعبان) أن المبلغ الكبير الذى حصل عليه مقابل تأجير الزاوية لبائع السجائر سيكفى إلى جانب القليل الذى يدره محل القماش ليعيشوا حياة معقولة وتفاءل كثيرا فاعتقد بإمكان عودة أيام الرخاء القديم . غير أنه اكتشف بعد قليل أن الغلاء يسبق أى مبلغ يمكن له تدبيره . وبعد أن ضاعت مدخرات الباشكاتب وأصبح دخله يكفى بالكاد لعلاجه . نشأت مشكلة حقيقية فى تغطية مصاريف البيت . وهكذا فقد اضطر أن يجد وظيفة لسالم فى مطعم أمريكى للدجاج فتح بالقرب من ميدان السيدة بعد شهور من شفائه .

عمل سالم كاتب حسابات فى المطعم . وأعفاه هذا من لبس الطاقية البيضاء المنفوخة التى يلبسها بقية زملائه مع سترة زرقاء . إذ كان يعمل فى ركن داخلى صغير . يكفى بالضبط مقعده والمكتب الذى يشتغل عليه . وارتاح إليه مدير المطعم كثيرا . كانت حساباته فى غاية الدقة والأمانة . كما أنه لم يكن بحاجة إلى

تعليمات المدير التى يزجر بها زملاءه طول الوقت لالتزام الصمت الكامل والتركيز على العمل لهذا نجا سالم وحده من الطرد خلال ستة أشهر . على عكس بقية زملائه الذين التحقوا معه بالعمل فى وقت واحد . لم يكن المدير يحب التعامل مع مكتب العمل . ولكنه أدرك حاجته إلى سالم الذي بدا أيضا أنه لا يعرف أى شئ عن هذا المكتب .

كانت المسافة قريبة من البيت إلى المطعم مما وفر مصاريف المواصلات ولم يكن سالم يدخن أو يحتاج إلى صرف أى نقود فاعتاد أن يساهم بمرتبه كله تقريبا في البيت . بعد أن يقتطع جزءا من هذا المرتب الصغير ليعطيه لفوزية .

حكت له أخته بعد شفائه كل شئ عن همومها مع فراج - قالت له إنه كلما ساءت حالته فى العمل بسبب مكائد زملائه الذين يلقون عليه عبء العمل كله ويحصلون وحدهم على العلاوات والمكافآت . كما تكد عليها عيشتها فى البيت . قالت إنها طلبت من فراج أن يمسك بنفسه مصروف البيت ليرى كيف يمكن تدبير العيشة بالمرتب حتى آخر الشهر فرد بأن هذا «شغل الستات» . أمه اعتادت أن تدبر بيتها وتوفر مصاريف تعليمه بأقل من المبلغ الذي يعطيه لها .

وصارحت فوزية أخاها بمخاوفها . هى تعتقد أن فراج يفتعل كل هذه المشاجرات لأنه يريد أن يتزوج من موظفة لها مرتب . لم يعد مرتبه وحده يكفى للمعيشة . وبعد أن كان متشددا فى أن زوجته يجب أن تبقى فى البيت لتربية الأولاد أصبح يعيرها بأن شهادتها الإعدادية لا تنفع لأن تشتغل فى أى وظيفة .

قالت لأخيها فى مرارة : بدلا من أن يشد حيله ويبحث عن عمل على تاكسى بعد الظهر أو أى شغل إضافى مثل شغلك ومثل بقية خلق الله فهو يدفن نفسه ليل نهار فى الوظيفة (الهباب) ويعيرنى بأنى لا أعمل ..

أصبح سالم ، بعد العلاج ، يحسن الاستماع دون أى تعليق . تضاعف صمته القديم وأصبح يحدق بتركيز فيمن يحدثه فيعتقد أنه يصغى إلى كل حرف ، لهذا أحبه زملاؤه فى العمل وصار موضع أسرارهم جميعا . كان ينسى هذه الأسرار بسرعة بعد الاستماع إليها ولا يلمح إليها حتى لصاحبها فيعتقد أن هذه مبالغة فى الكتمان ، ولكن فى هذه المرة بعد أن استمع إلى شكوى فوزية قال بهدوء والبسمة الثابتة على شفتيه :

- كان رأيى منذ البداية أن هذا الزواج غلطة يا فوزية . لماذا وافقت عليه ؟

فحولت وجهها عن أخيها وانهمكت فى ترتيب ملابس سلوم .

لا تستطيع أن تقول لسالم . هى نفسها لا تعرف كيف حدث ما حدث . كانت تزور صاحبة لها فى البيت الذى يسكنه فراج ، زارتها قبل ذلك مرات كثيرة دون أن يخطر ببالها أى شئ . اعتادت هى وهو أن يلتقيا خارج الحى ، فى أماكن بعيدة عن الأنظار . وفى هذه المرة وهى تنزل من عند صاحبتها وجدته يقف بالمصادفة أمام باب شقته المفتوح وكان السلم خاليا فابتسمت وابتسم . هى لا تعرف ولا تذكر بالضبط ما بعد . تذكر فقط أن ذعره كان يفوق ذعرها وأنه راح يلطم خده .

التفتت مع ذلك نحو سالم وقالت بلهجة هادئة ، تكاد تكون مستسلمة :

- لأنى أحببته ، لأنى أحبه .

***

جلس الباشكاتب فى مقهاه القديم بعد أن أدى صلاة الظهر فى مسجد السيدة . أصبح يمر على المقهى كل يوم فى هذا الموعد الذى يكون فيه شعبان وسالم فى العمل وتكون فوزية مشغولة بإعداد الطعام .

اعتاد أن يصحو فى الفجر ليصلى ثم يقضى بعد ذلك وقتا طويلا فى قراءة الكتب . كان يقرؤها بتركيز وتمعن حتى كاد أن يحفظها كلها . لم يترك وصية من وصاياها فى العبادة أو السلوك إلا ونفذها بكل دقة . أدرك أنه يطلب شيئا كبيرا . يهون فى سبيله كل ما يبذل . وسلم بأنه أيا كان ما يبذله الآن فهو قليل بعد أن بدد عمره فى التراخى والمعاصى ولكن صديقه قال له يوما إنه حتى المعصية تستغفر لصاحبها إن أتى طائعا ومنيبا . فهل يُتقبل منه بعد كل ما سلف؟ ثم ما هو ذلك الذى يطلبه بالضبط ؟ ماهى تلك البشرى الموعودة ؟ ألا يكفى أن يطلب من ربه المغفرة ؟ يكفى ويزيد . بل هى فى حالته فضل ونعمة من الله . وفكر ساخرا من نفسه : أم تريد حقا يا توفيق يا ابن السعدى بعد كل ما فعلته فى حياتك أن تكون من الأولياء الصالحين ؟ ولكن لابد مع ذلك من حكمة فى تشبثك بتلك البشرى الغامضة التى حدثها عنها صديقه . الحكمة هى أن تتواضع! أن تتعلم ما قاله لك «أن تريد ألا تريد» ولكن كيف ؟

كان يجلس ممسكا بعصاه بيديه الاثنتين ومستندا عليهما بذقنه وهو يتطلع إلى الميدان . سرح بفكره وهو ينظر إلى السبيل المغلق الذى يواجهه وابتسم لنفسه لأنه ظل طول عمره يحاول قراءة أبيات الشعر المطموسة المحفورة فى أعلى واجهة السبيل دون أن ينجح ! استطاع بعد جهد على مر السنين أن يحل البيت الأول «سبيل الله يا عطشان فاشرب . هنيئا صافيا بشفى العليلا» . لكنه توقف بعد مطلع البيت الثانى «أنا ظمآن قارون ...» وظل ما بعده حروفا مبعثرة كالطلاسم . لكنه يحب النظر إلى هذا السبيل . يتخيل زمانا لم يكن فيه هذا البناء المهجور الرمادى اللون وكانت تحف بأبيات الشعر على الواجهة الزخارف من أفرع أوراق الشجر وتشكيلات الزهور والنقوش الملونة كأنها تحيى كل قاصد السبيل .

هو يحبه حتى على حاله الآن . يحب كل شئ في هذا المكان . يذكر فرحته عندما كان يهل على الميدان بعد غيبة أثناء عمله في أسيوط أو المنصورة . فرحته عندما يرى من بعيد القبة والمئذنة السامقة بشرفاتها المتعددة ، زحمة الناس حول المقام الطاهر ، يخفق قلبه ويود لو يصافح كل إنسان دون تمييز . المارة في الشوارع ، وأصحاب المحلات ، والباعة الجالسين على الأرصفة ، وحتى عمال الترام في الكشك الذي يتوسط الميدان والواقفين حوله . يريد أن يقول للجميع «أنا رجعت!» ومازال حتى الآن ، بعد أن أصبح بالفعل يتوكأ على العصا التي كان يمسكها من قبل على سبيل الأناقة ، لا يستطيع أن يحتمل يوما دون ضوضاء هذا المكان وناسه ، لا يشعر أنه يعيش حقا إلا حين يراهم ، لو أمكن أن يدفنوه بعد موته تحت أسفلت هذا المكان !

توقف الباشكاتب ليسأل نفسه : كيف وهو ممتلئ بالدنيا إلى هذا الحد سيصل إلى العزلة والخلوة اللتين تقول الكتب ألا وصول بدونهما ؟ ولكن أبو خطوة قال له خذ من هذه الكتب ما يوافقك ، ستتعلم وحدك ما الذي تأخذه منها وما الذي تتركه لأن طريقك لم يعبده لك غيرك . لا ترهق نفسك بالتفكير فسيأتي كل شئ في حينه .

وضع جابر فنجان القهوة أمام الباشكاتب المستغرق في أفكاره وهو يسأله مبتسما .

– مازلت غاضبا علي يا حضرة الباشكاتب ؟

فابتسم بدوره وهو يرد عليه : قلت لك يا جابر مائة مرة سمسارك ذبحني والمقاول الذي جاء به ليرمم البيت أكمل المهمة . وعد بأن ينهي العمل في شهرين فاستمر أكثر من سنتين . ولكن ماذا أفعل ؟ ربنا يسامحك !

قال جابر متظاهرا بالأسى : والله يا حضرة الباشكاتب أنا أردت أن أخدم ولكن ما العمل ؟ أنت رجل طيب والناس في هذه الدنيا إما آكل أو مأكول ..

رفع الباشكاتب فنجان القهوة بيده المرتعشة وهو يسأله وأنت يا جابر ، آكل أو مأكول؟

أشار جابر إلى جلبابه ومئزره (الدمور) الممزق وهو يقول :

– انظر بنفسك حضرتك واحكم !

أشار الباشكاتب بدوره إلى فم جابر الذي كان يستحلب شيئا وسأله :

– فلماذا إذن يا جابر تصرف قرشك على هذا ؟

رد جابر دون أن يهتز : أنا يا أستاذ في النهار الواحد ألف هذا الميدان الواسع على رجلي عشر مرات دون أن أترك المقهى . أظل بالنهار والليل كالمكوك وراء طلبات الزبائن حتى تورمت قدمي كما ترى . فماذا أفعل لاحتمال هذا العذاب ؟

– وما الذي رماك على هذا العذاب ؟

– ثمانية أولاد وأمهم .

– ألم يكبر أحد من أولادك حتى الآن ليريحك من العمل ؟

– كلهم كبروا يا أستاذ . منهم من تعلم وأفلح واشتغل ، ومنهم من خاب ولكنهم جميعا مازالوا يمدون أيديهم إلى جابر الغلبان !

تذكر الباشكاتب عبوات الكيف الملفوفة في ورق السيلوفان وحكاية الدولارات والسمسار الذي أهلكه فقال ضاحكا :

– أنت غلبان يا رجل يا ضلالي ؟ ماذا ستقول لربنا يوم يلقاك ؟ فكر لأن حكايتنا أنا وأنت قربت !

وفاجأه رد جابر حين قال بأدب شديد وهو يمسح الطاولة بمنشفته :

- سأرد مثلك يا حضرة الباشكاتب !

ثم قال وهو يرفع الفنجان متأهبا للانصراف :

- أنا في هذا العمل يا أستاذ منذ أن كنت صبيا صغيرا ، ورد علي هنا كل أصناف الناس ، رأيت الكبار والشبان والنصابين والفجار والناس الطيبين الذين يعملون الخير في السر ، والذين يتظاهرون أنهم طيبون ويأكلون مال النبي ، فإذا كنت أنا جابر الغلبان أستطيع أن أميز بينهم فما بالك ؟

ورفع يده الخالية نحو السماء ، ثم أكمل بضحكة وهو يبربش بجفنيه :

- ولكن صدقني يا أستاذ ، أنا بالفعل غلبان !

وانصرف عن الباشكاتب وهو يضحك .

قال توفيق لنفسه بعد أن ابتعد جابر : تستقبل ، موعظة بموعظة ! ولكن موعظة جابر أقوى بالفعل يا حضرة الباشكاتب ! فمن يعرف القلوب حقا غير مولاك ومولاه ؟ هل ازدهاك الكبر الآن لأنك دخلت في طاعة قريبة بعد طول معصية ؟ إن يكن ذلك فقد هلكت يا أخ توفيق ! مائة مرة قلت لك تواضع ! تواضع!

نادى جابر ليدفع له الحساب وعندما جاء قال له بقلب مثقل :

- سامحني يا جابر على ما قلته لك .

تراجع جابر خطوة وقال : أستغفر الله يا حضرة الباشكاتب ! أنا أسامحك ؟ أنا لم أقل لك إنني ولي ! قلت لك أنا غلبان !

ثم راح يضحك فقال الباشكاتب : إذن فسامحني يا غلبان !

رفع جابر يديه معا وهو يقول : ربنا يسامحنا نحن الاثنين لأن حكايتنا قربت! وضحك من جديد ، فضحك له الباشكاتب ولكن قلبه ظل مثقلا .

***

عندما رجع الباشكاتب إلى البيت كان مجهدا وقلقا لكنه وضع على فمه الابتسامة التي يلقى بها فوزية وطفلها ، كان يحاول كل ما يستطيعه ليخفف عن حفيدته إحساسها بالهزيمة . انحنى على الصغير وقبله ، لم يعد يستطيع أن يحمله . رفع سلوم يده القصيرة محاولا أن يتحسس جيب الباشكاتب وهو يسأل : «فين الملبس يا جدي؟» فوضع الباشكاتب يده على جيبه وهو يقول للصغير «أولا ، سمعت كلام ماما أو عذبتها زي كل يوم ؟» قال سلوم وهو يشب على قدميه ليتحسس الجيب بلهفة : «سمعت الكلام ، سمعت الكلام ، هات الملبس !» .

أعطاه قطع الحلوى فجرى سلوم مبتعدا وهو يهلل ويقول «لكن بابا أحسن منك! بابا حلو وأنت عجوز !» .

ضحك الباشكاتب وهو يتطلع إلى فوزية بعين مستفهمة فهمست : «مثل كل يوم يصدعني كل دقيقة بالسؤال عن أبيه ومتى سنرجع إلى بيتنا» .

ثم قالت لجدها بابتسامة صغيرة : أنت تقرأ كتبا قديمة كثيرة يا جدي ، ألم تجد في أي كتاب منها طريقة نعمل بها عملا يعيد إلى فراج عقله ؟ عمل نضعه له تحت عتبة الباب أو في ذيل قرموط ؟

ابتسم جدها وهو يقول : هذه ليست كتبا في السحر يا فوزية .

فقالت وهي تتجه للمطبخ : وأين إذن تجد كتب السحر ؟ .. فكر إلى أن أعد لك الغداء !

لم يتحمس الباشكاتب كثيرا . أصبح غداؤه بلا طعم بعد حرمانه من الأرز الذي لم يكن يعتبر أي طعام بدونه وجبة حقيقية ، وبعد منعه من الملح والتوابل ولكنه اعتاد أن يأكل أي شيء تقدمه له فوزية لكي يملأ بطنه وينام قيلولته .

وفي مساء ذلك اليوم كانت الأسرة كلها مجتمعة على العشاء وراحوا يزدردون طعامهم في صمت ، يبدو الاجهاد على وجه سالم وشعبان والوجوم على وجه

فوزية . وكان الباشكاتب شاحبا أكثر من المعتاد ولكنه قطع الصمت فجأة وهو يقول لشعبان :

– رأيت اليوم محلك في المنام . رأيت زحاما كثيرا ورأيتك مشغولا جدا في تلبية طلبات زبائنك .

قال شعبان دون أن يرفع رأسه عن طبقه : يسمع منك ربنا يا والدى . الحال واقف تماما هذه الأيام . لولا إيجار محل السجائر لأفلسنا من زمن .

قالت فوزية وفي صوتها نبرة خفيفة من المزاح : ألم تحلم شيئا أيضا عن زوجي المجنون يا جدى ؟

فهز رأسه وقال بعد لحظة صمت : ربما يأتي يوم الخميس ..

ثم التفت نحو حفيدته مكملا : ويحسن أيضا يا فوزية أن تغطى شعرك . رأيته في الطريق قبل أيام وقد أطلق لحيته . ربما لا يجب الآن أن تكشفي شعرك .

نمغمت فوزية دون اقتناع : لم يشتك قبل اليوم من شعرى يا جدى . المشكلة الآن أنه يريد زوجة بمرتب . ولكن غريبة حكاية أنه ربى ذقنه !

***

مع ذلك عندما خرجت فوزية في اليوم التالي لتشترى لوازم البيت وضعت غطاء على شعرها .

وفي المساء عاد شعبان إلى البيت متهللا . قبل يد والده في حرارة وامتنان وهو يقول : جاءني اليوم يا أبى طلبان كبيران لأقمشة أزياء مدارس في الحي . طلبان لا طلب واحد يا أبى !

وقال لأبيه في حماس : أحلامك أحلام الصالحين يا والدى . أنت رجل مبروك !

ثم إنه في يوم الخميس التالي زارهم فراج بعد غيبة شهور .

لم يكن هناك تمهيد لمجيئه ففوجئت به فوزية وهي تفتح الباب . تعلق سلو بعنق والده وهو يصيح صيحات عالية . وأشارت فوزية صامتة إلى غرفة الجلوس ثم انسحبت إلى غرفتها .

جلس الرجال معا دون أن يبدأ أيهم الكلام . كان شعبان وسالم ينظران إلى فراج بفتور تكرر هذا الموقف كثيرا من قبل . أما الباشكاتب فقال وفي صوته نبرة من العتاب الرقيق : مرحبا يا فراج . لم نرك منذ مدة .

لم يرد فراج على الفور . أخذ يعبث قليلا بلحيته الجديدة قبل أن يقول :

– في الواقع أنا كنت أفكر في حالنا أنا وفوزية . لا يمكن يا حضرة الباشكاتب أن تستمر الأمور على هذا الحال .

قال شعبان يئن من الضيق : إذن يا ابني كما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف . أمثالنا يوجد ألف ..

قاطعه الباشكاتب : انتظر لحظة يا شعبان . هل هذا هو ما تريده يا فراج ؟

انتفض فراج وقال : لا . كيف ؟ وعاطف هذا ؟

ثم أنزل الصغير من على حجره وقال : هل يمكن أن نتكلم على راحتنا ؟

حمل شعبان حفيده رغم صراخه وبكائه وأعطاه لأمه وحين رجع كان الباشكاتب يقول : .. هذا مفهوم يا ابني ولكن ما باليد حيلة . أنت ترى حالتنا الآن .. ثم تطلع إلى ولده وأكمل : يقول فراج إنه ظلم فوزية بالفعل عندما اتهمها بالتبذير . وإن مرتبه لا يكفي بالفعل ليغطي مصاريف الشهر .

قال شعبان : وماذا بيدنا نحن أن نفعله يا سيد فراج ؟ هذا حال كل الناس . ربما لو بحثت عن عمل آخر ..

قال سالم . الذى كان صامتا طول الوقت . بصوت هادئ : ما هو المبلغ المطلوب يا أستاذ فراج ؟

رد زوج أخته محتجا وقد أحمر وجهه : أنا لم آت لأتسول يا أستاذ سالم !

وتدخل الباشكاتب قائلا : سالم لا يقصد هذا بالطبع .

لكن فراج أكمل بنبرته المحتجة : مع ذلك لا يصح الكلام بهذه الطريقة ! يعني هذه حالة طارئة . ستتحسن الأمور قريبا بإذن الله . أنا تقدمت لإعارة إلى السعودية وسيوفقني ربنا هذه المرة إن شاء الله . وأي مساعدة حتى تأتي الإعارة ستكون دينا علي بالطبع .

قال سالم بالهدوء نفسه : ليست دينا . بما أن فوزية لاتشتغل فينبغي أن يكون لها دخل كل شهر . أنا سأعطيها نصف مرتبي ..

نظر الجميع نحوه في دهشة . بمن فيهم فراج . وقال شعبان محتجا :

- وكيف سنتصرف نحن في البيت ؟ أنت تعرف أن مرتبك يسد فل ..

لكن الباشكاتب رفع يده يسكت ولده وهو يقول : بارك الله فيك يا سالم . نحن نستطيع أن نحتمل يا شعبان . سندبر أمورنا بإذن الله .

وقال فراج مؤكدا : ومع ذلك فسأعتبره دينا حتى الإعارة .

قال شعبان : مفهوم . ولكن أرجو يا أستاذ فراج من أجل ابنك الصغير ألا تتكرر هذه الحكاية .

فرد فراج : إن شاء الله لن تتكرر . لم يكن بيدي .

وقال الباشكاتب وهو يتطلع إلى السقف :

- لا تحمل هماً يا شعبان . هذه الحكاية لن تتكرر .

وكان يتكلم بلهجة واثقة تماما .

وعندما رأى فراج فوزية وقد غطت شعرها استعدادا للخروج معه . قال وهو يشير إلى رأسها في إعجاب ورضى :

- ما شاء الله ! عين العقل !

وبعد أن خرجت فوزية مع زوجها وابنها . التفت شعبان نحو والده وقال في انبهار :

- يوم الخميس يا حضرة الباشكاتب كما قلت حضرتك بالضبط ! نفعنا الله ببركتك !

قال الباشكاتب شارداً :

- البركة في سالم .

لكنه تساءل وهو يكاد يرتجف :

- هل هذا صحيح ؟

***

(٣)

جلس الدكتور شوكت في (كافتيريا) المطار ينتظر الطائرة القادمة من روما التي تأخرت كعادتها . فكر أنه لن يستطيع الآن أن يذهب إلى عيادته ويرجع إلى المطار لأنها لن تتأخر، كما قيل ، غير ساعة ونصف . ضاعت الليلة وعندما تصل الطائرة ويصحب لبنى حتى البيت سيكون الوقت تأخر جدا . قال للمرضة على أية حال إنه سيتأخر عن موعده ، وتستطيع المريضات الانتظار أو الانصراف - عودهن على احترام النظام والوقت . لايستقبل أي مريضة تتأخر عن موعدها دقيقة واحدة . لابد من شئ من الشدة في هذا البلد ولكن المسألة ليست بهذه هذه المرة . إن كن عاقلات فسينتظرن . لاداعي حتى لأن تكلم الممرضة ، ثم أين يمكن أن يجد التليفون في هذه الفوضى الشاملة في المطار؟ جرب ذات مرة أن يجده حين عاد من إحدى رحلاته فلم يفلح . كل شئ فوضى في هذا البلد . ربما كان يجب أن يسافر هو إلى روما بدلا من لبنى . لديه ما يكفي ليعيش هناك . لا إلى لندن بالطبع ! لن يجد مشكلة في أن يعمل هناك ولكن ماذا عن لبنى؟ إن كانت لم تنجح في روما فهل تحتمل الحياة في لندن؟

لم يكن هناك كثير من الزبائن في الكافتيريا . معهم حق قهوتهم مقرفة!

رأى عبر الواجهة الزجاجية المستقبلين يتكدسون في صالة الانتظار . معظمهم يلبسون الجلابيب وينتظرون أقاربهم العائدين من الخليج . يا عمال العالم اتحدوا! أهلا وسهلا ! ترى كيف يتحد عمال الخليج مع إخوانهم من الفلاحين والصعايدة؟ بالصرم القديمة ! رآهم بعينه هناك . في أحد المطارات رآهم يقرفصون على الأرض في صفوف وأمامهم شرطي يمسك عصا ليمنع أي واحد من النهوض أو الحركة !

لم يأت الأخ ماركس إلى هنا ليرى ويتعلم ! كان سيقول شيئا مختلفا بالتأكيد. مثلا؟ مثلا يا عمال العالم انتحروا ! هذا هو الحل الناجح بالفعل . الطريقة الوحيدة للقضاء على الفقر هي القضاء على الفقراء ! لا مشكلة لأنه يدهشك ماذا في معيشة هؤلاء التعساء يستدعي التمسك بالحياة بالطبع الزملاء الذين يدخلون السجن ويخرجون منه كالكوك يعتبرونني خائنا لو سمعوا هذا الكلام. هم يعتبرونني خائنا دون أن يسمعوه ! ليكن : أترك لهم بكل ارتياح السجن والفقر وتغيير التاريخ بدوني!

ولكن انتظر لحظة يا شوكت أنت لست ارستقراطيا مثل صفاء هانم. ربما بعض هؤلاء العمال الواقفين هناك من أقربائك الذين لاتعرفهم . ليس لمجرد أن أباك الخولي الفلاح تزوج من أمك التركية أصبحت أنت من جنس آخر، ثم إنك لا تعرف أي شئ عن أهل التركية هذه . ليس لك أخوال أو خالات، فهل صحيح ما سمعته أنها كانت خادمة جلبوها من استانبول لبيت صاحب العزبة ؟ يقولون (كسريبة) كأن هذا شئ أرقي! لايهم . المهم أنها ورثت أختك الشعر الأصفر والعيون الملونة والجمال الأبيض الذي يحبه أبناء هذا البلد فتزوجها أحد الدبلوماسيين. ينفعه كثيرا زوجها في متابعة حساباته في الخارج. أما أبي فقطع كل صلة له بإخوانه وأقربائه عند ما نزح إلى القاهرة وعمل في سمسرة العقارات. لا أعرف لي أي أقرباء، ولكن أنا لا يهمني من يكون أبي أو أمي أو أقربائي . أنا شوكت ابن شوكت! أنا الذي صنعت نفسي ولا فضل لأحد علي لم أرث أرضا ولا مالا ولم يساعدني خال ولا عم ! "لا فضل لمخلوق علي فيما وصلت إليه". أنا بالفعل شوكت ابن شوكت ومن حقي أن أفتخر بذلك!

ولكن ها هو شئ جديد في الكافتيريا امرأة جميلة وأنيقة وتحمل في يدها باقة ورد تابعها بنظره إلى أن جلست قبالته على منضدة بعيدة ثم تجمدت عضلات وجهه فجأة وهو يتأملها بالطبع. نعم . هي صفاء هانم . لا أحد غيرها!

حول وجهه بسرعة إلى ناحية أخرى . هو لم يرها ولا حتى بالمصادفة منذ الطلاق . لحسن الحظ . تعمد كلاهما أن يتجنب الآخر. حتى في روما كان ينسق زياراته مع لبنى لكي لا يلتقيا هناك، ولكن كان يجب مع ذلك أن يتوقع أنها ستأتي الليلة كيف غاب عن ذهنه هذا الاحتمال؟ وما الأهمية ؟ هي في حالها وهو في حاله . يمكن حتى أن يخرج من الكافتيريا إكراما لخاطرها!

مع ذلك تلصص بنظره نحوها في حذر شديد . كانت تفتح كتابا وتقرؤه باتهماك شديد وعلى المائدة باقة الورد.

فكر : طبعا الهانم لا تفوتها الأصول؛ بنت الأصول تعرف الأصول ! ولكن هل تدخل الخيانة الزوجية ضمن هذه الأصول ؟ منظرها بريئة جدا وهي تجلس هناك منهمكة في القراءة . بريئة جدا وجميلة جدا مثلما كانت طول عمرها. مثل حكاية دوريان جراي. لابد أن لديها مثله صورة في البيت يرتسم عليها بشاعتها وانحلالها بينما تحتفظ هي بقناع هذا الوجه البريء ! وإلا فهناك ظلم في أن يظل وجهها بهذه النصاعة والجمال حتى هذه السن! ولكني لا أراها عن قرب . ربما كانت هناك تجاعيد في الوجه. لا يمكن أن تهرب من الزمن!.

في هذه اللحظة رفعت صفاء وجهها والتقت عيناها بعينيه. لم يبد أنها فوجئت. ظلت تنظر نحوه ثم هزت رأسها بإيماءة خفيفة. أو ماء هو برأسه بعصبية ثم حول وجهه على الفور. الهانم مهذبة أيضا! الكلبة! يجب أن أترك لها هذا المكان على الفور. أترك هذه الكافتيريا البشعة واتحد هناك مع عمال العالم ! يمكن احتمال روائحهم وأصواتهم المزعجة أكثر من الوجود مع هذه الهانم في مكان واحد!

وكان يهم بأن يقوم عندما وجد صفاء تقف أمامه وهي تقول بابتسامة صغيرة:

- مساء الخير.

ظل يعتمد بيديه على المنضدة وقد نهض بجذعه وهو يتطلع نحوها ثم عاد إلى الجلوس وهو يقول بلهجة جافة :

- مساء النور . خيرا؟

- لن آخذ من وقتك دقيقة. هل يمكن أن أجلس ؟

أشارت إلى منضدتها التي تركت فوقها كتابها وباقة الزهور ليفهم أنها سترجع إلى مكانها. لم يرد شوكت ولكنها كانت قد سحبت كرسيا وجلست بحركتها الرشيقة متباعدة قليلا عن المنضدة وبدأت تتحدث بلهجة عملية جدا:

- كنت أريد أن أقترح عليك شيئا . إذا وافقت يمكن أن نستقبل لبنى معا بدلا من أن تقابلها بالدور . أعرف أن هذا سيسعدها. لا . هذه كلمة كبيرة . أقصد على الأقل سنعفيها من الإحراج والارتباك.

لا توجد تجاعيد في وجهها بنت الحرام ! لابد وأن التجاعيد موجودة أيضا في صورة دوريان جراي . هذه شيطانة ! لايمكن أن يكون هذا الجمال والبشرة الملساء في هذه السن آدميا!

قال وفي صوته الرخو نبرة عصبية: مادامت لبنى تهمك وتحرصين على مشاعرها إلى هذا الحد فأظن أنه كان يجب أن تفكري فيها منذ زمن طويل . عندما..

نهضت صفاء وقد احتقن وجهها وهي تقول: أخطأت بالفعل حين تصورت أنك يمكن أن تفهم أي شيء ! كان يجب أن أعرف أنك لا تتغير . حقك علي! ثم قامت وعادت إلى مكانها بخطوات مسرعة.

فتحت الكتاب وراحت تنظر فيه دون أن تتمكن من قراءة أي شيء قالت لنفسها حقك علي أنت يا صفاء! لايهم . فعلت ذلك من أجل لبنى . نعم كانت غلطة . أعرف . كانت غلطة وما أهمية ذلك على أي حال؟ تراهما لبنى معا او تراه أولا ثم

تراها بعده. هي تعرف أن كل شيء منته بينهما إلى الأبد. مع ذلك تمنيت لو أوفر عليها هذه الدقائق من الإحراج وهي ترى أمها وأباها متباعدين وتضطر إلى أن تحييهما بالدور . أنا أعرف الآن كل جروح لبنى. لو أمكن أن أعفيها من جرح واحد جديد! مع ذلك فهي لم تعرفها كابنة ولم تعرف نفسها كأم إلا في روما. لا تستطيع أن تغفر لنفسها ابتعادها عنها هذه السنين الطويلة . لا تستطيع حتى أن تفهم السبب . هل كانت تهرب منها لأنها بنت شوكت؟ وماذنبها؟ هي في النهاية كما كانت تقول دادة سنية «بنت بطني» البنت الوحيدة . هل كانت تخاف أن تعرف لبنى الحقيقة؟ ما الجريمة في هذه الحقيقة؟ صدقي أنقذها بالفعل من الجنون مع شوكت . أنقذها من الانتحار. قبلت شوكت على علاته من أجل لبنى ولكنه أحال حياتها جحيما منذ أن صارحته بحالها معه. لا تدرى هل كان يعاقبها أو يعاقب نفسه لفشله بتلك المشاجرات والإهانات المستمرة يوما بعد يوم. ماذا كانت ستفعل لولا صدقي؟ ظهر في الوقت المناسب بالضبط عندما استولت عليها فكرة الانتحار للهروب من جحيم الحياة مع شوكت.

رأته في البيت لأنه كان يستورد معدات المستشفى من أجل شوكت. وكثيرا ما كان يأتي قبل وصول الدكتور فتجلس معه في انتظاره . وعندما كانت تتكلم كان يميل قليلا بجسمه الضخم وينصت لها وعلى وجهه تعبير اهتمام واحترام مبالغ فيه فتوشك أن تضحك . هذا قبل أن تكتشف أنه لا يتكلف هذا الاهتمام، وأنه يعطي كل نفسه بالفعل لمن يحدثه، سواء كانت هي أو شوكت أو أي إنسان آخر. لم تعرف في حياتها قلبا محبا للناس مثل هذا القلب . وبدأت تفتقده حين يغيب وتستقبله بلهفة حين يأتي. وبدأ هو أيضا يهرب بنظراته منها ويحتقن وجهه الأحمر من الأصل حين يتواجهان. وسألته مرة وهما في انتظار شوكت: لماذا لم تتزوج حتى الآن يا صدقي بك ؟ فأشار إلى صلعته ووضع يده على كرشه وقال ومن التي ترضى بي يا دكتورة صفاء؟ فقال دون تفكير : أنا!

لا . هي ليست نادمة . صدقي هو أفضل شيء حدث في حياتها بعد لبنى . وكان عزمها قد استقر على الطلاق واتفقت عليه مع صدقي من قبيل تمثيلية شوكت. وفر عليها بهذه التمثيلية أشياء كثيرة، لكنه حرمها من لبنى . إن تكن هي قد تركت جرحا في نفس ابنتها فهي لم تعرف عمق الجرح الذي خلفه غياب لبنى عنها إلا بعد أن سافرت إلى روما ولحقت هي بها على الفور هناك لترى ابنتها المريضة. أصابها الانهيار العصبي في السجن ونقلها شوكت من هناك إلى المصحة . شاهدت عذاب ابنتها في هيستيريا الانهيار التي تعرفها جيدا من دراستها وتعرف أنه ما من إنسان يستطيع أن يساعد غيره على الخروج منها . ظلت مع الطبيب دقيقة بدقيقة تتابع العلاج وتتابع ابنتها دون نوم ولا راحة حتى كادت هي نفسها أن تسقط.. ولازمت لبنى بعد ذلك أسابيع في نقاهتها. لم تكتشف كل الحب الذي كانت تختزنه لابنتها وتكبته إلا هناك وهي تراها ضعيفة ومريضة في تلك الثياب البيضاء، راقدة على فراشها في المستشفى . لكم تحبها . ولكم هي نادمة على كل الوقت الذي ضاع منهما!

لم تنتبه الدكتورة صفاء، إلى الدموع التي كانت تتساقط على الكتاب المفتوح لكنها انتبهت فجأة إلى شوكت يقف أمامها فمسحت دموعها بسرعة ونظرت إليه بشيء من التحدي.

قال لها وهو يضع يده على المنضدة : أنا آسف لمقاطعتك ولكنهم أعلنوا عن وصول الطائرة. إن كنت مازلت تريدين . فلنا.. من أجل لبنى.....

هزت رأسها وقالت دون أن تنظر نحوه وهي تشير بإصبعها إلى باب الكافتيريا: سأكون عند بوابة الاستقبال.

ابتعد عنها ورآها تخرج من حقيبتها علبة الزينة، وقال لنفسه وهو يخرج: دموع التماسيح! جرحت مشاعر الهانم بكلمتين. كأنما لديها بالفعل مشاعر !..

وقفا متجاورين عند بوابة الخروج من المطار دون أن يتبادلا كلمة . كانت صفاء تتطلع بلهفة إلى وجوه الخارجين وتشرئب بعنقها حين ترى زحاما من عربات الحقائب التي يدفعها القادمون . ولكن لبنى تأخرت كثيرا داخل المطار عن بقية الركاب في طائرة روما. وكان الدكتور شوكت يفتش بعينيه أيضا عن لبنى وينظر في ساعته كل دقيقة. غير أنه كان يتلصص بنظره بين حين وآخر إلى صفاء الواقفة إلى جواره والتي لم توجه له كلمة ولم تنظر نحوه مرة واحدة. وقال لنفسه «تتجاهلني ! كأنما لم تكن هي التي طلبت أن أصحبها ! ولكنها تخجل بالطبع أن تنظر في وجهي...»

بعد أن انقطع زحام ركاب الطائرة . ظهرت لبنى وحدها وهي تدفع أمامها عربتها . بدا في وجهها شيء من الدهشة وهي ترى أمها وأباها يقفان معا. عانقت أمها بعد خروجها . وكانت الدكتورة صفاء تتخلف تقريبا وهي تحتضن ابنتها ثم ناولتها باقة الورد واستدارت تمسح دموعها . وقبلت لبنى أباها في وجنتيه.

ابتعدت لبنى عنهما قليلا. وسألت بهدوء : دادة سنية؟

تبادل صفاء وشوكت نظرة سريعة ثم نظرا نحو لبنى دون أن

قالت لبنى بهدوئها نفسه : كنت أعرف (ثم نظرت نحو أمها) منذ انقطعت عن الحديث عنها في الرسائل والتليفون فهمت. ولكن بقي عندي مع ذلك شيء من الأمل..

أطرقت لبنى وقد تدلى ذراعها الذي يحمل باقة الورد . همت صفاء أن تحتضنها من جديد ولكنها قدرت أنها تستطيع أن تشاركها حزنها ولكنها لن تستطيع أن تحمله بدلا منها في هذه اللحظة . فأمسكت بذراع ابنتها وهي تقول : سأتركك ترتاحين الليلة يا لبنى وسنتحدث غدا..

ثم قالت بلهجة عادية وهي تنصرف : سلام يا دكتور شوكت .

***

في السيارة كان شوكت يختلس النظر إلى لبنى التي جلست إلى جواره صامتة تتطلع للطريق . تغيرت كثيرا في هذه السنوات الثلاث . لم تعد الطفلة التي سافرت- هي الآن امرأة جميلة، أكثر امتلاء . وقد أصبح وجهها أميل للاستدارة . والزينة التي تضعها تبرز جمال ملامحها. كل هذا حسن. ولكن لماذا صبغت شعرها باللون الأسود ولماذا تركته يسترسل؟ تتشبه بأمها؟ أتمنى أن يقتصر هذا على الشعر ! أتمنى أن تكون قد أصبحت أعقل يجب أن تخرجها من هذه الحالة التي استولت عليها منذ سمعت عن مربيتها ويجب أن أطمئن عليها على كل حال.

حاول أن يجعل لهجته عادية وهو يقول : هل تعرفين يا لبنى أن القضية التي أخذوك من أجلها مازالت في المحكمة؟ أفرجوا عن زملائك ولكن القضية مازالت..

التفتت نحوه والدها: أعرف . كانت تصلني كل الأخبار في روما..

ولكن أنت الآن لا علاقة لك بهذه المسائل بالطبع ؟ قلت هذا لسيادة اللواء، وأوصى بنفسه في المطار لكي لا تواجهي أي مشاكل في الدخول.

ابتسمت لبنى ابتسامة صغيرة: ولكن المشاكل حدثت مع ذلك يا أبي! أخذوا جواز سفري . وفتشوا كل حقائبي وأخذوا كل الأوراق التي معي قبل أن يسمحوا لي بالخروج.

انتفض الدكتور شوكت في مكانه وقال : كيف ؟ سيادة اللواء وعدني بنفسه..

- لايهم يا بابا. خرجت في النهاية وهذا هو المهم.

قال فيما يشبه الغضب : ولكنه وعدني. المفروض أنه مدين لي . عالجت له زوجته.

رفعت لبنى يديها وهي تقول : كما ترى!

لكن الدكتور أكمل غاضبا: كان المفروض أن يأتي بنفسه لينتظرك ويسهل خروجك. أنت لا تعرفين كم هو مدين لي . زوجته كانت في حالة ميئوس منها لولا ما فعلته لعلاجها..

ظلت ابتسامة لبنى على شفتيها ولكنها قالت بشئ من نفاد الصبر:

- لماذا لا تتغير يا أبي؟

قال متعجبا: أتغير ؟ كيف؟

- أنت الأدرى . سامحني.

فكر شوكت : أتغير! هذه كلمة أمها .إذن هي لم تصبغ شعرها فقط ولكنها صبغت أفكارها أيضا.

قال : بالطبع . لا توجد عندى مشكلة لأتغير . ولكن أنت ؟ هل غيرت أفكارك التي انتهت بك إلى السجن؟ هل سترجعين مرة أخرى إلى هذا اللعب؟

- لا. لن أرجع.

تنهد الدكتور شوكت في ارتياح: عين العقل.

- أو عين الجبن! لكني لن أرجع.

لم تقل له إنها في روما اقتنعت تماما بأن ما يقوله زملاؤها في مقالاتهم ومنشوراتهم أقل من الحقيقة . رأت في بيت زوج عمتها الدبلوماسي تجار الانفتاح الذين كانت تسمع عنهم . اعتاد أن يدعوهم للعشاء . وبعد أن يأكلوا ويشربوا عدة كؤوس من الويسكي يفلت عيارهم وتنطلق ألسنتهم . يتبادلون الخبرات عن كيفية تهريب الشحنات من الجمرك، وعن أماكن شراء البضائع (المضروبة) من إيطاليا وتمريرها على أنها بضائع صالحة . وعن أضمن الطرق لتهريب العملات، ومن الذي يجب أن يدفعوا له في البلد..! كانوا يتباهون أيهم (أشطر) من غيره ويتكلمون بصراحة تدهشها لايشعرون بخجل مما يقولون ولا يفهمون حتى مدى البذاءة والإجرام فيما يقولون .

ولكن ما أدهشها أكثر أن زوج عمتها الدبلوماسي المثقف يصبر على سماع أحاديث هؤلاء اللصوص الذين كانوا بلا استثناء حفنة من الجهلة، وأنه يضحك على نكاتهم الفجة ويتبادل المزاح معهم. في البدء اعتقدت أن هذا جزء من عمله،

أنه ربما يجمع معلومات أو شيئا من هذا القبيل، ولكن لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أنه شريك . يتبادل المصالح معهم.

لهم كل الحق هؤلاء الطلبة، حتى ولو كانوا لايستحمون ! ولكنها الآن تعرف حدودها. تتمنى لهم حظا طيبا ولكن من بعيد!.

جلس الدكتور شوكت إلى جوارها مستغرقا في التفكير هو أيضا. بدا عصبيا وهو يعطي أوامره للسائق طول الوقت أن يسرع . بدا متعجلا ولكنه كان يفكر في الحقيقة في شئ آخر: الآن يجب أن يتلقى النصائح من ساقطة وطفلة! هزلت بالفعل!... ثم إن هناك شيئا بذيئا في أن تكون امرأة في هذه السن بمثل هذا الجمال!.

***

في البيت تفقدت لبنى حولها وقالت لنفسها رجعنا إلى بيت خال . لا دادة سنية ولا عم حسن. ربما يكون الله قد رحمهما بالموت. كيف كانا سيعيشان في هذا العصر السعيد؟ دادة سنية كانت أمها سترعاها بالتأكيد ولكن عم حسن؟ حتى قبل أن تسافر إلى روما كان يوسطها لدى الدكتور لزيادة مرتبه لأن المرتب لم يعد يكفي لمصاريف البيت وتعليم الأولاد. هل سأل الدكتور شوكت عن هذه الأسرة بعد وفاته ؟ يجب أن تعرف.

ذهبت إلى غرفة دادة سنية، لم يكن هناك سريرها ولا (الكنبة) التي كانت تتربع فوقها . حولها الدكتور شوكت إلى مخزن لتحفة الجديدة، في وسط الغرفة كان تمثال خشبي فوق حامل لرجل طويل نحيل محني الرأس. كان يقلد أسلوب (جياكوميتي) الذي تحبه، ولكن بدلا من الرشاقة والتوازن والشموخ في تماثيله كان هذا يشبه تمثالا لرجل مريض . كان تمثالا مريضا. حولت بصرها عنه، ورأت الدادة تجلس فوق الكنبة بطرحتها البيضاء، ورأت البسمة التي كانت تنير وجهها المتغضن حين تراها: أهلا يا لبنى يا حبيبتي . لا ! ذاك انتهى . لا الكنبة ولا دادة

ولا حتى لبنى! لبنى انتهت من زمن . منذ متى ؟ منذ السجن؟ منذ المصحة؟ قبل ذلك في الليلة التي سبقت السجن؟ المهم أنها انتهت.

ذهبت إلى غرفتها. هناك وجدت كل شئ في مكانه. رأت سريرها ومرآتها ومكتبتها الصغيرة. لا. حتى هذه الأشياء ماتت في داخلها . هي لا تشتاق إلى شئ حقا. عالجوها جيدا في مصحة روما. علمها الطبيب الذي رافقها شهورا ولم يكن يكف عن الكلام أن تنسى الخوف وتنسى معه كل شيء. آخر عالجها بالبقاء في حمامات السباحة ساعات كل يوم؛ ولم يعد يأتيها غثيان المعدة ولا الدوار ولا ارتعاش الساقين. لم تعد هناك وساوس ولا هلاوس. قال لها الطبيب شيئا قريبا مما قالته أمها: إن الإنسان ينضج ويصنع نفسه بالصراع ضد ماضيه. لكنها لم تصنع نفسها أبدا. ولم تصارع أي شئ . صار الطبيب نيابة عنها وصنعها ضد ماضيها ومستقبلها معا! الآن لاخوف ولا طمأنينة. لا حزن ولا فرح . لا حب ولا كره . لا إفراط ولا تفريط! ستعيش في الوسط المريح. مثلها مثل كل الناس . وسالم؟ سالم كان عيدا وانتهى . كان كابوسا وانتهى . كان ما كان وانتهى.

والدكتورة صفاء. ؟ تعرف الآن كم تحبها . تشفق لبنى عليها وهي ترى عواطفها الجارفة وترى كل ما تفعله لتسترد أمومتها. وهي أيضا تحبها. ولكن الطبيبة وصلت مع الأسف بعد وفاة المريضة!

جلست لبنى على السرير ونظرت إلى صورتها في المرآة مثلما اعتادت أن تفعل في القديم، وقالت لنفسها بابتسامة صغيرة: والآن ماذا ستفعل في كل هذه البهجة؟

***

صرف الدكتور شوكت الطباخ الجديد عندما قالت لبنى إنها لن تتعشى وإنها مجهدة من السفر وتود أن تنام . دخل هو بدوره إلى غرفة مكتبه واتصل بالمرضة:

لن يذهب إلى العيادة في هذه الليلة وعلى المريضات الاتصال غدا لتحديد مواعيد جديدة.

جلس إلى مكتبه وأخرج زجاجة الويسكي من مخبئها الذي وضعها فيه قبل مجئ لبنى . لا . لم أخطئ ليس هذا نفاقا يجب ألا تهتز صورة أبيها أمامها. أنا لست سكيرا على أية حال . أشرب فقط لأريح أعصابي من إجهاد العمل.

صب لنفسه كأسا وجلس إلى مكتبه .. ولكن أي إجهاد يريد أن يرتاح منه الليلة بالذات وهو لم يعمل أبدا؟ إذن فلنعمل!

اتجه الدكتور إلى مكتبته وأخذ منها أحدث مجلة طبية متخصصة في طب النساء، وصلته من لندن ثم رجع إلى مكانه وبدأ يشرب من الكأس في جرعات كبيرة على غير عادته.

فتح المجلة وقرأ قائمة المواد ثم اختار الموضوع الذي يهمه . انتهت الكأس فصب لنفسه كأسا جديدة، راح يتأمل الصورة الموجودة في صدر الموضوع بالألوان.

رغم دراسته وعمله وكل من عرف من النساء، فهو لم يستطيع أبدا أن يتغلب على نفوره من هذا الشكل . هذا الجرح المستطيل الذي لايندمل. هل يكون تقززه القديم العهد من أيام الدراسة هو السبب في....

لا ! لا داعي لهذه الأفكار التي لا تقود إلى شئ . فلنعمل.

لكن العمل لا يأتي . كان يقرأ ويعيد قراءة ما سبق دون أن يستوعب شيئا . وانتهت الكأس الثالثة بسرعة أيضا . أغلق المجلة بحركة عصبية . ربما الأفضل لو خرج، يذهب إلى مكان يلتقي فيه بناس آخرين ويشرب وسط زحام . أحسن من ذلك أن يلتقي بأي واحدة من صاحباته ويقضي معها الليل . ها هو التليفون، يمكن أن يجرب لكنه راح ينظر إلى التليفون دون أن يمد يده إليه. وصب لنفسه الكأس الرابعة بيد ترتعش.

ماذ بك يادكتور شوكت ؟ لماذا كل هذا الهم في داخلك؟ طبعا لأنني رأيت صفاء ! ولكن لماذا؟ أنت تعرف أنها موجودة طول الوقت وتعيش معك في نفس المدينة . كان يمكن أن تراها في أي لحظة . نعم ولكنها أعادت لي ذكرى ذلك اليوم التعيس . أنت لم تنسه أبدا على كل حال. الساقطة !.. نعم أعرف . أعرف ساقطة وجميلة. جميلة جدا وساقطة . كانت ملك يدك على أي حال. أنت استمتعت فعلا بامتلاك هذا الجسد الخارق فترة من العمر . ولكن هل استمتعت كما يجب؟ وهل استمتعت هي؟

ساقطة . ساقطة . يكفي يا أخي ! وأنت ماذا بالضبط ؟ قالت إنك يجب أن تتغير، صفا، قالت ولبنى قالت.

يتغير ! ضحك لنفسه بصوت خافت وهو يرشف الآن من الكأس الجديدة ببطء وقد بدأ الدوار . طظ فيها وفي بنتها! أنا شوكت ابن شوكت!

ضحك مرة أخرى ووضع يده على فمه . طظ في شوكت ابن شوكت ! لماذا تهتز هكذا يا دكتور لمجرد أنك رأيتها ؟ تعال نقل الحقيقة، هل مازلت تحبها؟ إن يكن ذلك كذلك فعليك العوض يا شوكت يا ابن شوكت ! عليك أن تؤمن إلى مصحة لبنى في روما. الأسهل أن تنتحر . هذا أيضا تغيير يا دكتور!

وما الذي تغير ؟ يجب أن تعترف، نعم أنت كنت تعرف نفسك من زمن طويل تعرف . حاولت أن تعالج نفسك بأدوية من مصر وبأدوية من لندن ومن فرنسا ومن واق الواق، وكنت تسمع متظاهرا بعدم الاكتراث إلى النصائح والتجارب التي كان يتبادلها أصدقاؤك في جلسات الرجال ، وإلى أقوال هؤلاء الكذابين «بالأمس طول الليل..» ! الكذابون!.

ضحك لنفسه مرة أخرى بصوت مسموع. أنا لم أكن أريد طول الليل! عشر الليل ، واحد على عشرين من الليل ! عشر دقائق من الليل ! خمس ، لا بأس ! ولكن لا فائدة ! البداية هي النهاية!

ولكن ماذا عن الأخريات ؟ لم يكن يشتكين . قبلنه على حاله.

على من تكذب يا دكتوووور؟! كنت تجذبهن بوسامتك وشهرتك وهداياك الغالية فلماذا لم تبق أي واحدة منهن معك أكثر من أسابيع؟

طظ ! أنا لم أكن أريدهن أيضا! ماذا كنت تريد إذن ؟ نعم؟

أنا لم أرد واحدة غير صفاء ! لو أنها ساعدتني بدلا من أن تخونني . فربما.. مسح دموعا من خده وهو يقول لنفسه أنت سكرت يا دكتور شوكت يا ابن .. يا ابن الـ ..!

مد يده إلى التليفون وطلب الرقم . يجرب معها العلاج الأمريكاني الجديد! طول الليل! ها ها ها! وماذا لو رد عليه صدقي الخنزير؟ لكنها هي! هذا هو صوتها:

- ألو.

- هذا أنا .. أنا شوكت ابن ..

ثم سكت واحتبس صوته.

تصلب صوتها هي: نعم . ماذا حدث؟ لبنى بخير؟

- لبنى ؟ نعم، نعم، لا . أنا أبو لبنى. أنا لست بخير . إسمعي، من فضلك هل يمكن أن أراك ؟ يعني .. من فضلك!

قالت بهدوء : أنت سكران يا شوكت. صوتك يقول إنك سكران جدا فلا تتكلم الآن.

- نعم ؟ لماذا من فضلك ؟.. على الأقل مرة ! على الأقل أنا كنت زوجك عندما ذهبت إلى صدقي ! لماذا صدقي من فضلك وأنا لا ؟ على الأقل مرة!

كررت : أنت سكران ولا تعرف ما تقوله يا شوكت..

- على الأقل...

احتد صوتها فجأة : يا مجنون ! لو انقرض صنف الرجال كله من العالم ! على الأقل احترم انت ابنتك في ليلة عودتها. يا مجنون!

- ابنتي ؟ ملعون أبو ابنتي ! أنا أقول على الأقل مرة ... من فضلك!

لكن صفاء كانت قد وضعت السماعة في غضب ولم يكن هناك على الطرف الآخر غير صفارة ومد شوكت يده المخمورة في استماتة إلى التليفون ليطلب الرقم من جديد فسقط الجهاز على الأرض في ضجة ورنين وحين نهض ليلتقطه وجد نفسه يترنح ويتعثر فظل واقفا لحظة وهو يمسك رأسه بين يديه ويعصر جبهته.

ظل يقف فترة محاولا أن يتماسك نفسه وهو يقول: ابنتي، ابنتي؟ هناك شئ قالته عن لبنى. ما الذي قالته بالضبط ؟ يجب أن أرى لبنى..

طرق باب ابنته ففتحت له وكانت بثياب النوم.

وقف مترنحا بالباب فقالت بانزعاج : بابا ؟ هل حدث شئ؟

- نعم ، ولكني لا أذكر بالضبط ما هو!

وقف مستندا بيده إلى الحائط وقال : أنت الآن تحبينه أليس كذلك يا لبنى فهل.. ثم هربت منه الفكرة التي كانت تتشكل في رأسه فقال فجأة:

- إسمعي يا لبنى .. هل أنت تحبين الولد.. الولد المخبول الذي جاء إلى عيادتي يوم قبضوا عليك..

- أي ولد؟

- الولد .. الولد (الحليوة) الذي .. الذي كان يريد أن يعتذر لك وأنت في السجن! هو .. هو..

- سالم؟ هل جاء إلى العيادة . لماذا لم تقل لي؟

لم يسمع فأكمل: جاء جده أيضا بعد سفرك وقال إن الولد جاءته حالة نفسية، لا حالة ولايحزنون ، أظن أنه مجنون من الأصل لكن من فضلك أنا أسألك هل أنت تحبينه بالفعل؟ هو من أسرة مجانين بالطبع جده أيضا مجنون، جاء إلى وشتمني في العيادة أنا شوكت ابن ..

- من فضلك تسكت يا أبي . أنت لا تعرف الآن ما تقول ، أرجوك أن تذهب إلى غرفتك أريد أن أنام.

- لحظة من فضلك . أنت لا تفهمين . من فضلك.. مجنون ، عاقل ، قاتل، أنا أسألك هل تحبينه؟.. أقصد ما الذي يمنع يعني؟ إن كان الحب يحتمل الخيانة فلماذا لايحتمل الجنون؟ الشئ الوحيد المهم في الموضوع يا لبنى.. أبي.. جدك يعني ، كان عنده مثل يحبه «كلب أبيض وكلب أسود الاثنين ولاد كلب» هي ! هي!.. يعني كلب دكتور وكلب مجنون ما الفرق ؟ أقصد يا لبنى .. من فضلك ..!

ازاحت لبنى أباها من الباب بعنف وهي تقول في غضب : من فضلك أنت ! إذهب إلى غرفتك الآن. أنا أريد أن أنام!

ثم صفقت الباب وأغلقته من الداخل بالمفتاح . أفاق شوكت قليلا مع ضجة إغلاق الباب ووقف يتساءل في ذعر : ماذا حدث بالضبط ؟ يجب أن أذهب إلى الحمام!

***

في الصباح كان الدكتور شوكت ولبنى على مائدة الإفطار في الموعد. كان وجهه شاحبا قليلا ويشعر بصداع.

سأل ابنته: هل نمت جيدا يا لبنى ؟ هل ارتحت من السفر؟

تأملته قليلا وهي تقول: نعم، شكرا.

- هل ستخرجين اليوم؟

- لا أعرف . اسمع يا أبي : لماذا لم تقل لي من قبل ان سالم مر عليك في العيادة..

- من هو سالم؟

- زميلي، الذي قلت إنه جاء وجاء جده أيضا إليك في العيادة.

قال بشئ من الدهشة : أنا قلت ذلك ؟ آه ، بالفعل جاءنى يوم القبض عليك ولد مخبول قال كلاما غريبا . لا أظن أن أمره يهمك فى شئ . أقصد لايستحق أن تهتمى به. ربما أكون قد قلت لك لا حذرك منه ومن جده المجنون ولكن متى حدثتك عنهما؟

لزمت ليلى الصمت ثم انفجرت فجأة بالضحك وقالت :

– أنت لا تتغير يا بابا إلا إذا....

– إلا إذا ماذا؟

– إنس ! المهم، هل جددت اشتراك النادى هذه السنة باسمى؟

– ما العلاقة بين هذا و.. بالطبع أرسل من يجدد الاشتراك كل سنة . لماذا تسألين الآن؟

– لأننى يجب أن أواصل السباحة ؛ وربما يجب أن تسبح أنت أيضا يابابا!

– لماذا؟

– لأننى ابنتك ولأنك أبى!

قال الدكتور لنفسه وهو يرتشف القهوة: لولا أنك تشبهينني لما صدقتك!

***

(٤)

افتقد الباشكاتب صحبة سالم الذى أصبح الآن مثل شعبان يقضى النهار كله فى العمل ويستبقونه فى المطعم أيضا جزءا من الليل . وطلب من حفيده ولكن دون إلحاح أن يوفر وقتا للمذاكرة ليدخل امتحان الكلية . غير أن سالم لم يبد أى حماس لذلك . فاضطر الباشكاتب أن يقدم من جديد شهادة مرضية لإعفائه من الامتحان سنة أخرى . وكانت تلك إحدى المرات النادرة التى خرج فيها بعد عودة فوزية إلى بيتها . اعتادت حفيدته أن تأتى كل ظهيرة لتعد له الغداء، وتبقى معه حتى يدخل ليرتاح قيلولته . وفى المساء يقضى وقتا قليلا مع سالم وشعبان ، وفيما عدا ذلك كان يقضى معظم وقته فى غرفته .

أصبح الباشكاتب يجد صعوبة فى صعود السلم ، مع أن الجيران كانوا حين يسمعون إيقاع عصاه يخرجون له مقعدا فى كل دور ليرتاح قليلا على (البسطة) قبل أن يواصل صعوده . قل خروجه من البيت . وقلت أيضا حاجته إلى النوم فأصبح نعاسه متقطعا وصار يقضى وقته كله فى العبادة والقراءة . يؤدى الفرائض والنوافل . ويكرر الفرض الواحد أكثر من مرة ليعوض ما فاته فى السنين الضائعة .

وانهمك الباشكاتب أيضا فى قراءة الكتب التى أعطاها له أبو خطوة مرة بعد أخرى حتى كاد يحفظها . وكان يلوم نفسه لأنه مع حرصه على التزام وصاياها ظل يهمل أهمها جميعا . ويفكر أحيانا : الذنب ذنبك يا سيد إن كانت البشرى تراوغك ! كيف تريد الوصول وأنت تعطى نفسك رخصة وإجازة من التقيد بالعزلة اللازمة لتنقية روحك وتصفيتها من كل كدر ؟ يقول لنفسه فى الواقع أنا أعيش

نصف عزلة ولكنها إجبارية ! لا فضل لي فيها منذ أصبح الخروج من البيت مشقة لا تحتمل، والتعود على الجوع والعطش اللازم في العزلة لقهر الجسم جاء اجباريا أيضا . أملاه المرض لا العزم ! ثم إنك لم تقو على أن تهجر الناس الذين تسميهم الكتب «السوى» لكي تفرغ لنفسك وحدها فتتأملها وتصل إلى حقيقتها .

ثم كيف تدخل بالفعل هذا العالم من السكينة وعقلك لا يكف عن التفكير وعن السؤال ؟ أنت تلميذ خائب يا حضرة الباشكاتب ! تريد أن تذاكر الدروس السهلة وتؤجل الصعبة ! تلميذ عجوز جدا وخائب جدا لم يبق لديه وقت لتأجيل الامتحان !

وتكاثرت أحلام الباشكاتب وسط نومه المتقطع واختلطت بأحلام يقظة كان يخاطب أثناءها أحياءه بصوت مسموع . وفي فترات صحوه كان يحاول أن يفهم مغزى تلك الرؤى واثقا من أن الأحلام رسائل . ألم تكن هذه الأحلام هي التي ضاعفت أمله بعد أن تحققت رؤياه لولده وحفيدته ؟

زارته سمية وزاره أبو خطوة عدة مرات . اعتادت سمية أن تأتيه مبتسمة كما لو كانت في صحراء أو في خلاء واسع ثم تستدير مشيرة بيدها إلى ذلك الفضاء الذي لا يرى نهايته ولا أفقه فتظهر فيه وجوه كأنه يعرفها وإن لم يستطع أن يميز أصحابها . ويسأل توفيق نفسه هل تشير سمية بهذا الفضاء إلى الأجل ؟ إلى اقتراب النهاية ؟ هذا يفهمه جيدا ولا يحتاج إلى سمية لتدله عليه . فأي رسالة أخرى تريد أن تبلغها له ولماذا لا تتكلم ؟

أبو خطوة ، على العكس ، كان يتكلم كثيرا حين يزوره . يأتيه كما رآه آخر مرة بشعره الأشيب وعينيه النفاذتين وابتسامته المرحة . يذكر جيدا حين جاءه مؤنبا ذات ليلة وكرر عبارة سمعها منه من قبل «ليس بعقلك ولا حتى بقلبك ولا بنفسك ، وإنما عندما تنسى ذلك كله يا توفيق . حين تريد ألا تريد فترى نفسك وترى النور في قلب الظلام» . سأل الباشكاتب صاحبه في لهفة : إذن فما هي العلامة ؟ فكرر عليه : أن ترى النور في قلب الظلام .

قال الباشكاتب وكيف أراه في قلب الظلام ؟ فرد صاحبه : سيبدد ضوءه ظلمة الليل والنهار . سأله : وفي النهار ظلمة ؟ فرد: أشد حلكة من الليل .

***

بعد كل مرة كان الباشكاتب يخرج فيها ويعود وهو يلهث مجهدا من السير ومن صعود السلم كان يلزم البيت متسائلا عما يدعوه إلى الخروج واحتمال هذا العذاب . ولكنه بعد أن يقضي في البيت عدة أيام . كان يتجول قلقا في البيت الخالي متنقلا من غرفة إلى غرفة . يذكر نفسه بحالته وبما قاساه في المرة الماضية وبأن الأفضل أن يبقى مكانه لينفذ نصيحة الطبيب بعدم التعرض للإجهاد، ولكن صورة الميدان والمسجد والناس الذين يلقاهم هناك لا تفارق ذهنه رغم كل ما يحاوله . فيعود إلى غرفته فجأة ويرتدي ثيابه وينزل وقلبه يخفق في انفعال طفل صغير ذاهب ليلعب .

ولكن كما جاء الجوع والعطش اجباريين للباشكاتب فكذلك جاءته العزلة الكاملة التي طال تهربه منها .

ففي إحدى مرات خروجه القليلة كان يصعد السلم في الطابق الثاني مبطئا كعادته وغارقا في التفكير كعادته . وكان يؤنب نفسه الآن لخروجه وهو يفكر فيما بقي له من درجات السلم . حين انزلقت العصا من يده فجأة وهوت في الفراغ بين درجتين فانزلق هو أيضا وتدحرج على السلم . ظل راقدا على ظهره على (البسطة) وهو يتأوه . وحين حاول النهوض مرة أخرى معتمدا على يديه . لم يستطع أن يحرك ساقه فصرخ يطلب النجدة .

حمله الجيران إلى البيت وظلت ساقه في الجبس عدة أسابيع وقالت فوزية لنفسها في حزن وهي تنظر إليه يتمدد شاحبا في فراشه : كانما لا يكفي السكر والضغط والدوار وقلة الأكل . الآن هاهي ساق مكسورة أيضا !

***

أصبح من الضرورى بعد ذلك أن تقيم فوزية مع جدها لترعاه . فكان فراج يأتى إلى البيت ويتناول وجباته هناك إلى أن يرجع شعبان أو سالم فى المساء فيصطحب زوجته وولده إلى بيتهم القريب . غير أن فوزية كثيرا ما كانت تصر على أن يقضى الليل معهم فى بيت جدها فيستجيب لطلبها .

وطلب سالم أن يعمل فى وردية المساء ليبقى مع جده أطول وقت ممكن . كانت حالة الجد تقلقه بعد أن تكررت نوبات الدوار عندما تحررت ساقه من الجبس . جاء الطبيب إلى البيت فضاعف جرعة الإنسولين التى يتعاطاها الباشكاتب . ووصف أدوية جديدة لضغط الدم ثم نصحه بالتزام الراحة والتقيد الدقيق بنظام الغذاء .

وقالت فوزية لسالم : انصح جدك يا سالم بأن يأكل . تعبت معه فى الكلام لكنه لا يكاد يتذوق الطعام . أعرف أن لا يحب المسلوق ولكن هذا ما أمر به الطبيب . كلمت عم مرعى ليعطينا وصفة لفتح شهيته على الأقل فقال لى يا بنتى فى حالة جدك يجب الالتزام بأوامر الطبيب . خلط العلاج لا يفيد . لا حل يا سالم غير أن يأكل ماهو موصوف له . انظر كيف صار جلدا على عظم !

اشتد هزال الباشكاتب بالفعل . وتهدل جلد وجهه الذى كان عريضا حتى تدلى فى طيات كالزوائد إلى جوار ذقنه . لكن عندما حدثه سالم عن ضرورة أن يأكل كما ينبغى وهو يشير إلى نحوله رد عليه جده ردا لم يفهمه ، إذ قال :

- هل أصاب النحول إذن هذا الجسم وحلت به الأمراض ؟ تلك عطايا يا سالم. كيف أعرف بدونها أنى ألقى ما استحق من العقاب ؟ كيف أعرف أنى ربما استحق الرحمة ؟

قال سالم محتجا : ولماذا تستحق العقاب يا جدى ؟

اغرورقت عينا الباشكاتب بالدموع : بسبب ما فعلته بنفسى بسبب ما فعلته بك وبشعبان وبفوزية .

- ولكن يا جدى أنت .. أنت لم تفعل غير كل خير . كيف تقول هذا الكلام ؟ نحن كلنا نحبك وندعو لك .

- إذن فلا تدع لى ياسالم بالصحة . بل ادع لى باقتراب النور .

- أى نور يا جدى ؟

فقال جده وهو يتطلع إلى نقطة ثابتة فى الغرفة . النور العلامة .. ولم يكمل .

سأل سالم وحيرته تشتد : علامة على ماذا ؟

- ستعرف الأوان حين يظهر . ربما يا سالم حين تزيد فى هذا الجسم العطايا . ثم خبط رأسه بقبضته وهو يقول : وحين يكف هذا التعيس عن طرد النور !

بعد ذلك صار الباشكاتب يقضى كل وقته فى غرفته . كان يطفئ النور بالليل ويغلق الشيش بإحكام فى النهار وترتفع صلواته وأدعيته بصوته المتهدج .

وكان يجلس فى الظلمة ينتظر . ولكن أبو خطوة ظل يأتيه مؤنبا دون أن يفهم السبب .

***

لم يعد الباشكاتب يقرب الطعام إلا حين ترغمه فوزية وتضعه بالقوة فى فمه . وكان ذلك ضروريا على أى حال لأن يده المرتعشة صارت عاجزة عن حمل الطعام والشراب . كان يلوث ثيابه إن حاول أن يأكل بيده .

لزم الباشكاتب غرفته بإرادته وبغير إرادته بعد أن صار يعرج على ساقه المصابة ويتألم من السير عليها بضع خطوات . لم يعد يستطيع الخروج ولا حتى

لصرف معاشه الشهري الذي كانت الأسرة بحاجة إليه لتكاليف علاجه وللمساعدة في مصاريف البيت . فاضطر شعبان أن يحصل من والده على توكيل شامل للتصرف نيابة عنه . وجاء موظف من الشهر العقاري إلى البيت ليحصل على توقيع الباشكاتب على التوكيل . وافق على ما طلبه شعبان دون نقاش . كل ما كان يعنيه هو أن ينهوا إجراءاتهم بسرعة وأن يتركوه لخلوته .

الوحيد الذي لم يكن الباشكاتب يضيق بصحبته هو سالم . كان يجلس مع جده في أوقات فراغه من العمل ، يراقبه في صمت ويلبي له ما يطلبه . يسنده حتى الحمام ويقف إلى جواره ليساعده حين يتوضأ . يفرش له سجادة الصلاة ويضع له مقعدا ليصلي عليه بعد أن تعذر عليه الركوع والسجود ويصلي سالم وراءه . ويستمع إلى الأدعية التي يرددها جده ويكررها معه .

غير أنه في معظم الوقت كان يجلس صامتا على عادته .

حاولت فوزية أن تجعله يتكلم بعد أن استرد نفسه . حكى لها جدها القليل الذي يعرفه عن لبنى وعن علاقة سالم بها . وفكرت أنها لو جعلته يبوح بما في صدره فسيساعد ذلك على اكتمال شفائه . لكنها حين فتحت معه الموضوع بصورة عابرة ابتسم ابتسامته المحايدة وقال :

– هذه حكاية وانتهت يا فوزية .

فقالت فوزية بلهجة مازحة : كيف انتهت يا سالم ؟ يقول جدي إن الحب التقاء أرواح وأنا أعرف هذه الأرواح . أعرفها تماما . هي أرواح (الزفة) ! إن جاءت فهي لا ترحل . فكيف استطعت أنت أن تهرب منها ؟ أنا لا أصدقك !

فظل يبتسم في وجهها دون أن يرد .

ولم يكن يكذب على أخته . كانت لبنى تخطر على باله أحيانا ويذكر الأشياء الكثيرة التي سبقت مرضه : ليلته الأخيرة معها ، وزيارته لبيتها وما جرى هناك ،

وسماعه بسجنها . ثم تقف ذكرياته عند ذهابه إلى عيادة أبيها ويلفها بعد ذلك الظلام . ولكن تلك كانت تبدو له أشياء بعيدة جدا . لا ينفعل لها حين يذكرها . كانت مثلها مثل كل شيء آخر في الحياة بالنسبة له : صورا يراها من وراء حاجز زجاجي ويراقبها كمتفرج دون أن يشارك فيها . لم يعد حيا وقويا في نفسه بعد أزمات حياته وصدمات الكهرباء، غير جده وفوزية .

وأصبحت الجامعة أيضا ذكرى بعيدة لا تعني سالم في شيء . لكن مدير المطعم الأمريكي الذي أعجب به كثيرا شجعه على أن يحول أوراقه إلى كلية التجارة . قال إنه بمثل تفانيه في العمل ومواهبه في الحسابات يمكن أن يكون له مستقبل كبير في «البيزنيس» ومن يدري ؟ فقد يأتي يوم يصبح فيه مديرا لمطعم مثله . المهم أن يستغل وقت فراغه من العمل للدراسة .

فقال سالم وهو يشكره إنه سيفكر .

***

وفي تلك الأيام التي كان الباشكاتب معتكفا فيها . وبعد منتصف الليل بكثير والجميع نيام ، ارتجت العمارة على صوت دوي هائل كالانفجار .

علا الصراخ والبكاء من كل الشقق وأخذ الجميع يتدافعون على السلم بملابس النوم والصيحات تتجاوب من كل مكان «الزلزال ! الطف يارب !» .

وجرى سالم وشعبان أيضا بثياب النوم إلى غرفة الباشكاتب يحاولان حمله للنزول معهم . لكن الجد كان يقف في وسط الغرفة نحيلا وشاحبا في جلبابه الأبيض الذي أصبح واسعا جدا عليه وقال بصوت متهدج :

– رأيت ذلك في المنام ! رأيت سمية تجري وكنتم كلكم تجرون وراءها . أين فوزية ؟ هيا .. انزلوا .. انزلوا بسرعة !

راح يدفعهما عنه بيديه الناحلتين نحو الباب لكنه رفض وهو يصرخ أن يخرج معهما أو أن يترك غرفته .

قال في عناد : في هذه الغرفة سأبقى إلى أن يتحقق الوعد أو أموت !

فقال سالم : إن بقيت هنا يا جدي فأنا أيضا باق .

راح جده يدفعه بيديه الضعيفتين ليترك الغرفة لكنه لم يفلح في زحزحته فتركهما شعبان معا ونزل مهرولا .

وجد شعبان كل السكان وجيران البيوت المجاورة في الشارع وهم يضربون كفا بكف ، ويسعلون وسط سحابة من الغبار تلف البيت والمكان ! لم يقع زلزال ولكن شرفة الست إنصاف تصدعت فجأة وهوت بسحارتها في الشارع ، تحطمت الشرفة وتناثرت حجارتها في المكان ولكنه السحارة الهائلة ظلت ملقاه على الأرض كتلة واحدة مغلقة ومتماسكة لم يصبها شئ .

وقال واحد من السكان : الحمد لله أن ذلك حدث بالليل . لو سقطت بالنهار لراحت فيها أرواح .

ورد آخر وهو يسعل : هذه بركة الباشكاتب الطيب . لا يريد الله له البهدلة.

وعلا صراخ الست إنصاف : وأنا ماذا سأفعل ؟ والحاج إبراهيم الراقد فوق يا مصيبتي!

وسأل عزوز ابن النجار أباه في قلق : معنى ذلك يا أبي أننا سنؤجل الفرح ؟

فمد أبوه يده وجذبه إليه وصفعه بكل قوته .

لكن صوت شعبان علا فوق كل الأصوات وهو يصيح بلهجة آمره :

- اسكتوا !

كان يسمع صوتا بدأ الجميع أيضا ينتبهون إليه ، وصمتوا جميعا وهم يسمعون قعقعة سقوط كتلة من الطلاء والأسمنت في جانب البيت الذي سقطت منه الشرفة . جرى السكان مبتعدين معتقدين أن البيت كله سينهار فوقهم وارتفع من جديد صوت الصراخ والبكاء والدعاء .

وقفوا يراقبون ما يحدث من بعيد ، لم تتهاو جدران البيت لكن مع صوت سقوط كتل الجير والأسمنت والطلاء الجديد انكشف الشرخ القديم الذي دفع الباشكاتب كل ما يملك لترميمه وبدا أنه قد اتسع بطول العمارة .

ولكن وسط الصمت الشامل وسحابة الغبار التي تكاثفت علا صوت أبو زيد البواب وهو يصرخ ملوحا بذراعيه في الهواء :

- من شنأ بناه الحاج شعدي بيت جاي الحديد ! شكان عره ! جبر يتاويهم كلهم ! جبالة ارمي على الشلم .. مواشير تشر .. تشر وتهد الحيطان . فين ناش جمان ؟ أنا راجع أشيوط حد ناشي إن شاء الله جبر يتاويني أنا كمان وارتاح منكم. اتفو !

أما شعبان فكان شاردا عن ذلك كله ، وقف يتأمل الشرخ من بعيد وهو يفكر .

***

(٥)

عاين المسئولون فى الحى العمارة . وبعد أن حرروا محضرا لمالكها والسيد إبراهيم المشلول . صدر قرار بإخلائها على الفور قبل انهيارها على من فيها .

قال الباشكاتب الذى تعود عمره كله على احترام القانون إنه لن ينتقل من مكانه . تشبث بأصابعه العظمية المرتعشة بذراع شعبان وهو يبكى وينشج كطفل صغير متضرعا إلى ابنه أن يتصرف . أراد أن يقبل يد ولده وهو يرجوه بصوته الباكى أن يتركوه فى غرفته حتى يموت . قال إنه حلم باقتراب العلامة .

انتزع شعبان يده من قبضة والده وقبل رأسه وهو يدعو له بطول العمر قائلا له ألا يشغل باله وإنه سيتصرف بإذن الله .

سأل سالم والده بصوت هامس بعد خروجهما من الغرفة المعتمة :

- ماهى هذه العلامة يا أبى ؟

فرد شعبان وهو يهمس أيضا : لا أعرف يا ابنى . ولكن أظن أن جدك ينتظر كرامة من الكرامات . هذا ما فهمته .

قال سالم باقتناع كامل : هو يستحقها .

نظر له أبوه مليا وهو يقول بشئ من التردد : بالطبع . ولكن الكرامات كما أعلم يا سالم توهب ولا تطلب . يكفى الإنسان أن يطلب من ربه المغفرة لاسيما إن كان خلال عمره ..

قاطعه سالم وصوته ينذر بالغضب : هو يستحقها ! ألم تقل أنت بنفسك إن أحلامه أحلام الصالحين ؟

- نعم قلت وأنا أدعو له . المهم الآن هل الوقت ..

ثم انصرف عن ولده دون أن يكمل وهو يفكر : والآن اثنان فى البيت ! على العموم لدينا أشياء أهم .

لم يكن الباشكاتب وحده هو الذى رفض إخلاء البيت . تمسك كل السكان بالبقاء رغم الإنذار الذى قال بوضوح إن العمارة على وشك الانهيار . توجهوا إلى شعبان وسألوه أين يذهبون وكل أشغالهم ومحالهم قرب البيت . ولم تعد توجد فى الحى مساكن خالية ! عرضوا بعد فوات الأوان أن يرمموا البيت على حسابهم . فرد شعبان بأن الأمر ليس فى يده وعليهم الآن أن يتفقوا مع الإدارة الهندسية فى الحى المسئولة عن قرار الإخلاء . وسينفذ ما يتفقون عليه . وطق بعضهم منتقدين خراب الذمم وتدليس المقاول الذى استغل طيبة قلب الباشكاتب وغشه فى الترميم. قالوا إن هذه آخر الأيام وإن القيامة أوشكت أن تقوم مادام الغش قد وصل حتى إلى جوار الست الطاهرة .

تركهم شعبان يحاولون مع إدارة الحى . كان بحاجة إلى وقت لينظم تفكيره وتدبير أموره .

أما الباشكاتب فلم يعد يغادر غرفته المعتمة إلا حين يصحبه سالم وهو يكاد يحمله حملا إلى الحمام . ولم يعد يكف عن عبادته وابتهالاته بالليل أو النهار . إلا فى لحظات غفواته القصيرة . فبعد أن استغنى عن الأكل استغنى عن النوم . وكانت فوزية تستطيع إرغامه على أن يزدرد بعض الطعام الذى تضعه له بيدها فى فمه . وإن رفض أحيانا فى عناد أن يفتح فمه . تظل فوزية واقفة أمامه وبيدها طبق الأكل وتقول إنها تعلم أن يكرهها ولا يطيق أن يراها ولكنها لن تتزحزح وتريحه من وجودها إلا إذا أكل شيئا . ومع ذلك فلم يكن يأكل الا لقيمات كما أن فوزية لم تكن تستطيع إرغامه على النوم فتدهورت حالته بسرعة وأصبح يعجز عن الوقوف على قدميه إلا إن ساعده أحد . وحين كانت فوزية ترى الجلباب الأبيض

يشهدل على جسده الهزيل كأنه يخوض فيه كانت تحول وجهها لكي لا يرى دموعها ، رغم ثقتها بأنه لن يرى شيئا في ظلمة الغرفة .

واعتاد سالم أن يحلق لجده ذقنه في ظهيرة كل يوم قبل أن يصحبه إلى الحمام للوضوء ، وكان في هذه الحالة يضغط على زر النور في الغرفة المعتمة بمجرد دخوله ، ولكنه دخل ذات يوم فوجد الضوء يغمر الغرفة ، ورأى جده يجلس فوق سريره وهو يثني ساقا تحته بينما تتدلى ساقه المصابة من السرير ، وقد فتح شيش الغرفة على آخره . ظل يقف مأخوذا عند الباب ، محاولا أن يفهم ما حدث ، فقال جده بصوت هادئ وابتسامة تغمر وجهه الناحل المتغضن :

- ادخل يا سالم واجلس .

تقدم سالم وقبل رأس جده على عادته ، فمد الجد ذراعيه الضعيفتين واحتضن سالم إليه بأقصى ما يستطيع من قوة . ظل يحتضنه طويلا قبل أن يطلقه فمضى حفيده ليجلس على الكنبة المواجهة للسرير وهو يتطلع إلى الشرفة المفتوحة وإلى جده بنظرة مستفهمة .

كان الباشكاتب يبدو ضئيلا في جلسته على فراشه وكان وجهه شاحبا جدا في ضوء النهار الذي لم يدخل الغرفة منذ مدة طويلة . غير أن صوته لم يكن مرتعشا ولا متهدجا . رن في أذن سالم كصوت الباشكاتب المرح القديم وهو يرنو إليه مبتسما ويقول :

- أوحشتني جلسات سمرنا القديم يا سالم وأوحشني كلامك . قل لي ما أحوالك الآن في العمل ؟

لم تغادر الدهشة سالم وهو يرد على جده :

- شغلي ليس فيه جديدا أبدا . حسابات وأرقام .

- وإذن ففي أي شيء آخر تفكر يا سالم ؟

- أفكر فيك أنت يا جدي . رجوتك كثيرا أن تأكل وأن ترتاح لكي تسترد صحتك لكنك لا تسمع كلامي .

- ألم أقل لك من قبل إنه مع كل جزء يموت من هذا الجسم يصحو جزء من الروح ؟ وأنا الآن كما تراني يا ولدي وأحب أن ألقى الله بروح حية .

قال سالم منفعلا وهو يمد يده نحو جده كأنما ليمنعه من الكلام :

- لا تقل هذا الكلام يا جدي . سيشفيك الله من المرض وسيعطيك العلامة التي تطلبها . ألا تعرف أنه لا حياة لي بدونك .

قال الباشكاتب متحيرا : ولكن لماذا يا ولدي ؟ ما الذي فعلته أنا طول حياتي لأستحق أن يكافئني الله بك في نهايتها ؟ وهل تلك هي النبوة . أن تكون أنت أبا لجدك ؟

راح الباشكاتب يتأمل سالم وهو يفكر : أم أنك أبي لأني يجب أن أتعلم منك ؟ كيف مرت بك يا سالم كل ما قاسيته في جسمك وفي عقلك دون أن يتعكر صفو نفسك ؟ كيف تظل تعطي كل شيء لأختك ولأبيك ولي . مالك ووقتك وحبك دون أن تطلب شيئا لنفسك أبدا ؟ أيمكن أن يكون المرض هو الذي يهب كل تلك الطاقة على الحب أم أننا نحن المرضى ؟ ما الذي يدور في عقلك حقا ؟ وما الذي يجب أن أتعلمه منك يا أبي ؟

قال الباشكاتب فجأة بشيء من الاندفاع : قل لي يا سالم . هل مازلت تفكر في زميلتك لبنى ؟

نهض سالم بجذعه وهو يجلس وقال لجده بشيء من الذهول :

- إذن فأنت تعرف يا جدي ؟

- ما الذي أعرفه ؟

- وإلا فلماذا تسألني ؟ اليوم . الآن . كانت معي وكنت أنت أيضا معي ..

ظل جده ينظر نحوه متسائلا . فاعتدل سالم في جلسته من جديد وقال :

- أنا لم أفكر فيها أبدا من زمن . إن خطرت على ذهني فقد كنت أستغفر الله لذنبي . ولكنها اليوم .. نمت متأخرا في الليل بعد رجوعي من العمل . نمت قرب الصباح فجاءتني في المنام . ربما هذه أول مرة أحلم بها . لابد أنك تعلم مادمت تسألني ..

قال الباشكاتب بهدوء : لا يا ولدي . أنا لا أعرف . لكن أحلامنا تقول لنا الحقيقة أكثر من صحونا . فماذا قالت لك ؟

حول سالم وجهه عن جده وقال بصوت خفيض : لم تقل شيئا . كنا أنا وهي في زورق على النيل وهناك غناء لا أعرف من أين يأتي . هل كان ملاحا في زورق أو هل كان الغناء أصوات طيور في السماء . ولكنا كنا سعيدين ثم جاء ظلام وأخذ الزورق يهتز بنا ومدت ليلى يدها نحوي ومددت لها يدي فانقض فوقنا طائر أبيض ضخم له مخالب كبيرة ووقفنا خائفين كل أحدنا يحتضن الآخر ولكنا دخلنا بعد ذلك في ممر طويل مظلم كأنه سجن وكنا نجري معا . نعرف أن شخصا يطاردنا ونريد أن نصل إلى آخر هذا الممر لأن هناك نورا في نهايته . صحوت بعدها وكان وجهك أنت آخر شئ في الحلم أو أول شئ فتحت عليه عيني . فما معنى ذلك يا جدي ؟ هذه أول مرة تزورني هي في الحلم وأول مرة تسألني عنها من زمن . فلماذا ؟

رفع سالم إلى جده عينين ملهوفتين فقال الجد بلهجة قاطعة :

- لا أحد يفسر حلمك غيرك يا سالم . أنا أعرف الآن أن الأفضل ألا انطق بما لا أعلم . لكني أعرف أيضا أنك تستحق النور الذي رأيته في حلمك . المهم يا سالم ألا تخطئ النور حين يجئ .

- لا أفهم يا جدي .

- ربما نفهم معا يا ولدي . وربما لا يكون الوقت قد فات . اليوم أنا أيضا أريد أن أفهم ..

أطرق الجد قليلا ثم رفع رأسه بعد فترة . كان يبدو عليه الإجهاد لكن صوته ظل واضحا تماما وهو يتكلم .

- أنا لم أقل لك يا سالم كل ما سمعته من أبو خطوة عندما رأيته آخر مرة . هل تذكر أني حكيت لك عن بشرى حلم بها لي ولم يفصح عنها ؟ يومها أيضا أعطاني الحجاب الذي أوصى بأن يظل دائما قرب قلبك وذهبت في اليوم التالي وكان يوم خميس لأودعه قبل السفر . جلست إلى جواره ونفسي تراودني أن أسأله : ماهي تلك البشرى ومتى تتحقق ؟

سامحني الله لأني ساعتها كنت أشك فيما سمعته منه وقالت لي نفسي إنني حتى لم أر أيا من كراماته التي يتحدثون عنها وأني كلما سألته كان يتهرب من الجواب . استجمعت شجاعتي وقررت أن أسأله لكني رأيت وجهه يشحب فجأة وأصبح يتنفس بصعوبة ثم غامت عيناه . أصابني الذعر أنا وكل من في المكتب وبدأنا نجري هنا وهناك . فتحت له أزرار قميصه وأحضر أحدهم ماء رشه على وجهه ونحن صرخت أين الطبيب ؟ جرى البعض يستدعون طبيبا . لكن ذلك كله لم يستغرق غير دقائق قليلة أفاق أبو خطوة بعدها كأنه كان في سنة من النوم ونظر لي ولمن حولي وقال بهدوء واستغراب : كيف يسبق جنازتي موكب وتشريفة وأنا لست من الحكام ؟ وما حاجتي إلى التشريفة وأنا يكفيني قلب واحد طاهر يصحبني إلى مثواي ؟ علا صوتي وأصوات الجميع في المكتب ونحن نكرر بعد عمر طويل يا حضرة الباشمحضر .. اتق الله فينا يا رجل .. أنت أغلى عندنا من كل حكام الدنيا .. هل نستدعي الطبيب ؟ فرد علينا وهو يسوي ثيابه ويضحك : لماذا خفتم هكذا ؟ أنا كنت أمثل عليكم دورا . أريد اليوم أن أزوغ قليلا من العمل ثم عاد بعد ذلك يمزح معي ومع الجميع . لم أره في حياتي يا سالم أكثر مرحا مما كان في ذلك اليوم . وعندما قلت له إنني جئت لأودعه قبل سفري قال

سنتحدث في ذلك معا ، ثم أمسك بذراعي وهو يقول : ألم أصارحكم بأني أريد أن أزوغ اليوم ؟ وقال لزملائه وهو يتجه معي نحو الباب : أراكم غدا إن شاء الله . فرد أكثر من واحد بعد غد إن شاء الله يا حضرة الباشمحضر . غدا الجمعة . فقال لهم نعم ، يوم مبارك ..

وعندما خرجنا من باب المحكمة قال وهو يتوكأ على ذراعي كأننا نستأنف حديثا بدأناه : سألتني يا أخي توفيق عن الكرامات ، ما الذي يشغل بالك عنها ؟ هل سمعتني أنت أتحدث عنها مرة ؟ رددت وأنا أكاد ارتجف لأنه حدس ما أفكر فيه «لا» فقال : وصدقني أني ما تحدثت عنها مع غيرك . كل ما يحدث خارج نفسك لا وزن له . المهم هو ما تبطن . الحق في داخلك أنت . والكرامة الحقيقية هي أنت . حتى السحرة والحواة ينقلون الأشياء من مكان إلى مكان ويخفون الظاهر ويظهرون الخفي فهل يقربهم هذا من رحمة الله ؟ فصمت . ولكن الكرامة علامة . قال وقد تكون فتنة وقد تكون امتحانا . وربما يعثر إنسان في شبابه بما وصل إليه ولكنه إن لم يرجع تائبا عن الظهور فسيظل دائما عبدا للظهور ويسقط في الفتنة . فألححت عليه ولكن الكرامة علامة على الوصول : أليس كذلك ؟ فقال أنت وما تؤمن به يا أخي توفيق . الوصول الحق هو أن ترى النور في قلب الظلمة وقد يكون أقرب إليك مما تظن . لكنك لن تراه قبل أن ترى نفسك . قلت ضاحكا صارحتك من قبل يا مولانا أنه من الصعب أن أحب نفسي ! فرد أبو خطوة بما يشبه نفاد الصبر فانتظر إذن حتى تحبها ! ولا ترجع ثانية إلى ذكر ذنوبك فتذنب بنكران الرحمة . حين تصح التوبة فاعلم أنه لا صغيرة إن قابلك عدل ربك ولا كبيرة إن قابلك فضله وأحسن الظن بفضل خالقك . ثم سكت أبو خطوة بعد ذلك لحظة ورق صوته وهو يسأل عنك : حفيدك اسمه سالم . أليس كذلك ؟ ولم ينتظر ردي . بل قال: هو ماهو بإذن الله . وأنت مثله معه لأن نوره سيصحب عمله .

ثم وضع يده على كتفي وقال ستصل يا أخي إلى ما تطلب بفضل مولاك وستعلم وحدك أن المكابدة والانتظار باب للرحمة واسع . لكن لا تتعجل الوقت كما قلت لك فالوقت مخلوق مثلك ومسير مثلك . أما أنا فسأنتظرك غدا لنكمل ما بدأناه فلا تسافر اليوم .

ودعني بتلك الكلمات ولم أكن أعرف ولا كان أحد ممن في المكتب يعرف أننا في الغد . في يوم الجمعة المبارك . سنكون نحن وأسيوط كلها تقريبا في جنازة أبو خطوة . وأنه ستكون هناك جنازة تسبقها لواء في الشرطة تتقدمها الموسيقى والطبول وصفوف الجنود . فبدت كلها كما لو كانت (تشريفة) لجنازة أبو خطوة . وشاركت في حمل نعشه يا سالم فكان خفيفا كالريشة . فهل أكمل بذلك ما بدأناه؟ قل أنت يا سالم .

قال سالم الذي كان منتبها لكل حرف من كلام جده : ألم يقل يا جدي إنه يريد قلبا طاهرا يصحبه إلى مثواه ؟

فقال الباشكاتب وقد بدأ الإجهاد يتسلل إلى صوته : ولكني خاطئ ! لم يزرني النور ! .

سكت سالم قليلا ثم قال : عندما كنت أخاف وأنا طفل صغير من عقاب أبي أو من المرض كنت آتي هنا إلى غرفتك . حتى ولو لم تكن أنت فيها . فكنت أطمئن. كنت أعرف أنك تحبني وأنك ستساعدني .

وفوزية أيضا .. فوزية لا تحب أحدا مثلك لأنها تعرف أنك تحبها . أقصد يا جدي ..

ثم سكت مرة أخرى وبدا في وجهه الألم وهو يقول : أنا لا أفهم كثيرا من الأشياء ، ولا أعرف أن أتكلم ولكني قرأت معك في كتبك أن النور نور لأن ضوءه يبدد ظلمة النفس ويجلو البصيرة وأنت يا جدي ..

ثم سكت مرة ثالثة وقال في يأس : ليتني أستطيع أن أتكلم : أنت الذي تستحق يا جدي . أنا لا أستحق .

ظل جده ينظر إليه وقد اتسعت عيناه وبدأ صدره يعلو ويهبط ثم قال : ولكني الآن أراك يا سالم ! نعم . أنا أراك !

ثم نزل من فراشه فجأة وتقدم من سالم وهو يعرج على رجله المريضة ويخوض في جلبابه الأبيض الواسع . مد يديه الاثنتين نحو حفيده وراح يشير بإصبع مرتعش وهو يقول : أنا أرى ! أرى يا سالم !

التفت سالم خلفه لينظر حيث يشير جده . ولكنه ترنح فجأة في مكانه فاستدار ليجد جده قد ارتمى عليه يريد أن يتشبث به . ثم أخذ ينزلق ببطء، وقد ارتخت ذراعاه فهمس في ذعر وهو يرفعه ليمنعه من السقوط : لا ! قف يا جدي ! قف !

قبل أن يصرخ بأعلى صوته مناديا : يا فوزية !

***

(٦)

انقطع سالم عن الذهاب إلى عمله .

أرسل المدير إلى البيت من يسأل عنه فلم يخرج من غرفة جده . وقال شعبان للرسول إن سالم يلازم جده المريض .

لم يترك جده لحظة منذ سقط بين ذراعيه . ومنذ أن قال الطبيب إنه شلل كامل. كان شعبان قد قرر أن ينقل والده إلى المستشفى لكن الطبيب العجوز الذي كان يعالج الحاج إبراهيم قال له : كما تشاء. ولكن رب البيت هو رب المستشفى . ولعل أسرته تهتم به أكثر من الممرضات هناك. وتشبث سالم بأن يبقى جده في البيت . فاستقر الأمر بأن يمر الطبيب على البيت مرتين في الأسبوع . وأن يأتي الممرض كل يوم لإعطائه حقنة وتغيير المحاليل التي علقوها في عمود السرير .

ومع أنه ظل يأتي في ظهيرة كل يوم . فقد تعلم سالم بسرعة كيف يقوم بهذا العمل . وبعد أن يفرغ منه كان يجلس على كرسي إلى جوار فراش جده ويمسك الكتب التي تعود أن يقرأها ويردد بصوت عال الأدعية التي كان يسمعها منه.

لم تكن عين الباشكاتب تطرف ولكن حفيدة كان واثقا من أنه يسمعه.

وكان سالم يؤدي كل صلاة مرتين . مرة لنفسه ومرة لجده . وباستثناء فترات القراءة كان يطفيء نور الغرفة أو يغلق الشيش .

وفي ذلك الوقت وصل إنذار ثان للسكان بضرورة إخلاء العمارة الآيلة للسقوط وإلا تم إجلاؤهم بالقوة . فلم يتحرك أحد . قالوا أين نذهب ؟ غير أن شعبان كان قد اتفق بالفعل . بواسطة بائع السجائر المستوردة . مع أحد الملاك على أن يبيعه نصف أرض البيت بعد هدمه . وقبض جزءا من مقدم الثمن . أجر شقة في

حى المنيرة القريب واستعد للانتقال إليها مع الأسرة . وقال له السكان الذين شعروا بلهفته على إخلاء العمارة فى أقرب وقت إن الباشكاتب ما كان ليتصرف هكذا .

فرد عليهم : وأنا ماذا بيدى أن أفعل ؟ هل استطيع أن أمنع البيت من الوقوع أو أن أقف أمام الحكومة ؟

لكن بعض السكان المقتدرين الذين فهموا أن المسألة منتهية بالفعل دفعوا لشعبان فى السر مبالغ كمقدم إيجار لإسكانهم فى العمارة التى سيبنيها فى الجزء الذى يخصه من الأرض . وحدها الست إنصاف كانت لاتكف عن البكاء وتزور شعبان كل يوم وتوسط فوزية لديه فيعدها خيرا إن شاء الله . ولكنه يؤنبها بصورة عابرة : هل كانت ضرورية هذه السحارة التى جلبت كل المصائب ؟ فترد وسط بكائها : نعم كانت ضرورية ليكتمل فى الدنيا وعدى

لم يكن سالم يعرف شيئا عما يدور أو عن قرب انتقالهم إلى البيت الجديد . اعتكف فى الغرفة التى أصبحت لها رائحة المستشفيات . غير أن فوزية دخلت عليه مرة بعد أن انتهى من تحميم جده فى طست بالغرفة وأرقده فى فراشه بعناية كان يلف حوله الغطاء بإحكام عندما دخلت فوزية فصرخ فيها :

- إقفلى الباب بسرعة !

أغلقت الباب كما أمرها . وكان من الصعب عليها أن ترى شيئاً فى الغرفة المظلمة . فراحت تتحسس طريقها نحو فراش جدها وسحبت سالم من يده وأجلسته بجوارها على الكنبة المواجهة للفراش وقالت له :

- لماذا تبقى فى الظلام ياسالم ؟ لماذا لاتفتح الشيش على الأقل ؟

- جدك لم يكن يريد نورا فى الغرفة فى الفترة الأخيرة .

- ومع ذلك فقد كان الشيش مفتوحا يوم سقط . ألا تذكر ؟

قال متحيرا : نعم أذكر وحتى الآن لا أعرف لماذا فتحه يومها . ولا أفهم ما حدث .

- لأنه كان يحب دائما أن يبقى فى النور . أحب جدى الظلمة فقط وهو مريض . ولعله أحس بما سيحدث له فأراد أن يودعنا فى النور .

لم يسمع سالم كلمة يودعنا . كان مستغرقا فى أفكاره وحيرته فأكمل لشقيقته :

- لم أفهم كل ما قاله لى يومها وهذا يعذبنى يا فوزية. كان يريد منى شيئا لكنى لم أعرف ماهو وسألنى عن .. عن أشياء لم نتحدث عنها من زمن طويل. وتكلم أيضا عن النور.

قالت بأسف : لو كنت سمعكما لحظتها ! .. لكنى أعرف أن جدى يحب لك الخير...

ثم قالت فى هدوء : افتح الشيش يا سالم من أجلك لامن أجله . فهو الآن لا يفرق بين نور وظلمة .

لم تر فوزية النظرة الغاضبة فى عينى سالم ولكنها شعرت بها فى صوته وهو يسألها :

- من يدريك ؟

فردت عليه بالهدوء نفسه : هذا كلام الطبيب.

قال سالم وقد ازداد غضبه : وما الذى يعرفه الطبيب ؟ جدك من الصالحين وسيشفيه الله ويقوم سالماً بإذن الله ..

- حتى الرجال الصالحون يا سالم..

ثم سكتت قبل أن تقول بلهجة مختلفة : لم آت لأتكلم معك فى هذا الموضوع . كنت أريدك فى شىء آخر . أردت أن أسألك : هل وقعت على توكيل لوالدك ؟

رد سالم دون مبالاة : نعم ، أعطاني ورقة وقعت عليها . لا أذكر ماهي .

- كيف لاتذكر ؟ هذا شيء مهم . وأنت لاتعرف بالطبع أن أباك باع جزءا من البيت ؟

كان يجهل ذلك لكن فوزية شرحت له في حرص أنها لم توقع على التوكيل لأنها تريد أن تعرف رأسها من رجلها ، ويكفي ما فعله سالم مشكورا من أجلها حتى الآن . إن كان والدها قد قبض مبلغا من المال فهي تريد أنه تأخذ نصيبها منه وأن تعرف كيف ستسير الأمور بعد ذلك . عليها الآن أن تحمي مستقبلها ومستقبل سلوم . لم تأت الإعارة التي انتظرها فراج ولا تظن أنها ستأتي وهي لاتريد أن تكون تحت رحمته أو تحت رحمة أي مخلوق .

كان سالم شارداً وهي تتكلم وسألها : ولكن لماذا باع أبي الأرض ؟

نظرت فوزية إلى وجه أخيها في العتمة التي ألفتها عيناها ورأت أنه يركز نظره على سرير جده . فامسكت بوجهه وحولته نحوها وهي تقول :

- اسمعني يا سالم من فضلك .لو طالبت أبي بنصيبي من المال الذي قبضه فهل تساعدني ؟

حاول سالم أن يستجمع تفكيره وقال لأخته :

- بالطبع سأساعدك يا فوزية . أي شيء تطلبينه سوف أفعله . تنهدت فوزية ثم قالت بعد فترة :

- وكيف ستساعد نفسك يا سالم ؟

- أنا .. أنا لا أحتاج إلى أي مال . عندما يشفى الله جدي سأنزل للعمل .

قالت ببطء : لو كنت تحب جدك حقا فادع له أن....

ثم توقفت وهي تتساءل : ما الذي يمكن أن أقوله لسالم ؟ أخاف عليه أن يمرض من جديد أو أن يسوء مرضه . لو بيدي أن أجعله يسلم بالحقيقة ؟ أنت تقول لي يا سالم إن جدك من الصالحين ؟ لو تعلم كم أحبه ! لولاه ربما لكنت أنا

قد وضعت من زمن . وتقول لي إنه كان ينتظر نورا ؟ أنا أراه هناك وهو ممدد على السرير في الظلام كالقتلة وكله نورا ! ولكنه كان يحبنا يا سالم ويحب لنا أن نعيش .

مدت فوزية يدها وضمت أخاها إليها وهي تقول : معك حق يا سالم. أنا لا أعرف ولعل الطبيب أيضا لايعرف . لعله بالفعل يسمعك وأنت تكلمه وتقرأ له ولكن من أدراك أنه لايتعذب إن كان يسمع ولا ينطق ؟ لا تعذب جدك يا سالم . أنت تعرف كم يحبك .

قال سالم : وهو يعرف أيضا كم أحبه.

- إذن فلا تعذبه . جدي لايحب ذلك له ولا لك .

هتف سالم : لماذا تعذبينني أنت بكلامك يا فوزية ؟

- أنت سألتني عما كان جدي يريد أن يقوله لك يوم مرضه .

فسأل سالم بصوت خفوت : وماذا كان يريد يا فوزية ؟ ليتني أعرف !

- يريد ما قلته لك . ويريد أن أشارك في رعايته لأني أستطيع أن أفعل مثلك بالضبط . لايريدك معه طول الوقت .

سكتت فلزم سالم الصمت بدوره . ثم قامت فوزية ومشت حتى سرير جدها انحنت فوقه وقبلت جبينه برقة . ثم توجهت نحو الباب وقالت لأخيها بهدوء قبل أن تخرج :

- افتح النور يا سالم . جدي يحب النور .

وقالت لنفسها في أسى وهي تخرج : ولكن هذا لن يستمر طويلا !

* * *

حدد شعبان موعد إنتقالهم من البيت إلى شقة المنيرة الجديدة .

جاء عمال ففككوا قطع الأثاث وكوموها في أركان الغرف . كان قد قرر أن يبيع بعضاً من الأثاث وأن ينقل بعضه الآخر إلى المسكن الجديد وأصبحت الشقة

خالية باستثناء غرفة الباشكاتب التي أرجأها شعبان حتى اللحظة الأخيرة . بدت الشقة الخالية واسعة جداً . أصبحت الأصوات والخطوات ترن فيها وتتردد في صدى ضخم كئيب . سمع سالم من أبيه أن هذا هو الحل الوحيد لأن العمارة على وشك الانهيار فسأل عما سيفعلون بالنسبة لجده وطمأنه شعبان : اتفقت بالطبع مع عربة إسعاف وسننقل غرفته كما هي . سريره ومكتبه وكل كتبه . سنكرم حضرة الباشكاتب حتى ...

ولم يكمل عبارته .

وكانت فوزية مشغولة مع أبيها في الترتيب للانتقال من البيت . اتفقوا أيضا أن تنتقل هي وفراج وسلوم إلى شقة المنيرة لتشارك في تنظيم المسكن الجديد وفي رعاية جدها . ولتبقى هناك إلى أن تجد الشقة المناسبة التي كانت تبحث عنها لنفسها . حصلت من أبيها على جزء من نصيبها من بيع الأرض وحسمت مع فراج أن الشقة الجديدة التي ستضع فيها جزءا من المبلغ ستكون باسمها هي.

وأثناء الاستعدادات الأخيرة دخلت فوزية غرفة جدها . كان سالم يفتح جزءا صغيرا من الشيش ويجلس على الكنبة معتمدا رأسه بيده . يسترجع من جديد كل ما دار بينه وبين جده يوم سقوطه ويحاول أن يفسر ويعرف . رفع رأسه حين دخلت فوزية فقالت له :

– هناك واحدة تريد أن تراك يا سالم .

ظل ينظر إلى أخته مستفهما فقالت بهدوء شديد : هي لبنى .

هب سالم واقفا حين سمع الاسم وقال : «جدي» ! ثم قفز من مكانه واندفع نحو الباب . لكن فوزية سدت طريقه بذراعيها وقالت :

– لا . لن تخرج بالبيجاما ! ارتد ملابسك.

وابتسمت فوزية لنفسها وهي تغلق الباب وراءها : كنت متأكدة أني أعرف هذه الأرواح ! يارب !

***

وكانت لبنى تنتظر وحيدة في الصالون الخالي الذي لم تبق فيه سوى أربعة مقاعد متناثرة . كانت تلبس من جديد بلوزة بيضاء بنصف كم و(جونلة) واسعة كما اعتادت منذ سنين . قالت لنفسها وهي تتلفت حولها : لماذا أنا هنا !ما الذي جعلني آتي الآن ؟ قد تكون غلطة . لايهم . كل شيء غلطة . أنا نفسي غلطة لا فائدة منها . تجاهلت طويلا ما قاله أبي في ليلة سكره . ليكن . جاء سالم إلى عيادته قبل سنين فما جدوى أن أراه الآن ؟ لو كان سالم مريضا حقا فلن أستطيع أن أساعده . لن أستطيع حتى أن أنصح بأن يذهب إلى المصحة في روما ! رفض أبي أن يقول شيئا حين سألته عنه فلم أفتح معه الموضوع مرة أخرى. الدكتور غارق في عوالمه العظيمة ولا وقت لديه لأمثالنا .لايكف الآن عن العمل ليل نهار حتى الويسكي انقطع عنه بعد ليلة سكره الكبير . أظن أنه كان مفتعلا لنفسها لأنه قابل الدكتورة صفاء . لم أفهم كل كلامه لكنه تحدث على أي حال عن الحب . لعله مازال يحبها حتى الآن وإن كانت هي تمقته لماذا ؟مالي أنا وذلك الآن ؟ تكرهه أو تحبه المهم أن لكل منهما حياته فماذا عن حياتي أنا ؟ أين ضاعت بعد أن عولجت في روما وتحسنت الأحوال ؟ واظبت على الأدوية والعلاج . غطست في حمام بارد وحمام ساخن وحمام فاتر وشفيت تماما ! وقبل أيام عندما غطست في حمام السباحة في النادي قررت ألا أطفو من جديد . قال عقلي هذه هي النهاية المنطقية الجيدة لواحدة مثلي شفيت من كل شيء حتى من الرغبة في الحياة ! تمنيت أن ينتهي كل شيء في تلك العتمة الرجراجة في قاع الحمام . لكن عندما نفد الهواء من الصدري خانني جسمي . راحت ذراعاي تضربان الماء بجنون ولما وصلت إلى السطح كنت أشهق وأصرخ وأطرد من جوفي باستماته ماء الحمام وطعم الكلور . تأكدت أن جبني غريزي لا علاقة له بما يقرره عقلي . لا علاقة لعقلي بشيء . قرر ألا أرى سالم وها أنا هنا أنتظره . لماذا ؟ حكايته انتهت

وكل الحكايات انتهت . قلت لنفسي ولكني أحب أن أرى جده . هذه ليست كذبة . هو الوحيد الذى أفكر فيه عندما أسمع الكلام العاقل الذى يقوله أبى وأمى وكل الناس الذين أعرفهم . هو الوحيد الذى سمعت منه على لسان سالم كلاماً يختلف عن كل هؤلاء العقلاء الذين يدفعونني للموت . قلت ربما يستطيع أن يساعدني . والآن تقول حفيدته إنه هو أيضا مريض لايتكلم، ضاعت الفرصة ! لو كنت قد جئت على الفور ! لماذا أبقى ؟ هل أنصرف الآن ؟

لكن الباب فتح ودخل سالم .

كان يرتدى القميص والبنطلون لأول مرة منذ مدة فبدا نحيلاً في ثيابه . ونهضت لبنى حين رأته . ظلت تقف صامتة وهى تتأمل وجهه الممتقع والابتسامة المصنوعة على شفتيه . وكان هو أيضا يتأملها وهو يتنفس بصعوبة . فجأة وجدت نفسها تندفع نحوه خطوتين ثم توقفت حين مد لها يده باستناد ذراعه وهو يقول :

– حمد الله على السلامة . سمعت من جدى أنك في فرنسا .

لم تصحح له اسم البلد . عادت تجلس مكانها دون أن تحول نظرها عنه .

فانحنى هو رأسه وهو يقول : صحتك أحسن .

كان يريد أن يقول «أنت الآن أجمل» . ولكنه غير رأيه .

فسألته : وأنت ؟

رد ببساطة : أنا مرضت بعد .. ولكنى عولجت وأنا الآن أحسن .. لم أعد آخذ علاجا ولكني الآن أحسن .. هل انتهيت من دراستك أو ستسافرين مرة أخرى ؟

لوحت بيدها وهى تقول : لا . اكتشفت أننى لا أحب القانون فتوقفت عن الدراسة . لم آت الآن لكى ..

ثم سكتت . كانا يجلسان على مقعدين متقابلين يتبادلان الحديث بلهجة مهذبة فأرادت لبنى أن تصرخ : كفى يا سالم ! لا تدعنا نتكلم لمجرد فتح الفم وإغلاقه .

كفى ! ما الذي يحدث ؟ لماذا أنا هنا ؟ يجب أن أنصرف ! لكنها مع ذلك أحنت رأسها وقال في همس : تعبت حتى عرفت عنوانك . ذهبت أولا أسأل في محلات الأقمشة عن والدك ..

لم يسمع سالم ما قالته ولكنه رفع رأسه فجأة وقال :

– هل هو الذي طلب منك أن تأتي ؟

– من ؟

– جدى !

– كيف ؟ ألم أره في حياتى !

– لا أدرى . لماذا إذن سألنى عنك قبل أيام ؟ ألم يكن هو الذي طلبك ؟

سكتت لبنى لحظة ثم قالت : ربما . لم لا ؟ منذ أيام وأنا أفكر فيه . الحقيقة أنى جئت لأراه . تقول طلبنى ؟ لم لا ؟

هز سالم رأسه وهو يقول : جدى من الصالحين .

فقالت لبنى : لابد . ولكن ماذا قال لك عنى ؟

– كانت أول مرة يذكر فيها اسمك منذ سنين وسألنى إن كنت أفكر فيك .

– وبماذا رددت يا سالم ؟

– قلت إننى .. إننى حلمت بك مرة ..

فقالت لنفسها : مرة واحدة يا سالم ! حلمت بى مرة ؟

راحت تنظر إلى وجهه الشاحب . وإلى ذقنه النابتة . وإلى عينيه الجميلتين اللتين تتحركان في قلق . وإلى ساقيه الطويلتين اللتين يبدل وضعهما كل لحظة وسألت نفسها : هذا هو سالم ؟

وردت والدموع تطفر من عينيها دون أن تبذل أدنى محاولة لمنعها كما اعتادت أن تفعل طول عمرها : نعم . هو !

وها هو الجواب : أنت هنا من أجله ! تعرفين في قلبك منذ جئت ومن قبل أن تأتي أنك هنا من أجله ، حتى ولو كان قد فقد كل عقله ، فهو نفسه سالم ، سالم الذي كان يفاجئك وجهه في روما وفي مصر وقبل السفر وبعد أن رجعت ، سالم الذي فعلت كل شيء لتطرديه من حياتك لكنه ظل يظهر لك دون توقع فيمسك يدك وأنت تمشين هناك على شاطيء النهر في روما أو يأتي ليجلس أمامك على رصيف المقهى أو ينام إلى جوارك في الفراش . هو نفسه ، سالم ، الذي تمر أسابيع وشهور لا تذكرينه وإذا به فجأة يحيط بك كغلالة ترين كل شيء من خلالها ولكنك لا ترين غيره . ما همك إن كان مريضا ؟ لماذا طوال تلك السنين ظل الأصحاء والأقوياء الذين رأيتهم أشباحا عابرة وبقي هو يغيب ثم يعود بلا انقطاع ؟ لو ترجع يا سالم أيام خوفنا معا ! لو يرجع للدنيا طعم حقيقي غير طعم الكلور في حمام السباحة ! لحظة واحدة من ارتعاشه اليد ودفئها حين تمسك بها ، من مذاق قبلتك ، من رائحة جسدك وهي تنفذ إلى مسام الجلد ! لحظة واحدة من الخوف الحقيقي والحب الحقيقي بدلا من هذه الحياة الكذب ، من المشي بلا سبب والكلام بلا معنى وفتح الأبواب وغلق الأدراج وطلوع السلم والردّ على التليفون وانتظار السيارات وقناع كاذب للحزن وقناع أكذب للضحك لمقابلة أقنعة الآخرين ! لحظة واحدة تبعث فيها الأرواح الميتة لتلتقي كما قال جدك ! ولكن كيف تُبعث هذه الأرواح ؟

سألها سالم في انزعاج : لماذا تبكين ياليلى ؟

لم تردّ . وراح يراقبها بعينين قلقتين ودموعها تنساب دون أن تنشج أو يصدر عنها أي صوت . وكانت أفكار كثيرة تتدافع في ذهنه وتطارد بعضها دون أن ينطق . أراد أن يسألها كيف خرج من بيتها في ليلتهما الأخيرة معا ، وأن يقول لها سأكفّر عن ذنبي بعد أن يشفي الله جدي ، وأن يسألها لماذا غيرت لون

شعرها ! لكنه بدلا من ذلك كله كرر سؤاله :

- لماذا تبكين ؟ .. هل قلت شيئا ؟

مسحت ليلى دموعها براحتيها وقالت بعد لحظة :

- لا ياسالم . أنت لم تقل شيئا . تمنيت أن تقول شيئا !

سألها في حيرة : ماذا أقول ؟

فابتسمت ابتسامة صغيرة وهي تقول : حدثني ماذا يقول جدك عن الأرواح ؟

- يقول كل الأرواح جميلة وكلها طيبة .

- وهل قال لك ياسالم ما الذي ينقذ هذه الأرواح ؟

- نعم . قال الحب .

النهـــاية

تنويـــه

رجعت أثناء كتابة هذه الرواية إلى بعض الدراسات والكتب الصوفية . وأخص بالذكر - بين كتب أخرى - «المواقف والمخاطبات للنفرى» ، وكتاب «الكنز فى المسائل الصوفية» للاستاذ صلاح الدين التجانى .

بهاء طاهر

رقم الايداع : ١٨٨٩٥ / ٢٠٠٠
I - S - B - N
977 - 07 - 0749 - X

روايات الهلال

بهاء طاهر



نقطة النور

الإهداء

فى ذكرى مولد الكاتب والإنسان الكبير
يحيى حقى .. رحمه الله
أتنسم عطر الأحباب !

بهاء طاهر
٧ يناير ٢٠٠١

الغلاف رسم
وتصميم الفنان :
محمد أبو طالب

قال أستاذنا الحكيم :

- الناس أجناس والنفوس لباس ، ومن تلبّس نفسا من غير جنسه وقع في الالتباس.

فسألناه :

- يا معلمنا ، فهل النفس قناع نرتديه إن أحببناه وإن كرهنا نبذناه ؟

فرد مؤنبا :

- أو لم أقل لكم من تقنّع هلك ؟

قلنا :

- فمن ينجو يا معلمنا ؟

أطرق متأملا ثم رفع رأسه يجول فينا ببصره وقال فى بطء :

- يا أبنائى وأحبائى، أفنيت العمر فى البحث والترحال، فما عرفت إلا أن الجواب هو السؤال.

القسم الأول

سالم

(١)

عاش سالم منذ طفولته في رعاية جده الباشكاتب.

لم يكن يعرف وهو صغير معنى هذا اللقب ولا تلك الوظيفة . لكنه كان يسمع أباه يرد على استفسارات بعض الجيران بعبارة «سا سأل الوالد حضرة الباشكاتب»، ففهم أنها وظيفة مهمة .

وعى سالم على الدنيا وجده على المعاش. كانت للجد أحسن غرفة في البيت، تطل على البحري وتفتح على الشرفة الواسعة المعروفة في البيت باسم (التراسينة)، والتي تعلو قاعدتها المكونة من اسطوانات حجرية صغيرة متجاورة، شبابيك خشبية مشغولة مثل الشربيات، تكسر حدة الشمس في النهار وتفتح على مصاريعها للهواء في المساء. واعتاد الباشكاتب أن يقضي وقتا طويلا في هذه الشرفة كل ليلة قبل أن ينام ، يجلس على مقعد أمام نافذة مفتوحة ويتابع ما يحدث في الشارع المزدحم بالقادمين من ميدان السيدة زينب والمتجهين إليه، يحمل النسيم إليه في موسم الزهر عطر شجيرة «التمر حنة» المزروعة في الممر الصغير أسفل البيت.

أما غرفة الباشكاتب نفسها فكانت تضم سريره النحاسي الكبير بأعمدته الأربعة المعلقة فيها الناموسية، والمكتب ذا الأدراج العديدة المغلقة باستمرار، والذي تعلوه أكوام من الكتب المجلدة في ناحية، وفي الناحية الأخرى ملفات قديمة باهتة الخضرة ومصفرة الأطراف.

وعندما كبر سالم قليلا عرف أن الشقة التي يقيمون فيها هي شقة جده، وأنه هو أيضا مالك البيت الذي يضم ست شقق مؤجرة. كان بيتا من أربعة طوابق

بناه الحاج السعدي والد الباشكاتب في مطلع القرن . تشغل الأسرة طابقه الثالث وتسكن الشقق الأخرى المؤجرة منذ بناء البيت أسر من أصحاب المحلات القريبة ورث أبناؤهم مهنهم ومساكنهم وهم نجار ومنجد وعطار وكهربائي وتاجر أحذية . كان الباشكاتب هو الموظف الوحيد من سكان البيت . وكانوا جميعا يحترمونه ويحبونه .

لا يعرف سالم لون البيت أو طلاءه الخارجي الأصلي. فقد وعي عليه بلونه الحائل الجامع بين الرمادي والبني، والذي يشبه لون المساجد والتكايا والأسبلة الأثرية المنتشرة في الحي . ولكن من الواضح أن الجد الأكبر اعتنى بزخرفة بيته عندما بناه . فإلى جوار الشرفتين الحجريتين في كل طابق . كانت هناك شرفتان أصغر، إفريزهما من حديد مشغول على شكل أفرع كروم مقوسة تتدلى منها عناقيد عنب، وتتوسط الشرفات بامتداد طول العمارة من ناحيتين متقابلتين زخرفة منقوشة في الحجر كضفائر مجدولة تحتل فراغاتها زهور حجرية مدورة الأوراق.

وكان هناك أيضا سور حديدي واطئ، يحيط بمدخل البيت ويحتضن الممر الصغير الذي يسميه بعض السكان (الجنينة) لأنه يضم إلى جانب شجيرة التمر حنة اثنتين من شجيرات (الفيكس) ذات الأوراق اللامعة المفلطحة المسماة (ودن الفيل)، والمزروعة في كثير من بيوت الحي . غير أن أبوزيد بواب العمارة العجوز لم يعد يستطيع العناية بهاتين الشجرتين كما كان يفعل من قبل . أصبح في شيخوخته شبه مقيم في غرفته الموجودة أسفل السلم وأهمل الري المنتظم ، فاصفرت بعض الأوراق وتهدلت، ولكن الأشجار ظلت سليمة في مجملها تهيئ للبيت مدخلا زاهي الخضرة.

كانت تلك هي واجهة العمارة التي تطل على الشارع الرئيسي المتفرع من ميدان السيدة زينب . أما جانب البيت المطل على ناصية الحارة والجانب الآخر فتشغلهما نوافذ خشبية مستطيلة متوازية .

ولد سالم في ذلك البيت وعاش هو وأخته الأكبر فوزية ووالدهما شعبان الذي ظل يقيم مع أبيه الباشكاتب بعد زواجه وإنجابه . ولا يذكر سالم أمه التي ماتت بعد مولده بسنتين، ولكنه رآها في الصور جميلة جدا، مثل أخته فوزية، لها وجه مستدير وشعر كستنائي غزير يسترسل بعيدا وراء الكتفين ، وعينان ملونتان كزيتونتين لامعتين ورثهما هو وأخته .

واعتاد الباشكاتب توفيق أن يصحب معه حفيده منذ الصغر لكي يصليا الجمعة في مسجد السيدة زينب، وعلمه من وقتها أشياء : أن يذهبا إلى المسجد من طريق وأن يرجعا من طريق آخر لأن هذا يزيد الثواب ، وأن يشتريا أشياء صغيرة بعد الصلاة ، ليمونا أو بعض الفاكهة أو البخور . وكانت فوزية تحتج أحيانا وتقول إن البيت أصبح مكدسا بالليمون والبخور . فيرد الباشكاتب مبتسما وهو يربت على خدها : اهدي الزيادة للجيران . ثم يشير بإصبعه للسماء، وهو يقو[illegible] شراء بعد صلاة الجمعة ثوابه هناك .

كان الباشكاتب يحب حفيدته كثيرا . هي الوحيدة المسموح لها بأن تنظف غرفته حتى في حالة وجود شغالة في البيت ، ترتب الملفات القديمة والكتب التي تعلو المكتب وتنفض التراب، ولكن لم يكن من حقها أن تغير ترتيب هذه الملفات أو أن تفتح الأدراج التي يحتفظ هو وحده بمفاتيحها.

واعتاد أيضا أن يدخل معها المطبخ ، يعطيها نصائح ويذوق الطعام، يقترح زيادة الملح أو الاكتفاء عند هذا الحد في تحمير البصل، ويردد أشعارا وأمثالاً عن معظم أنواع الطعام . ففي يوم طبخ القلقاس يضع يده على صدره ويردد «إذا سألوك عن قلبي فقل قاسي وقل قاسي» وعندما تطبخ فوزية الرجلة الخضراء يتظاهر بأنه يعرج وهو يقول «العاقل لا يأكل رجله». أما في يوم الملوخية التي

كان يحبها كثيرا فكان يفرد يديه على اتساعهما ويقول بلهجة فخمة «طعام الملوك يا ملوكية». وكانت عنده عبارات كثيرة من هذا النوع تجعل فوزية وسالم يضحكان دائما ، مع أن العبارات ، والحركات أيضا ، لم تكن تتغير في أغلب الأحيان.

ولكن كانت هناك أشياء اختص بها الباشكاتب حفيده منذ الصغر ولا تشارك فيها أخته ، كانا يجلسان معا فوق السطح ويتسامران، في الشمس شتاء وفي الأمسيات صيفا . يكلف الجد حفيده بشراء كميات كبيرة من الترمس توضع بينهما في طبق، ويعصر الباشكاتب عليها كثيرا من الليمون قائلا لحفيده فيما يشبه الأمر «كل .. هذا ينقي الدم» ثم يكمل بضحكته الطلقة «لكي لا يصفر وجهك مثل أبيك!».

في يوم الخميس وحده من كل أسبوع تنقطع هذه الجلسات ، إذ يخرج الباشكاتب قبل الظهر ويرجع متأخرا في الليل. يرتدي في الغالب (جاكتة) واسعة قديمة من الكتان الأبيض، لكنها نظيفة ومكوية باستمرار ويضع فوقها – في الشتاء فقط – عباءة من الصوف البني . ولم يكن أحد في الأسرة يعرف أين يذهب .

وكان خروجه – باستثناء ذلك – نادرا في الليل، حين يذهب في أمسيات متباعدة وغالبا في المواسم الدينية، إلى حلقات الذكر.

وحافظ الباشكاتب على عادات ورثها عن المرحوم والده. فكان هناك قارئ ضرير يأتي صباح كل يوم جمعة ليرتل آيات من القرآن الكريم متربعا على (كنبة) في الصالة الواسعة، بينما تطوف فوزية بالبخور في حجرات البيت الخمس. وواصل لسنوات طويلة التقليد الذي استنه الحاج السعدي بتفريق ذبيحة في المولد النبوي الشريف واستضافة منشدين يرتلون بردة البوصيري فوق سطح البيت مع دعوة الجيران والأصدقاء، إلى الوليمة والاستماع للبردة .

ولكن بعد إحـالة الباشـكاتب إلى المعاش لم تعد امكانياته تسمح بذلك، فاكتفى في هذه المناسبة وغيرها باستئجار عدد محدود من القارئين يختمون المصحف بتناوب قراءة أرباع أجزاء القرآن الكريم فوق السطح أو في صالة البيت الكبيرة . وكان يحضر هذه (الربعة) ويتطوع بالمشاركة فيها من شاء من الجيران . وفي ذلك اليوم كان سالم يتوجه مع أبوزيد البواب محملين بالأرغفة المحشوة بالفول النابت لتوزيعها على المتسولين والمحتاجين المتحلقين حول مسجد أم العواجز.

(٣)

في جلسات السطح شبه اليومية استمع سالم منذ صغره إلى كثير من قصص جده وذكرياته . وكان كثير من هذه القصص يدور حول معلمه وصديق شبابه، الباشمحضر السيد السنانيري، الذي غلب عليه لقب «أبوخطوة». وكان الباشكاتب المحب للضحك والمرح يشهدج صوته وتغيم عيناه عندما يتحدث عن صديقه، الذي لم يكن في العادة يذكره أمام أحد رغم أنه لا يغيب عن باله، ولكنه لسبب ما اعتاد أن يحكي عنه لسالم منذ طفولته. ففي الوقت الذي كان فيه الجد كاتبا حديث التعيين في محكمة (أسيوط) في مطلع العشرينات من القرن العشرين - سمع عن الكثير من كرامات هذا الرجل المبارك ، بل وشاهد بعضها . لكنه لم يشهد بالطبع الكرامة الرئيسية التي أعطته لقبه : أي أن السنانيري قد شوهد في وقت واحد ذات يوم وهو يؤدي صلاة العصر في مسجد سيدنا الحسين في القاهرة ويمشي متمهلا في سوق أسيوط يصافح أصدقاء ويتحدث إلى غيرهم . أقسم على ذلك أناس صالحون لا يرقى إلى شهادتهم أي شك : رآه بعضهم في العاصمة وكلمه البعض الآخر في أسيوط وجزموا بأن ذلك كان في الساعة الرابعة .

سأل سالم - الذي كان وقتها في التاسعة من عمره - في شيء من الانبهار والحيرة: كيف يمكن أن يحدث ذلك يا جدي؟

فرد جده في خشوع : يمكن يا ولدي، يمكن لمن صفت نفسه وتطهرت روحه أن يفعل ذلك وأكثر منه بأمر ربه .

قال سالم وحيرته تزداد : ولكن كيف يصبح شخصين في الوقت نفسه ، واحد في أسيوط وواحد في القاهرة ؟

انفعل الباشكاتب قليلا وهو يقول : وإذن فما الفرق بين أبو خطوة وبقية الناس؟ أنت الآن طفل ولكن عندما تكبر ستفهم .

سكت سالم ولكن جده شرد لحظة واستغرق في التفكير ثم قال في شيء من التردد : معك حق مع ذلك . لا يمكن أن يصبح شخصين. المقصود بالطبع أنه قطع المسافة من أسيوط للقاهرة في خطوة وصلى هناك ثم خطف رجله عائدا إلى أسيوط في وقت صلاة العصر أيضا.

وبعد ذلك ضم الباشكاتب حفيده إليه وقال بشيء من الفخر : كيف انتبهت إلى هذا في مثل سنك؟ أنا نفسي لم أفكر في المسألة أبدا بهذه الطريقة. بالعقل طبعا لابد يكون قد ذهب ورجع. أنت ذكي ولك مستقبل كبير يا ولدي مادمت تستخدم عقلك .

فرح سالم لذلك كثيرا . ولكن الباشكاتب أصبح بعدها حريصا على ألا يحير حفيده الطفل بالحديث عن الكرامات الكبرى المشهودة التي لا يستوعبها عقله. لم يحك مثلا قصة إيقاف القطار المتحرك من أسيوط إلى القاهرة الذى كان يقل قاضيا أراد إيذاء أبو خطوة، وأهم من ذلك أنه عرف أن الوقت لم يحن بعد ليحدث حفيده عما يخصهما معا من قصص أبوخطوة، فاقتصر في تلك الفترة على حكايات صغيرة كانت تعجب سالم ويضحك لها في كل مرة. منها عندما طلب أحد المحضرين فنجانا من القهوة في مكتبه والباشمحضر في طرف القاعة الآخر وكلاهما مستغرق في عمله، إذ أخذ المحضر رشفة من القهوة ولكن لما مد يده ليأخذ الرشفة الثانية لم يجد الفنجان أمامه . وفي طرف القاعة البعيد كان أبوخطوة يقول متذمرا والفنجان في يده «قهوتك مسكرة أكثر من اللازم يا أخينا!».

ومنها أيضا حكاية وكيل النيابة المتغطرس الذى (شخط) مرة في أبوخطوة وحين خرج من عنده اكتشف بعد فترة أنه يسير في أروقة المحكمة حافي القدمين، فرجع إلى أبوخطوة يقبل رأسه ويستسمحه.

وكان سالم يستمتع بهذه الحكايات، ويستاء كثيرا عندما ينتقل جده منها ليمتحنه في دروس المحفوظات والقواعد.

لم يكن الباشكاتب قد رأى هذه الوقائع بعينيه، ولكنه رأى ما هو أهم منها، كما أن الكرامات لم تكن هي التي بهرته في شبابه، بل الرجل. عجز عن أن يفهم لماذا اصطفاه هو من بين الكثير من محبيه من موظفي المحكمة . علّمه وهو موظف جديد كل تفاصيل العمل وأسراره. وفي أوقات الفراغ من العمل كان يحب أن يصحبه ويتحاور معه. ولم يكن الستانيري يتخذ سمت الأولياء المسبلي العيون الذين يتحدثون همسا ويكثرون في أحاديثهم من الوعظ والإرشاد، بل كان رجلا بشوشا يحب أن يضحك وأن يمازح من حوله . ومع ذلك ظلت هناك هيبة تحيط به، هيبة لم تصنعها قصص الكرامات التي تروى عنه وإنما شيء غير محدد في عينيه وفي حضوره.

وعندما منح توفيق محبته وثقته شعر الكاتب الجديد بأنه يخدع الباشمحضر عن حقيقة نفسه، وصمم ذات يوم على أن يبوح له بالحقيقة. قال له إنه كابن وحيد لوالده الثري نشأ مدللا يجرى في يده المال فلم يبخل على نفسه بأي لذة من اللذات. واعترف لأبوخطوة بأنه حتى بعد أن بدأ العمل في الوظيفة وانتهت سنوات الفراغ والطيش لم يستطع أن يكبح نفسه.

ظل جسده الفتي أقوى دائما من عزمه. قال للرجل الصالح لا تنخدع بمظهري فأنا لست أهلا لصحبة الأتقياء .

استمع أبوخطوة إلى اعترافاته في هدوء كأنه قد سمع هذا الكلام من قبل وقال:

- ولكنك تندم على ما تفعل يا توفيق أفندي، أليس كذلك ؟

فرد فى أسف :

- بلى .. أندم ثم أعود كما كنت .

- الندم باب الحياء، والحياء باب التوبة .

- ولكني قلت لك يا مولانا إنني أندم ثم أعود !

- لا . أنت لا تعود لأن الزمن لا يعود . أنت لا ترجع إلى ما ندمت عليه لأنه انتهى ولن يرجع .

- إذن فأنا أرجع إلى ذنب جديد . فما الفرق ؟ وما فائدة الندم ؟ قل لي كيف أجد الطريق.

سكت السنانيري لحظة وبدا أنه يفكر قبل أن يقول :

- أراك تبتسم يا توفيق أفندي وأنت تعمل . أرى زملاءك يحبونك والناس الذين يأتون للعمل يحبونك. أراك لا تفرق في قضاء مصالح الناس بين الفقير والغني، بل أراك تنجز مصالح الضعيف قبل القوى . كنت أضحك في سرى وأنا أراك تفتح ملفات الدعاوى التي يقدمها لك أصحاب القضايا لرفع قضاياهم فتقول لهم إنهم نسوا بداخلها نقودا ثم تردها إليهم. لم يخطر ببالك حتى أن هذه رشاوى وأنهم يدهشون لأنك تردها ثم تقضى لهم مصالحهم بعد ذلك .

- وما علاقة ذلك بما نحن فيه ؟ قلت لك إنني أنتقل من ذنب إلى ذنب!

- فكر معي . إن أنت أحببت وتعذبت في الحب وصبرت طويلا على ذلك العذاب ثم فزت بعد ذلك بمن تحبها، ألا يكون شعورك بهذا الفوز أكبر مما لو نلت الوصال بسرعة ؟

- لا أفهمك تماما يا مولانا وأرجوك أن تحدثني عن التوبة لا عن الحب. فأنا لم يشقني ويضيعني غير هذا الحب!

قال أبوخطوة وكأنه يؤنبه :

- أخطأت هنا يا توفيق . الحب يقرب ولا يبعد.

- ولكن متى ؟

- سيأتى الوقت . ولكن تعلم يا ولدى ألا تطلب من الوقت إلا ما يأذن به ربك ورب الوقت.

عشرات السنين مرت على ذلك الحوار ومازال توفيق ينتظر الوعد.

ومع ذلك فليعترف بأن الحب أنقذه طويلا . وبأن الحياة بعد زواجه من سمية لم تكن تشبه ما قبلها .

* * *

اهتم الباشكاتب اهتماما كبيرا بدراسة حفيده سالم الذى تنبأ له بمستقبل باهر وظل يساعده ويراجع معه المواد التي يعرفها منذ المرحلة الابتدائية وحتى شهادة الثانوية التي وصل سالم إلى سنتها الأخيرة في عام ١٩٧٥. كان الباشكاتب الحاصل على شهادة «الكفاءة» القديمة متضلعا فى اللغة العربية، يعرف جيدا التاريخ والجغرافيا، ولم يبخل على حفيده بمدرسين في اللغة الإنجليزية رغم إلمامه بها بحكم دراسته ولعمله فترة أثناء توظفه في إحدى المحاكم المختلطة التي كانت تستخدم الإنجليزية والفرنسية. وكان يغضب إذا ما رآه يهمل فى الاستذكار ويحذره : لو اهتم أبوك بمذاكرته لكان فى حال غير الحال.

وكان سالم يعرف أن أباه لم يتقدم فى التعليم بعد السنة الأولى الثانوية من النظام القديم فاضطر الجد أن يوجهه للتجارة، وساعده فى إعادة فتح «محل السعدى لتجارة الأقمشة والمانيفاتورة» بالقرب من شارع السد المجاور للبيت والمزدحم بمحلات الأقمشة ولكن تجارة شعبان السعدى لم تزدهر مثل تجارة جده . كان المحل يدر دخلا معقولاً في أوقات حصص التموين التي يروج فيها البيع وأثناء مولد الست الطاهرة الذى تكثر فيه الرجل فى الحى، ولكنه كان يغطى

مصاريفه بصعوبة فيما عدا ذلك. وظل الباشكاتب رغم هذا يشجع ابنه ويساعده بالأموال ولم يفقد الأمل في أن المحل سيأتي من ورائه خير كثير ذات يوم. عوّل على عودة بركة الوالد وأيامه القديمة، وسافر مرة إلى أسيوط ملتمسا نصيحة السنانيري ودعاءه لولده . وكانت هي آخر مرة رأى فيها أبوخطوة قبل أن ينتقل إلى رحمة الله.

ولم يكن سالم يتبادلْ كثيرا من الحديث مع والده أو يقضي معه وقتا كالذي يقضيه مع جده. كان شعبان مختفيا من البيت معظم الوقت وشبه مقيم في محل الأقمشة . وبعد وفاة زوجته المبكرة ترك شئون البيت وتربية ابنه وابنته لجدهما . ومع ذلك فإن شعبان كان صارما مع ابنه في شيء واحد هو منعه منعا باتا من اللعب في الحارة التي يقع البيت على ناصيتها. ضربه ضربا قاسيا ذات يوم عندما رآه يلعب الكرة مع الأطفال هناك . قال له : «هل هؤلاء العيال من مستوانا؟» .

عرك أذن سالم وحذره من العودة إلى اللعب مع هؤلاء الأولاد، وحذره أيضا بصفة خاصة من أن يحتضنه أحد أو يلمس مؤخرته سواء في الحارة أو الشارع أو المدرسة قائلا بشيء من الغضب عبارة لم يفهمها سالم في وقتها «أنت جميل كالبنات فحاسب على نفسك».

ولم يأسف سالم كثيرا لامتناعه عن اللعب في الحارة . كان يحب لعب الكرة ولكنه يتضايق من مشاجرات الأولاد وسبابهم الفاحش للأب والأم أثناء الشجار . وكانوا هم يسخرون منه وراء ظهره ويتندرون على أدبه وإن لم يجرؤوا على إيذائه بسبب مكانة جده في الحي، ولسبب آخر أهم وهو أن سالم منذ صغره كان طويلا وعريضا بالنسبة لسنه وكانوا يحتاجون إليه دائما كحارس مرمى لفريق الحارة لاسيما عند اللعب مع فرق الحارات الأخرى. ثم أنه عندما تشاجر معه ولد مشاغب ذات مرة وجرب قبضته القوية لم يفكر هو أو غيره في إعادة المحاولة .

وكان سالم بطبعه يكره الشجار والعنف بالحركات أو الكلام . لهذا استجاب لأمر والده.

وهكذا فقد شب دون أن يكون له أصدقاء من سنه، سواء من جيرانه أو من زملاء دراسته. ظلت صديقته الوحيدة الحقيقية القريبة من قلبه هي أخته فوزية. فمع أنها لم تكن تكبره إلا بأربع سنوات . إلا أنها حتى وهي طفلة في الثامنة من عمرها كانت تعامله كأم بعد وفاة والدتهما . اعتادت أن تطعمه بيدها وأن تغير له ثيابه وتأخذه إلى الحمام . وعندما بدأ يذهب إلى المدرسة كانت تصحبه حتى بابها قبل أن تذهب هي إلى مدرستها، أما في العودة فكان أبوه أو جده هما اللذان يصطحبانه إلى أن تعلم العودة بمفرده. وبمجرد رجوع فوزية من المدرسة كانت تعد له ولجدها الغداء. وتلعب معه ألعابهما المفضلة التي علمته إياها : «الكوتشينة» «والسلم والثعبان» وأحيانا «الاستغماية». وكانت تسأله عما حدث في المدرسة في يومه فيحكي لها وتراجع بنفسها كراريس واجباته قبل أن يتولى جده هذه المسئولية. نادرا ما دبت بينهما المشاجرات الصغيرة المألوفة بين الاخوة، ولم يحدث أبدا أن اشتكى أحدهما من الآخر إلى والدهما أو جدهما . بل كانا يبكيان معا في خلوة إذا ما تعرض أحدهما لأي عقاب.

وعندما بلغت فوزية سن الخامسة عشرة اضطرت إلى أن تتفرغ تماما للبيت . كانت قد أصبحت امرأة حقيقية طويلة، ذات قوام ناضج كامل الاستدارة، ووجه صبوح تنيره عيناها الزيتونيتان ويحيطه كأمها شعر كستنائي ناعم ومسترسل. وبدأت المشاكل عندما سُمع في البيت أن شبانا يلاحقونها ويعاكسونها منذ خروجها من باب المدرسة، وجرؤ أحدهم ذات مرة أن يتتبعها حتى باب البيت، وكان من سوء حظه أن رآه سالم من الشرفة فهبط بسرعة البرق وفي يده عصا جده الثقيلة وانهال بها ضربا على العاشق الذي اضطر إلى الهرب جرياً . وسالم

الصبي يلاحقه حتى اختفى عن الأنظار . وبعد تلك الحادثة أمر والدها بأن تبقى فوزية في البيت، لم تكن قد أنهت السنة الثانية الثانوية فاعترض جدها قائلاً : انتظر يا شعبان على الأقل حتى تحصل على الشهادة، فرد شعبان : البنت مصيرها للزواج يا والدي، قال والده: ولكن الشهادة سلاح في يدها، فقال شعبان: لن أزوجها لشخص تحتاج معه إلى أي سلاح. ثم أضاف فيما يشبه الضراعة : لا تنقصنا المشاكل يا حضرة الباشكاتب ، البنت يتيمة وفي سن خطرة.

رأى الجد أنه لا يستطيع المجادلة في قرار يصر عليه الأب . أما فوزية نفسها فلم تهتم قالت باستهانة «ومن التي تبكي على (العلام) ؟ . البيت أحسن ألف مرة!».

كانت تعي تماما أنها جميلة وأن الزواج لن يتأخر .

فمنذ وقت كانت تبادل جارها (فراج) الطالب الحب والمواعيد دون أن يشعر بذلك أحد في الأسرة، بدأت المعرفة من شباك المطبخ الذي يطل على منزل فراج في الحارة ، وكانت تنتظر معه أن ينتهي من الدراسة في الجامعة ليتم الزواج .

***

وفي تلك الفترة عندما كان سالم في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره حدث شيء غير متوقع .

قبلها لم يكن سالم يثير أي مشكلة في البيت. كان طفلا عاديا ، محبوبا في أسرته، ناجحا في مدرسته ، صديقا مقربا لجده ولأخته ، وإن ظل صموتا معظم الوقت ما لم يكلمه أحد. غير أن تلك لم تكن مشكلة، بل اعتبرها جده ميزة وأسماه «عبادة بن الصامت» تيمناً بالصحابي الجليل . ولم يكن أحد في البيت يعرف من هو عبادة، ولكنهم كانوا يضحكون عندما يطلق اللقب على سالم المنزوي في صمته الطويل ، بل كان سالم نفسه يشترك أحياناً في الضحك .

حدثت المشكلة الحقيقية ذات مساء شتوي ، والأسرة كلها مجتمعة في البيت بعد العشاء في الصالة. وقف سالم بعيدا عنهم بجوار حائط وكان يهتز اليمين واليسار بحركة بسيطة منتظمة ويداه خلف ظهره وكأنه يلعب وحيداً ثم فجأة انطلق يقول بصوت مرتفع «يا غجر ! .. يا لمامة !».

التفتوا نحوه في ذهول وكان هو يصوب نحو جده وأبيه وأخته نظرة ثابتة لا يطرف له فيها جفن . وبعد تلك البداية أكمل بنفس الصوت المرتفع والنظرة المركزة أنهم «حوش وتربية حواري وأولاد ستين» ثم راح يسهب في شتائم جنسية بذيئة لا تخطر على بال أحد في هذه الأسرة .

ظلوا ينظرون نحوه مبهوتين وهم لا يصدقون آذانهم، وعندما بدأت الشتائم الجنسية أفلتت من فوزية ضحكة عالية بالرغم منها فنظر لها أبوها نظرة قاسية ثم نهض في الحال وانهال على ابنه بالضربات واللكمات وهو يأمره أن يخرس فلم يفلح في إيقاف سيل الشتائم المتدفق. ثم سد فمه بيده بينما راح سالم يتملص منه وتنطلق من فمه أنصاف الشتائم كلما استطاع الإفلات من قبضة أبيه .

قامت فوزية أيضا وكانت تحاول أحيانا أن تنقذ أخاها من الضرب وتتلقاه على جسمها بدلا منه ، وأحيانا أخرى تشارك في ضربه عندما تجد أن بذاءته قد زادت على الحد، ولكن شيئا لم ينفع في إيقافه لا الضرب من أبيه ولا الملاينة من أخته إلى أن هدأ أخيرا من تلقاء نفسه وجلس على الأرض وهو يلهث.

كان أبوه وأخته يقفان فوق رأسه ، وظل شعبان ينظر له في غضب هائل ثم قال بعد فترة :

- من علمك هذا الكلام القذر يا ولد؟

فقال سالم بصوت مجهد ودهشة شديدة:

- أنا يا أبي ؟ أي كلام قذر ؟

وبدا واضحاً أنه لا يذكر أي شيء مما حدث .

وطوال هذا الوقت ظل الجد جالساً في مكانه وهو يكرر بصوت متهدج «سلام قولا من رب رحيم .. سلام قولا من رب رحيم» يعلو صوته وينخفض مع إيقاعات عبارات حفيده .

تجاهلت الأسرة ما حدث بعد ذلك ولم يتطرق إليه أحد. ظل جده يراجع له دروسه ويصاحبه إلى صلاة الجمعة كالمعتاد . ويرّقيه بين الحين والآخر وهو يضع يده على رأسه ويتلو المعوذتين ثم إنه علق حجاباً قديماً في صدره ونصحه بشدة ألا ينزعه من مكانه . وعندما كانت فوزية تطوف بالمبخرة في البيت صباح الجمعة كانت تبطئ، بشكل خاص وهي تديرها حول رأسه وتدعو له في سرها. ولكن هذه النوبة من الهذيان تكررت بعد شهرين أو ثلاثة بالطريقة السابقة نفسها.

كانت الأسرة مجتمعة بعد العشاء في الصالة ودار حديث عابر عن أن تاجرا ثريا في السوق تقدم إلى شعبان يطلب يد فوزية فرد عليه شعبان بما يعرفه وما أكدته فوزية أكثر من مرة وهو أنها لن تفكر في الزواج قبل أن ينتهي سالم من الثانوية العامة، وقال الجد ضاحكا: وكنت تستطيع أن ترد عليه بأنك يمكن أن تدخل السجن لو زوجت فوزية قبل بلوغها السن القانونية: فقال شعبان: لا يمنع هذا من عقد الخطوبة إلى أن تبلغ السن: لوحت فوزية بيدها وقالت مجارية ضحكات جدها: لا سجن ولا خطوبة ولا زواج قبل أن أزوجكم أنتم الثلاثة .. !! لابد أن أطمئن عليكم جميعا أولا في بيت العدل! ثم أكملت بلهجة جادة وحاسمة: ليس قبل أن أطمئن على سالم في الجامعة . وبعد أحاديث أخرى عابرة قاموا جميعا لمشاهدة المسلسل الكوميدي في التليفزيون الذي اشتراه الجد حديثا وعلت ضحكاتهم، لكن سالم انتبذهم وذهب إلى جوار الحائط وبدأ اهتزازه الطفيف المنتظم ثم بدأ سيل الشتائم من جديد. بعد تلك المرة أصر أبوه على أن يصحبه

إلى طبيب نفسي رغم أن الجد لم يتحمس أبدا لهذه الفكرة. كان يرى أن هذه مشكلة عابرة ستنتهي مع الوقت ومع الدعاء الصادق بأن يكشف الله عن سالم الكرب. لكن شعبان أصر على رأيه .

كان الطبيب النفسي الذي سمع عن مهارته عجوزا يبدو على وجهه الإرهاق وتعبير لفت نظر شعبان، كأنه نفاد الصبر أو الاستعداد للانفجار في أي لحظة، لكن على العكس مما تصوره فقد قضى الطبيب وقتا طويلا مع الأب على انفرد واهتم بأن يسمع وبأن يعرف أوضاع الأسرة والطريقة التي يقضي بها سالم وقته ثم سأل عن حاله في الدراسة .

قال الأب إن سالم تلميذ عادي لم يرسب في أي سنة وإن لم يكن أبدا من الأوائل. غير أن مدرس الحساب يقول إنه متفوق في مادته، وهو يحصل بالفعل على درجات مرتفعة، بل على الدرجات النهائية في بعض الأحيان، ويتنبأ له مدرسه بمستقبل كبير في علوم الرياضة .

وفي اللغات ؟

لا .. درجاته عادية .

سأل الطبيب إن كان مستواه الدراسي قد تأثر بعد هذه النوبات فقال شعبان إن جده الذي يشرف على دراسته، لم يلاحظ أن مستواه تغير. كما أنهم لم يتلقوا أي شكوى من المدرسة.

سأله أيضا إن كان قد لاحظ عليه أي شيء غير عادي قبل هذه النوبات أو بعدها. هل تصيبه حالة من التشنج مثلا أو الإغماء ؟

لم يلاحظ شيئا من ذلك ولكن أخته تقول إنه تأتيه أحلام وكوابيس في الليل .

ابتسم الطبيب : أخته تقول وجده يذاكر له. أنا أسألك أنت!

هو . لم يستطع أن يضيف شيئا غير أنه قال إن عيني سالم كانتا تغيمان أثناء النوبة . ويبدو أنه لا يشعر بأى شىء حوله وحين تنتهي يبدو عليه إرهاق شديد ولا يذكر شيئا مما حدث .

ولكنه تذكر شيئا فقال إن سالم ظل يبول في فراشه حتى سن السادسة أو السابعة.

أشاح الطبيب بيده قائلا: عادي! ألم تقل إنه فقد أمه فى الثالثة من عمره؟

فحص الطبيب العجوز سالم بعد ذلك بدقة . أجرى عليه كشفا بالأجهزة ووجه إليه أسئلة وأعطاه ألعابا مفككة من الكرتون ليعيد تركيبها وعرض عليه صورا غريبة الأشكال طلب منه أن يحدثه عما يراه فيها .

وأخيراً اختلى الطبيب بالأب مرة أخرى وعاد يسأله فيما يشبه التأنيب : ما هي المشكلة ؟

شرح الأب من جديد حكاية النوبتين اللتين أصابتا سالم والشتائم التي يطلقها .

قال الطبيب وهو يحول وجهه المحتقن عن الأب والله أنا شخصيا أفعل ذلك في سرى طوال اليوم وليتني أبوح بهذه الشتائم مثل إبنك. ما أكثر من يستحقونها !

اشتدت دهشة الأب وبدا ذلك في نظرته فعاجله الطبيب فى حسم :

– الولد طفل عادى فاتركوه فى حاله !

قال شعبان محتجا :

– ولكن يا دكتور الأطفال العاديون لا يشتمون أباهم !

– بل كثيرا ما يشتمونهم في سرهم .

– أنا لم أشتم أبى فى سرى أبدا.

– أنت حر !

ثم غير الطبيب الموضوع: إسمع. كنت أستطيع أن أجعلك تذهب وتجيء إلى العيادة دون داع كما يفعل غيرى، ولكني فحصت الولد وأجده طفلا أذكى من المتوسط وأنت تقول إن مستواه في المدرسة لم يتغير. وسلوكه عادي باستثناء هذه الحالة التي لا تأتيه إلا في البيت ووسط أسرته فما هو الخطر ؟ هل تعرف ؟ عندما كنت أنا في سن إبنك كنت طفلا منطويا على نفسي وكانت تأتيني حالات نزيف من الأنف وإغماء انزعج لها أهلي ولم يستطع الأطباء علاجها ولكنها توقفت من تلقاء نفسها بعد سن المراهقة.

لم يستطع شعبان أن يفهم العلاقة بين نزيف أنف الطبيب الطفل وحالة ولده ولكنه قال وهو تخير كلماته ولكن ربما يمكن يا دكتور أن تتطور هذه الحالة وتأتيه خارج البيت أيضا .

قال الطبيب فى هدوء : يمكن جدا إذا استمرت حياته كما هي وكما فهمتها من كلامك. يجب أن يتنزه هذا الولد خارج البيت أكثر مما يفعل الآن.

ورغم إلحاح الأب فإنه لم يكتب دواء، ولم ينصح بأى علاج آخر.

لم يقتنع شعبان بتشخيص هذا الطبيب، وصحب سالم بعد أيام، وبعد أن استشار أكثر من شخص، إلى طبيب آخر مشهور عيادته في باب اللوق .

لم تختلف أسئلة هذا الطبيب ولا طريقته في الكشف عن الطبيب الأول إلا أنه كان أسرع منه في كل شيء، ولم يقل للأب أى عبارات مطمئنة بل طلب إجراء رسم مخ لسالم. كان يشك فى احتمال إصابة الطفل بالصرع.

ومع أن نتيجة هذا الرسم لم تكشف أى شيء غير عادى في مخ سالم، مما حير الطبيب إلى حد ما، فقد كتب (روشتة) طويلة فيها كثير من العقاقير، على أن يعود لرؤية الطبيب مرة أخرى بعد انتهائه من تعاطى الأدوية.

وبعد أيام قليلة من هذا العلاج أصبح سالم يقضي نهاره كله في الفراش وعندما يصحو كان يسير فى البيت مترنحا ويرتطم بالأثاث ويسقط أحيانا في الأرض. وانقطع بطبيعة الحال عن المدرسة.

بكت فوزية كثيرا وهي ترى سالم في هذه الحالة وقالت لجدها : دعوه يشتم كما يشاء يا جدي. لن يموت أحد من الشتيمة ولكن أخي سيموت من هذا العلاج! كلم أبي .

وبعد ظهر أحد الأيام دخل الجد إلى غرفة سالم فلم يجده هناك . بحث عنه في كل الغرف الأخرى وفي المطبخ والحمام دون جدوى، وأخيرا عاد الباشكاتب إلى غرفته هو وفتش جيدا فوجد سالم ينام على الأرض متكورا أسفل سرير جده، فحمله برفق إلى غرفته ووضعه على فراشه . شعر به سالم ففتح عينيه بصعوبة وقال لجده بصوت واهن : قل لي يا جدي ، هل أنا مجنون ؟

فانحنى جده وهو يحتضنه في صدره بقوة وقال بصوت مختنق :لا يا ولدي، بل نحن المجانين .

ثم إنه جمع كل العقاقير والأدوية التي اشتراها الأب وألقى بها في القمامة، وفعل شيئا نادرا ما يفعله إذ رفع صوته وقال لابنه في غضب : ابعد يا شعبان عن الولد واتركه في حاله .

احتج الأب باسم الطبيب المشهور وبالمبلغ الكبير الذي دفعوه في رسم الكشف والأدوية، وقال إن العلاج لم يثبت بعد حتى يحكموا على فائدته، لكن غضبة الجد اكتسحت كل الاعتراضات واضطر شعبان إلى أن يترك سالم في حاله بالفعل .

تعودوا بعدها على التزام الصمت وتحويل أنظارهم بعيدا عندما تنتابه تلك الحالة التي أدهشتهم، وأراحهم أيضا، أنها لا تأتيه خارج البيت . وكما تنبأ الجد فقد قلت تلك النوبات مع مر السنين وأصبحت نادرة الحدوث حتى أوشكت أن تختفي، ثم بدا للجميع بعد سن المراهقة أنها قد اختفت بالفعل.

(٣)

كان سالم في نهاية السنة الثانية الثانوية – قبل عام تقريبا من حصوله على الشهادة التي انتظرتها فوزية طويلا – عندما تقدم جارهم فراج ليطلب يد أخته .

استقبله رجال الأسرة الثلاثة في حجرة (الصالون) . وتذكر سالم أنه رآه عدة مرات في الطريق خارجا من الحارة أو داخلا إليها، وأنه كان في بعض الأحيان يرفع له يده بالتحية فيردها له سالم بالمثل ولكنهما لم يتبادلا أي كلام . جاء مرتديا قميصا أبيض جديدا وبنطلونا رماديا. وكان شابا وسيما ، طويلا ومفتول العضل، يحيط بوجهه الأسمر شعر غزير فاحم السواد يمشطه بفرق في جانبه . وكانت عيناه السوداوان تلمعان حين يركزهما على محدثه فينبض وجهه كله بالحيوية ، وترتسم على ملامحه ابتسامة طبيعية دائمة .

وبعد تناول الشراب وعبارات الترحيب والمجاملة قال فراج إنه جار لهم منذ مدة ويعرف الكثير عن سمعة أسرة حضرة الباشكاتب الطيبة والذائعة في الحي كله، وإنه يشرفه كثيرا أن ينتسب إلى هذه الأسرة الكريمة. كان يتكلم بلهجة شديدة التهذيب ولكن مع ثقة واضحة في النفس.

سأله شعبان – الذي استفزه أن يحضر فراج لطلب يد ابنته دون أن يكلف نفسه عناء ارتداء بذلة كاملة – سأله بشيء من الفتور لماذا لم يتشرفوا بمقابلة السيد الوالد في هذه المناسبة؟ فاعتذر بأن والديه المقيمين في القرية عجوزان لا يحتملان مشقة السفر ولكنهما سيحضران بالتأكيد إذا ما تمم الله بخير .

سأل شعبان ، باللهجة نفسها، عن اسم هذه القرية ومكانها ، لكن الباشكاتب قاطع استرسال هذا الاستجواب وخاطب فراج مع ضحكة صغيرة «اسألني أنا يا

ابنى عن مشقة السفر، حتى مشوار العتبة أصبحت أعتبره فى سنى هذه سفراً بعيداء . ودهش شعبان لأن هذا لم يكن صحيحا، إذ كان الباشكاتب يخرج ويمشى كثيرا كل يوم . ومضى الجد يسأل فراج باسماً عن نوع دراسته وعمله فقال إنه تخرج فى كلية التجارة قبل شهور وكان محظوظاً إذ عينته القوى العاملة فى شركة قطاع عام للمعادن فى حلوان، والعقبى للأخ سالم إن شاء الله !.

تدخل شعبان مرة أخرى ليسأل عن مرتبه فى هذه الشركة، وعندما سمع المبلغ أصابه الذهول وسأل : وكيف تنوى يا ابنى أن تفتح بيتاً بهذا المرتب؟ رد فراج بأنه والحمد لله مرتب كبير بالفعل يزيد عن مرتب زملائه الذين عينتهم القوى العاملة فى الحكومة، ثم إنه عندما كان فى الجامعة كان يدرس ويعيش بأقل من نصف هذا المبلغ، فكيف لا يكفى بأكمله الآن لاثنين؟

قال الأب : وعندما تنجب أولاداً بإذن الله؟

فرد الخاطب : سيكون المرتب قد زاد. قلت لحضرتك إن هذه الشركة جديدة ومستقبلها كبير. ستكون الترقيات فيها أسرع من غيرها، بل هناك يا عمى كلام عن احتمال سفرى فى بعثة إلى ألمانيا الشرقية، لأننا بعد أن انتصرنا فى حرب أكتوبر بحمد الله ستلتفت الحكومة أكثر إلى الاقتصاد وستركز على الصناعة بالذات. ولو فرجها ربنا بهذه البعثة إلى ألمانيا قريبا فسأتمكن من ادخار مبلغ للمهر والشبكة.

سأله الجد: وبمناسبة الحرب ماذا عن فترة تجنيدك؟

فقال فراج : أنا معفى لأنى وحيد والدىّ. ليس لى سوى أخت واحدة متزوجة فى البلد، ولكنى كنت أتمنى مع ذلك لو شاركت فى حرب أكتوبر.

إبتسم الجد قائلا : إذن ففى هذه الغرفة أربعة معفون من التجنيد للسبب نفسه!

لكن هذه المقاطعة من الباشكاتب للمرة الثانية لم تعجب شعبان الذى عاد يسأل :

- تعنى يا أستاذ فراج أن مبلغ المهر والشبكة غير جاهز؟

فرد ببساطة : بالطبع لا. من أين ؟ تعب والدى المزارع حتى دبر مصاريف تعليمى، والآن يجب ألا أطلب منه شيئا بعد أن توظفت، بل جاء دورى لأرد له الجميل .

مضى شعبان وهو لا يصدق نفسه : إذن فستساعد الأسرة فى البلد أيضا من مرتبك ؟

غاضت ابتسامة فراج لأول مرة وتصلب وجهه وهو يكرر : بالطبع ، يجب أن أرد لأبى وأمى الدين.

تدخل الباشكاتب مرة ثالثة فى الحوار : هكذا يتصرف أولاد الأصول. مبارك عليك برك بوالديك يا أستاذ فراج ولكن أين تنوى أن تسكن عندما تتزوج إن شاء الله ؟

- فى شقتى .

ارتفعت صيحة سالم حادة ورفيعة : فى الحارة ؟!

فنظر له جده نظرة صارمة. كان قد حذره قبل زيارة فراج من أن يفتح فمه بكلمة . قال له هذا موضوع يتكلم فيه الكبار فقط.

أحنى سالم رأسه على مضض وهو يكز على أسنانه لكن فراج رد وهو يعاود الابتسام:

- نعم يا أخ سالم ، فى البداية على الأقل، إلى أن تدخر مبلغا يكفى للسكن فى مكان أفضل. وسيحدث هذا صدقنى. ربما بعد البعثة مباشرة.

ثم اتسعت ابتسامته وأشرق وجهه مرة أخرى وقال : أنا يا حضرة الباشكاتب ويا عمى شعبان ويا أخ سالم إنسان متفائل وواثق من المستقبل بفضل الله. شاركونى فى التفاؤل وستكون ابنتكم فى عينى.

أوشك شعبان أن يقول لفراج إن التفاؤل في هذه الظروف يكاد يكون وقاحة، لكنه ضغط على نفسه وقال :

- ولكن لماذا لا تنتظر يا ابني حتى تكوّن مستقبلك قبل أن..

فاستمرت مقاطعات الباشكاتب لشعبان وقال مخاطبا فراج :

- أنا أيضا يا أستاذ فراج متفائل مثلك دائما، وأحب المتفائلين.

ثم أكمل بلهجة من يريد إنهاء المقابلة : وإذن فعلى خيرة الله. أترك لنا فرصة للتشاور ولكي نسأل ابنتنا عن رأيها وسيكون الرد خيراً بإذن الله.

ثم نهض وصافح الخاطب وسط نظرات الدهشة من الابن والحفيد . وبعد أن ودعوه عند الباب وانصرف انفجر شعبان مدمدماً :

- كيف وانته الجرأة؟ ماذا جرى لشبان هذه الأيام؟

غير أن الباشكاتب قال : تعال يا شعبان ، أريدك في كلمتين.

ودخلا من جديد حجرة الجلوس. أما سالم فقد توجه منفعلا إلى حجرة أخته التي كانت تجلس على السرير مستندة بمرفقها إلى الحاجز وتبدو مستغرقة في التفكير. وعندما فتح سالم الباب في عنف حدست على الفور ما يدور في رأسه فواجهته بابتسامة مغتصبة عندما قال :

- هل رأيت ؟.. جدي بدلاً من أن يطرده.

- لماذا تريد أن يطرده يا سالم ؟

- فلاح ومفلس ويسكن في الحارة ويحلم أن تسكني فيها معه . تصوري !

سكتت فوزية فاستحثها سالم وهو يشعر بالخوف : سترفضين بالطبع ؟

أحنت فوزية رأسها وقالت لست أنا التي تقبل أو ترفض يا سالم . الرأي لأبيك وجدك.

فصاح مستنكرا : ولكنك رفضت أكثر من مرة ولم تسمعي كلام أبيك أو جدك! فما معنى ..

ثم انخرط فجأة في البكاء .

قامت فوزية واحتضنت أخاها بشدة وراحت تقبله وهي تقول :

- أسكت الآن يا سالم . أرجوك انتظر ما سيقوله أبي.

وكان أبوها وقتها يردد كلاما مشابهاً في مواجهة الباشكاتب. يكاد يلومه لأنه لم يترك له الفرصة ليرفض هذا الخاطب على الفور. كانا يجلسان على مقعدين متقابلين ولكن الباشكاتب ظل محتفظا بهدوئه وهو يستمع إلى ابنه الثائر يكيل الشتائم للجار الوقح الذي تجرأ...

غير الباشكاتب مكانه وجلس على مقعد مجاور لولده وتكلم بصوت خفيض:

- نعم ، معك حق يا شعبان. أنا أيضا مثلك أتمنى مستقبلاً أفضل لفوزية. أعرف أن هذا الشاب لا يملك شيئا غير وسامته، وأعرف أن المسكن الذي يريد أن تعيش فيه فوزية معه لا يزيد على حجرتين صغيرتين .

- بالطبع لن تعيش فيه! لن أوافق أبدا .

ثم انتبه لشيء في حديث والده فاستدرك: ولكن كيف عرفت حضرتك أن منزله من حجرتين ؟

زاد صوت الجد خفوتا حتى كاد يهمس :

- فوزية هي التي قالت لي .

- وما أدراها هي ؟

-هي تدري .

- كيف ؟

سكت الجد وهو ينظر في عيني ولده . فارتاع شعبان وهب واقفا وظل ينظر لأبيه صامتاً لفترة قبل أن يهمس بدوره :

- تقصد .. ؟

فعاجله الجد : لا أقصد شيئا يا شعبان!

ثم أحنى رأسه وكأنه يكلم نفسه : تمنيت لو مرت هذه الليلة على خير . تمنيت على الله أن تقبل هذا الشاب لأن ابنتك تريده. تمنيت ألا تسألني عن شيء، ولكن .

سكت مرة أخرى ثم همس وفي صوته غصة : زوج ابنتك بسرعة يا شعبان.

ظل شعبان يقف في مكانه بقامته الطويلة النحيلة مطلا على أبيه بوجه محتقن وعينين محمرتين تحبسان الدموع، ثم قال بصوت مرتجف:

- أنت أفسدت حياتي يا أبي !

وقف الباشكاتب بدوره وعضلات وجهه ترتعش :

- أنا الذي أفسدت حياتك يا شعبان ؟ كيف؟

- أخذت مني أولادي وضيعتهم كما ضيعتني !

كان جسد الباشكاتب كله الآن يرتجف ويجد بصعوبة صوته الذي كان يحتبس أحيانا ويتحول إلى غمغمة غير مفهومة :

- متى ؟ كيف ؟ تكلم ؟.. هل تحسب يا ولد أني كنت أعرف شيئا؟ أنى يمكن أن أعرف شيئا؟ هي ابنتك. فلماذا بعد أن صممت على أن تقطع دراستها لم تراقبها؟ أنا منعتك يا شعبان؟ وكيف كان يمكن أن أعرف؟ هي بالأمس فقط كلمتني وأنت الذي حددت للشاب الموعد عندما جاءك في المحل.

كيف .. متى كان يمكن أن أكلمك، وماذا كنت سأقول لك؟

ثم فقد القدرة على السيطرة على نفسه فارتفع صوته: خذ أولادك ياشعبان واترك هذا البيت لتربيهم كما تشاء! متى. قل لي متى منعتك أنا من أن تقترب منهما أو من أن تربيهما؟ متى أفسدت حياتك؟ قل . لماذا لا تتكلم ؟ كل شيء حاولته معك ولكن .

ماذا كنت تريدني أن أفعل ؟

كان شعبان يقف مستغرقا في همة لا يكاد يفقه ما يقوله أبوه أو أن يتابع ثورته . غمره إحساسه بالعار والغضب والهزيمة، فترك أباه واقفا وسط الغرفة واندفع خارجا ليجد سالم وفوزية يقفان مذعورين في الصالة لارتفاع صوت أبيهما في وجه الباشكاتب لأول مرة في حياته . حدجهما أبوهما بنظرة غاضبة، تكاد تكون كارهة، قبل أن يخرج من البيت ويصفق الباب وراءه .

* * *

وفي تلك الليلة غزت سالم أحلام وكوابيس كثيرة . في البدء زارته أمه. اقتربت منه واحتضنته وألقمته ثديها لترضعه. فقال أنا كبرت يا أمي ولكنه مع ذلك راح يرضع في نهم شديد قبل أن تنزع ثديها فجاة وتقول كيف؟ ألم تصبح رجلاً يا سالم ؟ قال ولكن يا أمي.. وهو يمد يده في يأس لثديها الذي يقطر منه اللبن دون أن يبلغه فقالت إنهض يا سالم واغسل فمك ثم قابلني عند الكوبري ومعك الريحان ولا تقل لأبيك. ظل يجري وراءها وهو يقول لكن يا أمي .. لكن يا أمي! فجاء، شعبان ممسكا بعصا الباشكاتب التي أصبحت فجاة أطول من أبيه نفسه وراح يضرب سالم على بطنه وهو يقول اخرجه ! اخرجه يا ولد! وهو يسأل وسط لدعات العصا ما الذي أخرجه؟ خذ كل شيء، واتركني . غير أن العصا صارت خنجرا مشرعا في وجهه ولم يكن الشخص الذي يحمل الخنجر أباه فارتعب وراح يصرخ .

ولم يشعر سالم باليد التي جاءت تمسح جبينه وتهدهده وتجفف عرقه وتعدل وضعه في الفراش إلى أن هدأ ارتجافه ونشيجه .

لكنه في الصباح كان مجهدا وكان شاحبا. لم تعاوده نوبة الهذيان كالمعتاد بعد الكوابيس، بل غرق في صمت عميق. وحدث في تلك الليلة شيء، كان قد توقف منذ فترة طويلة. إذ بال في فراشه.

* * *

لجأ الباشكاتب إلى شرفته وبقي فيها طويلا. جلس يتطلع مهموما إلى الطريق الذي دائما ما تسري عنه حركته وعابروه ولكنه ظل ينظر دون أن يرى أو يسمع. كيف استطاع شعبان أن يقول ما قاله؟ ضيعه وضيع ولديه مرة واحدة؟ ماذا كان بوسعه أن يفعل لهم أكثر مما فعل؟ أعطاهم عمره وماله وحبه. فهل ضيعهم الحب؟ ماذا يقول أبوخطوة في هذا وفي الحب الذي يقرّب ولا يبعد؟ هناك غلطة ما. فما هي؟

أي أب كان يستطيع أن يبذل أكثر مما بذل هو لشعبان؟ أحبه قبل أن يولد بقدر حبه لسمية. أحبه كجزء من الغالية التي ملأت حياته قبل أن يكون ولده. ولكن حتى في طفولته الباكرة وقبل أن تموت أمه كان بعيداً ونائياً. يحب أن يلعب وحده ولا يريد الاختلاط بغيره من أطفال الجيران. وبعد أن ماتت سمية عاش له أبا وأما. يطعمه ويلبسه ويذاكر له دروسه ويكاد يلازمه طول الوقت ومع ذلك ظل شعبان مصمتا ووحيدا. راوده الأمل في أن يتغير ولده بعد انتقاله إلى محكمة في القاهرة قبيل وفاة سمية. كان شعبان وقتها في العاشرة من عمره. وسكان البيت كلهم يعيشون كأسرة واحدة. تمنى أن يشجعه ذلك على الخروج من البيت واللعب مع أولاد الجيران لكنه لم يفعل. أراد دائما أن يبقى وحده ولم يعرف هو أبدا ما الذي يدور في رأس ولده. أم أنه في الحقيقة لا يوجد أي شيء يدور في رأسه؟

يذكر دهشته حين كان يذاكر له دروسه في المرحلة الابتدائية. يذكر عجزه عن أن يكتب ولو سطورا قليلة في أي موضوع للإنشاء. اعتاد أن يشرح له الموضوع، ويزوده بالعناصر التي يمكن أن يكتب عنها، ويعطيه ما يسمى بالجمل المفيدة لكي يستعين بها في كتابة موضوعه. فلم يكن يفعل غير أن يعيد كتابة هذه الجمل. كان محروما من أي خيال. وأحزنه كثيرا في آخر الأمر أن يسلم بأن ولده لا يملك أي

ذكاء. لم تكن مسألة الدروس الخصوصية معروفة أيامها في مطلع الأربعينات ولكنه جاء له بمدرسين لكل المواد فاشتكوا جميعا من بطء فهمه.

بالكاد استطاع أن يعبر به مرحلة الدراسة الابتدائية ثم تعسر بعدها. ظل يرسب في أول سنة من المدرسة الثانوية ويعيدها المرة بعد الأخرى إلى أن فصلوه من المدرسة الحكومية. أدخله مدرسة أهلية ظل يدفع لها وللمدرسين الخصوصيين معظم مرتبه ومع ذلك لم ينفع شيء. وأخيرا، بعد أن أصبح له شارب كث وأشرف على العشرين من عمره اضطر أن يستسلم وأن يقطع دراسته. أعاد فتح محل الحاج السعدي على أمل أن يعلم السوق ابنه ما فشلت فيه الدراسة. لكن شعبان لم يكن هو الحاج السعدي الذي عاش عمره صديقا لكل جيرانه في السوق يخدمهم ويخدمونه، يجلب لهم الزبائن ويجلبون له، يحبه زبائنه ويحبون معاملته لهم وسؤاله عن أخبارهم وعن أحوال أولادهم فيرجعون إليه باستمرار. لم يستطع شعبان أن يفعل شيئا من ذلك. عجز عن أن يصادق أحدا في السوق بعد أن عجز قبل ذلك في البيت.

أين كانت غلطته إذن وأين كان تقصيره؟ أو لم يستجب بعد ذلك لطلبه بالزواج بعد أن فتح له المحل؟ ليته ما فعل! فليستغفر الله. كيف كان له أن يعرف ما يخبئه القدر؟ فعل أيضا أقصى ما بوسعه. زوجه فتاة مهذبة من قريبات سمية ومن قريتها. وكانت سعاد جميلة ووديعة. تصحو مبكرة قبل أي إنسان وتقوم بمفردها بكل الأعمال في البيت. تحنو عليه وعلى الأسرة كلها بحب لا تكلف فيه. لم يسمعها يوما تشكو أو تتذمر من زوجها أو من متاعب طفليها. لعلها لهذا السبب ماتت في صمت، دون أن تصرخ ودون أن يسمع أحد صوتها أو تطلب المساعدة. عندما لزمت غرفتها يومين ودخل ليسأل عن صحتها هاله شحوب وجهها. ولما سمع من شعبان أنها تشكو من النزيف من يومين سأله لماذا لم ينقلها إلى

المستشفى على الفور؟ لماذا لم يخبره بحالتها من قبل؟ رد وهو يرتجف خائفا بأنه اعتقد أن هذه الأشياء طبيعية لدى النساء وأنها ستشفى من تلقاء نفسها! وعندما نقلوها بعد ذلك إلى المستشفى كان الوقت قد فات. قتلها بإهماله، بسذاجته، أو قتلها : بغبائه ! لا.. فليستغفر الله من جديد! حان أجلها هذا كل ما في الأمر. نعم. حان ولكن على يد شعبان: متى إذن ضيع شعبان؟ حين صمم على أن يتعلم ؟ حين ساعده على فتح محل جده؟ حين زوجه من سعاد؟!

اهدأ. اهدأ يا حضرة الباشكاتب!

نعم. كانت نيتك حسنة في كل ما فعلته، لكن كل شيء انقلب إلى عكس مقصدك. فلماذا إذن بدلا من أن تلوم شعبان لا تحاول أن تفهم السبب؟ هل هي عقوبة من الله؟ إن تكن كذلك فهو يستحقها. يستحقها عن جدارة. عاش عمره كله يطيع نزواته. ألا يستحق عقابا على ذلك؟ ألا يستحق عقابا على ما يفعله الآن بحياته ؟

تواضع يا حضرة الباشكاتب. تواضع قليلا قبل أن ترمي ابنك بالغباء، ربما تكون أنت أغبى منه. فكر في أن شعبان لم يقصر عامداً في أي شيء طلب منه، حتى في المدرسة لم يكن يهمل دروسه كما اتهمته أمام سالم. كان يقضي ساعات طويلة في الاستذكار وحل الواجبات ولم يكن ذنبه أنه عجز عن النجاح. ثم أنت لا تستطيع أن تنكر أنه ابن بار. ربما كانت هذه أول مرة في حياته يرفع فيها صوته أمامك. له عذره. فلتحمد الله أنه لم يتهور ويحول المسألة إلى فضيحة. لا تنقص الفضائح! فوزية تفعل ذلك؟ أسكت ! أسكت تماماً. فوزية حفيدتك!

ولكن أبوها؟ يستطيع أن يتهم نفسه كما يشاء، غير أنه لا يمكن أن يتهم شعبان. منذ صغره لم يكن يفوته فرض ولا سنة. فهل يستطيع أن يقول إنه يجاري ابنه في ذلك؟ هو ينتظم في الصلاة فقط في شهر رمضان وفي أيام الجمع وتفوته بعد ذلك فرائض كثيرة، فما عذره؟!

فليسامح ابنه إذن على ثورته. لا ! فليسامحه ابنه ! فليسامحه ربه !

ومع ذلك يقول أبوخطوة إن الندم سينجيه والحب !

فلماذا لم ينجه هذا ولا ذاك من قبل ؟

ومتى وقد قربت ساعته كثيرا سيأتيه الفرج الذي تنبأ به صديقه الصالح؟

وماذا لو عرفت أسرته ما يخفيه أو لو عاش أبوخطوة ليعرف ما صار إليه صديقه النادم ؟ ومن في هذه الدنيا يتغير حقا ؟

انتبه الباشكاتب على صوت قعقعة إغلاق الباب المعدني لأحد الدكاكين.

كانت محال كثيرة قد أغلقت أبوابها ومع ذلك ظل الشارع صاخباً وحياً بالباعة الذين يفترشون الأرصفة وينادون على بضائعهم، وبأرتال القادمين التي لا تنقطع من اتجاه الميدان.

هو الآن يحتاج إليهم، يحتمي بأصواتهم لتسكت أصواته، ولكنه عرف أنه قد حان له أن يدخل غرفته عندما سمع الصوت المنغم يقترب قادماً من الميدان. كان يمر كل ليلة في الموعد نفسه. هل يبدأ جولته أم يختمها؟

يعرفه جيداً. يلبس دائما جلبابا نظيفا أبيض فوقه (جاكتة) رمادية، تغطي عينيه نظارة سوداء، وتقوده فتاة ملابسها نظيفة أيضا، وهو يردد مرة بعد أخرى بلا انقطاع، ببطء، وبصوت شجي.

توكلت على الله ربي وخالقي ∴ وأيقنت أن الله لا شك رازقي

إن كان لي رزق فليس يفوتني ∴ ورحمة الرحمن ملجأ المؤمن

كان يمر بخطواته البطيئة لا يتوقف في الطريق ولا يسأل أحدا. تأخذ الفتاة ما يجود به المحسنون وتضعه صامتة في جيب جلبابها.

ظل الباشكاتب يتابع الصوت الجميل وهو يبتعد ثم همس لنفسه وهو ينهض : لو تدلني كيف تطمئن القلوب !

(٤)

لم تلت بعثة ألمانيا الشرقية وازدهار الصناعة بعد الحرب بسرعة كما توقع فراج، ولكن زواج فوزية هو الذى تم بسرعة.

قال فراج إنه لا يريد شيئا من الأسرة لأنه لم يدفع شيئا. كل ما يريده هو امرأته وأن تشاركه حياته كما هى ، على أن يبنيا مستقبلهما خطوة خطوة كلما تحسنت الأحوال . لكن الباشكاتب أصر على تجديد طلاء شقته الصغيرة وأن يفرشها من جديد على حسابه وظل فراج يعارض فى عناد أن يدخل شقته شيء لا يدفع ثمنه. حاول الباشكاتب أن يشرح بأن العرف جرى على أن تجهز أسرة العروس بيتها ، فرد فراج بأن المجتمع تغير وينبغى نبذ التقاليد البالية. لكن الباشكاتب نجح فى النهاية فى إقناعه بأن يتقاسما التكاليف باعتبار نصف المبلغ هدية الأسرة لابنتها والنصف الآخر قرضاً يرده فراج عندما يتوفر له المال. فوافق على مضض بشرط أن يكتب إيصالات بالمبلغ لتكون التزاما عليه برد الدين. وأجمل فى مبلغ الدين (الشبكة) التى اشتراها الجد ليقدمها فراج إلى عروسه.

تم فرح فوزية حسب الأصول ودفع تكاليفه الباشكاتب الذى تغلب على ممانعة فراج هذه المرة بأن قال له ضاحكا «يا أخ فراج لا تحضر أنت إن كان لا يعجبك . ولكن نحن نريد أن نفرح بابنتنا!» وهكذا فقد علقت زينات كهربائية ملونة فى مدخل البيت وفوق السطح الذى أقيم فيه شادر ورصت مقاعد تكفى لكل الجيران والمدعوين. وعلق مكبر صوت ليصدح فيه المطرب ولتقدم الفرقة ألحانها لأهل الحى.

حضر والدا فراج مع أخته وزوجها وأولادها ، وكانوا يلبسون ثيابا ريفية من جلابيب جديدة ويجلسون منزوين فى ركن السطح، وكانوا يتمنعون كلما قُدم لهم شراب أو طعام، ولا يتناولون بعد إلحاح سوى القليل، على عكس بقية المدعوين القاهريين. حاول الباشكاتب أن يتغلب على إحساسهم بالغربة بالجلوس معهم والمبالغة فى الترحيب بهم ولكن حياءهم كان أقوى من كل محاولات الجد ومداعباته. ولم تنفع أيضا جهود فراج الذى كان يترك مكانه إلى جوار عروسه فى (الكوشة) ويقوم ليجلس مع أسرته مقبلا المرة بعد المرة يد والده ورأس أمه. ولكن الراقصة نجحت فى خلق جو آخر عندما تمهلت فى رقصها أمام الباشكاتب ووالد العريس وراحت تميل عليهما فى دلال، فملأ صفير الشباب وضحكهم، وأخذ الباشكاتب يصفق ويتمايل بجسمه، ولم يشاركه نسيبه فى ذلك، بل أطرق رأسه مبتسما فى ارتباك وإن لم تفته أن يضع يده فى جيبه ليعطى للراقصة وطبالها (النقطة). ورحب شعبان بأنسبائه فى حدود الواجب ولكنه اختفى معظم الوقت معتذرا بانشغاله فى تنظيم الفرح و(البوفيه) والترحيب ببقية المدعوين. أما سالم فاحتل مقعدا أمام الكوشة لازمه طوال الفرح تقريبا، وكان الجميع يعرفون مسألة قلة كلامه فلم ينتظروا منه أكثر من التحية الموجزة قبل أن يعود إلى مكانه وصمته .

وفى نهاية الفرح قدمت والدة فراج (كردانها) هدية لفوزية وهى تقول بصوت خافت «تمنيت يابنتى لو كان عندى مال قارون» فقبلتها العروس التى كانت فى قمة جمالها وسعادتها وقالت «يكفينى دعاءك يا أمى».

وعندما شبك فراج ذراعه فى ذراع فوزية وزفتهما الراقصة حتى سلم البيت وسط طبول عالية وزغاريد أعلى صوتاً أطلقتها جارات فوزية وحبيباتها ، تبع المدعوون جميعا الزفة التى استمرت لفترة طويلة على السلم .

خلا الشادر والسطح إلا من المصابيح الملونة المعلقة التي كانت أفرعها تهتز اهتزازا خفيفاً.

ووسط المقاعد الشاغرة والمتداخلة وقف شعبان وسالم متباعدين.

* * *

بعد زواج فوزية تغيرت الحياة في البيت .

أصبح من الضرورى الاستعانة بشغالة ، كانت تأتي مرتين في الأسبوع لتنظيف البيت والطبخ. ولكن الباشكاتب لم يعد يشعر براحة في دخول المطبخ وإعطاء تعليماته لهذه الشغالة . غير أن فوزية ظلت تتردد على البيت بانتظام من شقتها القريبة وتحاول تنظيم الأمور قدر الإمكان : تراجع أعمال الشغالة وتقضي وقتا طويلا مع سالم ومع جدها لتوحي بأن شيئا لم يتغير في علاقتها بالأسرة، كما أنها لم تفقد امتياز ترتيب غرفة جدها التي كانت محرمة على الشغالة. وكانت تأتي أحيانا بمفردها لتتناول معهم الغداء أو العشاء ، ولكن فراج الذي أحبه الجد كثيرا وارتاح لصحبته لم يكن يستطيع أن يزورهم إلا في يوم الجمعة. كان يعمل في الشركة في فترتين صباحية ومسائية، ولم يعد لديه أي فراغ.

وهكذا أصبح سالم وجده يقضيان معظم الوقت بمفردهما . لم يكن شعبان يظهر إلا عند العشاء، يبدو عليه الإرهاق دائما ويرد باقتضاب وأدب على أسئلة والده عن أحوال العمل، التي لم تكن جيدة في معظم الأحيان. كان بعد ثورته الوحيدة والقصيرة الأجل قد قبل رأس والده طالبا الصفح قائلاً إنه لا يستطيع أن يعيش دون رضاه عنه، وقال الباشكاتب إنه نسي ما حدث وإنه ربما لو كان مكانه لفعل ما فعله ولده. رجعت أحوال شعبان وغيابه عما يدور في البيت مثلما كانت من قبل، ولكنه اعتاد قبل أن يدخل غرفته ليصلي العشاء وينام أن يسأل سالم عن دراسته، فيرد الجد بأنها على ما يرام. فيما عدا ذلك كان الجد والحفيد يتبادلان الحديث والسمر بحرية في البيت وفوق السطح على السواء.

وفي تلك الأيام وفي إحدى جلسات السطح طلب سالم من جده أن يحكي له عن جدته التي لم يرها، فسمع منه قصة زواجه، وكان زواج حب.

كان توفيق أفندي قد انتقل من أسيوط كاتبا في محكمة المنصورة ورأى (سمية) وهي تتردد مع والدتها على المحكمة فأحبها من أول نظرة. كانت بيضاء وممتلئة امتلاء حسنا، ولم يهتم بأنها تصغره كثيرا في السن أو بأنها لم تتجاوز السادسة عشرة، ففي ذلك الوقت في مطلع الثلاثينات، كانت هذه سنا معقولة جداً لزواج البنت. وكان مرتبه كبيرا في حينها ولديه إيراد هذا البيت الذي ورثه عن والده، أي أنه كان مستعدا ومكتمل الرجولة فلم يتردد. ثم إنه نبه سالم إلى درس مهم جدا لينفعه في الحياة: مفتاح أي بنت في الدنيا هو أمها. وهكذا فقد سلك الطريق المباشر وكسب ثقة الأم. ساعدها هي وابنتها في نزاعهما مع الأعمام على الميراث. لم يكن قد بقي لهما الكثير بعد توزيع الأرض بينهما وبين الأعمام ولكن حتى بالنسبة لهذا القليل الذي كان يكفيهما بالكاد، بدأ أعمامها يرفعون قضايا ويقدمون إيصالات قديمة وتوكيلات موقعة من الأب لانتزاع بقية الأرض، وحين راجع توفيق ملفات القضايا في المحكمة أحس بخبرته أن هناك تزويرا وتلاعبا في المستندات وساوره الشك في أن المحامي الذي وكلتاه يعمل لصالح الأعمام، فنصح بتغييره وبالطعن في المستندات. وأمكن بالفعل بفضل نصائحه استنقاذ القليل الذي بقي لهما من قبضة الأقرباء. وفي تلك الفترة بدأ يتردد بنفسه على البيت ليتابع الأخبار وليرشد الأم إلى ما ينبغي أن تفعله، ولما كان قصده شريفا فإنه لم يتردد أثناء زياراته تلك في استخدام لغة النظرات مع سمية، فسقطت الجدة كالثمرة الناضجة.

قال لسالم : كان فرق السن بيني وبينها يزيد على خمس عشرة سنة. أتظن أني شعرت بذلك أو أنها شعرت به؟ الحب يا ولدي التقاء روحين والأرواح لا عمر

لها وحين ضمنا في النهاية بيت كنت أستعجل الوقت الذى أرجع فيه من المحكمة، أكاد أجرى فى الطريق فتفتح لى الباب قبل أن أطرقه وشوقها مثل شوقى.. تلهث كأنها هى التى صعدت السلم وثباً لا أنا. نادرا ما كنا نخرج من البيت، لم يكن أحدنا يحتاج غير الآخر. الآن أسأل نفسى من أين كنا نأتى بكل هذا الكلام؟ ولم كان كل كلام يبهجنا؟ من أين كان يأتينا ذلك الفرح ونحن معا؟ لماذا كانت كل أيامنا وليالينا يوما واحدا ممتدا من النعيم ولماذا صارت الأيام بعدها طويلة كالدهور؟

قال الجد ودموع فى عينيه إنه عرف معها سعادة لا تعوضه عنها نساء الدنيا .

ثم شرد طويلا وحول نظره عن حفيده فى اتجاه بيوت الحارة المتلاصقة حتى ظن سالم أنه نسيه، لكنه عاد يقول بصوت أكثر خفوتا دون أن ينظر فى اتجاه حفيده:

– لما أنجبنا أباك فرحنا بالطبع، أحببناه ورعيناه، كنت أقول إنى أراها فيه فتقول إنها ترانى أنا. حتى طفلنا لم يكن ثالثنا فى البيت، بل كنا كلانا فيه معا، لم يكن فى دنيانا غيرها وغيرى.

ثم تنهد طويلا وهو يلتفت من جديد إلى حفيده قائلا :

– كنت أفكر دائما أنى سأموت قبلها فأحاول أن أحدثها برفق عما نملك، عن هذا البيت وعن نقود كنت أدخرها وعن المعاش الذى ستقبضه بعد أن أرحل، فترد: بدونك أنت لا حياة لى ولا له. ولكن انظر، ها أنذا قد عشت كل هذه السنين الطويلة بعد أن رحلت هى :

كانت الدموع تغطى وجه الجد وهو يتحدث عن زوجته الراحلة، غير أنه لم يكن يطيق الحزن طويلا فمسح خده وقال متضاحكا :

– هانت ! قريبا نلقاها ونلقى الأحبة .

ولكن سالم لم يسمع هذه العبارة الأخيرة، كان هو الذى شرد الآن بعيدا ثم قال فجأة :

– ولكن ما الذى فعله أبى لتموت أمي وأمه؟

انتفض الجد فى فزع :

– استغفر الله! جدتك وأمك ماتتا ميتة ربنا. الله وحده ياولد.

– لكن أمي ماتت صغيرة جدا.

– هذا أمر الله . حكمه وحكمته .

ثم بدا على الباشكاتب شيء من التوجس فقال لحفيده :

– ولكن لماذا تسأل عن ذلك الآن ؟ هل سمعت شيئا ؟ هل قال لك أحد شيئا ما ؟

فانطلق سالم فى سرعة وغضب : لا تكذب يا جدى !.. لماذا يهرب أبى منى، لماذا يهرب من كل إنسان، من فوزية ومنك؟ لماذا ليس له أصحاب؟ لماذا لا يزوره أحد ولا يزور هو أحدا ؟ لماذا يحول وجهه بعيدا كلما كلمته أنا ولماذا ينظر فى الأرض حين تكلمه أنت ؟ ما الذى فعله أبى ؟

قام الجد من مكانه وتقدم من حفيده بخطوات مهددة وهو يوجه نحوه سبابته فى غضب: إياك أن تتكلم عن أبيك هكذا!

ثم تمالك نفسه وقال وهو يضع يديه على كتفى سالم: اهدأ يا سالم ربنا يهديك.

لكن سالم لم يسمع تأنيب جده ولا دعاءه، بل واصل ثورته وهو ينتفض:

ـ أبى فعل شيئا يخفيه هو وتخفيه أنت، أبي لايحبنا، كان يريد أن يضعنى منذ زمن مع المجانين، وزوج فوزية لرجل فلاح فى الحارة لأنه يريد أن يتخلص منها ويريد أن يعاقبنا لأننا نحبها ولانحبه، لاتكذب ياجدي! أنت لاتحبه وأنا لا أحبه ولا أحد يحبه ولهذا لا يأتيه زبائن في المحل، ولهذا يعاقبه ربنا!.

حاول الباشكاتب أن يتغلب على انفعال سالم بالمبالغة فى الهدوء:

- لا ياولدى أنت تخطئ.. أبوك رجل طيب ياسالم ويعرف ربنا. هو أكثر صلاحا منى ومنك فلماذا يعاقبه ربنا؟. أنت لاتعرف الآن ما تقول. أبوك يحبنا وأنا لم أكرهه أبدا. ولا أنت أيضا ياولدى لأننا نعرف أن حمله ثقيل. ماتت أمك وكانت سنه أصغر منى بكثير عندما فقدت جدتك. كنت أنا رجلا كبيرا فاحتملت أما هو فكان فى بدء شبابه.. هل فهمت؟! إهدأ ياسالم.

ظل الجد يربت على كتفى حفيده ويمسد رأسه ويتحسس بين الحين والآخر صدره فى موضع الحجاب إلى أن هدأ سالم وعاد إلى صمته وإن ظل جسده يرتجف. فعاد الجد يجلس فى مكانه. هجمت عليه من جديد بكلمات سالم أشياء كثيرة يحاول أن ينساها. فلزم بدوره الصمت.

كانت الشمس قد غابت، وظل طبق الترمس بينهما دون أن يمسه أحدهما فأشار له الجد دون حماس: كل ياسالم.

- لاأريد. عن إذنك. سأنزل إلى البيت.

قال الجد فى شرود: ابق قليلا ياسالم.

فرد باقتضاب: أشعر بالبرد.

بقى الباشكاتب بمفرده فوق السطح ولم يكن يكره شيئا قدر كراهيته للوحدة والصمت.

فى شبابه لم يكن هناك مجال لهما، كان مشغولا بمغامراته وعمله ورفاقه. وفى كهولته اعتاد أن يذهب إلى مقهى قريب من البيت ليلتقى بالجيران والأصحاب. يتبادلون الأحاديث والذكريات والضحكات، ثم بدأ رفاق العمر يرحلون واحدا بعد الآخر، ولم يعد يرى فى المقهى حين يذهب إليه وجوه من بقى منهم، وإنما صور من رحلوا. فاعتكف فى بيته معظم الوقت وشغلته صحبة ولده وحفيديه.

كان يعرف أنه يخاف فى شيخوخته أن ينظر إلى نفسه وأن يحاسبها. يكرر لنفسه دائما فات الوقت ولكن سالم أيقظ من جديد الأشياء التى يجب أن تظل نائمة.

سأله أبوخطوة فى شبابه لماذا تهرب من نفسك ياتوفيق أفندي؟.

فرد عليه بصراحة «لأني لا أرى فيها مايسر!» فقال له: «ولكن كيف يمكن أن أراك أنا ولاترى أنت نفسك؟».

لم يفهم توفيق فى كثير من الأحيان ما يعنيه أبوخطوة بحديثه وتجنب التعمق فى السؤال. بل أخذ يتهرب منه بالفعل بعد أن اعترف له بحقيقة حاله. غير أنه آمن بعد أن التقى بسمية بأن الحب قد أنقذه بالفعل. لم تشبه حياته معها أى شيء عرفه عن النساء قبلها. كانت كما قال لسالم كفايته من الدنيا. لم تكن أجمل من عرف من النساء، ولا أكثرهن فتنة كامرأة. ومع ذلك فهو لم يعرف فى حياته متعة فى ممارسة الحب كالتى عرفها مع سمية. كان هو الذى طالما عذبته فتوة جسده، ينسى تلك المتعة تماما فى كثير من الأحيان. طوال حياتهما معا لم تكن سمية زوجته فقط. فأى شيء كان ذلك الحب؟ كان يشتهيها ويشفق عليها ويريد أن يحميها من الدنيا ويريدها هى أن تحميه فى حضنها وأن ترعاه هو الكهل كطفل. فإن جاء التقاء الجسدين فكأنما هو استمرار لذلك كله. كان الحب معها امتلاء ورحمة.

- سأل الباشكاتب نفسه وهو يشعر بلذعة البرد فوق السطح فلماذا إذن وقد عرف الحب الحقيقى لم ينقذه ذلك الحب حتى نهاية الرحلة؟.

وأين يعثر على إجابة للأسئلة التى عذبته من مطلع العمر؟.

نهض توفيق ورفع رأسه للسماء التى ازدحمت بالنجوم وكرر لنفسه:

- هاتت!.

(٥)

استعصى النوم على الباشكاتب في تلك الليلة . بقى في غرفته بسبب البرد ولازمته فى فراشه الافكار التى طالما حاول أن يهرب منها، ومع ذلك فقد كان يعرف، بل كان واثقا فى قرارة نفسه أن ذلك الهم لن يستمر معه سوى يومين أو ثلاثة ثم يرجع بعدها إلى طبيعته. اكتشف منذ زمن طويل أن الإنسان مهما يصادف فى الدنيا من مشكلات أو حتى من مآس فهو لايستطيع أن يكون غير نفسه، لم يصدق أبدا أن أحدا يمكن أن يتغير تغييرا حقيقيا، لاهو نفسه ولا غيره، سيبقى سالم هو سالم بصمته الطويل ونوبات الهياج التى تأتيه بين الحين والحين، وسيبقى شعبان ذلك الكائن الصمت الذى لايفهمه أبدا ولايعرف مايدور فى رأسه، وستبقى فوزية على حنانها وحبها للضحك أيا كان ما يحدث لها فى الحياة. سمع هذه السنة أن جارهم الأسطى حميد الكهربائى العجوز قد هده الحزن بعد أن ماتت زوجته، وأن جارتهم الست إنصاف قد لزمت البيت لاتكف عن البكاء منذ أصاب شلل نصفى زوجها الحاج إبراهيم المنجد، لكنه كان واثقا فى قرارة نفسه أن المحنة لن تغير أيا منهما، وطلب من الله أن يسامحه على ظنه، وبالفعل فإنه بعد أسابيع من مرض زوجها رجعت الست إنصاف تساوم الباعة الجائلين كعادتها وتتشاجر معهم بصوتها العالى من شرفتها فى الطابق الثانى دون أن يردعها الحزن، ورجعت إلى هواياتها الأخرى التى يعرفها تماما، تدق الباب فى الظهيرة فى حضور فوزية لتشرب معها القهوة وتنقل لها أخبار السكان، ثم تحاول رغم مراوغات حفيدته أن تعرف أيضا مايدور فى بيت الباشكاتب، رجعت كذلك إلى هواياتها الأغرب، إذ لم تكن تخرج أبدا خاوية اليدين، بل تطلب من فوزية ومن غيرها من الجارات وتجمع ـ حتى من الشارع ـ كل الأشياء القديمة التى لاتنفع

منها: الثياب المهترئة، والأحذية الممزقة الجلود والنعال، والصناديق الورقية والزجاجات الصغيرة الفارغة، وتفضل بصفة خاصة الأشياء المعدنية : الأقفال والمزاليج الصدئة، عدد مواقد الكيروسين التالفة، مقابض الأبواب المكسورة.. إلخ، ويعرف الجميع أنها تخزن هذه الأشياء فى «السحارة» الخشبية الضخمة التى تشغل كل مساحة شرفتها، ظل يعتقد لفترة طويلة أنها تستفيد بشكل ما من هذه الأشياء القديمة، ولكنها بعد إصابة زوجها بالشلل استدعت بائع الروبابيكيا لتبيع بعض مقتنياتها، فقال البائع إن الشىء الوحيد الذى يصلح للشراء من هذه النفايات هو (السحارة) نفسها ونزل متبوعا بشتائم الست إنصاف حتى الدرجة الأخيرة من السلم ثم لاحقته بسبابها من الشرفة إلى أن اختفى بعربته عن الأنظار . منذ ذلك اليوم طلب من أبوزيد البواب أن يعطيها الإيصال فى أول كل شهر دون أن يأخذ منها الإيجار، قال إنه سيحصله بنفسه من الحاج إبراهيم بعد أن يقوم بالسلامة، شكرته الست إنصاف ودعت له كثيرا وطويلا ولكنها ظلت تدق الباب فى الظهيرة ولاتخرج أبدا إلا وفى يدها شىء .

انتبه منذ مدة طويلة إلى أنه كلما كانت العادات غريبة وغير مفهومة استحال التخلص منها، واعتقد لفترة أنه أخطأ فى الحكم على جاره الأسطى حميد الوحيد من السكان الذى يقاربه فى السن. ظل الكهربائى بالفعل مهموما ومهدما بعد وفاة زوجته، كان يمشى فى جنازتها وهو يسنده بيده من ناحية وجار آخر يسنده من الناحية الأخرى، وهما يحملانه تقريبا بينما يجرجر بالكاد قدميه، واعتكف فى بيته أسابيع طويلة بعدها، واعتاد أن يقضى معه أمسيات كثيرة يحثه على الرجوع إلى عمله والتسليم بقضاء الله، وعندما فتح الكهربائى دكانه أخيرا رجع بعد قليل مثلما كان من قبل بالضبط، يستوقفه على السلم حين يلقاه ليهمس فى أذنه بآخر النكات المكشوفة التى ظل الأسطى حميد عمره كله يحب الاستماع إليها وروايتها

وهو يضحك من قلبه في الحالتين، لم يدهشه ذلك كثيرا ولم يدهشه أيضا أن الكهربائي لم يغير عادته الغريبة الأخرى، إذ ظل دائما آخر من يدفع الإيجار من السكان بعد أن ينقضي من الشهر معظمه، يقول للبواب حين يحمل له الإيصال أن ينتظر بضعة أيام إلى أن يفرجها ربنا، ويشكوه أبوزيد الذي لم يعد يستطيع احتمال صعود السلم ونزوله، كان البواب قد فقد أسنانه كلها وأصبح يتكلم لغة غريبة لايفهم منها غير عبارة «الأشطي حمي»، فيقول له ألا يطالبه مرة أخرى لأنه سيدفع من تلقاء نفسه حين يريد، كان يعرف أن حميد لايعاني أي مشكلة مالية، بل ويثق أنه ليس بخيلا، فهو يتطوع دائما في المناسبات بتركيب الزينات الكهربائية في البيت على حسابه ويصلح الأعطال لجيرانه بالمجان، ولكنه لسبب ما يكره أن يخرج نقودا من جيبه ويرجىء ذلك مادام يستطيع، ولم تغير مأساته شيئا من ذلك.

نعم، هو يعرف حدود أحزان البشر، ويعرف أن هذا من رحمة الله بعباده، ولكنه يفهم أيضا معنى ذلك، لا أحد يتغير بسبب الحزن، وأقل من ذلك بكثير بسبب شجار مع ولده أو نقاش مع حفيده أو ذكريات من أيامه التي مضت!، لماذا يريد أن يكون هو الاستثناء؟، ستنتهي هذه الحالة بعد يومين أو ثلاثة أيام.

مع ذلك قضى الباشكاتب معظم ليلته مؤرقا، تزوره وجوه أحبائه الذين رحلوا حين تغفل عينه، ثم صحا مجهدا على غير عادته في الصباح، لكن أحزانه لم تظل حتى يومين أو ثلاثة كما تنبأ لنفسه.

في الصباح كان يتلقى فوزية في أحضانه وكانا يضحكان معا، بدأت تظهر عليها أعراض الحمل وكانت تدخل البيت لاهثة من طلوع السلم وهي تضحك واضعة يدها على بطنها وتسأل: لماذا اخترت الدور الثالث ياجدي؟ ومتى تركب مصعدا للبيت؟ لسنا جميعا شبابا مثلك!، وكانت تعرف أنه طلب مستحيل في بيت لايكاد يتبقى من إيجار مساكنه شيء

بعد دفع العوائد وإنارة السلم ومرتب البواب، لكنها كانت ترغم جدها على الاعتذار وهو يحتضنها ويسندها إلى أقرب مقعد في الصالة.

اعتادت أن تأتي أكثر من مرة في الأسبوع خلال النهار، ترتب غرفة جدها وتختلي به قليلا، تحدد للشغالة أصناف الطعام التي تطبخها، وتجلس مع سالم كثيرا إن كان في البيت لتتحدث معه عن أحواله وعن دراسته، تحاول أيضا أن تذيب نفوره من فراج الذي حدسته منذ البدء، لم يقل لها سالم أي شيء، بعد احتجاجه الأول على خطبتها ولكن صمته كان يصبح أعمق وأطول عندما تأتي بصحبة زوجها، بل بدأ بعد الزواج يتباعد عنها كأنه يعاقبها، وحاولت فوزية كثيرا، غمرته بحبها واهتمامها أكثر مما كانت تفعل من قبل واعتادت أن تقضي معه أوقاتا طويلة دون أن تعتذر له، كما كانت تفعل مع جدها، بأنها يجب أن تنصرف لتنجز الأعمال في بيتها.

ولم تكن تتكلف هذا كله إذ كان حبها لأخيها كبيرا، اعتادت ألا تشير كثيرا إلى فراج أمام سالم في بداية زواجها، وبدأت بعد فترة تقول بشكل عابر إنها تعتقد أن عرق (العبط) الموجود فيها يرجع إلى أن أمها وجدتها فلاحتان، وقالت إن فراج أيضا (عبيط) مثلها يصدق كل مايسمع، بنى مستقبله كله على كلمة سمعها عن أنه سيسافر إلى بعثة، ولما انتهى أمر هذه البعثة جاءت في رأسه فكرة الدراسة ليحصل على شهادة عالية فيزيد مرتبه، لوحت بيديها أمام أخيها وهي تضحك «وحلني ياسيدي»!، وقالت إنها تعتقد أن من أسباب عبطه أنه عندما كان طالبا في الجامعة أدخلوه في معهد اسمه المعهد الاشتراكي وهناك علموه أن كل الأمور (تمام) وهو مازال يصدق هذا الكلام، تصور! يقضي في عمله ساعات أكثر من زملائه لكي «يزيد الإنتاج» ولكن سواء، زاد إنتاج المصنع أو قل فسيظل مرتبه كما هو لايزيد ولاينقص أليس كذلك ياسالم ؟ فلماذا لايفعل مثل زملائه العقلاء؟،

لماذا يهلك نفسه في العمل؟، ولماذا يصمم على أن يخصم من مرتبه الصغير كل شهر ليرد إلى جدها أقساط دين لم يطالبه به؟. بذمتك هل يفعل هذا أحد سوى العبط؟.

كانت مقاومة سالم أعمق بكثير من كل محاولات فوزية، ولكنه أراد أن يرضي أخته فحاول أن يقترب قليلا من فراج، وعندما كان يرى سعادتها وهو يرحب بزوجها قليلا أو يتبادل معه الحديث أو يشاركه الضحك كان يرجع إلى صمته على الفور، وفهمت فوزية ذلك أيضا فبدأت تتجاهل وجودهما معا، ثم إنها منذ بدأ الحمل انشغلت عنهما.

وساعدت ظروف سالم في تلك الأيام فوزية، كان مستغرقا تماما في دراسته واستعداده للثانوية العامة، اختار أولا قسم الرياضة بناء على نصيحة أستاذه الذي رأى مستقبله في كلية الهندسة ولكن عندما رأى في وجه جده الحزن وخيبة الأمل عدل اختياره ودخل القسم الأدبي، ولم يكن الباشكاتب قد قال شيئا قط عندما علم باختياره قسم الرياضة غير أنه احتضنه في فرح بعد أن غير اختياره، قال إنه واثق - ويكاد يقسم - أن سالم سيصبح وكيلا للنيابة وربما قاضيا!، كان يثق في ذكاء حفيده وفي نبوءة سمعها من أبوخطوة وإن لم يدرك معناها تماما، ومع ذلك أصر على أن يستعين سالم بمدرسين خصوصيين في التاريخ والجغرافيا واللغة الإنجليزية، وأشرف بنفسه بهمة مضاعفة على مقرر اللغة العربية.

ولكن كيف إذن حدث الخصام في تلك الأيام الحاسمة؟، وفي عز المذاكرة؟.

فبينما كان الباشكاتب يتابع سالم ولايكف عن تشجيعه ليكون منذ البدء من الأوائل في كلية الحقوق، غضب على حفيده فجأة غضبا شديدا دون سبب واضح. كان في العادة سريع الصفح إذا ما أساء سالم التصرف، لايشير بكلمة واحدة إلى ما يسمعه من إساءة له أو لغيره في نوبات الهذيان التي تصيب حفيده، أما

في هذه المرة فلم تحدث نوبة من هذا النوع، ولم يستطع سالم أن يعرف سر تحول جده الذي ظل أياما يكلمه بطريقة جافة وفي الأمور المهمة وحدها وامتنع عن الصعود معه إلى السطح وعن دخول غرفته. حاول مرات عديدة أن يسترضي جده وأن يستوضح سبب غضبته فلم يفلح أبدا.

لجأ سالم إلى أبيه وهو في غاية الحزن، وكانت تلك إحدى المرات النادرة التي تحدث فيها مع أبيه عن جده أو عن أي موضوع آخر، غير أن شعبان قال لابنه بلهجة تأنيب صارمة:

- أنت أغضبت حضرة الباشكاتب فقبل يده ورأسه حتى يرضى عنك، لن تنجح في الشهادة مالم يرض عنك.

لكن سالم اكتشف أن حال أبيه كحاله وأنه لايعرف أي شيء عن سبب انقلاب جده المفاجئ، وعندما حاول مع ذلك أن يعمل بالنصيحة، لم يسمح له الباشكاتب أن يلمس يده ناهيك عن أن يقبلها، نظر نحو حفيده في غضب وهو يتقدم منه مادا يده فتراجع سالم على الفور.

فوزية وحدها هي التي استطاعت فيما يبدو أن تفعل شيئا لمساعدة سالم في تلك الأيام الصعبة، ففي أول زيارة لها بعد ذلك الخصام الكئيب حكى لها شقيقها عما يجري ففكرت لحظة ثم قالت بابتسامة:

- هل حدثته مثلا عن خروجه يوم الخميس؟، هل سألته أين يذهب؟.

- لا بالطبع، ماشأني بذلك؟.

- فهل تعرف أنت إذن أين يذهب؟، هل تابعته مرة؟.

- أنت مجنونة يا فوزية؟ كيف يمكن أن أتجسس على جدي؟.

- أنا مستعدة أن أتجسس لو استطعت! أدفع نصف عمري وأعرف أين يذهب يوم الخميس!.

ثم أضافت وهي تضحك: ماذا يفعل جدنا المكار؟.

قال سالم نافد الصبر: يافوزية ليس هذا هو موضوعنا، هو حر يفعل مايشاء، ولكن لماذا...

فجأة أسكتته فوزية بحركة من يدها، وبدا أن فكرة طرأت على بالها، ثم انطلقت في ضحكة عالية وقالت: فهمت! أظن أن جدك يعتقد أنك تسرق المجلات من الأدراج، لايمكن أن يكون هناك سبب آخر.

سأل سالم في حيرة : أية مجلات؟

فقالت وهي تنظر في عيني شقيقها مباشرة وابتسامة عابثة على شفتيها:

ـ ال م ج ل ااا ت! الصور!.

لم يفهم أيضا فظلت تنظر إليه من أعلى إلى أسفل، ثم حدجته بنظرة فيها شيء من الإشفاق وهي تقول:

ـ معقول أنك لاتعرف ياسالم؟، مع كل هذا الطول والعرض؟. هل هذا عبط أو استعباط؟.

قال ولهجته تشي بأنه على وشك الانفجار: عن أي شيء تتكلمين يافوزية؟ أنا لاأفهم أي شيء مما تقولين، أي مجلات؟ أنا لا أفكر في أن أمد يدي على أوراق جدي.

فرفعت فوزية يدها مرة أخرى تسكت أخاها وقالت:

ـ إنس، سأتكلم أنا مع جدي وسأعرف منه كل شيء، لاتقلق، من لجدك غيرك في هذا البيت؟، لو صبرت قليلا لن يستمر هذا الخصام.

ثم انصرف عنه إلى جدها المعتكف في غرفته، ولايعرف سالم ماالذي فعلته فوزية أو ما الذي قالته لجدها، ولكن في عصر ذلك اليوم حدث شيئان: صمم الباشكاتب على طرد الشغالة الجديدة، وهش في وجه حفيده من جديد وهو يسأله:

ـ هل اشتريت الترمس؟.

ثم إنهما رجعا صاحبين.

(٦)

عندما كان الباشكاتب ينزل السلم يوم الخميس طرأ على ذهنه أنه بعد أيام سيبلغ الخامسة والسبعين. لم يتعود أن يحتفل بعيد ميلاده ولاحتى أن يذكره إلا بعد أن ينقضي بمدة، غير أنه توقف لحظة عندما تذكر وقال لنفسه:

ـ ها أنذا أبلغ الخامسة والسبعين ومازلت مبتلى بالصحة والعافية!، ولدت في أول سنة من القرن فهل سيكتب علي أن أحمله على كتفي حتى نهايته؟.

بدأ ينزل الدرجات بطيئا على غير عادته، تمنى لو يقابل أحدا من الجيران ليقف معه قليلا ويتحدث إليه، ولكن في ذلك الوقت من النهار يكون الكبار في أعمالهم والصغار في مدارسهم، كان هناك الصمت الذي يقلقه ويحاول أن يهرب منه دائما، صمت يغلف السلم والعمارة كلها، ثقيلا وسميكا يوحي بالفراغ والوحشة، يؤكده وقع خطواته وإيقاع عصاه.

توقف على بسطة السلم وحدث نفسه مرة أخرى : صمت أثقل من ذلك سيجيء عما قريب، فكيف ستواجهه؟ لا ياسيدي، لاتخدع نفسك ، لانهاية القرن وربما حتى ولانهاية العام.

أسرعت خطواته على الدرج الخالي كأن هناك من يطارده، وتنفس بعمق حين خرج إلى الطريق المزدحم، اتجه كالعادة نحو محطة (الأتوبيس)، لكنه حاد فجأة عن طريقه وجلس على مقهى كان يتردد عليه من قبل في بعض الأحيان. جلس يطل على ميدان السيدة زينب الواسع، يغزو سمعه صليل عربات الترام المتتابعة ونداءات باعة السبح والبخور، وباعة الفاكهة الجائلين وصيحة مجذوب الست الطاهرة الملتحي الذي يلبس فوق الجلباب سترة صفراء، ويصيح أمام بابها «مداااد» وهو يلوح بعصاه الطويلة، وأشعرته هذه الضجة المألوفة بالطمأنينة، ركز

بصره على قبة المسجد البيضاوية، وقال لنفسه إنه ملزم الآن أن يفكر في مصيره بطريقة أخرى.

في الدقائق الخمس الأخيرة قبل جمع الأوراق تذكر أبو خطوة وزيارته الأخيرة له قبل خمسة عشر عاما، هو واثق أنه لو أجهد ذهنه ليفهم معنى ماحدث في هذه الزيارة فسيجد حلا لكل مايؤرقه، لكن في تلك اللحظة جاء جرسون المقهى العجوز الذي «بيريش» بجفنيه ورحب به بحرارة وهو يهتف: عاش من شافك ياحضرة الباشكاتب! ثم أضاف بلهجة تمثيلية: «أين أنت وأين أيامك الحلوة؟ شابت الرؤوس وأصبحنا عجوزين».

تغلبت على الباشكاتب طبيعته: أنت الذي أصبحت عجوزا وحدك ياجابر، أنا كالحصان،هذا ليس شيبا، هذه صبغة.

انصرف الجرسون ضاحكا ليحضر له القهوة التي طلبها وعاد الباشكاتب يفكر: نعم، هو لم يكذب، مازال بالفعل كالحصان ولكن حتى متى؟

وكيف انقضت سنوات عمره الطويلة دون أن يشعر بالزمن؟ لو كان أبوخطوة حيا لسافر إليه مرة أخرى ليسأله عن المغزى، بل لسافر إليه ليعاتبه لأنه لم يدله مباشرة على الطريق بدلا من أن يتركه سادرا فيما هو فيه بكلام غامض عن الحب وعن الندم وعن الحياء، الذي هو باب لباب آخر.

لم تفده كثيرا أيضا تلك الكتب التي أعطاها له أبوخطوة لكي يقرأها، لم تكن كتبا دينية بالضبط، بل كتبا عن سير الصالحين وطرائق السالكين، أحب قراءتها كثيرا كما كان يحب في شبابه قراءة الشعر، وجد فيها كلاما جميلا مازال يذكره، بل مازال يحفظه: «سوابق الهمم لاتخرق أسوار القدر» و«رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده» و«إن قل ماتفرح به قل ماتحزن عليه».

فكر وهو يبتسم لنفسه: هو يحفظ هذه العبارات لأنها تلخص حالته

بالضبط!لا، ليس تماما، فهو في الواقع طمع في الفرح الكثير، لا، ليكن صريحا هو مازال حتى الآن يطمع، ربما لهذا أتته الأحزان الكبيرة منذ فقد سمية.

جاء الجرسون بالقهوة وقال بلهجته الاستعراضية وهو يصبها أمامه في الفنجان:

ـ ها أنت ذا ترى ياحضرة الباشكاتب، جابر أيضا ليس عجوزا ، لم أنس طوال هذه المدة قهوتك، هاهي ذي : «على الريحة».

ابتسم الباشكاتب بالرغم منه وهو يقول: فضحت نفسك ياجابر! أنا أشربها طول عمري (زيادة).

أراد جابر أن يرفع الفنجان معتذرا: غبت عنا أطول من اللازم ياأستاذ.

لكن الباشكاتب أزاح يده قائلا: اتركه، زيادة أو ناقص كلها سموم، لا تفرق. قل لي ياجابر، كيف حال زبائنك؟.

ـ انتهوا يا أستاذ، الدنيا تغيرت والزبائن تغيروا.

ـ حقا؟ قل لي كيف يتغير الناس، أحب أن أعرف.

قال بانفعال وهو يضرب كفا على كف: يتغيرون بسرعة؛ الزبائن القدامى اختفوا، يأتيني الآن في المساء شباب وعواجيز لايتحدثون إلا عن السفر إلى بيروت وتمرير البضاعة من الجمرك وتغيير الدولارات، حتى زبائن زمان المحترمون مثل حضرتك بعضهم الآن يا أستاذ يشتغلون تجار شنطة، (يسبسبون) شعورهم ويلبسون نظارات سوداء في عز الليل ولا أعرف لماذا؟، والكل الآن يشتري أرضا ويبني بيوتا، متر الأرض الذي كان بسعر التراب في حواري السيدة أصبح الآن يباع بالشيء الفلاني.

لم تكن هذه الأخبار تهم الباشكاتب في شيء فقال وهو يأخذ رشفة من فنجان قهوته:

ـ ذكرتني ياجابر فشكرا لك، جاءني خطاب قبل أيام من تنظيم الحي بأن

هناك شرخا في جانب البيت.

سأل جابر بلهفة وجفناه (بيرفشان) بسرعة أكبر: ستهدم البيت يا أستاذ؟.

رد الباشكاتب في دهشة:

ـ لماذا أهدمه ياجابر؟. سأرممه طبعا.

فتكلم بلهجة المشفق على زبونه القديم:

ـ غيرك يا أستاذ يدفع أموالا ليحصل على هذا الخطاب؟. كل الملاك يتمنون الآن هدم بيوت الإيجار القديم لكي يبنوا عمارات للتمليك.

هز الباشكاتب رأسه دون اكتراث وسكت لكي يفهم جابر أنه لايريد مواصلة الحديث. ولكن جابر ظل متكئا إلى جواره وأخيرا تنحنح وقال وهو يشيح بوجهه قليلا:

ـ قل لي ياحضرة الباشكاتب. بالأمس أخبرني أحد الزبائن أن الحكومة تسمح الآن بتغيير الدولارات في السوق السوداء. فهل هذا صحيح؟ الزبون يريد أن أعمل معه في تغيير الدولارات ويعطيني عمولة لكني خائف.

ـ معك حق ياجابر. تغيير العملات خارج البنوك جريمة عقوبتها السجن.

ـ ياساتر يارب. الله الغني.

ولكن عندما انصرف جابر متظاهرا بالذعر تساءل الباشكاتب إن كان يسأله النصيحة بالفعل أم يعرض عليه الدولارات؟ لم يتغير جابر. من قبل كان يعرض على زبائنه لفائف (الكيف) في ورق (السيلوفان). لعله مازال يفعل ولعله الآن يجمع بين الحسنيين. ماله هو وذاك ؟. المهم الآن أن يتغير هو نفسه لو استطاع.

ابتسم حين تذكر عبارة أبو خطوة المهم ألا تيأس من الاستقامة إن وقع منك ذنب فقد يكون هو آخر ذنب كتب عليك. إن يئست يا توفيق أفندي كنت كشخص سقط من فوق فرس. فإن ظل ساقطا على الأرض فاته بلوغ مقصده وإن جاهد

ليركب فرسه من جديد وصل إلى غايته.

ولكن كم مرة عاود هو امتطاء الفرس دون أن يصل إلى أي مكان.

أزاح فنجان القهوة من أمامه في شيء من الضيق وهو يزفر: لماذا يظلم نفسه؟ هو ليس إنسانا سيئا إلى هذا الحد. أكد لنفسه: أنا لم أؤذ إنسانا في حياتي. أحببت الناس جميعا. ولم يعرف البغض طريقه إلى قلبي ضد إنسان حتى ولو أساء إليّ.

وبعد أن ماتت سمية ألم أبق وافيا لذكراها عشرات السنين؟ نسيت هذا الجسد الذي ابتلاني به الله وكرست حياتي لولدي ولولديه من بعده. حتى عندما زرت أبوخطوة آخر مرة لم يكن هذا من أجل نفسي. بل من أجل شعبان. ومرة أخرى حيرني الرجل الطيب بما قال وبما فعل.

ولكن ربما تكون تلك هي اللحظة التي ستكشف كل شيء. ربما تكون هي لحظة النداء. فليحاول الآن استعادة كل شيء. كلمة كلمة. خطوة خطوة. كان قد أصبح عجوزا جدا عندما زرته. كنت أنا نفسي قد خرجت إلى المعاش وخرج هو قبلي بكثير لكني وجدته مع ذلك في مكتبه القديم نفسه. تعللوا في المحكمة بأعذار دائمة للإبقاء عليه في الخدمة. «للاستفادة من خبرته». حتى ولو لم يفعل شيئا على الإطلاق. أرادوا فقط أن يظل معهم ليشعروا بأن (البركة) باقية في المكان. احتضنني حين رآني وقال : كنت أعرف أنه لن تفوتك المناسبة. وأنك ستلبي الدعوة!. لم أفهم معنى ذلك في حينها ولكني اختليت به وحدثته عن شعبان. إنني استخرت الله وأعدت فتح محل جده لكن أحواله في العمل ليست على مايرام. قلت إني جئت ألتمس النصح والدعاء. استمع إلي بانتباه وحين انتهيت سألني باهتمام: «ما اسم حفيدك الصغير يا أخ توفيق؟». ثم أخرج مفكرة من جيبه وكتب فيها اسم سالم. خشيت أن يكون قد أساء الفهم فقلت له يا مولانا ولدي اسمه

شعبان وهو الذى من أجله جئت، لكنه أكمل وكأنه لم يسمعنى «أمهلنى حتى الغد يا أخى توفيق، غدا ستجد ماتطلبه حاضرا بإذن الله». ثم غام بصره قليلا وهو يتطلع نحو السقف قبل أن يقول «معك حق يا أخى. أحيانا يكون أحفادنا أحفى بنا من أبنائنا الذين هم أصلابنا. أحيانا أيضا يكونون آباء لنا دون أن تدرى!». لم أجرؤ على مراجعته لأقول له إنى مانطقت بشىء من ذلك كله، لكنى غمغمت «سالم صغير يامولانا. لم يدخل المدرسة بعد. أما أبوه فيحتاج حقا أن تدعو له». فرد: «ومن منا لايحتاج إلى الدعاء وإلى رحمة ربه ياحضرة الباشكاتب؟ غير أن الطريق طويل وخطانا التى نحسبها تمضى بنا على الطريق تقودنا أحيانا إلى عكس الطريق، سعيد من تهتدى خطاه فلا يضل. ولاتحسب ياتوفيق أن عملك أو عملى هو المنجى وإنما هى رحمة مولاك».

لابد أن يكون قد رأى فى وجهى وقتها الحزن لأنه مد يده ووضعها على كتفى كأنه يضمنى إليه ونظر إلى بحنو كما ينظر إلى طفل صغير وقال: «لا تخش شيئا ياحضرة الباشكاتب. أنت رجل صالح وستحل بك وبنسلك البركة بإذن الله».

تحاشيت من أول اللقاء أن أحدثه عن نفسى ولكنه حين تكلم عن صلاحى طفرت من عينى الدموع وقلت بصوت مختنق «أنت تقول لى ذلك وأنت أدرى الناس بحياتى؟» فرد: «ولأننى أدرى فأنا أتكلم. الأرواح وحدها هى التى تتلوث يا أخى توفيق وأنت روحك أصفى من البلور. من أدراك بحياتى أنا أو بذنوبى؟ أنا كنت أسوأ مما يمكن لخيالك أن يتصور. أتحسب أن الصالحين يولدون ملائكة؟ ألم تعلم أنه كان منهم الغوانى واللصوص؟». قلت: «ولكنهم تابوا فى الوقت الصالح فأصبحوا من الصالحين. أما أنا كما ترى فقد مرت بى السنون وصرت شيخا أشيب». فقال: «لاييأس من الوقت إلا من يجهل أن الرحمة تسبق الوقت ولايسبقها الوقت. وأنت كابدت وستكابد أكثر فادع لى يا أخى توفيق!». وحين قال ذلك نظر

نحوى بعينين مغرورقتين بالدمع ثم رفع يدى فقبلها. هو الذى كان يأبى على الآخرين أن يقبلوا يده ويزجرهم إن حاولوا ذلك. سألته فى ذهول وسط دموعى «أنت تفعل ذلك. وأنا الذى أدعو لك يامولانا؟».

فهز رأسه وقال بصوت خافت: نعم. فكم أحتاج إلى دعائك.

ليلتها لم أكد أعرف النوم فى غرفة الفندق الصغير فى أسيوط. أتتنى فى المنام سمية ورأيت وجهها يشبه وجه أبو خطوة أو ربما كان أبو خطوة يقف إلى جانبها وسط زحام كثير فاستيقظت من النوم وأنا أنشج وأرتجف. ثم أسبغت الوضوء وصليت وأنا أطلب المغفرة وأدعو لأبو خطوة طويلا وكثيرا كأن تنفيذ وصيته تلك سيفتح لى باب النجاة!

وفى الصباح الباكر ذهبت إلى المكتب القديم. ابتسم لى أحد السعاة وقال مولانا لا يأتى فى مثل هذا الوقت المبكر.

لكن أبوخطوة أتى مبكرا فى ذلك الصباح.

احتضننى بوجه باش وهو يقول: «رأيت لك الليلة رؤيا وبشرى» فقلت «وأنا أيضا رأيتك فى المنام». ثم سألته بلهفة: «ماهى البشرى؟». فهز رأسه دون أن تفارق الابتسامة شفتيه وقال: «لسنا مأذونين بالبوح. ولكن هى خير». ثم وضع يده فى جيبه وأخرج ورقة مطوية أعطاها لى وهو يقول: «هذه لحفيدك سالم ياسيد توفيق. عندما يأتى الوقت لاتدعها تفارق صدره. فلتكن دائما قرب قلبه». أمسكت الحجاب المطوى بين يدى ورحت أقلبه وأنظر إليه فتحولت ابتسامة أبوخطوة إلى ضحكة طلقة وهو يقول: «لاتخف ياحضرة الباشكاتب! نحن لانصنع سحرا ولانكتب تمائم ولا خرافات. هى أدعية كتبتها من قلبى وأرجو أن يقبلها الله». فغمغمت أعرف ذلك بالطبع يامولانا ولكنى أردت أن أسأل عما طلبته منك لولدى فرد باقتضاب: «سيكون بخير بإذن الله». سألته بإلحاح «دعوت له يامولانا أن

يبصر له الله؟». فقال: «كثيرا ياولدي، وادع له أنت أيضا دون أن تفقد الأمل، واعلم أن الأمر كما قال أشياخنا: «فقد يفتح للمرء باب الطاعة دون أن يفتح عليه بالقبول، وربما يقضى عليه بالذنب فيكون سبب الوصول».

* * *

ظل الباشكاتب في المقهى مستغرقا في التفكير، راح للمرة الألف يستعيد التفاصيل والعبارات التي حفظها ليدرك معناها، وهاهو ذا في الهزيع الأخير من العمر مازال متحيرا كما كان في البدء.. قال لنفسه: أفهم بالطبع أنه حدس أن سالم سيكون في حاجة إلى المساعدة أكثر من أبيه، أما كيف حدس ذلك فلا أدري، وأفهم بالطبع أنه تنبأ لي بحسن الختام، ولكن متى ونحن الآن بالفعل في الختام؟.

ثم تساءل الباشكاتب ساخطا: ولماذا لاتفهم أنه كان يشجعك على أن تغير طريقك في الحياة؟ ألم يقل إن خطانا تقودنا أحيانا دون أن ندري إلى عكس الطريق، وأن السعيد من تهتدي خطاه؟ فما الذي يشل خطاك؟ أنت ياتوفيق تعرف كل شيء، وتفهم كل شيء.. إن شئت أن تبدأ اليوم فلن يمنعك أحد، وإن شئت أن تظل كما أنت فلن ينفعك مائة أبوخطوة ولو هبوا لنجدتك من القبور!. نعم، ولكن شيئا في نفسي يقول مع ذلك إن هناك رسالة خفية وراء ذلك الواضح والمفهوم، ليكن، حتى لو كان هذا صحيحا فهو ليس عذرا للإرجاء، ولا التمادي.

مرة أخرى زفر الباشكاتب وقال وهو يستعد للنهوض «هانت!».

نادى على جابر ليدفع له الحساب فقال له: بدري يا أستاذ!.

فرد الباشكاتب وهو يضحك: بل متأخر جدا ياجابر!.

ولكن جابر كان مشغولا بالبحث عن شيء في جيوبه وأخيرا أخرج بطاقة

زيارة مصفرة ومتجعدة وقدمها للباشكاتب الذي نظر إليها في دهشة وهو يسأل ما هذا ياجابر؟.

- عنوان السمسار الذي حدثتك عنه ياحضرة الباشكاتب.

- أي سمسار؟.

- إن شئت حضرتك أن تهدم البيت أو تبيعه!.

سأل في ذهول:

- أنا حدثتك ياجابر عن هدم البيت أو بيعه؟، أنا قلت لك يا إبني إني سأرممه، فقال وهو مازال يضع البطاقة تحت أنف الباشكاتب:

- هو يعمل أيضا في الترميم!.

انقل حضرتك رقم تليفونه فقد تحتاج إليه.

ابتعد الباشكاتب عنه وهو يقول: إن احتجت إليه فسأعود إليك، شكرا!.

ثم انصرف من المقهى وظل يقف فترة في الطريق، فكر للحظة أن يرجع إلى البيت، ولكن خطاه قادته إلى محطة الأتوبيس وهو يقول لنفسه:

- تأخرنا على الهانم!.

* * *

عندما رجع الباشكاتب إلى البيت متأخرا في الليل كالعادة وجد سالم مستغرقا في الاستذكار، فجلس إلى جواره يراجع معه ما أكمل من دروس، لكن سالم قال له:

- قبل أن أنسى، فوزية كانت هنا.

- في الليل؟ هل كانت تريد شيئا؟.

- نعم، قالت كلاما غريبا، سألت إن كان من الممكن أن نبني مكان (الجنينة)

بعض الدكاكين وتؤجرها بالإيجارات الجديدة.

هب الجد واقفا وهو يهتف:

ـ بدأنا!.

ومضى سالم يقول:

ـ لا أظن أن هذه الفكرة السخيفة من عندها، أعتقد أن هذه من أفكار الأستاذ فراج!.

لكن جده كان يفكر في شيء آخر، فقال بصوت أكثر خفوتا:

ـ أو ربما نكون انتهينا!.

(٧)

عرف سالم البنات لأول مرة وهو في السنة الثانية الثانوية. كان يقف عند سور السطح وفي يده كتاب يذاكر فيه بعد زواج فوزية وانتقالها من البيت فرأى بنتا من الجيران تتلكأ فوق السطح المقابل وتتطلع نحوه بين فترة وأخرى وعلى شفتيها شبح ابتسامة. حوّل بصره على الفور وانهمك في كتابه، وعندما رأت البنت ذلك نادته باسمه بصوت خافت مرتين فالتفت نحوها. ابتسمت ابتسامة كبيرة وهي تستخدم يديها لغة الإشارات وأعطته موعدا.

كانت ثريا تلميذة أيضا في مدرسة السنية. انتظرها بعد خروجها من المدرسة وسارا معا يحملان حقائب الكتب الثقيلة. انتبه إلى أنها أقصر منه بكثير وإلى أن هناك (نمشا) في وجهها. سارا معا صامتين وأخيرا انفجرت هي بالضحك وقالت «أنت صنم؟». فازداد ارتباكه ولم يقل شيئا. بدأت تسأله أسئلة «هل يتابع مسلسل محمد صبحي في التليفزيون؟». «هل يذكر أنها سلمت عليه يوم فرح فوزية؟». «هل ينوي أن يدخل القسم العلمي؟».

وعن كل تلك الأسئلة كان سالم يجيب بنعم أو لا دون زيادة، فبدأت هي تتكلم، قالت إنها تحب سعاد حسني جدا ورأت فيلمها الأخير أربع مرات، وتتمنى أن تنجح في الثانوية العامة بمجموع لكي تدخل كلية الإعلام وتشتغل بعد التخرج مذيعة في التليفزيون، والمشكلة أنهم في الإعلام يطلبون «مجاميع» كبيرة وهي لاتحب المذاكرة، وقالت إن أباها يملك محلا وورشة لصناعة المفاتيح والأقفال وإنه صاحب جده الباشكاتب ولكن لو رآها أبوها تمشي معه الآن فسوف يقتلها، وقالت إن لها أخا أصغر منها في الابتدائية (شقي) جدا ويتعمد إغاظتها بعمل ضجة

وصراخ أثناء مشاهدتها للمسلسل ولكن أمها تضربه لأنها هي أيضا تتابع التمثيليات.

ثم سألت سالم هل هو مغرور جدا أو أنها بصراحة لاتعجبه ولهذا لا يريد أن يتكلم؟.

فقال وهو يشعر بدوار وساقيه تخذلانه إنه ليس مغرورا ولكنه في العادة لا يتكلم كثيرا.

قالت ثريا: لاحظت هذا يوم فرح فوزية.

ثم أضافت وهي تضحك: ومع ذلك لاتبالغ!..

لم تعرف أن معجزة هي التي جعلت سالم يذهب للقائها في الموعد، ولا شعرت بالمحنة التي يعيشها وهو يسير إلى جوارها في الطريق. كان كلامها يصل إلى سمعه مكتوما ومتقطعا كأنه يأتي من بوق بعيد، وعندما تسأله سؤالا كان الدم يصعد إلى رأسه ويجف ريقه فلا يكاد يستطيع تحريك لسانه، ولم تعرف أنه كان يحاول باستماتة أن يبحث عن كلام يرد به على كلامها فلا يجد في رأسه غير الفراغ والنبض المتلاحق. لم تدرك أن ذلك ليس غرورا ولا حتى خجلا، وإنما ببساطة أن الكلام قد هرب منه مثلما اعتاد أن يهرب عندما يلتقي بالغرباء.

وبعد أن افترقا راح يسأل نفسه في غضب لماذا؟ لماذا كان خائفا إلى هذا الحد؟ لماذا تستطيع ثريا أن تتكلم ولايستطيع هو؟ ما الذي يشل لسانه؟ لماذا يمكنه أن يتكلم مع جده ومع فوزية عن أشياء كثيرة والآن ضاعت كل الأفكار والألفاظ؟، ولماذا لم يعالجه الطبيب الذي أخذه أبوه إليه قبل سنوات؟ لكن يعالجه من ماذا؟، هو ليس مجنونا، أستاذ الرياضيات يقول إنه نابغ، يستطيع أن يحل أي مسألة أو معادلة قبل أي تلميذ آخر. فما الذي يمنعه من أن يتكلم مع ثريا؟ ولماذا كان يخاف من مقابلتها والخروج معها؟ لولا مشاجرته مع

الطالب الذي قال له إنه ليس رجلا مادام لايعرف بنات لما استجاب لموعدها من الأصل. والآن ما العمل؟.

حاول سالم من جديد. التقى مع ثريا مرتين بعد ذلك. مشيا معا على شاطىء النيل ناحية قصر العيني. رأى سالم أزواجا كثيرة من الأولاد والبنات في ذلك المكان الذي تحجب الأشجار نور مصابيحه المطلية باللون الأزرق منذ أيام الحرب. كان المحبون يشعرون هناك بالأمن فيمسك الأولاد بأيادي البنات ويتهامسون. لايرتفع أي صوت وإن لم ينقطع الهمس. ولكن سالم ظل صامتا وهو يستمع إلى حكايات ثريا. كان قد أعد كلاما يقوله لها لكنه عندما فتش عنه في رأسه لم يجده. حاول أن يسترق السمع ليعرف عن أي شيء يتكلم الشبان إلى صاحباتهم ووجد ذلك صعبا. فمن بعيد لم يكن يسمع غير ضحكات خافتة وكلمات متفرقة ليس فيها شيء من الغزل الذي توقعه: «قلت لابن خالتها».. «لكن أنا رفضت».. «نجمع العنب في فرنسا في الإجازة».. «بعد سنة التجنيد».. الخ. وإذا ما اقترب سالم أو تلكأ أكثر من اللازم كانوا يبترون أحاديثهم وينظرون نحوه صامتين إلى أن يبتعد.

في المرة الثانية حكت له ثريا بانفعال أنها من يومين وجدت قطة وليدة أمام البيت لونها مشمشي وكانت تموء وتكاد تموت لأن أمها تركتها. قالت إنها أحبت القطة جدا وأخذتها وتعتقد أن القطة أيضا أحبتها لأنها ترفض أن تشرب اللبن إلا إذا قدمته لها ثريا بنفسها. ثم سألته: ما الاسم الذي يفضله للقطة: مشمشة أو فافي؟.

فافي.

قالت في غضب: وخلاص؟ هذا كل ماعندك؟.

ثم طلبت في نفاد صبر وبما يشبه الأمر: إحك أنت حكاية!..

كما لو كان يقتطع من لحمه الحى حكى لها بإيجاز شديد حكاية أبوخطوة وزميل جده الذى اختفى فنجان القهوة من أمامه. كان يريدها أن تضحك مثلما ضحك هو عندما سمعها، لكن ثريا ظلت تتابعه بنظرة ثابتة ولما انتهى بلعت ريقها وقالت:

ـ إسمع! أنا أخاف من حكايات العفاريت والجن، هل تريد أن أموت من الرعب بالليل؟ ثم ضحكت فجأة وأكملت فى عصبية:

ـ بذمتك هذا كلام تقوله لصاحبتك؟.

سألها فى يأس: ماذا أقول؟.

لوحت بيدها فى اتجاه الشبان الآخرين، كما يقول كل الناس!.

وكان ذلك هو اللقاء الأخير، لم تعد تظهر على السطح، وعندما قابلها مرة بالمصادفة فى الطريق تجاهلته، ولم يحزن سالم لذلك أبدا، بل شعر براحة كبيرة.

ولكنه عرف بعد ذلك فى الإجازة التى سبقت سنة الثانوية العامة أرملة من قريبات أبيه من بعيد، طلب أبوه أن يساعدها فى إنهاء أوراق لها فى بعض المصالح الحكومية لأنه ليس لها رجل يقف بجانبها، كانت عنايات تكبره بخمس عشرة سنة على الأقل وكانت امرأة ذات جسد ناضج وعينين ملونتين، وكانت تقول له ضاحكة إنها عندما تنظر إلى عينيه هو تشعر كأنها تنظر إلى مرآة. أخذ أوراقها إلى مصلحة المعاشات فطلبوا أوراقا ومستندات أخرى لاحصر لها. زارها فى بيتها أكثر من مرة أيام الإجازة الصيفية، وكانا يجلسان فى صالون بيتها متقابلين وهى ترتدى ثيابها البيتية الخفيفة، أحيانا كانت تأتى لتجلس إلى جواره على (الكنبة) لكى تطلعه على الأوراق التى تريد تقديمها، كان جسده كله يلتهب حين تلمسه ذراعها العارية أو حين يتلامس كتفاهما ويشعر بضغط صدرها عليه. يتزحزح مبتعدا عنها وعرق غزير يطفر من جبهته، وفى لحظتها تحتبس الكلمات

أيضا فى حلقه وتهرب من رأسه. يبقى كل شىء فيه مشلولا سوى قلبه الذى ينبض فى عنف يكاد يسمع طنينه . فى الزيارة الثالثة وهى تودعه عند الباب كان وجهها محتقنا جدا وقالت بصوت خافت متحشرج إلى حد ما:

ـ سأكمل الأوراق ثم اتصل بك، مع السلامة.

أغلقت الباب بشىء من العنف ولم تتصل به بعدها أبدا ـ ومرة أخرى شعر سالم بأنه قد نجا وعاهد نفسه على أن يتجنب أى علاقة من أى نوع مع البنات أو النساء.. وحين سأله أبوه ذات مرة عما تم بالنسبة لأوراق «الست عنايات» أجابه باقتضاب : إن موضوعها انتهى.

* * *

كان هناك على كل حال مايشغله. انهمك تماما فى المذاكرة للثانوية العامة. ثم إن فوزية وضعت طفلها بعد أقل من سنة من زواجها، رجعت البنت القديمة بكل مرحها. اعتادت أن تأتى بصحبة طفلها كل يوم تقريبا بعد أن يذهب زوجها إلى عمله مبكرا جدا فى الصباح. أراد فراج أن يسمى ابنه مسعد على اسم أبيه وصممت فوزية على تسميته سالم، وأخيرا أسموه فى شهادة الميلاد (عاطف) ولكن فوزية تناديه باستمرار (سالم الصغير) أو سلوم.

كانت تأتى فى الصباح قبل أن ينزل أخوها إلى مدرسته وأبوها إلى دكانه وهى تحمل الصغير الذى تعلق به الجميع. لم تكن قد ظهرت له أى ملامح غير شعر أسود غزير كشعر أبيه ويدين ضئيلتين مضمومتين يضرب بهما الهواء. غير أن الجميع كانوا يتناوبون حمله ويكتشفون فيه جمالا غير عادي. كانت فوزية تضن بأن تتركه طويلا مع أى منهم إذ تمد يديها بسرعة وهى تقول ضاحكة: «هاته لأمه الخايبة! . صح ياسلوم؟. أمك خايبة فإياك أن تطلع خايبا مثلها!. ذاكر ياولد وانجح واشتغل. أريد أن أراك (باشكاتب) قد الدنيا!.

ترفعه نحو جدها وتسأل: ألا يبدو ذكيا ياجدي؟ ألا ينفع (باشكاتب)؟.

فيرد جدها مبتسما: (الباشكتبة) راحت عليهم يافوزية؛ حتى لقبهم لم يعد له الآن وجود . تمنى بدلا من ذلك أن يصبح ابنك ضابطا!.

فتحتضنه متظاهرة بالفزع وهي تقول: لاتنك ياحبيبي! جداك لايقصد.

أحيانا كان فراج يأتي أيضا مع فوزية في المساء. كان يبدو على وجهه الإرهاق من كثرة العمل، لكنه لم يفقد شيئا من عاداته، ظل يقتطع من مرتبه في أول كل شهر مبلغا صغيرا ليسدد دين الباشكاتب . ثم اضطر للتوقف قبل ولادة فوزية وبعد إنجابها، وعد الجد بأن يعود للانتظام في السداد عندما يقبض مكافآت تشجيعية طلبها له رئيسه وينتظرها منذ مدة . قال له الباشكاتب ألا يهتم وإنه لم يطالبه بشيء من الأصل لكن فراج رد بأن الدين دين، وذات مرة في إحدى زياراته المسائية قال سالم بطريقة عابرة دون أن يوجه الخطاب لأحد:

ـ تنظيم الحي رفض مشروع (الدكاكين)!.

فظل فراج ينظر إليه مبتسما وهو يسأل في دهشة: أي دكاكين؟ .

ـ دكاكين الجنينة!.

لم يفهم فراج أيضا وظل ينقل بصره بين سالم وشعبان وزوجته والباشكاتب ولكن فوزية نظرت إلى أخيها مقطبة الجبين وقالت بلهجة معاتبة:

ـ فراج لايعرف شيئا عن الموضوع ياسالم، هذه كانت فكرتي أنا.

وحين عرف فراج الحكاية قال بدهشة: دكاكين! في هذه (الزنقة)؟ ما هو عرض الجنينة؟، متر ونصف أو متران ؟ أي بضاعة يمكن وضعها في هذه المساحة؟ وأين يقف البائع؟ على الرصيف؟.

قال شعبان: ربما يمكن أن نستعملها كمخزن.

قال أبوه في يأس: لتخزين أي شيء ياشعبان؟.

وسكت فراج لحظة وشاب صوته شيء من الحزن وهو يقول:

ـ ومع ذلك فوزية معها حق. كل الناس الآن يفكرون في طريقة تزيد من دخلهم أو في مشروع يجلب مالا، ما هذا الغلاء ياحضرة الباشكاتب؟. كيف تكفي المرتبات الناس مع هذا الغلاء؟.

ظل ينظر في حيرة إلى الجد الذي كان مستغرقا في فكرة أخرى وقال ساهما:

ـ إذن ربما يكون جابر على حق.

لم يبحث أحد عن تفسير لهذه العبارة، وقال شعبان: جاءتني فكرة، يمكن أن نضع ثلاجة مياه غازية في الجنينة، يتولى البيع فيها عم أبوزيد البواب، هناك الآن كثير من الشركات الأجنبية ويقال إنها تعطي الثلاجات مجانا أو بالتقسيط.

سأل الباشكاتب: وفي هذه الحالة تصبح ثلاجتنا أم ثلاجة أبوزيد؟.

ثم ضحك بمرارة وهو يقول:

ـ أبوزيد يمكن أن يموت وهو يفتح زجاجة!.

ثم سكت ولم يتكلم أحد.

كان سالم يشعر بالخجل من نفسه فانسحب إلى صمته، وأطرقت فوزية برأسها في حزن، وظل الباشكاتب وفراج ينظر كل منهما إلى الآخر دون أن يجد مايقوله، ولما طال الصمت راحت فوزية تنقل بصرها بينهم، كانت حزينة وغاضبة لكن شعورا أقوى من ذلك غلبها وهي تنظر نحو رجالها الغارقين في التفكير فضحكت وهي تقول:

ـ مالكم ساكتين؟ بسيطة؟ نبني الدكاكين فوق السطح!.

فضحكوا أيضا، ولكن بلا روح.

ترفعه نحو جدها وتسأل: ألا يبدو ذكيا ياجدي؟ ألا ينفع (باشكاتب)؟.

فيرد جدها مبتسما: (الباشكتبة) راحت عليهم يافوزية؛ حتى لقبهم لم يعد له الآن وجود، تمنى بدلا من ذلك أن يصبح ابنك ضابطا!.

فتحتضنه متظاهرة بالفزع وهي تقول: لاتبك ياحبيبي! جدك لايقصد.

أحيانا كان فراج يأتي أيضا مع فوزية في المساء، كان يبدو على وجهه الإرهاق من كثرة العمل، لكنه لم يفقد شيئا من عاداته، ظل يقتطع من مرتبه في أول كل شهر مبلغا صغيرا ليسدد دين الباشكاتب، ثم اضطر للتوقف قبل ولادة فوزية وبعد إنجابها، وعد الجد بأن يعود للانتظام في السداد عندما يقبض مكافآت تشجيعية طلبها له رئيسه وينتظرها منذ مدة، قال له الباشكاتب ألا يهتم وإنه لم يطالبه بشيء من الأصل لكن فراج رد بأن الدين دين، وذات مرة في إحدى زياراته المسائية قال سالم بطريقة عابرة دون أن يوجه الخطاب لأحد:

ـ تنظيم الحي رفض مشروع (الدكاكين)!.

فظل فراج ينظر إليه مبتسما وهو يسأل في دهشة: أي دكاكين؟.

ـ دكاكين الجنينة!.

لم يفهم فراج أيضا وظل ينقل بصره بين سالم وشعبان وزوجته والباشكاتب ولكن فوزية نظرت إلى أخيها مقطبة الجبين وقالت بلهجة معاتبة:

ـ فراج لايعرف شيئا عن الموضوع ياسالم، هذه كانت فكرتي أنا.

وحين عرف فراج الحكاية قال بدهشة: دكاكين في هذه (الزنقة)؟ ما هو عرض الجنينة؟، متر ونصف أو متران ؟ أي بضاعة يمكن وضعها في هذه المساحة؟ وأين يقف البائع؟ على الرصيف؟.

قال شعبان: ربما يمكن أن نستعملها كمخزن.

قال أبوه في يأس: لتخزين أي شيء ياشعبان؟.

وسكت فراج لحظة وشاب صوته شيء من الحزن وهو يقول:

ـ ومع ذلك فوزية معها حق، كل الناس الآن يفكرون في طريقة تزيد من دخلهم أو في مشروع يجلب مالا، ما هذا الغلاء ياحضرة الباشكاتب؟، كيف تكفي المرتبات الناس مع هذا الغلاء؟.

ظل ينظر في حيرة إلى الجد الذي كان مستغرقا في فكرة أخرى وقال ساهما:

ـ إذن ربما يكون جابر على حق.

لم يبحث أحد عن تفسير لهذه العبارة، وقال شعبان: جاءتني فكرة، يمكن أن نضع ثلاجة مياه غازية في الجنينة، يتولى البيع فيها عم أبوزيد البواب، هناك الآن كثير من الشركات الأجنبية ويقال إنها تعطي الثلاجات مجانا أو بالتقسيط.

سأل الباشكاتب: وفي هذه الحالة تصبح ثلاجتنا أم ثلاجة أبوزيد؟.

ثم ضحك بمرارة وهو يقول:

ـ أبوزيد يمكن أن يموت وهو يفتح زجاجة!.

ثم سكت ولم يتكلم أحد.

كان سالم يشعر بالخجل من نفسه فانسحب إلى صمته، وأطرقت فوزية برأسها في حزن، وظل الباشكاتب وفراج ينظر كل منهما إلى الآخر دون أن يجد مايقوله، ولما طال الصمت راحت فوزية تنقل بصرها بينهم، كانت حزينة وغاضبة لكن شعورا أقوى من ذلك غلبها وهي تنظر نحو رجالها الغارقين في التفكير فضحكت وهي تقول:

ـ مالكم ساكتين؟ بسيطة! نبني الدكاكين فوق السطح!.

فضحكوا أيضا، ولكن بلا روح.

(٨)

بالرغم من كل شيء، فقد كانت تلك أياما سعيدة للأسرة. ملأت فوزية وسالم الصغير البيت بالحركة والضحك، وانهمك سالم الكبير في مذاكرته ولم تعاوده الحالة في تلك الأيام الحاسمة. وانشغل الباشكاتب مع حفيده يوما بيوم كما لو كان هو الذي يستعد للامتحان، فنسي أيضا كثيرا مما كان يقلقه، وكانت فرحة عمره عندما اجتاز سالم الثانوية العامة بالمجموع الذي يكفي ليحقق حلمه ويلتحق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة.

وكافأ الباشكاتب حفيده على نجاحه بإطلاعه على سر الملفات الموضوعة فوق مكتبه. شرح له أنها تضم القضايا التي حيرته أثناء عمله في المحاكم. قرأ في حياته وسمع الكثير عن أسباب الجرائم والانحرافات. قرأ عن الفقر وتفكك الأسر والأمراض النفسية والجشع والميول الإجرامية الغريزية وكثير غير ذلك. ولكن أي شيء من هذه الدوافع للجريمة كلها يجعل رجلا مشهورا له بالطيبة في الحي الذي يسكنه يقتل جارا له لأن ابنه البالغ خمس سنين من العمر تشاجر مع ابن جاره الطفل؟.

ولماذا يقدم صراف معروف بالأمانة لعشرات السنين على اختلاس خزينة الحكومة ليقضي أسبوعا في الاسكندرية يعرف أنه سيقضي بعده سنوات في السجن؟ ولماذا يقتل زوج زوجته التي عاش معها سنوات طويلة لأن طعام العشاء لم يعجبه؟.

ولماذا غير ذلك كله من التفاهات التي تضمها الملفات؟ كلها جرائم ليس لأصحابها تاريخ سابق في الإجرام ومع ذلك فهم جميعا في لحظة ما ولسبب شديد التفاهة يرتكبون الجريمة التي تضيعهم وتضيع غيرهم.

قال الباشكاتب إنه قضى عمرا طويلا يبحث عن سر تلك الأسباب التافهة للجريمة فلم يتوصل إلى شيء يطمئن إليه. تمنى لو يكتب كتابا عن هذا الموضوع ولكن الوقت متأخر وسيترك لسالم هذه المهمة بعد أن ينتهي من دراسته للقانون.

قال سالم: وسوسة الشيطان هي السبب.

فرد جده: وسوسة الشيطان وراء كل الجرائم يا سالم والشيطان يوسوس للإنسان طوال الوقت فلماذا في مثل هذه الحالات بالذات لايستجيب الناس إلا للوسوسة التافهة؟.

- فما رأيك أنت ياجدي؟.

- لو كان لي رأى لما تحيرت ولوضعت الكتاب منذ زمن طويل.

ثم بدا لسالم أن جده قد شرد قليلا وهو يقول: ما الذي يجعل خطانا تقودنا إلى عكس الطريق ونحن نعرف أنه عكس الطريق؟.

- لا أظن ياجدي أن من يرتكبون هذه الجرائم التي تتكلم عنها حضرتك يفكرون بعقولهم في لحظة الجريمة.

- بالضبط. لماذا إذن يغيب العقل وتسيطر التفاهة؟.

- لماذا؟.

- ستدلني أنت بعد أن تدرس.

- وهذه الكتب القديمة التي تقرؤها حضرتك والموجودة جنب الملفات ألا تساعد على فهم السبب؟.

تنهد الجد وسكت طويلا قبل أن يرد:

- هذه كتب تتحدث عن النور، لا شأن لها بظلمة النفس.

* * *

بعد أن دخل سالم الكلية، وبدأت الدراسة لم يتركه جده في حاله. ظل يسأل كل يوم عن المحاضرات التي يتلقاها، ويضيف - بفخر - إلى المعلومات النظرية

التي تعلمها حفيده خبرات عملية مستمدة من عمله في المحاكم، ويلقي عليه بعض الأسئلة الألغاز عن إجراءات المحاكمات أو عن دقائق القانون وحين يعجز سالم عن الرد يقول له:

ـ أرأيت؟ ليس كل العلم في المحاضرات ولا في الكتب.

وحين يدافع سالم عن نفسه محتجا: ولكن ياجدي أنا مازلت في أول السنة الأولى!

يرد الباشكاتب في حسم: لايهم، أنت لست كبقية الطلبة، أنت يجب أن تتفوق من أول السنة الأولى.

ولكن ذات خميس بعد أسابيع من بدء الدراسة وبعد أن رجع الجد من جولته الأسبوعية التي لايعرف حفيده عنها شيئا، دخل الباشكاتب إلى غرفة سالم وهو يراجع بعض المواد وجلس قبالته صامتا، توقع أن يسأله كعادته عن آخر المحاضرات غير أنه اكتفى هذه المرة بأن أمسك بالكتاب الذي يقرؤه سالم وألقى عليه نظرة ثم وضعه جانبا.

أحكم العباءة حول جسده وظل يتطلع نحو حفيده صامتا لفترة قبل أن يسأله بهدوء:

ـ قل لي ياولدي، أنت جميل حقا وفي عز الشباب، ألم تلفت نظرك واحدة في الحي أو في الكلية؟ أقصد ألم تحب؟

أحنى سالم رأسه وخرج صوته مبحوحا بعد فترة وهو يقول:

ـ نعم ياجدي، أنا أحب.

ظل الباشكاتب صامتا وهو يقلب في الكتاب دون هدف، ثم رفع وجهه إلى حفيده وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

ـ هل تعرف أني رأيت ذلك في وجهك منذ مدة؟ رأيته ربما قبل أن تعرف أنت ولكني أردت أن أتأكد.

ثم قام وهو ينزع عباءته الصوفية وقال لحفيده بشيء من التردد وهو يقف عند الباب:

ـ لا أريد أن أعرف أسرارك ولكن تجنب المعصية ياسالم.

ثم خرج قبل أن يسمع ردا من حفيده الذي ظل ينظر نحو الباب المغلق شاردا وهو يتساءل: هل هذا صحيح؟ هل عرف جده قبل أن يعرف هو نفسه؟ ربما، ظل يقاوم طويلا الاعتراف بأنه يحب لبنى. كان لها في الكلية أصحاب وصاحبات وكثيرا ما رآها وسط مجموعات من الطلبة أما هو فلم يكن له في الكلية أصدقاء، قلة من الزملاء، كان يتبادل معهم التحية في المدرج وربما أسئلة عابرة عن الأساتذة والمحاضرات وتنتهي علاقته بهم عند هذا الحد، وعندما كانت بعض البنات ينظرن نحوه وفي عيونهن إعجاب ودهشة كان يبذل كل جهده ليبتعد ويختفي عن الأنظار.

لم ينس سالم أبدا تجربته مع الأطباء في صغره ولا ما كان يسمعه من همس بين فوزية وجده عن حالته، وفهم إصرار الجد على أن يعلق الحجاب على صدره والأدعية التي كان يهمس بها حين يضع يده على رأسه، عرف أنه عندما تأتيه الحالة يقول أشياء سيئة ثم ينساها وأن الأفضل له أن يلزم الصمت ويتجنب الناس قدر الإمكان.

أحيانا كان يثور على نفسه، يود لو يصبح مثل بقية الأولاد من سنه.

وعندما قال له تلميذ في المدرسة إنه ليس رجلا مادام لايعرف أي بنات تشاجر مع هذا التلميذ، لكنه بكى وحيدا في البيت، وجاءت دعوة ثريا بعدها لتنقذه من إحساسه بالقهر والعجز، أراد أن يقاوم خوفه ويثبت أنه مثل غيره، ولكن حكايته مع جارته أقنعته بألا يكرر المحاولة.

ابتعد في الكلية عن لبنى بالذات، لم تكن هي أجمل البنات لكنها لفتت نظره منذ رآها.

كانت تلبس باستمرار (بلوزة) بيضاء قصيرة الكمين و(جونلة) واسعة، تضع يدها في جيبها وتمشي وسط ممرات الكلية كما لو كانت مسرعة إلى هدف ما، لكنها تتوقف بين حين وآخر وتتلفت حولها ويبدو عليها أنها غير واثقة من وجهتها، أو تميل بنصف جسمها إلى الخلف دفعة واحدة كأنها ستعود أدراجها بالسرعة نفسها لكنها تمضي في طريقها، عندما تتكلم أيضا كانت تميل برأسها قليلا إلى جانب وتخرج الكلمات من فمها متقطعة ومترددة.

ظل سالم يراقبها من بعيد حريصا ألا تنتبه إليه، أحب عينيها العسليتين وشعرها الكستنائي المقصوص الذي يصنع دائرة حول وجهها، وتتدلى منه خصلتان صغيرتان كعلامتي استفهام بجانب الأذنين. أحب أكثر من ذلك شيئا ما في مشيتها وطريقة كلامها، لكنه كان يراها مع أصحابها وصاحباتها في الكلية يقفون في (شلل) ويتكلمون بصوت عال.

فقال سالم لنفسه هم جميعا أنجح مني مع البنات ومن المؤكد أن واحدا منهم يحبها، أراد أن يقول لجده: إن تكن قد رأيت في وجهي الحب، فهل رأيت أيضا أنني لم أبح بهذا الحب؟.

* * *

مر شهران أو أكثر على بدء الدراسة دون أن يخرج سالم من وحدته.

وفي مرة في الفاصل بين محاضرتين كان يقف وحده في ركن مزدحم بمجلات الحائط التي يحررها الطلبة، كانت هناك مجلات كثيرة داخل إطارات زجاجية تنشر كلاما مع الرئيس السادات ومجلات أخرى بعضها مثبتة إلى الحائط مباشرة بدبابيس وقد تمزقت أجزاء منها وتكتب كلاما ضد الرئيس، وقف لمجرد أن يضيع الوقت في قراءة واحدة من هذه المجلات الممزقة لكن الكلام بدا له كالألغاز فهز رأسه وهو يهم بالانصراف، تذكر تحذيرات جده الصارمة، السياسة

مستنقع لا شأن الذي به، من يخوض فيه يضيع، لم يهتم الباشكاتب أبدا بالسياسة واعتاد أن يغلق الراديو أو التليفزيون عندما تبدأ نشرة الأخبار، علمه عمله في الوظيفة من صغره الحذر والتحفظ وأكدت له تطورات الأمور في البلد صواب رأيه فورث حفيده النفور من السياسة.

لكن بينما كان سالم يهم بالانصراف سمع صوتا خلفه وحين التفت وجد لبنى ومعها طالب آخر يذكر شكله تماما، كان متوسط الطول عريض الكتفين بترك شعره الأسود مهوشا وقميصه مفتوحا عند الصدر، وكانت له شفتان غليظتان مميزتان.

سمع لبنى تقول بصوت خافت ضارع: ابتعد عني يامرتضى! قلت لك أن تبتعد عني.

فقال مرتضى في إلحاح: ولكنك وعدت.

ردت بعصبية: رجعت في كلامي يا أخي، ارتحت؟.

- لا .. لابد أن أعرف السبب.

قالت وصوتها يرتفع قليلا وكأنها على وشك أن تصرخ: يا أخي أنت مصيبة؟ قلت لك اتركني في حالي!.

توجه سالم نحوهما وكأنه سمع استغاثة ولم يقل غير كلمة واحدة:

- ممكن؟...

فرمقه الآخر بنظرة كارهة واستدار مبتعدا، أوشك هو أيضا أن يمضي في طريقه ولكن لبنى قالت له بلهجة ممتنة: أشكرك.

قال: وماذا فعلت؟.

ثم أكمل بشيء من التردد: أنا أعرف هذا الطالب.

سألته باستغراب: كيف تعرفه؟.

ـ مرة اصطدم بى عند باب المدرج فاعتذرت أنا له لكنه قال لى أن أنتبه فى المرة المقبلة.

ضحكت ليلى بعصبية: نعم، هذا بالضبط هو مرتضى، تعطيه يدك فيريد أن يأخذ ذراعك.

ثم لوحت بيدها: دعنا منه رأيتك تقرأ المجلات، مارأيك فى الكلام؟

رفع سالم يده الخالية من الكتب أمام صدره كأنه يدفع تهمة وقال: أنا فى السياسة صفر!.

فهزت رأسها: هذا أفضل شىء.

كانا يسيران جنبا إلى جنب بخطوات بطيئة وأراد سالم أن يسألها عن سبب شجارها مع مرتضى لكن شيئا فى داخله قال له أن يسكت، كانت هى التى واصلت الحديث:

ـ أراك من أول السنة فى المحاضرات لكنى حتى الآن لا أعرف اسمك.

قال لها عن اسمه وكان هو يعرف اسمها منذ زمن طويل لكنه سأل كأنه يجهله.

ظلا يسيران معا وكانت هى التى تنقل الحديث من موضوع إلى آخر، وفجأة وجد سالم الكلمات التى كانت تحتبس فى حلقه تخرج دون عناء، لا يذكر حتى عن أى شىء تكلما بعد أن تبادلا الأسماء، لكنهما ظلا يسيران جنبا إلى جنب.

تركا المحاضرة التى كانت توشك أن تبدأ وخرجا معا من الكلية كأن بينهما موعدا ، واتجها دون اتفاق نحو كلية الآداب المقابلة، وكانت على عادتها تتوقف لحظة وهما يسيران وتلتفت فجأة إلى الخلف فيفعل سالم مثلها، لكن أحدا لم يكن يتبعهما، دخلا كلية الآداب ومشيا معا فى ممرات وصعدا الدرجات الحجرية وهبطا أكثر من مرة وهما يثرثران دون هدف عن الزملاء، والمواصلات والأساتذة وعن أى شىء يخطر على البال، وجلسا على إفريز حجرى فى أحد الممرات وراحا

يكملان الحديث الذى استغرقا فيه ، يهمسان أحيانا، يضحكان كثيرا، يصمتان عندما يحملق طالب أو طالبة يجريان ليدخلا مدرجا بدأت فيه المحاضرات لكنهما لايقومان من مكانهما، عندما يحل أي صمت كانت ليلى تمد أصابعها لتعبث بخصلة الشعر المتدلية بجانب أذنها، أو تلتفت نحوه فجأة بعينيها العسليتين وهما يتكلمان فترى ارتعاشة أهدابه لحظتها ويتضرج وجهها وهى تحنى رأسها على الفور، تعبث فى كتبها لحظة ثم تعود لتتطلع نحو السقف تأتيهما الأصوات مكتومة ورتيبة من قاعات المحاضرات المغلقة فيشعران فى عزلتهما بسلام، يهمسان وتزيد فترات الصمت، ودون أن يتعمد وضع يده على يدها وهو يحكى شيئا فسحبتها على الفور ونظرت نحوه بعتاب، ارتبك وتمتم باعتذار وهو يتزحزح مبتعدا عنها، لكنها تفحصت بعد ذلك بنظرات سريعة لليمين واليسار فى الممر الخالى ثم مدت يدها وأمسكت بيده دون أن تنظر إليه ووضعتها ببطء فوق يدها كما كانت من قبل، كانت تجلس إلى جواره مشدودة كالرمح ولكنها حين وضعت يده الساخنة فوق يدها الملتهبة أسندت ظهرها للحائط وهى تتنهد بعمق، وراح هو يتحسس يدها برفق وكان أنامله تقبل تلك اليد، غير أنهما يفزعان معا وينهضان حين يفتح باب إحدى القاعات ويخرج منه الطلاب بضجيجهم المألوف، يذهبان إلى ممرات أخرى، إلى كليات أخرى فى الجامعة، تتماسك أيديهما حين يشعران بالأمان وينفصلان مسرعين حين يلوح أى شخص أو يسمعان أى صوت، تمر الساعات دون أن يدريا بالوقت وهما ينتقلان من مبنى إلى آخر فى الجامعة الواسعة.

قرب الغروب قالت «ياه، نحن تأخرنا»، ولكنهما ظلا يسيران تائهين حتى وصلا قرب السور الخلفي للجامعة، ووراء أحد المباني سقطت الكتب من يدها فانحنى ليلتقطها وانحنت هى فى اللحظة نفسها وتلامس الجسدان وهما ينهضان معا ووجد وجهها قرب وجهه تماما متوردا بلون الشمس الغاربة فمس خدها بشفتيه

برقة وسرى ملمس بشرتها الناعمة من فمه إلى جسده كله.

ابتعدت لبنى وراحت تتطلع إلى الأمام والخلف فى فزع ثم قالت: كان يمكن أن يطردونا معا لو رأونا! فقال سالم وقد عاوده الفزع أيضا: لم أقصد صدقينى. لا أعرف كيف.

لكنها لم تكن تسمعه. ضحكت ضحكة صغيرة وهى تقول: كل هذه الجرأة! فلماذا إذن ظللت من أول السنة تنظر إلى دون أن تكلمنى؟ وكيف لم تفهم لماذا أنظر أنا إليك؟.

ثم فجأة طوحت بكل الكتب التى ناولها لها بامتداد ذراعها وقالت بنبرة فرحة ملعون الخوف!. ملعونة الـ... الـ..... ولم تكمل لبنى ليعرف ما الذى تلعنه لكنها جذبته من يده وقالت تعال... تعال نجمع هذه الكتب مرة أخرى!.

* * *

مشى سالم دون أن يدرى حتى وصل إلى البيت مبهور الأنفاس.

سأله جده فى دهشة:

ـ ماذا بك. لماذا تلهث هكذا؟ كنت فى الجامعة أو كنت تلعب الرياضة؟. لماذا تأخرت حتى الآن؟.

لم يرد سالم على أى من هذه الأسئلة. ألقى على جده السلام ثم دخل إلى غرفته. جلس إلى المكتب واضعا رأسه بين يديه. لم يكن يفكر فى شىء.. لم يسترجع حتى لحظات النعمة التى عاشها. كان يرتجف وهو يتحسس يديه ويسأل نفسه فى دهشة: هل حدث لى هذا بالفعل؟ هل كان هذا أنا؟ ولم يخرجه من الدوامة غير طرقات جده على الباب وهو يسأل فى تذمر:

ـ وبعد؟ ألن نتعشى فى ليلتنا هذه؟.

فتح سالم الباب وقال لجده بابتسامة:

ـ سامحنى ياجدى. الليلة لا أريد.

القسم الثانى

لبنى

(٩)

فتحت لبنى باب الشقة فواجهها الظلام، وعندما لمست المفتاح غمر نور النجفة الكبيرة الأثاث الثقيل الذى تكزه فى ردهة الاستقبال الواسعة : المقاعد الذهبية ببطانتها الفضية ، والمائدة الرخامية الطويلة التى تعلوها مزهرية (الكريستال) البيضاوية الضخمة والخالية من الزهور ، ودولاب المكتبة الزجاجية الذى يضم وسط الكتب دمى وتماثيل فضية .

وقفت لحظة تتطلع إلى تلك الأشياء، وابتسمت لنفسها : ماذا كانت تنتظر ؟ أن تدخل فتجد بدلاً منها بستاناً أثيريا تسبح فيه؟.

تساءلت ولم لا ؟ إن تغيرنا نحن فلماذا لا يتغير ما حولنا ؟ ولماذا يظل العالم جامدا ؟ لماذا لا يمكن أن نعديه بفرحتنا فيصبح أجمل وأرق .

اجتازت ممرا إلى يمين الردهة ووقفت أمام باب غرفة مغلقة ونادت : دادة سنية .

أتاها صوت ناعس : نعم يا لبنى ؟ *

فضحكت ضحكة خافتة : أنا سعيدة يا دادة ؟

فأكمل صوت الدادة الناعس : الصباح رباح يا لبنى .

ظلت واقفة للحظة ثم رجعت أدراجها فى الممر وقطعت الردهة الطويلة وذهبت إلى غرفتها فى الطرف الآخر من البيت . وقفت أمام المرآة تتطلع إلى وجهها المتضرج وكررت بزرانة :

- أنا سعيدة .

ثم أغرقت فى الضحك وقالت : كيف يعبر السعداء عن فرحتهم ؟ يرقصون ؟

بدأت تدور حول نفسها أمام المرآة حتى أصابها الدوار ثم جلست على طرف سريرها وهى تلهث وهمست بصوت مسموع : وقبلة أيضا ؟ وفى الجامعة ؟ من يصدق ؟ أحكى لمن؟ من يمكن أن يسمعنى فى هذا البيت الخالى ؟ من يمكن أن يسمعنى فى هذه الدنيا؟ ولماذا تنام دادة سنية الآن ؟ .. حسن أنها نامت على كل حال . أحتاج أن أبقى وحدى . أحتاج أن أفهم . احتضنت كتفيها بذراعيها وراحت تتطلع لنفسها فى المرآة وقالت : ينسى من يحبون همومهم ؟ نسيتها بالفعل . نسيتها كأنها لم تكن .

رفعت إصبعها السبابة ووجهتها إلى نفسها فى المرآة ها أنذا الآن أكذب . هناك أشياء لا تنسى . ليكن . ولكنى بالفعل سعيدة . إذن أفتح درجاً داخل روحى أضع فيه تلك الأشياء وأغلقه بإحكام . سأفتح ذلك الدرج ذات يوم وأخرج الأشياء ليس الآن بالطبع . ولكن كيف كان يمكن للحب أن يجيء لو لم أكن نسيتها بالفعل ؟ كيف كنت سأجرؤ أنا . على أن أبدأه بالكلام اليوم ؟

شكرا لمرتضى البشع على أية حال . لولا بشاعته ما جاءت الفرصة اليوم . ثم لو لم أكن قد نسيت بالفعل فهل كان يمكن أن يغزونى من الأصل حبه : ذلك الجميل الخجول . المتباعد طوال الوقت الذى تقول البنات فى غيظ : ربما يكون شاذاً ؟

نهضت لبنى وهى تكلم نفسها : ولكنى بالفعل أريد أن أحكى . هل أوقظ دادة برغم كل شيء ؟ أذهب إلى أمى ؟

ابتسمت لبنى لنفسها . أكون محظوظة لو لم تطردنى الآن إذا ذهبت إلى بيتها دون تليفون ولا موعد ؟

وقفت مرة أخرى أمام المرآة ولوحت بيدها :

لا . لا داعي للمبالغة . لن تطردني . ستبتسم ابتسامة كبيرة وترفع حاجبياً مستغربةً «حبيبتي ! ما الذي ذكرك بي ؟ حسبت أنك نسيتني!» هذا إن كانت لم تخرج مع زوجها إلى السينما أو إلى المسرح أو إلى عشاء في فندق من الفنادق الكبيرة التي يحبانها معاً .

ثم ما الذي يمكن أن تقوله أمها عن الحب؟ أي شيء تعرفه الدكتورة صفاء عن الحب ؟

وبابا ؟

سيرجع الدكتور العظيم متأخراً جدا . ثم يذهب مباشرة إلى غرفته حتى لو كنت صاحية . يخشى أن أشم في فمه رائحة الويسكي !

كأنني لا أعرف ! كأن ما يفعله يهمني في شيء! ولكن بابا حريص على أصول التربية !

اتجهت لبنى إلى مكتبتها في ركن الغرفة . أمسكت بدواوين الشعر . كانت تمسك ديوانا ثم تضعه في مكانه : عبد الصبور ونازك ونزار وشوقي وشيللي وويتمان . يمكن أن تسألهم أيضا . لكنها ظلت تقلب صفحات الدواوين دون أن تفتح واحدا منها . شيء في داخلها قال لها إنها ليس في هذه اللحظة يمكن أن تقرأ شعراً . إنها الآن يمكن أن تكتب شعرا لو كانت تستطيعه . أعادت الدواوين إلى مكانها .

تذكرت ما حدث قبل شهور عندما دخل والدها الدكتور شوكت إلى غرفتها بعد أن نجحت في الثانوية العامة . ليلتها لم تكن تفوح منه رائحة الويسكي ولكن ، كالعادة ، رائحة عطر امرأة . وقف هو يقلب الدواوين والروايات، دون أن يكلف نفسه حتى قراءة العناوين . وقال بلهجة حازمة : نويت على كلية الآداب طبعا ؟

فردت على الفور : لا . الحقوق طبعاً .

نظر إليها بدهشة : ولكنك منذ المدرسة الابتدائية وأنت يختارونك دائما لإلقاء الشعر، وكانت درجاتك في اللغات شبه نهائية . حتى في الثانوية العامة درجاتك ..

فكرت في تصميم : الحقوق طبعاً !

لو لم يسألها ويجيب بالنيابة عنها فهل كانت ستفكر في كلية الحقوق ذات يوم ؟!

ثم فكرت : ولو لم يسألها وتدخل الحقوق فهل كانت ستقابل سالم ؟ هل كانت ستعرف هذا الفرح ؟

وتساءلت وهي تتجه نحو فراشها بخطى بطيئة : وهل الحب أيضا هو كل هذا التعب ؟ هل يملأ الروح والجسد فتصبح أكبر من أن تحملنا الأقدام ؟

***

قالت لنفسها وهي تتمدد على فراشها بثيابها : وأين كان الحب في حكاية زواج أبيها وأمها ؟ تستطيع أن تفهم أنه كانت بينهما حسابات العقل . تستطيع أن تفهم لماذا تزوجت الدكتورة صفاء من الدكتور شوكت : كان منذ شبابه الطبيب النابغ، وفيما بعد ، أشهر طبيب نساء في البلد. لابد إذن أنه كانت له كثير من المعجبات من زميلات المهنة . حتى الآن مازالت له كثيرات من المعجبات من المهنة وخارج المهنة . ربما المعجبات الآن أكثر بعد أن تحرر بالطلاق! ثم إنه لا يبدى أى اهتمام بالنساء، ولا بالرجال ! هو مشغول طوال النهار والليل في عيادته وفي مستشفاه . لم تعرف له أي أصدقاء غير الأطباء الذين يعملون معه في المستشفى. ولكن هؤلاء جميعا مرؤوسون له : العلاقة تقف عند حد. أيكون هذا التباعد عن الآخرين هو الذي استهوى الدكتورة صفاء العنيدة ؟ صممت أن تفوز به ؟ وهل هذا أيضا هو ما استهواها هي في سالم؟ أنه جميل وبعيد وصعب ؟

ولكن يمكن أيضا أن تكون المسألة عكس ذلك بالضبط . يمكن أن يكون الدكتور شوكت هو الذى سعى وراء الدكتورة صفاء . كانت جميلة الجميلات . مازالت جميلة الجميلات . لو ورثت نصف جمالها ! لو ورثت تلك القامة المشوقة ، هاتين العينين السوداوين الواسعتين . هاتين الشفتين الشهيتين ، تلك الشفة السفلى الممتلئة والشفة العليا البارزة بروزا طفيفا فى وسطها تماما ، وهى تنطبق على الشفة السفلى . أى رجل لا يشتهى تقبيل هذا الفم المكتمل ! وتلك البشرة البيضاء الناعمة التى كانت فى طفولتها تحب أن تلمسها بيدها وخدها وأن تقبلها .

التفتت بجانب وجهها إلى المرآة . رأت وجهها . رأت عينيها العسليتين . أنفها المستقيم، بشرتها القمحية، شفتيها الممتلئتين . ليست قبيحة !

كل إنسان يقول إنها جذابة . ولكن جذابة شىء وجميلة شىء آخر ! أمها هى الجميلة حقا . وما أهمية الجمال يا مثقفة يا من قرأت كثيرا ! ألم يقل لك كل شعرائك إن الجمال فى عين الرائى ؟

هاها! فليقولوا ما يشاءون ! لو لم يكن سالم جميلا . جميلا حقا، فهل كانت ستفكر فيه، ذلك الانطوائى الذى لا يحسن أن يتكلم ؟ كم من ليال قضتها ووجهه يزاحم كل الوجوه التى تراها وكل السطور التى تقرؤها !

وهل كانت تلك القراءة ضرورية ؟ هل كان ضروريا ألا تورثها الدكتورة صفاء جمالها وأن تورثها حب القراءة ؟ وكيف استطاعت الدكتورة أن تجمع بين هذين الشيئين الغريبين، حب القراءة وفتنتها بجسدها ؟ تقضى ساعات طويلة فى التزين أمام المرآة ، وساعات أطول فى التسوق واختيار ثيابها الجميلة دائما، وتأكل باستمتاع ، ذواقة حقيقية . وبعد ذلك كله تقرأ الكتب فى نهم ! مازالت حتى الآن تسأل ابنتها عن آخر كتاب قرأته وتهز رأسها حين تسمع الجواب ، تكون قد قرأته

من زمن ! من أين تجد الوقت لتفعل ذلك كله ؟ وكيف تزوجت من هذا البغل ، أتكل صدقي؟ هو لا يطيق القراءة ولكنه يترك الدكتورة فى حالها حين تقرأ . يحب الأكل مثلها مع ذلك !

لكن لابد أن لديه مواهب أخرى غير ذلك وغير كونه ماكينة فلوس يضخها من شركاته للاستيراد والتصدير . بالطبع يحتاج هذا الجسد الجميل لمن يعتنى به؛ ولكن الدكتور شوكت يبدو جيداً أيضا من هذه الناحية لا تمر شهور إلا وتتغير رائحة عطر النساء فى ثيابه .

تساءلت لبنى : إذن أيكون هذا هو السبب فى أنها تركته ؟ هل كان يخونها مع غيرها ؟ هل كان ينشغل عنها كثيرا بعمله ؟ كيف ستعرف ؟ كانت صغيرة جدا عندما حدث الطلاق. فى العاشرة من عمرها . تركتها أمها لأبيها دون أى شجار. دون أى ندم! كيف تعرف إن كان هذا صحيحا؟ لا أحد منهما يتكلم. أبوها لا يذكر أمها أبدا . وأمها تكتفى بالتهكم حين تأتى سيرته وتسأل لبنى : كيف حال عبقرى الطب وبطلنا الوطنى ؟

تعرف بالطبع مغزى هذه العبارة : أنه كان لأبيها ماض سياسى . قضى فى شبابه شهورا فى السجن لأنه كان عضوا فى تنظيم شيوعى . ترك السياسة مبكرا بعد أن بدأ العمل يستغرق كل وقته . ولكنها تذكر قبل الطلاق مشاجرات لم تفهم معناها فى حينها . تذكر أمها وقد انقلبت سحنتها الجميلة وتشوه وجهها وهى تصرخ «فلقتنا بالإمبريالية والبروليتاريا ! لماذا لا تعالج مريضاتك مجانا يا دكتور شوكت؟ لماذا لا تفعل مثل الدكتور شفايتزر . تذهب إلى غابات أفريقيا وتريحنا؟». تذكر لبنى جيدا تلك المشاحنات بين أبيها وأمها التى كانت تتابعها وهى ترتجف . هل بدأ من أيامها الخوف الذى يلازمها حتى الآن فى كل خطوة ؟ هل بدأ الخوف عندما كانت تسمع فى فراشها أصوات شجار أبويها فيملؤها الرعب

وتضع الملاءة فوق رأسها والمخدة فوق أذنها؟ لا . هذه مبالغة . الخوف معها من زمن أبعد . الخوف رفيقها منذ وعت على الدنيا وربما من قبل أن تعي . ولكنها تذكر مع ذلك رعبها حين كانت تلك الألفاظ التي لا تفهمها تصل إلى سمعها : الإمبريالية .. الدكتور شفايتزر .. والنرجسية . تلك الكلمة التي كان أبوها يكررها دائما في المشاجرات بصوته الرفيع الحاد، وفي وسط تلك الألغاز كلها تسمع اسمها على لسان أبيها أو أمها . لا يهم ! الآن يمكنك أن تطمئني تماما يا دكتورة صفاء!

لم تعد لدينا في البيت إمبريالية ولا بروليتاريا! بيتنا الآن ملىء بلوحات غالية وتحف غالية يشتريها بابا لأنها غالية. ربما يكون بابا الآن أغنى من أنكل صدقي والبركة في المستشفى! لم يعد لديه وقت حتى لقراءة الجرائد. يسمع الراديو في الصباح على الإفطار دون انتباه . تدهشه أخبار مرت عليها أسابيع وشهور فيسألني بابا! تيتو في المستشفى ؟ وأضحك أنا في سرى: كيف أصبح جاهلا بأخبار الرفاق إلى هذا الحد ؟

في الواقع أصبح جاهلا بكل شيء ، عدا المال طبعا ، والطب ربما ، والنساء طبعا. طبعاً! ولكن لا تهتمي يا دكتورة! مازلت أنا هنا! لا إمبريالية ولا بروليتاريا . نحن الآن نهتف للرجل الذي كنتم تلعنونه : بابا لأنه البطل الثوري الذي أدخله السجن، وأنت لأنك سليلة المجد والشرف الدكتورة صفاء بنت الدكتور عبد العظيم بك.

جلست ليلى ووضعت يدها في حجرها وهي تنظر في المرآة إلى وجهها المقطب وتتساءل : بالذمة هذه أفكار سعيدة؟ ألم أقل إني سعيدة؟ لماذا إذن تهرب السعادة بسرعة وتأتي هذه الأفكار ؟ لماذا أحوم دائما حول حكاية الطلاق؟ ما لي أنا الآن وبابا وماما والثورة العالمية والمحلية ؟ ألا أستطيع أن أركز على سالم وحده ؟ أن أظل سعيدة لليلة واحدة ؟

ما الذي يفعله الناس ليعيشوا السرور وينسوا أي شيء غيره؟

قالت لنفسها وهي تحول عينيها عن المرآة : هذا الدرج ليس متيناً جداً ؛ ستخرج الآن كل الأشياء التي أردت أن أدفنها فيه. أعرف أنها ستخرج . لا لأنني أهتم حقيقة لما حدث. لا لأنني أعتبره نهاية العالم، ولكن لأن الإهانة ترفض أن تزول ولأنني لا أعرف طريقة أرد بها هذه الإهانة .

غامت عيناها وشردت قليلا ثم تنهدت ورفعت رأسها تستكمل الفكرة التي سيطرت عليها : بالطبع لو سألني سالم سأقول كل شيء.

لا تستحق حكاية مرتضى أي اهتمام. لا توجد أي حكاية أصلاً . لو سألها سالم عنه ستفرغ من أمره في دقيقتين . مرتضى نفسه لا يستحق من الحياة أكثر من دقيقتين . ولكن ماذا لو سأل عن الحكاية الأخرى ؟ وحتى لو لم يسأل فلابد أن أقول الحقيقة . أنا لا أخاف ولكن من الذي يستحق الاستماع إلى الحقيقة؟ الأبرياء، وحدهم مثل دادة سنية . أنا لم أقل شيئاً لبابا ولا لماما لا لأنني خفت منهما ولكن لأنهما لا يستحقان الاستماع إلى الحقيقة .

ومع ذلك فهي حقيقة بسيطة جدا . ليست معقدة ولا غريبة . أستطيع أن أحكيها بدون تمثيليات ولا مبالغات . سأقول كنا في غرفة المكتب مثل ظهر كل يوم. كان عمري ١٦ سنة وكنت في السنة الأولى الثانوية . كان يجلس أمامي على المكتب . يعطيني درس الرياضة. سأقول كان مدرساً عادياً ، ربما في الخامسة والأربعين من عمره، ربما أكثر . قلت البنات في المدرسة إنه يشبه نجيب الريحاني في فيلم غزل البنات، وكان يشبهه بالفعل . أسميناه فيما بيننا الأستاذ حمام . لم يكن يصلح فتى الأحلام لأي بنت. كان أكبر من أبي . ومع ذلك فسأقول الحقيقة . لن أقول إنه اغتصبني . سأقول إنني لا أذكر اللحظة. سأقول لا أذكر كيف قام من مكانه أمامي وكيف جاء بمقعده إلى جواري . هل قلت شيئاً أو فعلت ما شجعه على ذلك أم كان هو الذي فعل كل شيء؟ أذكر أن جسمي كله كان ينتفض وأني شعرت بسخونة كالحمى وهو يعبث بيده في جسمي. ولكن بعد ذلك أيضا .

هل كان هو الذي قادني إلى الكنبة أم أنا التي سحبته من يده إليها؟ سأقول لا أدري ولكني سأقول إني أذكر ما بعد ذلك بكل وضوح. سأقول إنه ذهب إلى باب الغرفة المفتوح وأغلقه فأفقت كمن يصحو فجأة من النوم. كنت أعرف أن أبي في العيادة وأن عم حسن الطباخ خارج البيت وأن دادة سنية في غرفتها البعيدة لا تسمع أي شيء . خفت . كنت راقدة على الكنبة فقمت ووزعت رجلي في الأرض وسألته بصوت عال . لكنه مذعور . ماذا تفعل يا حيوان؟ سأقول إنه رجع ودفعني بيده على الكنبة وهو يحل ثيابه . قلت سأصرخ ولكن صوتي أصبح ضعيفاً جداً. وأخلت الحمى التي كانت تلهب جسدي مكانها لبرودة كالثلج في أطرافي . كان يدفعني بيده لأرقد وكنت أنا أرفعه لأبعده عني لكني لم أصرخ لم أجد صوتي. سأقول إنه صفعني وإنني أصبحت خائفة منه جدا . فكرت وأنا أنظر إلى وجهه المشوه بالشهوة أنه سيقتلني وشعرت وأنا أرقد بإعياء كالإغماء . وعندما جاء ذلك الألم أخيرا وصرخت قفز فجأة ووقف فوقي وراح ينظر إلى بوجه محتقن وخائف وهو يسألني «لماذا لم تقولي إنك بنت؟ لم أكن أتصور ! »ثم وجه نحوي سبابته وهو يضم ثيابه بيده الأخرى «أنا لن أتزوج ! أنا رجل متزوج!» سأقول إني فجأة نهضت رغم الألم والإعياء وكنت أصرخ : إمش ! اخرج يا كلب يا ابن الكلب!».

قذفت نحوه كتباً وأشياء أخرى ثقيلة كانت على المكتب وجريت وراءه وهو يعدل ثيابه ويجري متفادياً سقوط الأشياء عليه إلى أن خرج من البيت ولكني ظللت أصرخ. ونادت دادة سنية من غرفتها في ذعر فجريت إليها وحكيت لها كل شيء. ويومها بكيت.

وتمتمت لبنى لنفسها في المرآة . سأقول إذن إني بكيت ، وسأقول إني من لحظتها كرهت الرجال . كل الرجال. إلى أن جئت أنت يا سالم . فهل ستفهم الحقيقة كما كانت ؟ هل أنت بريء بالفعل؟

وكانت الآن ترفع رأسها كعادتها لتمنع دموعها فقامت صورتها في المرآة.

(٢)

أصبحت تقابل سالم كل يوم تقريبا . يلتقيان في الكلية ويخرجان معا أو يتفقان سلفاً على لقاء خارج الجامعة . تركا كثيرا من المحاضرات واكتشفا معاً مخابيء العشاق في القاهرة: الشوارع الجانبية نصف المظلمة في وسط البلد. الكازينوهات المنتشرة على النهر والتي تضع مظلات مائلة يختفي، خلفها المحبون ، الزوارق النيلية التي تتيح الخلوة .

ولم تقترح لبنى أبداً الذهاب إلى أي من الفنادق الكبيرة التي كانت تلتقي فيها بأمها وأبيها .

اعتادا أن يسيرا معا بالساعات . يدها في يده . يجمعهما الكلام ويضمهما الصمت. ولم يتحدثا مرة واحدة عن الحب . لم يكن أي منهما خبيرا بكلمات الغزل .

وكانت تسأل نفسها أحيانا ما جدوى كل الشعر الذي قرأته وكل الأدب الذي أدمنته إن كانت لا تستطيع أن تنقل له بالكلمات كيف تحبه؟ وما جدوى ما كان يقوله أبوها وأمها ومدرسوها من أنها ذكية جدا وأنها أكبر من سنها بكثير . وما جدوى أنها ظلت طوال عمرها الأولى في مدرسة اللغات وكانت فخر هذه المدرسة، يعرضونها على المفتشين كما يعرضون البضاعة النادرة . لتردد محفوظات الشعر العربي والإنجليزي . ولكي تجيب عن الأسئلة الألغاز عن عاصمة تايلاند وتاريخ ميلاد طه حسين ومعركة واترلو؟ بماذا أفادها هذا العلم وهذا الذكاء. وهي لم تعرف السرور الحقيقي أبدا؟ من الصغر تؤنب نفسها وتكتشف أخطاء لم ترتكبها . ثم اعتقدت أنها هي السبب في طلاق أبيها وأمها وإن لم تستطع أن تحدد كيف؟ حين كانت تسمع اسمها يتردد وهما يتشاجران في غرفتهما بصوت

عال كانت تظن أنهما يتشاجران بسببها ولم تستطع أبداً أن تتغلب على نوبات الخوف الكاسحة التي تغزوها وتشل تفكيرها . وبماذا نفعها أنها الأولى والأذكى والأكبر من سنها عندما اغتصبها حمام؟ وهل كانت هذه القراءة وخلوتها بالكتاب هي طريقتها للهروب من العالم الذي يرعبها؟ تلك على كل حال هي هدية أمها الوحيدة لتحميها من الدنيا فشكراً لها . وماذا كانت ستفعل بنفسها في ليالي الوحدة والخوف لو لم تكن الكتب هناك ؟

لن تحدث سالم عن ذلك الخوف. لن تحدثه عن قراءتها فمن الواضح أنه لا يقرأ شيئا . لن تحدثه عن حمام ولا عن مرتضى . لن تفعل أي شيء يبعده عنها . لن تحدثه عن السياسة. هي نفسها لا تعرف ما الذي أدخلها في هذه الحكاية المضحكة من الأصل! لا . . لا معنى لأن تظلم نفسها . ليست حكاية مضحكة. هي لم تدخل تنظيماً ثوريا سريا كالذي دخله الدكتور شوكت . كانوا مجرد مجموعة من الطلبة والطالبات التقت بهم فور دخولها إلى الجامعة ووجدت أنهم يفكرون بطريقة أعجبتها . تغضبهم التغيرات العجيبة التي تحدث في البلد : تجار التهريب وتجار العملة والغلاء البشع وبذاءة الأغنياء الجدد وفقدان الكرامة وغياب فكرة الوطن ونسيان تضحيات الحرب القريبة وظهور نساء في السياسة يستعرضن جمالهن وأزياءهن على شاشات التليفزيون ويتاجرن بظهورهن مع مشوهي الحرب على مقاعدهم المتحركة، وذلك في الوقت الذي ظهر فيه في الجامعة عشرات من الطلبة بجلابيب بيضاء ولحى يمزقون مجلات الحائط التي تكتب هذا الكلام ويضربون زملاءهم الذين يكتبونه بينما يحميهم حرس الجامعة حين يمزقون وحين يضربون . أحبت ليلى زملاءها الغاضبين الذين يحنون إلى أيام لم يكن فيها شيء من ذلك، ويحنون إلى الزعيم الذي أحبت صورته وصوته وهي طفلة . وكانت تغضب عندما تسمع أباها وأمها يسبانه كلما أطلت صورته من شاشة التليفزيون.

وجدت نفسها وسط هؤلاء الطلبة الممتلئين بالحماس وأحست أنها تحتمي بهم من وحدتها ومخاوفها . شاركت في اجتماعاتهم في مدرجات الجامعة وفي كتابة المقالات لمجلات الحائط . وعندما عرف أبوها ذات مرة أنها تكتب مقالا عن الرجل الذي يكرهه من كل قلبه غضب بشدة واتهمها بالسذاجة وبأنها لا تفهم شيئاً عن «الطاغية» الذي ضيع البلد ! وقال إنها تدافع عنه لمجرد أنه يكرهه ، ولو قرأت بما فيه الكفاية عن عقدة أوديب لكفت عن هذه البلاهة . أمرها وهو يمزق المقال بانفعال ألا تعود أبدا إلى مثل هذه الغلطة فقالت وهي تبتسم «حاضر يا بابا» . كانت واثقة من أنه لن يتيسر له وقت ليتابع ما تفعله أو ما تتركه . ولكنها تساءلت : إن كانت عندي عقدة أوديب فما هي العقدة التي تجعل الدكتور شوكت يعتقد أنه محور الدنيا وأن كل شيء أفعله لابد أن يكون بسببه؟ وهل طلقته أمها لهذا السبب؟

ظلت ليلى تشارك زملاءها ولم يفسد عليها صحبتهم إلا وجود مرتضى وسطهم . لم يكن يكتفي بالوجود معهم . بل أراد أن يكون زعيما لهم ، وبدأ يصنف الطلبة على هواه ويستخدم مصطلحات لا يعرفون معظمها : الطفولة اليسارية ، الهلال الخصيب ، الخلاف البعثي القومي، الماركسية التروتسكية، وكلام كثير من هذا النوع. ستعترف أنه خدعها أول الأمر اعتقدت أنه أكثرهم علما وحماسا للفكرة. سمحت له أن يقترب منها على أمل أن تتعلم منه . كان على عكسها يعرف أن يتكلم بفصاحة ويهاجم الحكومة والطبقة الجديدة التي سرقت الثورة، فبهرها بكلامه وجرأته. ووافقت للمرة الأولى منذ تجربة المدرس على أن تقابله خارج الجامعة لكنها ظلت ترجيء ذلك الموعد باستمرار .

لم تكن المسألة مجرد انتباهها لسالم الذي أسمته في سرها (أبولو) وافتتنت به منذ شعرت بنظراته الحذرة الحيية، بل كان هناك نفور يتصاعد في داخلها من

مرتضى . لاحظت الانقسامات التي بدأت في المجموعة بسببه، واكتشفت أن حقده لا يقتصر على الحكومة وأمريكا والطبقة الجديدة بل يشمل الجميع . لم يكن الحقد الطبقي الذي صدعوها بالحديث عنه، بل الحقد الصافي البسيط على كل من يمتلك شيئاً لا يملكه هو . وبفضل مرتضى استطاعت لبنى أخيرا أن تفهم شخصية ياجو عند شكسبير التي طالما حيرها أمرها . فهمت أنه لم يكن هناك سبب حقيقي لكراهيته لعطيل وسعيه لتدمير حياته غير أن المغربي كان يملك حب ديدمونة ! كذلك مرتضى ! لم يكن يحتمل أن يملك أحد شيئاً لا يملكه هو . سواء كان هذا الشيء هو المال أو المركز أو الشكل أو السمعة أو أي شيء آخر . كان يعتبر امتلاك غيره لهذه الأشياء إهانة شخصية له . هو الذي قال عن سالم إنه شاذ عندما لاحظ إعجاب البنات به . ولاحظت لبنى أنه لم يكن يطيق بالذات الأساتذة الذين يحبهم الطلبة . يجد في كل منهم عيباً منكراً . فهذا الأستاذ سليل الإقطاع ومصاص دم الفلاحين، والآخر يسرق محاضراته من كتب الدكتور السنهوري (التي كانت لبنى واثقة أن مرتضى لم يقرأ منها حرفاً) وهذا الدكتور الثالث عميل للحكومة والأجهزة . ومع ذلك فقد انتهى أمره بالنسبة لها حين ضبطته ذات مرة وهو يتملق هذا الأستاذ العميل ويتذلل له لكي يضمه إلى الأسرة الشبابية التي كان يكونها في الكلية . رأته يقف منكمشا أمام الأستاذ عن بعد ، وبدا لها أن جسده أصبح أكثر ضآلة وصوته مرتعشا وخائفا . ولم تكن هي وحدها التي اكتشفت أمره وبدأت تتهرب منه، بل عرف حقيقته بسرعة معظم زملائها وزميلاتها وصاروا يتجنبون وجوده في وسطهم . لم يبق على علاقة به إلا من كانوا يخافون من قدرته على جرح الآخرين وإيذائهم .

ومع ذلك ألا ينبغي لها أن تشكر مرتضى؟ هل كانت بدون مطاردته ووقاحته ستعرف فرحة هذا الاقتراب الذي ملأ حياتها؟

***

وكانت تسير مع سالم في ليلة شتوية باردة في شارع الفلكي الضيق الذي تحفه الأشجار وتكسر نور مصابيحه القليلة العالية. عندما انتزعت يدها فجأة من يده والتفتت خلفها . لم يكن هناك أحد فعاد يحتضن يدها وهما يسيران صامتين وسألها في همس :

- مم تخافين يا لبنى ؟

- من كل شيء!

أفلتت منها العبارة دون تدبر فسألها وهو يضم يدها بقوة : ولكن لماذا ؟

- لا أعرف . أحيانا أصحو في الصباح فيخيفني كل شيء . أصوات الشارع. جدران البيت . صوت الراديو. ضحكات الشغالات على السلم. كل الأصوات وكل الألوان والروائح . أشعر أن كل شيء فيه خطر. وحين أخرج من البيت في هذه الأيام أنتظر شيئاً مخيفاً . وبالليل أضيء النور حين أنام . أخاف بالذات من الظلام .

هز سالم رأسه وقال : أنا لا أخاف من الظلام ولكني أخاف من نفسي. وأضاف بعد فترة صمت : عندما كنت صغيرا اعتقد أهلي أنني مجنون .

وهكذا حكي للبنى ما لم يقله قبلها لأحد . اعترف أنه تأتيه حالات لا يعرف فيها هو نفسه إن كان مجنوناً أو عاقلاً . وأن الكوابيس كثيرا ما تحرمه من النوم فيصحو مجهدا وعاجزا عن الكلام .

كان سالم يتكلم ببساطة شديدة وبهدوء وشعر براحة تغمره لأنه تكلم أخيرا عما ظل يخفيه في نفسه . ضغطت لبنى بدورها على يده . وقالت :

- لا تهتم لذلك. أنا شخصياً أعتقد أنك عاقل أكثر من اللازم .

ثم أكملت وهي تضحك : أتدري . عندما كنت أراك في الكلية تمشي ثابتا كالعملاق . لا تتلصص بعينيك الجميلتين للبنات كما يفعل بقية الطلبة كنت أقول لنفسي في يأس لماذا لا تتعطف علي يا أبولو بنظرة ؟

- من .. من هو أبولو ؟

- هو إله ال .. هو شخص جميل مثلك والسلام .

تقلص وجه سالم وابتعد عن لبنى ووقفا متواجهين فى العتمة وهو يقول بصوت خشن :

- لا أحد أن يقول أحد إنى جميل!

- لماذا ؟

- لا أحب . البنات فقط جميلات . أنا رجل .

- وما العيب أن يكون الرجل جميلا ؟

قال وصوته ينذر بالغضب : قلت لك لا أحب ذلك . ألا تفهمين ؟

كانت شفتها ترتعش . كان جسدها يرتعش :

- نعم .. أنا لا أفهم .. أنا غبية .. سامحنى .

عندما بدا من صوتها أنها على وشك البكاء، أصابه هو أيضا الفزع ثم تمالك نفسه وقال بصوت متحشرج : أنا أسف .

مد يده يمسك يدها مرة أخرى فكانت باردة كالثلج . سارا فترة دون أن يتكلم أحدهما . وأخيرا سألها :

- عن أى شىء كنا نتكلم من قبل ؟

- عن الخوف !

- نعم . الخوف هو الذى منعنى من أن أكلمك . منذ رأيتك فى الكلية لم أفكر إلا فيك أنت . ولكنى لم أستطع ..

فقالت شاردة : ربما حدست خوفى . ربما تتراسل النفوس الخائفة بإشارات خفية . ثم هزت رأسها وقالت : لا ! لن أسمح ! لن أسمح لنفسى بأن أخاف بعد اليوم ولن أسمح لك . وإلا فما فائدة الحب؟ قلت إنك تفكر فى. هل تجدنى جميلة ؟

- بالطبع .

- ولكن أنا أعرف أنى لست جميلة . لا يهم ! معك حق يا سالم . أنت لست جميلا ولا أنا جميلة . الحب وحده هو الجميل والحب وحده يرينا الجمال ..

انتبهت لبنى إلى ظلال الأشجار الغريبة الرجراجة التى تصنعها مصابيح الطريق العالية وقالت لنفسها نعم ! لو لم يكن سالم معى لأخافتنى هذه الظلال . تجر إلى ذهنى عشرات الأفكار الكئيبة التى لا أستطيع الخروج منها وتجعلنى منقبضة طوال الليل . أما الآن فأنا أراها ظلالا لا غير . ظلالا كبساط ناعم يفرش طريقا نمشى فوقه، ويفرشه من أجلنا لأننا نحب. قالت وهى تضغط على يده من جديد : معك يا سالم لا أشعر بالخوف !

انتقلت إلى سالم عدوى انفعالها ولكنه لم يكن يستطيع أن يعبر عن نفسه مثلها . خطر له أنه هو أيضا لم يستطع فى حياته أن يتكلم مع أى بنت غيرها وأنه ظل طول عمره يخاف فيمنعه الخوف من الكلام . يخاف أن يخطىء أو أن يقول شيئا لا ينبغى قوله فيلزم الصمت . معها وحدها يستطيع - ولكن ليس تماما ! إذ قال فجأة :

- الآن أيضا أخاف أن أقول شيئاً يغضبك !

- ولكن أنا يستحيل أن أغضب منك . كيف ؟ ألن تسامحنى أنت إن أنا أخطأت ؟

تردد قليلا ثم قال : نعم . إلا إن تركتنى .

ابتسمت : الآن يا سالم أنت مجنون بالفعل !

تطلعت إلى جانب وجهه فى الطريق المعتم وكانت تقاوم دموعها بصعوبة حين استطاعت أن تقول لأول مرة :

- كيف ؟ ألا ترى كم أحبك !

ولكنها كانت سعيدة. الآن كانت خائفة من سعادتها .

***

عاشت لبنى فرحا لم تعرفه فى حياتها من قبل ولم تتخيل مجرد وجوده فى هذه الدنيا . أن تنصى نفسها تماما . أن تكون وحيدة فى فراشها بالليل تسمع الموسيقى فلا تنتابها الوساوس والمخاوف بل يحيط بها وجهه من كل جانب . طيف عينيه الرماديتين . شعره الغزير المهوش الذى لا يعرف أبدا كيف يمشطه . حاجباه الكثيفان. كل تفاصيل الوجه. ملمس أنامله الطويلة . نبرة صوته وعباراته تحيط بها وتغزوها هى والموسيقى فى وقت واحد . وهى وحيدة فى الليل وهو يعيش بداخلها . لم تكن الدموع التى تنساب دون إرادتها تكفى لتخفف وطأة ذلك الامتلاء الذى تتشبث به وتتمنى فى الوقت نفسه وهى تتقلب فى فراشها لو تتخفف منه . تقول لنفسها لا يحتمل الجسم كل ذلك الامتلاء بالفرح !

كيف كانت دون سالم ستعرف ذلك كله؟ كيف كانت ستعرف الدوار المخمور وخفقان القلب حين تلقاه والدفء فى الأديان والخدر فى الأطراف والرعشة فى تلامس الشفاه ورغبتها فى التحليق بعيدا لأن الأرض أصغر من أن تتسع لهذه النشوة والجسم أضيق من أن يستوعبها ؟

كيف كانت ستعرف ما يحدث لجسمها حين يضمها إليه فتسرى فى الجسم كله رعشة وعرق خفيف كالندى وتتفتح المسام كزهور تنثر عطر روحها وجسدها. وتعود جنينا . وتحلم مغمضة العينين لو ينفتح هو أيضا رحما يحتويها فلا يفلتها إلى الأبد؟

كيف كانت ستعرف هذا كله ؟

(٣)

عاش سالم أيضا أياما وأسابيع سعيدة . كان يطوف بخاطره أحيانا ويقلقه أن لبنى تنتمى إلى حياة غير حياته . فهى تعرف لغات ولا تجد أى مشكلة فى دروس الفرنسية فى الكلية. وقد سمع أن أباها طبيب مشهور . فهى لابد أن تكون غنية . أغنى منه بالتأكيد . ولكنه لم يفكر فى ذلك كثيرا . رضى بالقليل الذى يعرفه عن لبنى وبنعمة السكينة التى وجدها معها . وكان جده يتركه فى حاله . لا يلح على أن يسهرا معاً ولا على أن يتسامرا فوق السطح. وعندما يتطوع سالم فى بعض الأحيان بأن يحكى له شيئاً عن لبنى كان يستمع إليه صامتا وعلى شفتيه ابتسامة ثم يقول فى النهاية :

– المهم ألا يصرفك هذا عن المذاكرة .

ولم يهتم سالم أيامها كثيراً بمسألة المذاكرة . نادراً ما كان هو أو لبنى يدخلان إلى المحاضرات حتى عندما يذهبان إلى الجامعة . ولكن القليل الذى كان يقرؤه فى كتب القانون أو يسمعه فى المحاضرات كان يثبت فى ذهنه على الفور. بل وكان يشرحه للبنى عندما تطلب منه. وصار جده يدهش فى بعض الأحيان من إجاباته على الألغاز القانونية التى يطرحها عليه أثناء مراجعته لدروسه يقول مغتبطا : كنت متأكداً أنك ستنبغ فى القانون . دعاك رحمة الله عليه فى آخر مرة رأيته فيها وأنت طفل صغير . عرف سالم بالطبع أنه يعنى أبو خطوة . كما كان يعرف كثيرا من تفاصيل هذه الزيارة الأخيرة التى تركت بنهايتها الغريبة بصمة لا تمحى على جده . ولم تكن لديه فى هذه الأيام رغبة فى استعادة قصص جده المألوفة . ولا كان الجد أيضا يبدو راغبا فى الإفاضة . ففى الفترة الأخيرة بدأ الباشكاتب يميل إلى الصمت والتأمل على غير عادته .

ولكن فوزية سألته مرة بابتسامة وهي تجلس قبالته ترضع طفلها سالم الصغير :

– قل لي يا سالم ، من هي التي (لخبطت) أخي العاقل ؟

تضرج وجهه وراح يداعب بسبابته الرضيع الذي ترك ثدي أمه وحول عينيه نحو خاله وقال : ألا ترين أن سلوم يشبهني بالفعل؟ أنا أعشق ابنك يا فوزية .

لكن فوزية أصرت : هل هي واحدة أعرفها ؟ واحدة من الجيران ؟

فرد متظاهرا باللامبالاة : لماذا تسألين ؟ ومن أدراك أن هناك واحدة ؟

وضعت سبابتها في جانب رأسها وقالت : أتظن أن أختك لا تفهم ؟ صحيح أنك في الجامعة وأنني لم أتعلم مثلك، ولكن لي عينين وعندي هنا مخ !

انهمك سالم في مداعبة الصغير الذي بدأ الآن يبتسم له ولكن حين مد يده ليحمله حول رأسه فجأة وعاد يلقم ثدي أمه .

قالت فوزية وهي تربت على رأس طفلها ببط : أنت كتوم طول عمرك . لا أحد يعرف منك الحق ولا الباطل ، ولكن لو كانت واحدة من الجيران لعرفت . أظن أنها زميلة لك في الجامعة .

كان يقف أمامها وهي تجلس في الصالة على الكنبة منهمكة في الإرضاع لكنها ضحكت فجأة ومدت ذراعها فجذبت سالم نحوها وقبلته في خده قبلة حارة وهي تقول :

– افعل ما بدا لك يا سالم . المهم أن تكون سعيدا . سأفرح لك ما دمت سعيدا .

جلس إلى جوار أخته وسألها :

– وأنت ؟ هل أنت سعيدة يا فوزية ؟

قالت دون أن تنظر في وجه أخيها : الحمد لله . فراج رجل طيب وسلوم يملأ علينا البيت.

ثم سكتت وهي تتساءل : هل تستطيع أن تحكي لسالم عن مشاكلها الحقيقية ؟

هل يمكن أن تكلمه عن فراج الذي تعرف رغم كل ما فعلت أن أخاها لا يحبه؟ هل سيفهمها ويفهمه ؟ كيف يمكن أن تحكي له عن التغير السريع الذي أصاب زوجها خلال سنة واحدة؟ غاضت الابتسامة من وجهه وأصبح عصبيا يثور لأتفه شيء ويختلق شجارا في البيت . وحين تحاول تهدئته وتقول له إنها لا تقصر في واجبها وإنها تخدم في البيت كالجارية يرد بأن أمه تعمل في بيتها أضعاف ما تعمله فوزية دون أن تشكو ودون أن تنطق بكلمة واحدة! هي تعرف مع ذلك سبب ذلك كله . فراج لم يصبح سيئا لكنه يرهق نفسه في الشغل أكثر من اللازم وكل الأشياء التي توقعها لم تحدث: لا البعثة ولا المكافأة التشجيعية ولا الوقت الذي يسمح له بالدراسة العليا التي حلم بها . والمرتب الذي كان يكفي تماما قبل سنتين أصبح الآن يتبخر قبل آخر الشهر بكثير ، رغم كل ما تفعله لتدبير أمور المعيشة في البيت ورغم ما يعطيه لها جدها .

أخيرا رفعت فوزية رأسها وقالت لأخيها بصوت متردد :

– أريد أن آخذ رأيك في موضوع يا سالم.

جلس إلى جوارها على الكنبة وهي تحمل طفلها على كتفها وراحت تربت على ظهره ، ثم سكتت لحظة وبدا أنها قد عدلت عما تريد قوله وسألت أخاها بابتسامة :

– على فكرة ، هل عرفت يا سالم أين يذهب جدك يوم الخميس ؟

– لا . قلت لك إنني حتى لم أحاول . هل عرفت أنت ؟

- لماذا إذن أسألك ؟

ثم أكملت بضحكة مفتعلة : مصيبة يا سالم أن يكون جدك متزوجاً فى السر!

تزحزح مبتعدا عنها وقال فى ارتياع : جدى ! لا يمكن !

قالت وهي تواصل التربيت على الصغير : ولم لا يا صاحبى ؟ تحدث كثيرا وتكتشف الحكاية بعد .. بعد فوات الأوان .

ثم أمسكت بابنها وأبعدته عنها قليلا وراحت تؤرجحه : لكن أنت لن تكون كذلك يا سلوم ! أنت ستقول الحقيقة دائما . لن تصدم أولادك عندما تكبر بأن لهم أخوة لا يعرفونهم . كما أن أمك وخالك قد يكون لهما أعمام وعمات لا يعرفانهم !

ابتعد سالم عن أخته لينظر فى عينيها مباشرة وفى صوته هلع :

- فوزية ! ليس هذا موضوعاً للمزاح ! إلا جدى !

فواصلت حديثها لابنها : إلا جده يا سلوم ! خالك طيب وعلى نياته لا يعرف أن جده رجل كبقية الرجال !

لكن فوزية شعرت أنها ذهبت بعيدا فى الكلام فعادت تحتضن طفلها ونظرت فى عين أخيها وهى تقول بهدوء : لا تقلق يا سالم . أنا أمزح بالفعل . أقسم لك إننى لا أعرف شيئاً وأنا مثلك تماما يمكن أن أشك فى كل الرجال إلا جدى . أنت ترى كم يحبنا . أتظن لو كانت له زوجة وأولاد فسيكتفى بأن يراهم يوم الخميس ؟

ثم قالت بضحكة عابرة وهى تنهض : ومع ذلك كما قلت لك . أدفع نصف عمرى وأعرف أين يذهب يوم الخميس !

سار سالم خلفها نحو الباب وهو يداعب الصغير بإصبعه فى خده مستجدياً منه ابتسامة أخرى . لكن فوزية توقفت لحظة . ثم بدا أنها تغلبت على ترددها :

- اسمع يا سالم . ما رأيك فى حكاية البيت ؟

قبل أن تنتظر رده عادت تجلس على الكنبة فجلس سالم إلى جوارها وهو يسأل :

- أي حكاية ؟

- أنت سمعت بحكاية الشرخ الذى فى جانب البيت ؟

- نعم وجدى ينوى أن يرممه . لكن السكان لا يريدون المشاركة فى التكاليف .

فقالت فوزية وكأنها تنتزع كلماتها : سمعت يا سالم أن الأرض فى حينا ارتفع ثمنها : سمعت أننا يمكن أن نبيع نصف الأرض بثمن كبير نبنى به عمارة جديدة فى النصف الآخر ثم نبيع شققها بالشىء الفلانى . يمكن .. قاطعها سالم وهو يسأل بدهشة : نهدم ونبنى ؟ لماذا ؟ هذا بيتنا يا فوزية !

ثم استدرك : لا . فى الحقيقة هو بيت جدى . ولا يمكن لجدى أن يفرط فيه. يهدم ! هل هذا معقول ؟

كان سالم الصغير قد نام على حجرها فتكلمت بصوت خافت :

- أعرف أنه غير معقول . وأعرف أن جدك لن يوافق .

- إذن أنت تكلمت معه بالفعل ؟

- لمحت له فضحك . قال مثلك : هل هذا معقول ؟ وأين نذهب نحن وأين يذهب الجيران .

ثم أكملت بغيظ مكتوم : كأن هؤلاء الجيران يفكرون فينا ! يدفعون ملاليم للإيجار ويستخسرون حتى أن يدفعوا نور السلم ! نحن. الذين ندفع كل شىء ..

رفع سبابته : جدك هو الذى يدفع كل شىء ، لا نحن، وهو ..

نظرت فى عين أخيها مباشرة وقالت بلهجة باترة دون أن ترفع صوتها : أنا بحاجة إلى فلوس يا سالم ! مرتب فراج لا يكفى للبيت . وأنا لا أشتغل ولا أساعد فى المصاريف ..

قال متعجبا : ولكنكما كنتما تعرفان ذلك من قبل الزواج . كان يعرف جيدا أنك لا تشتغلين .

ثم استدرك بصوت خافت : وأظن أن جدى يساعدك .

قالت وهي تنظر شاردة إلى طفلها النائم : نعم .

ثم واصلت دون أن ترفع رأسها : جدي يدفع ما يقدر عليه ولكنه لا يكفي .

كيف يكون عندنا هذا الكنز ونعيش فقرا ؟

نهض سالم وقال وقد بدأ يتملكه الغضب : هذا الكنز ليس ملك فراج ولا ملكك ولا ملكي هذا بيت جدي ربنا يعطيه طول العمر .

مدت فوزية يدها فأمسكت بيد أخيها وجذبته ليجلس إلى جوارها حيث كان :

– اهدأ يا سالم . اهدأ . أنا أيضا أدعو له بطول العمر . أنا لا أحب أحداً في الدنيا كما أحبه . ثم اغرورقت عيناها بالدموع وهي تسأل :

– قل لي ماذا أفعل ؟ فراج أخذني رخيصة . والواحدة منا يا سالم لابد أن تكون عزيزة في بيتها . كيف تكون لي قيمة وأنا لا أعمل ولا أملك شيئاً ؟ الرجل الآن يزن زوجته بما تدفعه للبيت .

قال مغتاظا : والحب يا فوزية ؟ ألا يزن الرجل زوجته بالحب ؟ ألا تكون عزيزة لأنه يحبها ؟

قالت ودموعها تنساب بلا انقطاع : في الحكايات فقط يا سالم ! عند العبط مثلي ومثلك . أنا لست عزيزة على فراج لأنه لم يتعب في زواجي . هو يعتقد أنني أنا التي اشتريته ولكني لم أدفع كل الثمن الذي يستحقه . ومعه حق لأن الغلطة غلطتي .

أفلتت منها العبارة الأخيرة دون قصد فعادت تكرر .

– قل لي ماذا أفعل يا سالم .

نظر سالم إلى أخته الباكية في حيرة وعجز . ثم مد يده إلى كتفها وضمها إليه برفق وهو يقول بصوت مرتجف .

– ولكن .. ولكنك عزيزة جدا يا فوزية !

ثم اختنق صوته وسكت .

(٤)

بعد تلميحات جابر جاءت فوزية . وسأل الباشكاتب نفسه : من عليه الدور بعدهما ؟ شعبان الذي جاء قبل أيام يشكو له من مطالبة الضرائب الباهظة ؟ أو ربما سالم الذي وقع في حب بنت غنية ؟ أو فراج الذي تبخر كل تفاؤله مع تبخر مرتبه ؟

كان الباشكاتب يجلس وحيدا في شرفته في الليل . يراقب الشارع الذي بدأ يزدحم لاقتراب مولد السيدة وأصبحت أرصفته مأوى لزوار الست . كما بدأ أصحاب المحال يعلقون أفرع المصابيح الملونة بعرض الواجهات . ولكن أشياء كثيرة كانت تشغل بال الباشكاتب.

لم يكف عن محاسبة نفسه منذ جلسته وحيدا في المقهى . ولاحقته أمور تنتزعه من نفسه . فاجأه أولا اقتراح فوزية ببناء المحلات في مدخل العمارة . ولكنه بعد تفكير قال ولم لا ؟ عز عليه أنه سيفقد شجرة التمر حنة التي كان عمرها من عمره ثم تساءل : وكم بقي من هذا العمر على أي حال؟ .. كان يعرف جيدا الحالة التي تعيشها فوزية وفراج ويعلم أن ما يعطيه لحفيدته خفية لا يساعد كثيرا على تغيير هذه الحالة . ثم بدأ هو أيضا يشعر بالغلاء الذي يتحدث عنه الجميع . اعتاد ألا يفكر أبدا في المال . كان معاشه وادخاره وإيراد قطعة الأرض الصغيرة التي ورثها هو وشعبان عن سمية يفيض عن احتياجاته القليلة ويكفي لتلبية حاجة أسرته كلها . وتوقف من زمن بعيد عن الاعتماد على إيراد البيت الذي لم تعد إيجارات مساكنه تغطي مصروفاته . والآن بدأ يسحب من مدخراته لمصروفات الشهر العادية . واكتشف أن هذه المدخرات ستضيع كلها في تكاليف

الترميم الذى اعتذر السكان عن المشاركة فيه لأنه «ليس ملكهم» كما قالت الست إنصاف وكأنها تمزح قبل أن تضيف فى أسى حقيقى «من أين ونحن نقترض لمصاريف علاج الحاج إبراهيم ؟» فما العمل .. يهدم البيت بالفعل وليكن ما يكون؟ يفقد البيت والجيران معا ؟ هو يصدقهم ، أن لكل واحد منهم عذره بالفعل . تربى فى هذا البيت مع آبائهم الذين أجر لهم الحاج السعدى المساكن ، وظل الأبناء الذين خلفوهم يحفظون له الود ويسألونه النصح .

كان يعتبرهم مثل ابنه شعبان . رآهم أطفالا يكبرون ويتزوجون وينجبون ، يقولون له «يا عمى» وأطفالهم يقولون «يا جدى توفيق» لم يعد يعرف أيهم هو ابن من ولا فى أى طابق يسكن لكنه يحفظ وجوههم ويفرح بهم حين يلقاهم على السلم أو أمام باب البيت . يقف ليسألهم عن حالة الأسرة وحالة المدرسة فيردون عليه فى خجل وتود .

أحزنه أن شعبان لم يشأ أن يكون له من هؤلاء الجيران أصدقاء، وأنه رفض أيضا أن يختلط سالم بأولادهم ويصادقهم . ليكن . شعبان حر . أما هو فبدون هؤلاء الجيران ستفقد حياته طعمها . سيشتاق لكل سكانه حتى للست إنصاف صاحبة الصوت العالى والمشاجرات التى لا تنتهى مع الباعة .

يود أن يعيش حتى آخر عمره فى البيت الذى تربى فيه ويعرف ناسه والذى شهد أيضاً آخر أيام سمية . يشعر منذ يوم المقهى أن صفحته الأخيرة قد دنت ويريدها أن تطوى بسلام . لم يكذب حين قال إن صحته كالحصان . حالته مازالت أفضل مما يطمع أى إنسان فى سنه أو حتى أصغر منه . عذبته هذه الصحة كثيرا منذ شبابه . ومازال جسده «المدكوك» ووجهه العريض المتناسق القسمات والمتورد بالدماء يوحيان بالقوة والعافية ورغم التجاعيد الطولية العميقة والشعر الأشيب فهو يبدو أصغر من سنه بكثير . لم يشكُ فى حياته من المرض باستثناء

وعكات البرد وحالات طارئة من عسر الهضم لم تكن غريبة . وهو الذى يعترف دائما بعجزه عن مقاومة إغراء الطعام الجيد وبأنه لا يعرف متى ينبغى عليه أن يتوقف . تجاوزه حتى ألم الأسنان الذى أرغم كل أصحابه فى مراحل من أعمارهم على استخدام الأطقم الصناعية وظل بدنه على فتوته التى عجز عن السيطرة عليها فى شبابه وفى شيخوخته . ولكنه يحلم أيضا بالنقاء المقبل الذى بشره به أبو خطوة منذ مطلع الشباب. بدا له بعد موت سمية المبكر أنه كان لابد من وقوع المأساة لكى يجد الطريق. غير أن رغبات جسده لم تكن وحدها هى التى ماتت طوال السنوات التى أعقبت رحيل سمية، بل ماتت تطلعات روحه أيضا . عاش يؤدى ما عليه من (واجبات) نحو ولده ونحو ولديه من بعده . نسى الرغبات طوال تلك السنين . ولكن روحه لم تحلق بعيدا .

قرأ أيامها الكتب التى أعطاها له أبو خطوة . قرأها طويلا وأحبها كثيرا، ووجد الفكرة فى كل هذه الكتب بسيطة وجميلة : أن يتحلى بأخلاق معينة تصل به إلى الزهد الذى يميت الدنيا فى قلبه فتزدهر جنة فى نفسه ويقبض على المعجزات. ورأى أنه لا توجد أى مشكلة فى ممارسة الحياة كما توصى الكتب، كان يعمل بتلك الوصايا بشكل طبيعى حتى وهو فى عز شبابه وانطلاقه وراء نزوات. بدا له أنه قد ولد بهذه الأخلاق . كان متواضعا دون افتعال لمن هو أدنى منه . بعيداً كل البعد عن تملق من هو أقوى منه بجاهه أو ماله . يبذل من ماله ووده دون مَنٍ ولا استعلاء . يكره انتظار المدح للعطاء، وينسى بحق إساءة المسيء إليه، ينساها لا بأن يغفرها فحسب . بل بمعنى أنه إن غضب لها فى حينها فإنه لا يتذكر بعدها فيم كان غضبه . يحب من قلبه أن يساعد الناس وأن يقضى حوائجهم . كل تلك السجايا وغيرها مما أوصت به الكتب لم تكن غريبة عليه . غير أن الخطوة التالية التى نصت عليها بعد ذلك لم تكن لها علاقة بأخلاقه ولا بإرادته،

وإنما بنور يحل عليه وينشرح له صدره فيسلك طريق الصالحين وتجرى على يديه الكرامات . أبطأ عليه النور ولكنه لم يفقد الأمل حتى فى هذا الهزيع المتأخر من عمره . غير أنه أدرك عن يقين أن الرياء لن يقوده إلى الطريق . حين يحضر حلقات الذكر يدور فى الحلقة أطول من غيره فينهك جسمه تماما ولكن روحه لم تكن تستيقظ . شعر بأنه يخدع نفسه ويخدع أولئك الناس الطيبين من حوله الذين تنطلق منهم بعد طول التطوح آهات الخشوع ودموع الرجاء .

ومع ذلك فقد ظل واثقاً من أن هذا لا يعنى وقوعه فى قبضة الشيطان . كان إيمانه بسيطا وعميقا مثل إيمان أبيه الحاج السعدى . وكان ندمه على خطاياه صادقا كما شعر بذلك صديقه الصالح . وظل يكرر سيطهر فى الوقت ما يؤذن به الوقت . وظل قلبه يقول له إن الوقوع فى الرياء معصية تفوق ما سواها .

أخذ يجاهد مع ذلك منذ موت سمية مقتنعاً باقتراب اللحظة والوقت بعد أن قمع جسده حتى نسيه . انشغل تماما بهموم حياته مع ولده وحفيديه . ولم يفكر فى امرأة أخرى . الأصح أنه نجح فى إخماد شهوته للنساء التى لم تنطفئ تماما رغم ما حوله . ظل طوال تلك السنين يرى فى عمله وفى جيرته نساء من كل نوع . بعضهن يلمحن وأخريات يرمينه بالنظرات التى يعرفها جيدا كأنهن يقرأن دخيلة نفسه : لماذا تكذب يا توفيق ؟ وجهك يفضح النداء الذى تخفيه خلف قناع الزهد وجسمك يكاد يمزق جلدك كى ينطلق . لماذا تكذب ؟

ولكنه ظل صامدا . ونجح عبر السنين فى أن يكف نفسه إذا ما هو هم بشىء أكثر من النظر .

فمن أين جاءته تلك العاصفة المتأخرة التى اجتاحت كل سدوده ومقاومته؟ دهمته فى الشهور الأخيرة التى كان يلملم فيها أوراقه لكى يخرج إلى المعاش .. ليتقاعد مثل عجوز طيب أدى ما عليه فى العمل وفى الحياة .عندها ظهرت هى . لا. الأصح أنها ظهرت بعد أن بدأ يستبد به شوق غريب إلى الحياة وحنين جارف

إلى النساء. كأنما هو فى بدء حياته لا فى نهايتها . حاول أن يتغلب على ذلك الإغراء المتأخر الذى غزا جسده كالحمى . كان يؤنب نفسه على نظراته التى تفضحه لزميلاته فى المكتب وللمتعاملات معه. راح يسأل نفسه : ما الذى جرى له؟ يخرج من عمله ويمشى فى الطرقات إلى أن يهده التعب . ولكن الشوارع كانت تعطيه النساء أجمل مما رآهن فى عمره كله . تتجه عينه مباشرة بقوة قاهرة نحو السيقان الملفوفة والصدور النافرة والشفاه الممتلئة والعيون الجميلة . لا يفوته أصغر تفصيل وهو يمشى مع ذلك بخطوته المسرعة كأنه يهرب .

يقول لنفسه وماذا فى ذلك كله ؟ السيقان أعضاء المشى والعيون للنظر والصدور للرضاعة . لكل انسان فى الدنيا ساقان لا ينتبه إليهما . ولكنه إذ يمشى فى الطريق يرى امرأة تتطلع إلى أزياء فى واجهة محل . ترفع قدمها تخلع نصف الحذاء وتثنى ساقها انثناءة بسيطة فتحتل فكره رغم كل محاولاته . هاتان الساقان لتلك المرأة الممشوقة القامة . ساقان طويلتان تنسابان من امتلاء مستدير محبب عند السمانة إلى أن تنسحبا بتدرج ونعومة نحو البيضة المرمرية الملساء لكعب القدم .. يرى نفسه يكاد يلمس هذه الساق بأنامله . يتحسس نعومتها البضة . يرى شفتيه تمسان تلك السمانة الشهية . ويشعر أنه يصعد بشفتيه فى تلك النعومة . فيتوقف فى هلع وهو يغمض عينيه . يزفر ويستغفر . يدق الأرض بقدمه غاضبا على نفسه ومن نفسه. ويعاود المشى كأنه يعدو دون أن ينظر حوله. ولكن لا فائدة . الساقان الناعمتان هناك وهما ليسا عضوين للمشى وإنما لتعذيبه وهلاكه .

وفى جولته المحمومة تلك دخل محلاً للكتب القديمة وراح يقلب فى الكتب لمجرد أن يهرب من خيالاته وأطيافه . ظل البائع يحوم حوله دون أن يتكلم وهو يتأمله من بعيد بنظرة فاحصة . وأخيرا اقترب منه وقال بابتسامة ماكرة «عندى شىء لا يوجد فوق الأرفف . تحب أن تراه ؟» وعندما عرض عليه المجلات أوشك أن يرميها

في وجهه ويخرج من المحل، لكنه لم يفعل، بل وقف يقلب فيها وهو يشعر بنبض سريع في صدغه وجبينه وبرعشة في يديه . كانت الصور الملونة تذهب إلى ما هو أبعد من خيالاته الجامحة التي يهرب منها ولم يستطع أن يتوقف عن التقليب فيها رغم شعوره بخجل وبأنه يتضاءل أمام نفسه . لم يخرج من المكتبة إلا بعد أن اشترى تلك المجلات ثم بدأ بعد ذلك يبحث عن غيرها وغيرها وهو يقنع نفسه في تلك الشهور التي استبدت به خلالها شهوة العودة إلى النساء، بأن ما يفعله هو الشر الأهون ، بأن هذه الزلة تعصمه من زلة الزنا الحقيقية . اجتهد في جمع المجلات واجتهد في إخفائها عن أنظار أهل البيت . ابتكر له صانع المفاتيح مفاتيح خاصة غالية الثمن للمكتب وقال له إنه يستحيل تقليدها أو فتح أدراج المكتب بدونها . وظل هو يحتفظ معه بتلك المفاتيح باستمرار ، لا تفارقه لحظة . كان يشعر بالعار إذ يفعل شيئاً كهذا في مثل سنه . لكنه لم ينجح أبدا في التخلص من تلك الهواية التي تعلمها في شيخوخته . لم ينقطع تأنيب النفس أبدا ولم يفلح في الإقلاع أبدا . يبرر لنفسه : المجلات موجودة سواء جمعتها أو تركتها، وأنا لا أؤذي أحدا ولا أرتكب شرا . ولكن عقله كان يقول له غير ذلك .

وفي تلك الأيام ظهرت نازلي هانم . ترددت على مكتبه أياما متعاقبة . كانت تنتزعه من استيفاء أوراقه وإجراءاته الخاصة بالمعاش لكي ينجز لها معاملاتها . كان معروفا بأنه يخدم كل أصحاب القضايا على السواء، وأن مكتبه مفتوح لهم جميعا وإن حاول أن يتخفف من هذا العبء قبل المعاش تاركا تصريف الأمور لمرؤوسيه . لكن نازلي كانت تدخل مكتبه دون استئذان . تقدم أوراقا ومستندات لقضايا عديدة لإثبات الملكية ولمنازعات قانونية مع شركاء لزوجها الراحل . كانت تقترب من الخمسين من عمرها بالتأكيد لكنها تعتني كثيرا بمظهرها وملبسها فلا تبدو سنها الحقيقية . ومع أنها لم تكن تصبغ شعرها ، أو ربما تصبغه وتتعمد ترك خصلات بيضاء، فقد كان جسدها فتياً .

واعتادت أن ترتدي دائما الملابس والألوان الهادئة ، وتعرف كيف تبرز أنوثتها الناضجة . كانت تتجاوز معاونيه وتدخل إلى مكتبه ثم تجلس مباشرة على المقعد الجلدي المواجه له وتقول بلهجة شديدة التهذيب . فيها شيء آمر مع ذلك «يا حضرة الباشكاتب، سيادتك بالأمس .. » فيترك كل ما بيده ويستدعي مرؤوسيه ليتابع بنفسه ما تطلبه . ومرة كانت تجلس أمامه واضعة ساقا على ساق فراح دون وعي يتطلع إلى جمال وتناسق ساقيها البيضاوين . وضبط نفسه يعريها بعينيه من ثوبها الرمادي المحبوك حول ردفيها المستديرين المتماسكين ويتخيلها في صورة من تلك الصور التي أدمنها، فصعد الدم إلى وجهه ، وارتاع من انحلال تفكيره ثم كأنما حدست هي في لحظتها ما يفكر فيه فتضرج وجهها وهي تعتدل في جلستها وتطرق برأسها على الفور .

ولكن ربما في تلك الثواني حدث بينهما تفاهم ما ، اتفاق مضمر على أن شيئاً آخر غير الأوراق بدأ يجمع بينهما . وجد الباشكاتب نفسه ينتظر حضورها إلى مكتبه بلهفة وصارت هي تتلكأ في الانصراف بعد انتهاء أعمالها. ولاحظ الباشكاتب زينة جديدة بسيطة حول عينيها وحمرة خفيفة فوق شفتيها . لم يعد الحديث يدور عن العمل وحده، بل صار يتطرق إلى مشاكل الحياة ، وإلى مقارنات بين أحوال الحاضر والماضي الذي كان أجمل بكثير أيام الشباب . شبابها وشبابه .

وعلت ضحكات الباشكاتب المشرف على التقاعد وأدهشت معاونيه الذين لم يعتادوا منه الاهتمام الخاص بإحدى المتعاملات مع المحكمة . بدأوا يتغامزون ويهمسون . ولاحظ الباشكاتب فضول زملائه لكنه لم يهتم مطلقا . أخذت تعلو في داخله موجة من الاستهانة بكل شيء، كلما اقترب موعد خروجه إلى التقاعد . وكانت نازلي أول امرأة من لحم ودم تقتحم حياته منذ رحيل سمية . وعندما تغيبت

يومين أو ثلاثة عن الحضور إلى مكتبه أصبح قلقا وعصبيا . ومنع نفسه بالكاد من أن يتصل بها ليسأل «ما الأخبار؟» قال لنفسه «اثبت يا حضرة الباشكاتب . لم نصبح مراهقين إلى هذا الحد!» .

ولما أهلت عليه في اليوم الثالث أو الرابع وجد نفسه يقوم من مكتبه ليستقبلها عند الباب مرحباً بعبارات كثيرة لا معنى لها وهو يصافحها بيديه الإثنين ويضغط على يدها . وكانت هي أيضا تبتسم متوردة الوجه والتماعة في عينيها . قادها عبر الحجرة الواسعة إلى مقعدها المألوف أمام المكتب وهو يقول «أوحشتنا» فقالت بصوتها الناعم الهامس «وأنتم أيضا» فأكمل ضاحكا وهو يتجه إلى مقعده خلف المكتب «إذن لماذا لا نجمع الشمل؟» .

لم يكن في نيته أن يقول شيئا من هذا النوع . لا يدري في الحقيقة كيف أفلتت منه العبارة، لكن نازلي قالت وهي تتأمله دون دهشة «بهذه السرعة؟ أنت لا تضيع وقتك يا حضرة الباشكاتب» .

وعندما وجدته ينظر إليها متحيراً وقد فاجأه ردها الذي يعني أيضا الموافقة بسرعة ضحكت بدورها ضحكة خافتة وقالت :

– أنت أربكتني كنت قد أعددت كلاما في رأسي ولكنه طار.

سألها وصوته يرتجف قليلا : إذن فأنت توافقين ؟

رفعت إليه وجها باسما وهي تقول : أين ذكاؤك يا حضرة الباشكاتب ؟ لو لم تتكلم أنت اليوم لتكلمت أنا . لماذا ينبغي أن يبدأ الرجال دائما ؟

عقدت الدهشة لسانه وراحت هي ترنو إليها بعينيها الخضراوين الضيقتين وقد ارتسم على وجهها تعبير جاد تماما وأكملت بنبرة واثقة :

– سألت عنك وعرفت كل شيء . أنت أرمل مثلي .

ثم قالت ببساطة بصوتها الهادىء : ولكن لي شروطي .

ولم يستطع توفيق أن يحسم لنفسه أيامها وهو يتكلم ويتصرف كالمنوم إن كان ما يحدث قد جرى ضد إرادته أو لأنه يريده حقا . كان يعرف بالطبع من متابعة قضاياها وأوراقها في الملفات أنها امرأة شديدة الثراء ، تملك أراضي وعقارات وشركات وتسكن في فيلا في جاردن سيتي . يعرفها جميع السعاة والكتبة والمحضرين في المحكمة ويناديونها جميعا «نازلي هانم» وعرف أيضا أنها أم لشابين أحدهما وكيل للنيابة والآخر طبيب كما أن لها ابنة متزوجة ولديها منها أحفاد . وأدهشه قليلا أنها تعرف عنه المعلومات المهمة : أسرته والبيت الذي يملكه والمحل الذي يديره ابنه والأرض التي ورثها هو وشعبان عن سمية والأماكن التي عمل فيها قبل أن يأتي إلى هذه المحكمة ، وكل التفاصيل الأخرى في حياته .

ولكن ما أدهشه حقا هو شروطها : سيتزوجان عرفيا حتى لا ترثه ولا يرثها . لن تقيم معه في بيته ولن يقيم معها في الفيلا ولكنهما سيسكنان شقة صغيرة في وسط البلد، ولن يلتقيا كل يوم وإنما في الأيام التي يحددانها .

اعترض الباشكاتب على الفور على فكرة الزواج العرفي، فقالت نازلي لماذا ؟ مسألة الإشهار يعني ؟ عن نفسي أنا بالطبع سأقول لأولادي وتستطيع أنت إن شئت أن تقول لأسرتك . نحن لا نفعل شيئاً محرما .

وهل سيقبل أولادها هذا الوضع ؟

ضحكت وهي تقول : سيرفضون فقط لو عرفوا أن الزواج يمكن أن يحرمهم من الميراث أو أنه يمكن أن يضيع أموال أمهم . ولكن قلت لك إني سألت عنك وإني أعرفك .

ثم أكملت بصوتها الخافت : وأظن أن هذا الترتيب يناسبك أنت أيضا يا أستاذ توفيق يناسبك تماما !

كانت نازلي هانم تعرف كل شيء وتحسب كل شيء . فهل عرفت أنه سيظل يرجىء «الإشهار» لأسرته ولغير أسرته باستثناء الشاهدين اللذين جلبتهما هي؟

لم يستطع أن يقول حتى لأبو خطوة ولكنه أدرك من نظرة وجه صديقه الصالح أنه يعرف . تحدثه نفسه : زواج شرعي وشهود فلماذا إذن لو كان مقتنعا بذلك حقا في قرارة قلبه يتصرف كلص يخفي ما سرق ؟ ولماذا لم يشعر طوال هذه السنين بطمأنينة النفس التي عرفها مع سمية؟ سمية . أي مجال للمقارنة ؟

ولكن فليقل الآن ما يقول . في حينها كان الترتيب مناسبا وكان العلاج ناجحا . لن يجديه الآن الإنكار ولن ينفعه الرياء .

لم يعرف نازلي هانم على حقيقتها إلا في تلك الشقة الصغيرة التي استأجرها بناء على نصيحتها في عمارة مزدحمة بعيادات الأطباء. ولم يكن ذلك متفقا تماما مع الإشهار ولكنه كان ترتيبها المناسب بالفعل . وإلا ففي أي مكان آخر. غير تلك العمارة المليئة بالضوضاء في السلالم والعيادات . كانت نازلي ستسمح لنفسها بتلك الأصوات والصرخات التي أذهلته في لقائهما الأول في فراش الزوجية ؟ لكن تلك المرأة الخافتة الصوت، الناعمة والهادئة . التي توقع أن يقودها ويعلمها من فنونه المكتسبة منذ الشباب كانت تتحول ساعتها دون فاصل وسط الآهات والصرخات من أميرة متحكمة تطلب إلى جارية خاضعة تبذل ومن التهتك السافر إلى الحياء والتمنع ومن نمرة إلى شاة . غير أنها كانت تتألق بالذات في دور الجارية الخاضعة التي تحب أن تؤمر وأن يعاقبها سيدها وأن تستجيب في تذلل فيستثير ذلك كله السيد ليعطي أحسن ما عنده . وقالت له مرة بصوت مختنق وهي في حضنه : هذه الأرض ظلت جرداء طويلا وتريد الآن أن ترتوي . لم تكن وحدها . فليعترف . كان السيد أيضا يريد أن يعوض كل ما فاته في السنين الطويلة التي قمع فيها جسده ويريد أن يشفى من الحمى التي اجتاحته في الشهور الأخيرة .

راح يتعامل مع كل ذرة في جسمها . وكأنه يريد أن يستقطر منها كل ما يمكن للجسم أن يعطيه . كأنه يريد أن يرتشف مرة وإلى الأبد خلاصة المرأة،

خلاصة كل نساء الأرض . في تمهل وتلذذ تارة . وفي اجتياح عاصف تارة أخرى .

اتفقا في بدء الزواج على أن يلتقيا مرتين في الأسبوع في الظهيرة ليقضيا الوقت معا حتى المساء . ولكن في الشهور الأولى التي سبقت خروجه إلى المعاش والتي أعقبته كان ذلك اللقاء يتم أربع أو خمس مرات في الأسبوع لم تشتك الأرض الجرداء من نقص الري ولا انتهى العاشق الذي طال حرمانه من اكتشافه لأعماقها . أيامها كان اللقاء الذي اتفقا على إنهائه في المساء يمتد أحيانا إلى عمق الليل . وذلك قبل أن تنتظم أمورهما بالتدريج . قبل أن تهدأ الثورة وينهك كل منهما الآخر بما يتجاوز قدرة جسديهما . حتى ولو كانا جسدين عفيين ومشوقين للعشق . انتهت المسألة إلى هذا اللقاء الأسبوعي الواحد يوم الخميس. وظل كلاهما يحرص عليه .

بعد كل لقاء. كانت نازلي الجارية تأخذ وقتا طويلاً أمام المرآة لتضع زينتها البسيطة . المرسومة مع ذلك بكل دقة. لكي ترجع قبل الخروج نازلي هانم بكل كبريائها وشموخها . ولفت نظر الباشكاتب. ولكن فيما بعد. أنه لم يكن يدور بينه وبين نازلي . خارج العشق. أي حديث له معناه . أحيانا حين كانا يجلسان معاً في هدوء قبل الخروج من شقتهما ليشربا الشاي وليأكلا الحلوى . كانت تسأله عن رأيه في بعض قضاياها التي لا تنتهي . أو تحسب بدقة أرقام إيرادات ستحصلها أو مصاريف ستدفعها وترجوه أن يراجعها معها . أو تشكو له أحيانا من أن أولادها يتركون كل العبء عليها وكل ما يهمهم أن يجدوا النقود جاهزة في النهاية. أحيانا أيضا كانت تنتقد زوجها الراحل لأنه قبل أن يموت لم يرتب أمور الثروة والتركة ترتيبا مناسبا .

وحين كان توفيق يحدثها عن قلقه أو عن ندمه لأنه يعيش حياة مزدوجة أو لأنه يخون ثقة أسرته التي تحبه كانت تقول له بصوتها الناعم وكأنها لم تسمع ما قاله: يا توفيق . نحن كبرنا على هذه الأشياء !

ولفت نظره أن نازلي التي كانت تمارس العشق بجنون لم تتحدث مرة واحدة عن الحب ، ولا هو ايضا .

ولفت نظره أنه لم يحدثها مرة واحدة عن سمية ولا عن أبو خطوة .

لكنه استمر مع ذلك في «الترتيب» لأنه كان يحتاج إليه وكان يناسبه .

وعاد الباشكاتب يسأل نفسه، للمرة الألف أيضا ، وهو جالس في شرفته هل كانت نازلي هي التي أخذت روحه أم أنه وقع عليها لأن روحه خامدة بالفعل ولا أمل له ؟

هل يجب عليه أن يسلم بأنه انتهى ؟

(٥)

أغلقت الدكتورة صفاء عيادتها مبكرة عن موعدها في الظهيرة وتوجهت إلى فندق (شبرد) لتقابل لبنى التي طلبتها وقالت إنها تريد أن تراها اليوم . اقترحت صفاء أن تلتقيا في العيادة أو عندها في البيت ولكن لبنى أصرت على أن يكون اللقاء في الخارج .

جلستا في الصالة التي تطل على النيل ، على مقعدين متقابلين بجوار الحاجز الزجاجي ، ولم يكن هناك غير بضعة رواد متناثرين في المكان . راحت صفاء تتأمل ابنتها بابتسامة ونظرة مستفهمة قبل تسألها «خيراً يا لبنى . ما الذي ذكرك بي ؟» وابتسمت لبنى بدورها لعبارة أمها المألوفة وقالت «اشتقت لك وأريد أن أتحدث معك في مسألة» .

كانت الدكتورة صفاء كعادتها تترك شعرها الأسود الطويل مسترسلا ومرجلا بعناية حتى منتصف ظهرها ، وتستخدم زينة كالكحل حول عينيها الواسعتين وتصبغ شفتيها الجميلتين برقة وإحكام . وكانت تلبس (تايير) أزرق و(بلوزة) سماوية اللون . كان كل شيء فيها جميلا . وارتدت لبنى بلوزتها البيضاء العادية وفوقها (بلوفر) من الصوف الأزرق أيضا . راحت تتأمل أمها وتفكر بأن مجرد النظر إليها متعة .

عندما طال الصمت بدأت صفاء الكلام : كيف حال دادة سنية ؟

هزت لبنى رأسها وقالت: بخير . ثم أطرقت وعادت إلي الصمت .

شعرت صفاء بشوق حقيقي إلي مربيتها القديمة ولكنها شعرت أيضا بحرج من التطرق للحديث عنها . بقاؤها مع لبنى جزء من اتفاق الطلاق . تعلقت بها منذ

الصغر أكثر من تعلقها بأمها . ومع أنها تعرف أن شوكت لا يحبها . إلا أنه فهم أن بقاءها ضرورى مع لبنى بعد خروج أمها من البيت . واعتادت الدادة سنية أن تزور صفاء مرة فى الأسبوع وأن تبيت عندها أحيانا بعد أن تستأذن لبنى. لم تكن المربية كثيرة الكلام . فى الواقع أنها نادرا ما تتكلم . لكنها تسمع لصفاء وكان هذا يكفيها . لم تنصحها أو تؤنبها بل كانت تسمع فقط وكانت تحبها . لكم تفتقدها الآن بعد أن أصبحت عاجزة عن الخروج والحركة ! صوتها المرتعش فى التليفون يزيد شوقها إليها وخوفها عليها . أحيانا تفكر فيها بالليل وتحلم بها ثم تصحو وهى تبكى . هل ستفقد حتى صوتها عما قريب ؟ ما علاقتها الآن بلبنى ؟ هل تحكى لها هى الأخرى أسرارها ؟ وهل مازالت الدادة قادرة على أن تسمع وتفهم ؟ومن أين لها كل تلك الطاقة على الحنان والحب وهى التى ظلمتها الدنيا ؟

نظرت صفاء شاردة عبر الواجهة الزجاجية إلى النيل . كانت سحب بيضاء كثيفة فى السماء وكان النهر رماديا .

أخيرا تكلمت لبنى وهى مطرقة وقالت لأمها أريد أن أسألك عن شىء : كيف يكون الإنسان سعيدا ؟

ضحكت صفاء ضحكة خافتة ثم قالت لابنتها : أنت تقرئين كثيرا يا لبنى . ألم تجدى إجابة عن هذا السؤال فى الكتب ؟

– لا أريد إجابات الكتب . أريد أن أسمع منك أنت .

– أنا بليدة فى الأسئلة النظرية ! ربما لكل إنسان سعادته التى تختلف عن سعادة غيره .

– ولكنى أريد أن أكون سعيدة .

ابتسمت صفاء : الإنسان لا يريد أن يكون سعيداً يا حبيبتى . هو إما أن يكون سعيدا أو لا يكون . إرادته لا دخل لها بالموضوع .

– وأنت ، هل وجدت السعادة ؟

سكتت صفاء وهى تفكر : هل هذا فخ ؟ ربما تكون لبنى قد جاءت الآن لتحاسبها . لم تعد الطفلة التى اقتصرت علاقتها بها على أن تغمرها بالهدايا ، وعلى الثرثرة الفارغة فى لقاءاتهما القليلة. الآن جاء وقت الأسئلة الصعبة ! ومن يدرى ؟ ربما يكون شوكت قد ملأ رأسها بكلام عنها فقالت صفاء متهربة من الرد : هل تعرفين كلمة دادة سنية التقليدية . الرضا ؟ أن يرضى الإنسان بما يجده . هى مثلا لم تجد فى حياتها سوى القليل . ترملت فى شبابها دون أن تنجب ولكنها رضيت بى وبك أحبتنا وأحببناها .

وفكرت لحظة قبل أن تقول : وربما أيضا أن يرضى الإنسان بنفسه . ألا يطلب من نفسه غير ما يمكن أن تعطيه. أن يرضى حتى بضعفه الذى لا يستطيع أن يغيره .

قالت لبنى متبرمة : يا أمى يا حبيبتى أنا لم أطلبك اليوم لأستمع إلى حكم ومواعظ . أنا أريد أن تكلمينى عن حياتك . هل وجدت السعادة وكيف ؟

نظرت صفاء إلى ساعتها وتكلمت بهدوء لتخفى انفعالها : لا أستطيع بعد عمل كذا ساعة فى العيادة أن أدخل امتحانا فى .. ولكن عموما ما السبب فى هذه الأسئلة ؟

قالت لبنى وهى لا تزال مطرقة : لأنى أحب .

أشرق وجه صفاء وبدا فيه فرح حقيقى : أخيرا ! مبروك ! كنت أظن أنك أنت .. ثم وضعت يدها على يد ابنتها وقالت : أترين ؟ الآن أنا سعيدة بحق . سعيدة بك ومن أجلك .

لم تهتز لبنى لانفعال أمها وقالت وهى تحول وجهها نحو زجاج الواجهة : فلماذا أنا لست سعيدة ؟

- كيف ؟ آه ! أنت تحبينه وهو لا يحبك ، أو ربما لا يعرف أنك تحبينه ؟

- لا ، أنا أحبه وهو يحبني ، أو يقول إنه يحبني . لا أعرف . أظن أنه بالفعل يحبني .

- إذن ما هي المشكلة ؟ هل هو شخص صعب ؟

وأوشكت أن تفلت منها عبارة «مثل أبيك» لكنها توقفت في اللحظة المناسبة وكانت لبنى تقول :

- لا ، هو أطيب إنسان في العالم ! وأنا أحبه جدا وأكون سعيدة معه، المشكلة ..

وضعت يدها على جبينها وصفاء تنظر إليها لكي تكمل فقالت لبنى : أريد أن تساعديني !

المشكلة أني أخاف من كل شيء !

- لا يمكن أن يكون هذا بدون سبب يا لبنى . لو قالت واحدة غيرك هذا الكلام سأقول لها ببساطة أن ترى طبيبا نفسيا . ولكن أنت بذكائك ، أنت حتى أذكى مني بكثير ، لو فكرت ..

وتساءلت صفاء إن كانت ابنتها ، قد فقدت بالفعل الثقة بسبب تجربة انفصالها عن أبيها . عادت لبنى تتكلم مطرقة فيما يشبه الهمس : لا أعرف السبب . أو أعرف أسبابا كثيرة، ولكن هذا لا يساعدني في ...

ثم نظرت إلى أمها بما يشبه من التحدي وقالت : أتريدين أن تعرفي ؟ الخوف أعيش معه منذ صغري . بعد أن كنت تضعينني في الفراش وتطفئين النور ، كنت أقوم وأضيئه من جديد فور خروجك وفي أكثر الليالي لم يكن هذا يساعدني ، كنت أخرج وأنا أرتجف من الرعب لأنام في حضن دادة سنية . وكانت هي تحملني بعد ذلك ناعسة إلى الفراش .

- وكيف لم تقل لي هي ولم تقولي أنت ؟ .. ولكن هذا طبيعي دادة سنية لا تتكلم وأنت .. ثم سكتت لحظة قبل أن تكمل : عندما كنت في مدرسة الراهبات كنّ يخوفننا من الشيطان الذي يوجد في كل شيء حتى في أظافر أصابعنا ، وأذكر جيدا أني كنت أخاف بالفعل . هل كنّ يخوفنك أنت أيضا؟

قالت لبنى نافدة الصبر : يا أمي الخوف يعيش معي من قبل أن أدخل المدرسة . أنا ولدت بالخوف. أنا مازلت حتى الآن .. !

- ولماذا لم تكلميني عن هذا من قبل يا لبنى ؟ ربما لو تحدثنا معا .. ثم استدركت : أنا لا ألومك الآن ولكني ألوم نفسي ..

عبر وجه صفاء الجميل حزن حقيقي وهي تنظر إلى ابنتها . أرادت أن تقول لها سامحيني ولكنها كانت تكره العبارات العاطفية وتعرف أن لبنى أيضا لا تطيقها . رباها الدكتور شوكت على اعتبار الدموع والكلام العاطفي ضعفا لا يليق، حتى وهي طفلة كان يعاقبها إذا ما بكت ! ولم يقبل أن تتدخل صفاء في أساليبه الحديثة لتربية لبنى لتكون قوية . ولكن لماذا استسلمت لذلك ؟ لماذا قبلت أن ترى ابنتها الصغيرة تصارع لتحبس دموعها وتشعر بالعار إذا ما بكت ؟ كيف صبرت على هذه القسوة ؟

لحظتها فاجأتها لبنى مرة أخرى حين سألتها وهي تنظر عبر الزجاج إلى النهر :

- هناك مسألة حيرتني منذ الصغر . لماذا كان الطلاق بينك وبين أبي ؟ هل كان لي أنا علاقة بالموضوع ؟ هل كنت من بين أسباب الطلاق ؟

تراجعت صفاء في مقعدها وقالت باستغراب : كيف تكونين أنت السبب ؟ بالعكس ربما كنت أنت السبب في تأجيل الطلاق. لا يوجد أي شيء مشترك بيني

كيف يخطر ببالك !
وبين أبيك غير أننا نحن الاثنين نحبك ! ..

وحولت صفاء وجهها أيضا نحو النهر وهي تفكر : بالفعل . كيف يخطر ببال لبنى شيء كهذا ! وما الذي يمكن أن تقوله لهذه الطفلة ، التي ما زالت طفلة رغم ذكائها وقراءاتها ، عن أبيها العظيم؟ غلطتها الأولى والكبرى بالطبع أنها لم تكتشفه على حقيقته قبل الزواج . لم تكتشف أن ثقته بنفسه التي أعجبتها وجذبتها إليه لم تكن سوى غرور أعمى يجعله يرى نفسه محور الكون . غرور بطمعه ، وبنجاحه ، وبوسامته ، وبماضيه الثوري . ثم بتنكره للثورة وبأفكاره العملية الجديدة . يجد في كل ما فعله أو يفعله في حياته مصدرا للتباهي ودرساً يجب أن يتعلم منه الآخرون . غرور يجعله لا يرى من أمامه ولا حتى من تشاركه فراشه ! في البدء كانت تتعذب في صمت . تخجل أن تقول له شيئاً وهي تراه ينصرف عنها فور أن يرضي رغبته. تتقزز من نفسها إذ تضطر إلى أن تنهي توترها بنفسها خفية. ولما لم تعد تحتمل صارحته . وجدت صعوبة في التغلب على خجلها وتكلمت بتردد، بأنصاف جمل وبتلميحات مبهمة . وكانت تنتظر منه بعدها أي شيء غير ما سمعته أذنها. قال شوكت وهو ينظر إليها مباشرة دون أي انفعال إنه يفهم مؤامرتها لتحطيمه ! قال إنه ينجح مع كل النساء غيرها فلماذا تتعمد هي ألا تضبط نفسها معه ؟ هي بالطبع تغار منه ومن نجاحه ومن تفوقه في الطب وتعجز عن اللحاق به ولهذا تريد إذلاله بهذه الحكاية ! لكنه لن يسمح لها بأن تهز ثقته في نفسه أو أن تعطله ، إن كان عندها برود فلتعالج نفسها دون أن تحمله مشاكلها ! أضاف إلى عذاب التوتر إشعارها بالذنب دون أن تهتز فيه شعرة .

ياه ! كل تلك السنين من التعاسة التي عاشتها مع هذا المجنون !

التفتت إلى لبنى الصامتة وقالت لها : حدث الطلاق كما يحدث أي طلاق. لم نتفق ولا ذنب لك فيما حدث بالطبع ، بل الذنب ذنبنا . نحن أخطأنا في حقك . أنا أشعر الآن بالذنب لأنني لم أعرف بحكاية مخاوف طفولتك ولكن أنت تعرفين

يالبنى من قراءاتك أن الإنسان لا يعيش بمخاوف الطفولة ولا حتى بالمشاكل الحقيقية التي يمر بها في طفولته وشبابه. وكل إنسان يصنع نفسه يالبنى ، وفي الغالب يصنع نفسه ضد ماضيه ..

لوحت لبنى بيدها وهي تقول : لا داعي لهذا الكلام يا أمي. قلت لك من البدء إني لا أحتاج إلى مواعظ. أريد أن أسمع كلاما مفيدا. قولي مثلا ماذا أفعل في حكاية الأستاذ حمام ؟

بدأت تحكي لأمها بهمس محايد تماما . دون انفعال ودون تهدج، ولكن حين انتهت كانت ترفع رأسها كعادتها لتقاوم الدموع التي تريد أن تطفر . أما صفاء فتركت دموعها تنساب في صمت. لم تسألها هذه المرة لماذا لم تقولي لي من قبل. كانت تفكر أنها لم تقترب أبدا حقيقة من ابنتها وأنها مسئولة بشكل ما عما أصابها.

أمسكت بيدي لبنى الموضوعتين على المنضدة دون أن تقول أي شيء ثم سألتها هامسة أيضا :

- هل حدثت أحدا غيري عن ذلك ؟

- دادة سنية .

- أقصد حدثت أحداً غيرها ؟

- لا . ولكن لابد أن أقول لسالم. من حقه أن يعرف .

فقالت صفاء ببطء وبنبرة حاسمة دون أن ترفع صوتها: ولا كلمة ! لا هو ولا أي إنسان غيره. هذا شيء يمكن علاجه .

- بالخداع ؟

تركت صفاء يدي ابنتها وسألتها : هل تريدين أن تفقديه ؟

فدارت لبنى رأسها مرة أخرى: لاأريد أن أعيش فى الكذب.

قالت صفاء دون أن تنظر فى وجه ابنتها: لا أنت ولا غيرك . لا أحد يريد أن يعيش فى الكذب ولكن ما العمل وحياتنا نفسها كذبة كبيرة ؟

ثم فتحت حقيبة يدها وأخرجت مرآة صغيرة وراحت تصلح زينتها التى أفسدتها الدموع. استغرقت وقتا طويلا لأنها كانت تفتش فى رأسها عن كلام آخر تقوله للبنى الغارقة فى الصمت ، ولكنها شعرت أن ابنتها قد انسحبت داخل نفسها من جديد ، وأنها قد أصبحت الآن بعيدة عنها تماماً.

ومع ذلك لم تترك صفاء لبنى إلا بعد أن انتزعت منها وعدا بألا تبوح لأحد بقصة المدرس قبل أن تتكلما مرة أخرى، وعدت أن تتصل بها فى الغد بعد أن تفكر جيدا فى الموضوع ثم تلتقى بها وتواصلا الكلام .

لم تتابع لبنى أمها بتركيز. أخذت تهز رأسها وتقول نعم - بالطبع - غدا ، ولكنها كانت تفكر فى شىء آخر كانت تقول لنفسها : إذن لا حل سوى الانتحار أو أن اترك سالم. ولكنها كانت تعرف أنها أجبن من أن تفعل هذا أو ذاك .

وخارج الفندق كان الجو باردا . عرضت الدكتورة صفاء على لبنى أن توصلها بسيارتها إلى أى مكان تريده لكنها قالت إنها تحب أن تمشى. سألتها أمها تمشين فى هذا الجو؟ فهزت رأسها وقالت صفاء بابتسامة متكلفة وهى تصعد إلى سيارتها «مجنونة مثل أمك ! لا تنسى موعدنا غدا» .

هزت لبنى رأسها مرة أخرى وتذكرت وهى تلوح لأمها بالتحية : لم أقل لها حتى لماذا أردت حقيقة مقابلتها اليوم !

* * *

سارت لبنى على شاطىء النيل فى اتجاه جزيرة الروضة لكى تقابل سالم فى الموعد. كان الجو باردا بالفعل فضمت (البلوفر) على جسدها وأسرعت خطواتها.

لكنها توقفت فجأة أمام حاجز الكورنيش الحجرى، فكرت وهى تنظر إلى الأمواج الرمادية المتواثبة : ومع ذلك فسوف أفقده! شئت أو أبيت فسوف أفقده. رأت فى الصباح مرتضى فتشاءمت ولم تكن مخطئة.

شبكت يديها أمام صدرها وراحت تنقل بصرها بين السحب البيضاء فى السماء، وشراع مركب كبير منتفخ بالهواء، يتجه نحو الجنوب. كان الشراع مشدودا ومتوترا فبدأ (المراكبية) يتسلقون الصارى ويطوون الشراع. راقبتهم وهى تحاول كالعادة أن تمنع الدموع من عينيها وفكرة واحدة تتكرر فى رأسها . كل شىء إذن سينتهى. كل ذلك الفرح القصير العمر. كل تلك الشهور من الأحلام. كلها ستضيع .

بدأت تمشى ببطء فى اتجاه الكازينو الذى ستقابله فيه.

سترجع إذن إلى الحياة القديمة. سترجع إلى التلفت للوراء، فى خوف واحتباس الصوت والهروب فى القراءة والرعب من الناس والأشياء . سترجع إلى الوقت الذى يقتل الوقت ويميتنى معه !.

ولنفرض أنها قالت له عن قصتها مع حمام وأنه فهم وغفر. (كيف؟ بأية معجزة؟ لا تدرى!) فهل سيغفر لها أنها أخفت عنه حكاية المقالات والمنشورات والمظاهرات؟ هل سيفهم أنها كذبت عليه لكى لا تفقده؟ هل سيصدق ؟ هل سيفهم ؟

ولنفرض أنها سكتت وأن المسألة مرت بسلام فهل سيفوت مرتضى الفرصة؟ عرف رغم كل محاولاتها للتخفى أن هناك شيئا بينها وبين سالم. وحين يتصادف أن يراهما معا يرمقها بابتسامة بغيضة ونظرة كارهة. لديه سبب للحقد أكثر من (باجو) على أى حال ! يعتبر أن سالم سرقها منه! تعمدت المجموعة ألا تشركه فى أى شىء. لا فى الاجتماعات ولا فى تحرير المقالات لكنه جاءها مع ذلك فى

الصباح بابتسامته التي تمقتها وقال لها سنة حلوة ياجميل ! إذن سنحتفل غدا ونمضي المنشورات ؟ غدا ١٥ يناير؟ أليس كذلك؟

ابتعدت عنه وجاءها الدوار على الفور. خافت منه وكانت خائفة من الأصل. لماذا لم تقل لهم الحقيقة وهم يوزعون المهام؟ لماذا لم تقل على الأقل أنا جبانة وأرجوكم أن تعفوني من هذا العمل؟ خافت حتى أن تقول ذلك. جاء غثيان الخوف والعرق البارد لكنها لم تنطق، وشعرت بالعار وهي ترى زملاءها وزميلاتها يقبلون المطلوب منهم ببساطة وحتى بحماس. كان يجب أن تنسحب، لا في تلك اللحظة وإنما قبلها بكثير. كان يجب أن تعترف لنفسها بأن هذه اللعبة ليست لعبتها. ستعترف بهذا لسالم. ستكون أصرح مع نفسها. ستقول إنها حتى وهي في قلب اللعبة لم تقتنع تماما بما تفعله. حدثتها نفسها بأن هؤلاء الطلبة الفقراء يدافعون بالفعل عن مصالحهم، أما هي فعن أي شيء تدافع؟ الدكتور شوكت معه كل الأموال ويعطيها كل ما تطلب.

هل أراحت ضميرها عندما امتنعت عن أن يوصلها سائقه بسيارته إلى الجامعة؟ عندما صممت ألا تلبس الثياب الغالية مثل الدكتورة صفا؟ أبدا. هي ليست منهم. أكثر من ذلك، لتعترف بأنها كانت في وسط اجتماعاتهم تشعر بنفور وتقزز من روائحهم! أحيانا تبتعد خطوات عمن يقترب منها ليكلمها ورائحة فمه وجسمه وثيابه تصيبها بالدوار. تسأل نفسها لماذا لا يستحمون ياربي؟ لا يوجد في مصر أكثر من الماء ولا أرخص منه . لماذا لا يغسلون ملابسهم ليزيلوا رائحة العرق على الأقل؟ كيف لا يشعرون بقذارتهم؟ كيف لا يتقززون من روائح أجسادهم وهم طلبة جامعة؟ المفروض أن يكون أحد قد علمهم شيئا عن النظافة وأنهم يفهمون هذه الكلمة. فلماذا ياربي كل هذا الاستهتار؟ لو كانت لديها ذرة من الشجاعة لصرخت فيهم أنهم قبل أن يثوروا على السياسة يجب أن يثوروا على

قذارة أجسامهم! لكنها لم تفعل. لم تقل رأيها في أي شيء، بل كانت تشعر بالذنب حين تأتيها هذه الأفكار، وإن لم تستطع التخلص منها أبدا.

أهم من ذلك أنها كان يجب أن تعترف بأن حبها لسالم يشغل كل حياتها، لكنها لم تفعل. تركت نفسها لعمل لا تستطيع تحمله وأخفت أمره عن سالم. أقنعت نفسها ببيت من الشعر لشكسبير يقول «لا تدخل معركة ولكن إذا دخلت فاثبت» . برافو! ولكن ماذا وهي لا تستطيع أن تثبت؟ حقيقة لا تستطيع.

بدأ رذاذ خفيف في السقوط، فأسرعت لبنى خطواتها ولكن ساقيها عادتا ترتجفان أكثر من المعتاد.

ستذهب إلى الكازينو فتجد أن سالم عرف كل شيء من مرتضى. سيتهمها بأنها تخونه. تخفي عنه أفعالها. سيكون قد عرف بحكاية الأستاذ حمام. ليس بعيدا أن تكون قد وصلته بطريقة ما . سيشتمها . سيضربها. ستفقده إلى الأبد! الأفضل ألا تقابله . الأفضل أن تموت الآن حالا! لماذا لا يأتي الموت عندما يتمناه الإنسان ؟

لكنها وجدت نفسها رغم كل شيء في الكازينو. لم تكن ساقاها وحدهما ترتعشان بل شفتاها وقلبها .

وحين رآها سالم مقبلة عليه وقف وقال منزعجا: ماذا بك يالبنى ؟

فجلست قبالته دون أن تنطق بكلمة.

قال لها : تحبين أن ندخل في الصالة؟ الدنيا برد وشفتاك زرقاوان .

هزت رأسها وتمتمت : لا بأس .

لكنها ظلت في مكانها ، وكرر سالم في قلق: ماذا حدث ؟

فردت شاردة : قابلت أمي.

ثم استجمعت نفسها بجهد خارق وقالت: معك حق. فلندخل إلى الصالة.

قامت وتبعها. كانت الصالة الزجاجية للكازينو التي يغطونها في الشتاء أشد برودة من المكان المفتوح. يتسرب إليها هواء بارد من فرجات الزجاج. لم يكن هناك غيرهما في المكان وعدد من الجرسونات في سترات بيضاء، لاحظت أنهم جميعا يركزون أنظارهم عليها فقالت لسالم: نشرب الشاي ونمشي.

ولكنها استرخت قليلا وهي تشرب الشاي الساخن وسالم ينظر إليها صامتا. راحت تتطلع إلى هاتين العينين الحبيبتين وكأنها تريد أن تحفرهما في ذهنها. كأنها لن تراهما مرة أخرى. وراح هو أيضا ينظر في وجهها متأملا ثم قال بصوت خفيض :

- هناك شيء يحزنك .

- نعم .

سكت مرة أخرى قبل أن يقول في شيء من الحزن: تمنيت من أجلك ياليتني لو كنت أحسن مما أنا .

سألته في قلق : ماذا تقصد؟

- من مدة أفكر .. أحاول أن أنسى ولكني لا أستطيع . أنت ذكية وتقرئين كتبا لا أعرفها بلغات لا أعرفها، وأنت جميلة وغنية وأنا .. كان يمكن أن تجدي إنسانا أفضل مني بكثير.

قالت لبنى في يأس: أنت تريد أن تتركني. هل هذا ما تقصده ؟

- لا . كيف تفكرين في ذلك؟ أنا أريد فقط أن تعرفي .. ربما تعتقدين أنني الآن لو لأنني كنت .. لأنه كانت تأتيني الحالة التي جعلت أبي يعتقد إنني مجنون.. ربما تعتقدين أنني لا أعرف .. ولكن أنا أعرف الفرق .. أعرف أني لا أستحقك .. ولكن لو تركتني .. أظن أني .. ربما بالفعل ..

نظرت لبنى إلى وجهه المعذب . تابعت محاولاته لكي ينتزع الكلمات بصعوبة فغمرها إحساس جارف أنساها كل شيء آخر غير أن سالم يتألم . وأنه يتألم من أجلها فقالت بنبرة فيها شيء من الاستسلام :

- وكيف يمكن لي أنا أن أتركك؟ ألم أقل لك أكثر من مرة إنك أحسن شيء حدث في حياتي ؟ ثم إنني لست جميلة ولا ذكية. لست أذكى منك . أنسيت أنك أنت الذي تشرح لي مسائل القانون الصعبة التي لا أفهمها؟ وأنا أحبك لأنك أنت كما أنت. أحب جدك الذي لم أقابله وأحب أختك وابنها عندما تتحدث عنهما لأنك أنت تحبهما. ولو كنت تحبني فأنت تحبني لأنني أنا كما أنا ..

أشرق وجه سالم قليلا وهو يتذكر شيئا: جدي أيضا يقول ذلك. عندما حدثته عنك قال لي إن الحب الحقيقي التقاء روحين والأرواح لا تتنافس في الجمال ولا في الذكاء لأن كل الأرواح جميلة وذكية .

قالت لبنى : لو كان جدك معنا لقبلته لأنه يقول هذا الكلام !

ولكنها ابتسمت لنفسها حين طرأ على ذهنها ما يمكن أن يحدث لو سمع الدكتور شوكت أو الدكتورة صفاء هذا الكلام عن الأرواح. ليس علميا على الإطلاق !.

وقالت لسالم في دهشة حقيقية: لو نبقى معا ياسالم هكذا إلى الأبد! فقط هكذا ! ولو في هذا المكان. في هذا البرد! عندما جئت قلت لي إن هناك شيئا يحزنني. نعم. هناك أشياء تحزنني ولكني معك أنساها. وأرجوك ألا تسألني اليوم عن الحزن.

وأكملت لنفسها سيأتي في موعده فدعنا على الأقل ننساه في هذه اللحظة. ثم حكت جبينها بيدها وقالت:

- لكي أنساها إلى الأبد . فلابد أن تبقى معي إلى الأبد ! لا تتركني لحظة ..

- ولكن أنا أحدثك عن كل شيء، ولا أعرف عنك إلا القليل.

سألته في توجس وقد عاودها ما تهرب منه: ما الذي تريد أن تعرفه؟

- عندما سألتك قلت إنك قابلت أمك. هل حدث شيء، عندما قابلتها؟

تنهدت بشيء من الارتياح وهي تقول: نعم قلت لك من قبل أنت لك جد تحبه وأسرة تحبها وأنا ليس لي أحد أبدا. أرى أمي قليلا. أما أبي الذي أعيش معه فربما أراه أقل مما أرى أمي. هو طول الوقت في العيادة أو في المستشفى. لولا دادة سنية لانتحرت!

قال في انزعاج شديد: تنتحرين! كيف تفكرين في ذلك؟

ابتسمت بالرغم منها: لا تخف هكذا! أنا أجبن من أن أنتحر!

سكت لحظة قبل أن يسألها: هل تحبين والدك؟

رجعت في كرسيها ورفعت رأسها وهي تقول: لا! أقصد نعم.. نعم. بالطبع أحبه. هو أبي. ولكنا لسنا صاحبين.. لماذا بدأت هذه الحكاية من الأصل. ما السبب في كل هذه الأسئلة؟

- كنت أقول.. كنت أريد.. أردت أن أتعرف عليك. على حياتك وعلى أسرتك.

فقالت دون تفكير: هذا سهل جدا ياسالم!

(٦)

عندما دخل العمارة توقف لحظة في المدخل. كان فسيحا، من رخام أبيض على جانبيه رسوم فسيفسائية ملونة لغزلان ترعى وسط حشائش، وتحف به من الناحيتين أصص نباتات أوراقها خضراء لامعة. ومن السقف تتدلى ثريات ضخمة باهرة الضوء من الكريستال. وفور دخولهما هب واحد من حراس الأمن الجالسين إلى مكتب في الركن بأزيائهم الزرقاء، وحيا لبنى في أدب شديد ثم أسرع قبلهما ليفتح باب المصعد. وانتبه سالم إلى أن لبنى لم تنظر نحو الحارس وأنها لم تشكره.

انتبه أيضا إلى فخامة الشقة عندما واجهته الصالة الواسعة التي توشك أن تكون في مساحة شقتهم كلها. بهره كل شيء.. قطع الأثاث وطريقة ترتيبه والمكتبة الجميلة بخشبها المزخرف فقال وهو ينظر حوله:

- بيتك جميل يا لبنى.

- شكرا. هو بيت أبي.

أراد أن يسألها وهل هناك فرق؟ ولكنه لزم الصمت. منذ رآها هذا المساء وهي تشرد كثيرا ولايبدو عليها أنها تسمع ما يقوله. تبدأ كلاما وتتوقف قبل أن تكمله. يمتقع وجهها أحيانا وتضحك ضحكات عصبية في أحيان أخرى. وعندما عرضت عليه أن يأتي معها لم تترك له فرصة للتفكير.

قالت: ما دمت تريد أن تعرف كيف أعيش لماذا لا تأتي وترى بنفسك؟

سأعرفك على دادة سنية ولو أسعدنا الحظ فسأعرفك على الدكتور شوكت! هيا!

قامت وجذبته من يده، وفي الطريق أشارت إلى تاكسي ثم خلال دقائق كانا أمام العمارة الشاهقة التي تطل على نيل الجيزة في الضفة الأخرى.

ضغطت على الجرس قبل أن تفتح الباب بمفتاحها فاستقبلهما في الردهة

خادم يلبس سترة بيضاء مثل الجرسونات، سألته فور دخولها :

– الدكتور هنا ؟

– لا ، الدكتور اتصل وقال إنه لن يأتي للعشاء.

وأشار بيده لسالم في اتجاه الصالون المختفي في آخر الصالة الشاسعة وهو يقول : تفضل يا أستاذ .

لكن لبنى جذبت بسالم من يده قائلة: تعال! أنت تحب النيل فاحتمل البرد !

جلسا في الشرفة العالية على مقعدين مبطنين بقماش اسفنجي، وكانت الشمس الغاربة قد بددت بعض السحب وصبغتها بلون وردي ينعكس على سطح النهر أطيافا ذهبية متقاطعة ، تبتلعها الأمواج ثم تطفو على السطح في ألق خاطف.

استغرق سالم في متابعة تلك الالتماعات الرجراجة في الماء قبل أن تحجب الشمس سحابة كبيرة فتختفي هذه الأطياف ويتحول النهر إلى مجرى رمادي داكن مستطيل يشق كتل المباني على جانبيه ويجتاز الجسور التي تزحمها العربات . لم يسبق له أن رأى السيارات من هذا الارتفاع صغيرة الحجم وضجتها تأتي من بعيد خافتة كالصدى، لكن النهر الممتد أمام بصره كان هو الشيء الوحيد الهادئ، الذي يوحي بالسكون حين يركز نظره عليه .

التفت إلى لبنى التي كانت تنظر مثله صامتة إلى النيل وقال : معك حق ، عندما ننظر إلى النيل من بعيد ..

ثم سكت فأكملت هي : يكون النيل وحده هو الجميل ، أليس كذلك؟

– هذا ما أردت أن أقوله .

ظلت تنظر نحو النهر وقالت بصوت خافت: أحب أيضا قصيدة النهر الخالد ، مليئة بالصور الجميلة – مسافر زاده الخيال،، . وظمآن والكأس في يديه ،، . ولم يزل ينشد الديارا ويسأل الليل والنهارا ، أحب بالذات البيت الذي يقول ياليتني موجة فأحكي إلى لياليك ما شجاني وأغتدي للرياح جارا ، أي هروب أجمل من

هذا الهروب ؟ أن تصبح موجة في النيل وأن تهمس للريح بشكواك . لا مشاكل على الإطلاق!

قال وفي صوته نبرة من الأسى : أنا لا أقرأ الشعر مثلك يا لبنى.

ضحكت ضحكة خافتة وهي تحول وجهها نحوه : أي قراءة يا سالم؟ هذه أغنية يذيعها الراديو كل يوم تقريبا . ألم تسمعها أبدا؟

– سمعتها ولكنها لم تطرأ الآن على بالي ولم أفكر فيها كما فكرت أنت.

أنت فكرت هكذا لأنك تقرئين كثيراً . ليتني أستطيع أن أصبح مثلك!

قالت متظاهرة باللامبالاة : نعم قبل أن أعرفك كنت أقرأ . عندي وقت كثير لا أعرف ما أفعله به . قلت لك أنت عندك أسرة تحبها وتشغلك . أما أنا، فليس لي أحد . أعطني هذه الأسرة يا سيدي وخذ كل القراءة التي قرأتها!

ثم أطرقت وهي تفكر لنفسها : ليتنا يا سالم لانتحدث الآن بالذات عما يفرق بيننا ! ليتك تساعدني وتكون معي!

مالت نحوه فجأة وهي في مقعدها وجذبت ذراعه ثم قبلته قبلة سريعة في جبينه وابتعدت عنه بالسرعة نفسها.

ففي تلك اللحظة سمعا صوت خطوات بطيئة تقترب . ثم ظهرت بالباب سيدة عجوز تستند إلى الجدار وهي تنقل خطواتها بصعوبة. لم يتحقق سالم من ملامحها جيدا في عتمة الغروب التي حلت . رأى فقط أنها تلبس جلبابا من قماش مشجر وتضع على رأسها طرحة بيضاء، تحيط بوجهها كله.

هبت لبنى من مكانها وقالت وفي صوتها انزعاج : دادة ! لماذا تركت غرفتك ؟ ما الذي جعلك تقومين وتخرجين إلى هنا في هذا البرد؟ منذ متى تفعلين ذلك؟

احتضنتها لبنى وهي تضيء نور الغرفة فرأى سالم وجهها المتغضن بالتجاعيد مثل إسفنجة منكورة تطل منه عينان كابيتان . لم يبد أنها رأت سالم لأنها قالت بصوت ضعيف: متى رجعت يا لبنى؟ ولماذا تأخرت؟ قلبي ياكلني عليك طول النهار.

قالت لبنى وهى تقبلها : مساء الخير يا دادة . أنا . أنا جئت منذ قليل وكنت سأمر عليك الآن فى غرفتك ..

ثم أشارت بيدها إلى الشرفة وهى مازالت تحتضن مربيتها : هذا زميلى سالم الذى كلمتك عنه . سنذاكر الآن معا.

راحت العجوز تتفحصه من بعيد بعينيها الكليلتين وهى تسند يدها إلى باب الشرفة قالت : مساء الخير يا ابنى . بالنجاح إن شاء الله.

نهض من مكانه ورد عليها من بعيد بارتباك فقالت وهى لاتزال تتفحصه :

- أنت إنسان طيب.

أشرق وجه لبنى حين سمعت هذا وقالت لسالم بنبرة ظافرة : أرأيت ؟

فقالت المربية بصوت بدا لسالم حزينا : وأنت أيضا طيبة يا لبنى و .

غير أن لبنى قاطعتها وهى تضع يدها حول كتفها وتقودها ببطء مبتعدة عن الشرفة : تكفى هذه «الشقاوة» يادادة ! الآن نرجع إلى غرفتنا وتأخذ الدواء..

قالت العجوز وهى تبتعد مستندة إلى لبنى: ولكن لماذا تجلسان فى الهواء؟ سيصيبكما البرد..

فردت لبنى : لاتقلقى أنت يا دادة . سأقول لعم حسن أن يعد لنا فنجانين من الشاى، وسنشربهما فى غرفة الكتب ونحن نذاكر..

عادت لبنى بعد فترة فوجدت سالم يقف مستندا إلى سياج الشرفة وهو يتطلع إلى النهر . كانت أنوار الشوارع والإعلانات الملونة قد أضيئت وانعكست على صفحة النيل. وقفت لبنى إلى جانب سالم وكان إعلان فى أعلى عمارة بالضفة المقابلة يتوهج بنور أحمر ينطفئ «ويضئ» بانتظام . وكان يلقى على النيل أشعة حمراء متوازية ورجراجة . وقالت لسالم إنها تكره هذا الإعلان لأنه يعطى للنيل لونا كاذبا مثل وجه مهرج السيرك.

لم يرد سالم . شعرت به يقف متوترا رغم أنه كان يرتجف ارتجافة طفيفة. مدت يدها وأمسكت بيده : وقالت يدك باردة بالفعل وستصاب بالبرد كما قالت

دادة سنية . تعال ندخل ..

ظل يقف مكانه وسألها دون أن يحول وجهه نحوها : ماذا قلت لدادة سنية عنى؟

فردت ببساطة : كل شيء . أنا لا أخفى عنها أى شىء ..

فقال ونبرة التوتر تتصاعد فى صوته : ولكن ماذا قلت لها بالضبط؟ نحن فقراء، ولكننا لانسكن فى حارة !

قالت فى دهشة : وماذا لو كنت تسكن فى حارة ؟ ما أهمية ذلك يا سالم ؟ ألم يقل جدك..

ثم توقفت فجأة وراحت تربت على ذراعه برفق وهى تقول : لا يا سالم . لم أقل لها عنك أى شيء، غير أنك زميلى وأننى أحبك وكانت هى سعيدة لأنها تحبنى . واليوم رأيت بنفسك أنها تحبك أنت أيضا . تعال .. تعال ندخل..

* * *

كانت غرفة الكتب واسعة ودافئة تحف بحوائطها كلها مكتبة من خشب أبيض صفت فى رفوفها كتب ومجلدات مختلفة، ويتصدرها مكتب من الخشب نفسه وكرسى عالى الظهر . وفي ركن من الغرفة منضدة صغيرة حولها مقعدان وبالقرب منها كنبة من الجلد الفاتح اللون.

قال سالم وهو يجول وسط الكتب : هذه معظمها كتب علمية وكتب فى التاريخ. قلت لى إنك تقرئين روايات ولكنى لا أرى أي روايات هنا.

فقالت لبنى التى كانت تسير وراءه متابعة خطواته : هذه كتب أبى وبعض كتب أمى التى تركتها . مكتبتى الصغيرة فى غرفتى.

ثم أضافت وهى تبتسم : ولا تقلق . كلها روايات ويمكن أن أعيرك منها لو كان عندك وقت لقراءة الروايات.

فقال بانفعال : نعم أريد أن أعرف كل ما تعرفين . أريد أن أصبح مثلك. فهزت لبنى رأسها وهى تقول لنفسها : ليتك لاتصبح مثلى!

جلسا متواجهين يرتشفان الشاي الساخن في صمت . كان ينظر لها بعينين تموج فيهما غشاوة رقيقة كالدمع ويتضرج وجهه كلما التقت عيونهما . وكانت هي مستغرقة في التفكير . تتحرك في مقعدها بقلق . يرتعش فنجان الشاي في يدها ويحدث صلصلة في الطبق كلما رفعته إلى شفتيها أو أعادته إلى مكانه، وبدا أنها مثله تريد للصمت أن يستمر. لكن عم حسن العجوز ظهر بالباب، كان يمشي دون أن ينقل قدميه كأنه يزحف وقال وهو يحمل التليفون بيد والسماعة بيد أخرى ويجرجر وراءه السلك الطويل:

- مكالمة لك يا آنسة ليلى.

أمسكت بالسماعة وراحت ترد على المتكلم بصوت خافت : نعم .. نعم .. ثم امتقع وجهها فجأة وقامت من مكانها وابتعدت عدة خطوات وهي تقول :

- نعم . قابلت هذا الكارثة في الصباح وأعرف أنه يعرف ..

ثم ارتفع صوتها فجأة وهي تقول : أنت متأكدة؟ .. بالطبع هو يعرف كل الأسماء، نعم .. وما العمل الآن ؟ فات الوقت ! مع السلامة . نعم . نعم ، سأتخلص منها ..

كان عم حسن يقف في انتظار أن تنهي المكالمة ولكنها ظلت تمسك السماعة مطرقة الرأس قبل أن تناولها له بيد شاردة وهي تقول:

- لا أريد أي مكالمات أخرى.

سألها وهو يمسك التليفون كطفل رضيع: هل أجهز العشاء لك وللأستاذ؟

لوحت بيدها لا . أنا لن أتعشى. يمكنك أن تنصرف إذا شئت.

قال دون حماس : ولكن يمكن أن أبقى يا آنسة ..

قاطعته بنفاد صبر : إفعل ما تشاء يا عم حسن . ولكن أنا لن أتعشى.

- إذن بعد إذنك.

وعندما انصرف الخادم بخطواته الزاحفة قالت وهي تنظر نحو سالم دون وعي: ما الفائدة؟

- ما الفائدة من ماذا؟

فلوحت بيدها دون أن ترد.

قال سالم وهو ينهض من كرسيه : هناك شيء مهم تخفينه عني الليلة.

أنت لست طبيعية منذ قابلتك وتخفين شيئا. أنا قلت لك ما لا أقوله لأي إنسان .. حتى الحالة التي .. حتى الطبيب الذي .. حتى أبي .وأنتي ربما ..

أضاف اضطرابه واحتقان وجهه وهو يتحرك في الغرفة بعصبية إلى خوفها فعادت تجلس مكانها وتضع يديها أمام وجهها كأنها تحمي نفسها من خطر ما :

- نعم يا سالم . نعم .. أنا أخفي عنك شيئا لأنك لو عرفته فقد أخسرك. وأنا لا أريد أن أخسرك .. لو وعدتني..

قال ووجهه يزداد احمرارا : المسألة مفهومة . هناك رجل آخر !

وضعت وجهها بين يديها ومالت على المنضدة وهي تتكلم بصوت متهدج : أي رجل آخر ؟ أي رجل وأنا قبل أن أعرفك كنت أكره كل الرجال . كلهم بلا استثناء. سأقول لك لماذا ولكن ليس الآن .. أعدك .. المسألة أنني لا أريد أن أدخلك في .. أنت بريء جدا ويجب ألا تدخل في .. أنا . أنا خائفة !

انصرف الآن يا سالم من فضلك . أرجوك. الليلة لن تستطيع أن تساعدني.

سمع سالم صوت إغلاق الباب الخارجي فانتبه فجأة وقال :

- أنا أيضا سأنصرف .

قالت وهي لاتزال منكفئة على وجهها وجسدها كله يرتجف :

- نعم يا سالم قلت لك لا فائدة . انصرف الآن ! حتى هذا كذب ! لا أحد يحمي أحدا من خوفه .

لكن سالم تلكأ في مكانه . ظل واقفا يتطلع إلى الجسد المقوس المرتجف يسمع كلاما لايفهمه . يدور رأسه ويكاد يترنح وهو يتقدم نحوها.

يضع يديه الكبيرتين على كتفيها المرتعدتين ويمسدهما بأنامله برفق كأنه

يساعد طفلا على النوم . ولم يكن يدرك تماما ما الذى يفعله ولا ما الذى يريده . لكن ليلى كفت عن ارتعادها بعد فترة ورفعت رأسها فاسندتها إلى ذراعها الموضوعة على المنضدة ونظرت له بعينيها المحتقنتين وقالت في همس لايكاد يبين كأنما لنفسها، كأنها تحاول أن تفهم : وكل هذا لأنى قابلتك أنت ..

فامسك ذراعيها برفق وساعدها على أن تنهض وتقف على قدميها واحتضنها إليه واستمر يمسد برفق على كتفيها وذراعيها وهى مستسلمة له كأنما هو الذى يرفعها بيديه القويتين من أن تسقط فى الأرض. وضعت رأسها فى صدره وهى هامدة تماما. وظلا واقفين فى سكون كامل وهو يضمها إليه فتمتمت وهى مغمضة العينين تستمع إلى نبض قلبه المنتظم : لو يأتى النوم هكذا ! لو يأتى نوم طويل ونسيان !

ولكنها أحست وهى فى حضنه بصدره يعلو ويهبط وهو يتنفس بصعوبة وبأصابعه التى تتحسسها برفق تزداد سرعة وهى تهبط من كتفيها إلى ذراعيها ووجدت نفسها تقبل صدره قبلات صغيرة متقطعة وهى تقول بهمس معتذر: أريد أن أمسك . وكانت تضع يدها تحت البلوفر السميك الذى يلبسه وتحل أزرار قميصه بيد أخرى مرتبكة وتتسلل للمس صدره بأصابعها المرتعشة وتجذب برفق شعيرات ناعمة وجدتها هناك ثم تزيح البلوفر والقميص كتلة واحدة إلى أعلى وتغوص بوجهها كله فى صدره وهى تستنشق بعمق رائحة جسده وتصدر همهمات متقطعة وسط أنفاسها اللاهثة: نعم هذا هو أنت ! هذا سالم .. هذا جسده وهذه رائحته .

وكان هو يتنفس بصوت مسموع كلهات متقطعة بينما يدفع يديه الكبيرتين من كمى بلوزتها اللذين تمزقا وصدرها يرتجف فى صدره وكان يقول بصوت متحشرج وهما ينزلقان معا فوق السجادة : هذا لايجب ..لايجب ..

ولكن كل شىء كان يقول غير ذلك.

***

(٧)

كانت تجلس وحيدة على الأرض فى المكان نفسه، تمد ساقيها وتسند ظهرها ومرفقها إلى الكنبة الجلدية. لاتريد أن تفكر فى شئ: تتمنى فقط ما تمنته منذ البدء.. أن تنام، أن يستحيل الهمود الذى حل بها إلى نوم طويل تنسى فيه كل شئ: لكنها فجأة خبطت جبينها بيدها وهمست لنفسها وهى تعتدل فى جلستها:

- ياربى؛ كل هذه الضجة عن الحب تنتهى هذه النهاية؟

كل أفراح الأسابيع والشهور لم تكن سوى أكاذيب؟ كل حياتنا كذب كما قالت الدكتورة صفاء؟ أوهام نصنعها بأنفسنا لأنفسنا وفى النهاية لا فرق بين سالم والحب والأستاذ حمام والاغتصاب؟

لا أمل إذن أبدا فى أن يخرج الجسم من حصار جلده؟ لا أمل فى الحب الحقيقى ولا فى تلك المسرات الموعودة التى كذب بها علينا الشعراء والموسيقى ؟

لا وجود لتلك المسرات؟

موجودة ولكن لا يمكن الحصول عليها؟

البعض يصلون اليها ولهذا تستمر الحياة؟

كيف يمكن أن تعرف؟

همت بأن تقوم من مكانها وهى تسند يدها إلى الكنبة الجلدية لكنها شعرت بتعب شديد وثقل فى أطرافها فظلت جالسة كما هى. كان رأسها محموما ولكن جسدها ظل خائرا . راحت تهز رأسها وهى تقول لنفسها نعم، لا فرق بين سالم وحمام.

ها هى مرة أخرى لا تعرف إن كانت هى التى قادته أم هو الذى قادها . هل يخونها حتى جسدها؟ ولكن النتيجة هى نفسها: تحور وجهه وتشوه وهو يعدل

ثيابه ويقف فوقها. ولكن هناك فرق مع ذلك. حسام كان مذعورا. استطاعت أن تشتمه وأن تضربه. أما سالم فتركته يشتمها دون أى رد. من أين أمكن أن يأتى بكل هذه الشتائم؟ أين كان يختزن كل هذه البذاءات التى لم تحلم حتى بأنه يمكن أن يعرفها؟

تنهدت وهى تفكر: لم يكن ينقص شئ ليكون مثل حسام سوى أن يسألها وهو يقف فوقها: لماذا لم تقولى إنك لست بنتا؟! غريب أنه لم يذكر ذلك. هل اكتفى إذن بالشتائم ليعبر عن رأيه؟

وهل تكون هذه هى (الحالة) التى حدثها عنها؟ الجنون الذى يأتيه ويخافه؟ وما الفرق؟. فلتعترف. كان هناك شئ يختلف. مع حسام لم يكن شئ غير الذعر والاشمئزاز والألم. هنا حل عليها فى البدء سلام وسكينة لم تعرفهما فى عمرها وهى فى حضنه تحلم لو يستمر هذا الهدوء إلى الأبد. كان الحب آخر ما تفكر فيه. ذهنها كان مشوشا بعد مكالمة دعاء. مشغولا بالمشاكل التى يجب أن تحلها والأشياء التى لابد أن تتخلص منها. ولكن كل شئ انمحى من رأسها فجأة ولم يبق غير أنها هنا مع سالم. بدأ جسدها يتصرف وحده، يداها تلمسه وشفتاها تقبله وهى تلتصق به أكثر فأكثر كأنها تريد أن تصبح وإياه جسدا واحدا. ثم بدأت دون فاصل تحلق معه فى نشوة أخذتها بعيدا عن الأرض وهى ترى مغمضة العينين نجوما لم تر مثل بريقها وأنوارا لم تحلم بمثل جمالها وجسدها يتقلب فى ذلك الفضاء المنور إلى أن أطلقت آهة الفرح وهى ترفع ذراعيها ويديها وتقبض أخيرا، أخيرا، على تلك النجوم المستحيلة وتدور معها فى عاصفة دوامتها الأبدية.

وفى اللحظة التى تفجر فيها كل ذلك الفرح وهى تحلق عاليا وبعيدا أهوى سالم على رأسها بمطرقة تعيدها إلى الأرض، إلى باطن الأرض، إلى الذعر

المميت. ظلت فى مكانها على الأرض منكمشة على نفسها وهو يميل عليها بوجهه الذى فقد كل جماله فجأة وهو يهذر بعبارات لم تفهمها على الفور إلى أن فهمت أنه يشتمها ويشتم أباها وأمها ودادة سنية وعم حسن بعبارات فاحشة. ويقول كلاما غريبا آخر عن أبيه وعن أخته لم تفهمه أيضا وقد أصابها الخرس والشلل. كان ينظر نحوها بكراهية وتقزز وهى تنظر إليه ضارعة لا تجسر حتى أن تطلب منه أن يشتم بصوت خافت. ومع ذلك كانت تطفو لحظات فى قلب ذلك الذعر يجتاحها فيها إشفاق غريب عليه. تود لو تقول سالم هذا ليس أنت! هذا ليس صحيحا! هو كابوس ستفيق منه لتجده مرة أخرى إلى جوارها تحتمى به من خوفها ويحميها من نفسها. ولكنها لم تستطع أن تخرج صوتا أو أن ترفع إصبعا إلى أن تعب من تلقاء نفسه وخرج كأنه يترنح.

عنده حالة؟ هى لا تستطيع أن تنقذ نفسها من حالاتها!

من يمكن أن يشرح لها ما يحدث؟ من يمكن أن يساعدها؟

نهضت بصعوبة وبدأت تتحرك ببطء، ووقفت لحظة أمام مرآة جانبية فوجدت شعرها مهوشاً وثيابها مهوشة وممزقة الأكمام، ورأت وجهها شاحبا وممتقعا. حاولت أن ترتب نفسها قليلا. بدأت تزرر بلوزتها ثم عدلت عن ذلك وسارت نحو الباب ببطء. قطعت الصالة وانحرفت إلى اليسار وهى تضئ فى طريقها كل الأنوار فى البيت وطرقت الباب وهى تقول فى همس:

- دادة سنية، أنت صاحية؟

فجاءها الصوت المتعب: ادخلى يا بنتى. أنا أنتظرك.

توجهت نحو العجوز الجالسة على فراشها وهى تستند إلى وسادة وجلست إلى جوارها وهى تقول: دادة. أريد أن أحكي لك..

فمدت المربية يدها المتغضنة تبحث عن يدها وقالت:

- لا تحكي شيئا يا لبنى..

مالت على صدر مربيتها فراحت تربت على شعرها وهى تقول:

- لا تحكي شيئا يا بنت صفاء . أنا أعرف هي كأس تدور .

وكان النعاس يتسلل إلى عيني لبنى ومربيتها تهدهدها .

وقالت دادة سنية لنفسها قلبي حدثني منذ الصباح . لم يكذب على أبدا. أصحو منقبضة فأعرف أن شيئا سيحدث لصفاء، أو لابنتها. أقول ليت ظني يخيب فلا يخيب . ياحسرتي! وهما نصيبي من الدنيا . لو كانت واحدة منهما بنت بطني لما أحببتها أكثر مما أحبهما . حكمتك يارب! صفاء كانت كالقطة المغمضة العينين حتى تزوجت . دكتوره قد الدنيا ولاتعرف شيئا عن هذه الدنيا أكثر ما تعرفه طفلة. كنت أضحك على عبطها وهي تأتي لتبكي في حضني لأن واحدة صاحبتها خاصمتها أو لأن واحدة في كتاب تقرؤه ماتت. أضحك في سرى على عبطها وأقول لها (معلهش) ياصفاء ! ولا أتركها حتى تهدأ . ولكن شوكت عذبها. وعندما كانت تأتي لتبكي أو تشكو لم أكن أعرف ماذا أقول؟ ماذا كان يمكن أن أقول؟ لو كان شوكت يكلمني مثل صفاء لنصحته . ولكنه لم يكن ينظر حتى في وجهي. هو حتى الآن لا ينظر في وجهي ولا يكلمني. لولا لبنى لتركت له البيت من زمن . تزوجت صفاء من سيده . ورضي ربنا عنها . ولكن هل سيغفر لها ربنا ما فعلته؟ يارب! هذه الأميرة بنت الناس ! لماذا يقع أولاد الناس على أولاد الحرام؟ لماذا وقعت صفاء في شوكت ووقعت لبنى في المدرس؟ لبنى أخيب حتى من أمها ولهذا ياكلني قلبي عليها أكثر أنا لا أخاف الآن على صفاء ولكني أخاف على لبنى . هذا التلميذ الذي تحبه ابن حرام ثان؟ يارب! نجها يارب!

كانت لبنى قد نامت فراحت العجوز تعدل وضعها في الفراش بجهد شديد . لم تشأ أن توقظها لتعود إلى غرفتها قالت لنفسها النوم رحمة.

***

لايذكر سالم كيف رجع إلى البيت.

لايذكر إن كان قد ركب أو مشى لا يذكر أى شئ يسبق وجوده في صالة البيت وجده يقول في شئ من الفزع.

- ماذا حدث يا ولدي؟ وجهك كالبفتة البيضاء ! هل حدث شئ؟ شكلك..

ظل سالم واقفا ينظر إلى جده في صمت وتكلم مجهدا: حدث شئ . أريد أن أتكلم معك يا جدي حدث شئ . أنا لا أذكر . لا أعرف . ولكن ربما. يا جدي تكون قد رجعت الحالة.. أنا.. سأستحم أولا ثم نتكلم . يجب أن تساعدني . يجب أن نتكلم..

قال الباشكاتب متوجسا : كنت مع لبنى؟

- نعم.. نعم كنت معها، ولكن أين كنت بعدها ؟ أنا خائف . يجب أن نتكلم .

قام الجد من مقعده في بطء وقال بهدوء وهو يحني رأسه:

- أنت متعب الآن . وأنا كذلك . سأدخل لأنام.

- ولكن يجب..

فقال جده في حسم وهو يتجه إلى غرفته : في الصباح يا سالم . حاول الآن أن تنام.

ولكن بعد الحمام، بعد أن دعك سالم جسمه تحت الماء حتى كاد يدميه، كان يرقد في فراشه وعيناه مفتوحتان وهو يتساءل: ماذا حدث؟

كانا يتعانقان. يذكر هذا جيدا . يذكره تماما يرى نفسه يقبل وجهها وشفتيهاورقبتها وكل قبلة تبعث في جسده رجفة لم يعرفها من قبل، ولا حتى حين كان يقبلها خلسة في الكازينو أو وهما يسيران في طريق مظلم. كانت نشوة ترج جسده كله ولبنى أيضا ترتجف وهي تقبل صدره وتتنفس بصوت مسموع وتنتزع يده بعنف لتقبل راحته بلهفة وعمق كما لو كانت ترتشف منها ثم تمسح بها وجهها

الذي لم يره أبدا مثل هذا الاحمرار من قبل، ويذكر كيف هبطا معا على السجادة وهما يتمتمان بكلمات غير مسموعة ويذكر كيف كانت هناك يد جبارة تطوح به بعيدا في الفضاء، وتدور به وتغوص به في باطن الأرض في اللحظة ذاتها . ويذكر الصيحة التي أفلتت منه وكيف وضعت لبنى يدها على فمه لتكتمها. كل ذلك يذكره ولكن ماذا بعد؟

يذكر أنه كان سعيدا جدا، ثم ماذا؟

كيف تركها وكيف خرج من الشقة؟ أجهد ذهنه فلم يكن هناك سوى ظلام كامل. هل طلبت منه مرة ثانية أن يخرج كما طلبت من قبل ؟ هل خرج من تلقاء نفسه؟ هل قبلته وأوصلته بنفسها حتى الباب ؟ هل نزل السلم على قدميه أم ركب المصعد؟ عاد مشيا على قدميه أو ركب الأتوبيس ؟ كل تلك اللحظات تلاشت من ذهنه تماما. انتهت. فما معنى ذلك يا سالم؟

لا تحاول أن تهرب . ليس له سوى معنى واحد. رجعت الحالة . فماذا فعلت أثناءها وماذا قلت؟

جلس في الفراش وصدغه ينبض . ولكن الحالة انتهت من زمن . منذ سنين لم أخطئ معها ولا أخطأت في البيت مرة واحدة . أراقب كلامي جيدا وأراقب ما أفعله . ألزم الصمت عند ما أخاف أن أخطئ في الكلام ولكن ماذا إذن لو كانت الحالة التي جلعتهم يعتبرونني مجنونا قد رجعت؟ هل شتمت لبنى؟ هل ضربتها؟

نزل من سريره وبدأ يرتدي ثيابه بسرعة سيكلمها في التليفون لابد! لابد!.

ولكن ماذا سيقول لها؟ هل سيقول من فضلك أنا مجنون فذكريني ما الذي حدث بيننا؟ وهل ستصدقه لو كان بالفعل قد أساء اليها؟

عاد يجلس على فراشه بعد أن ارتدى القميص والبنطلون.

لا لن تصدق شيئا مما يقول . هل يأخذها إلى الطبيب الذي كان يعالجه ؟ يطلعها على حجاب جده؟ يستشهد بفوزية وبأبيه ؟ وماذا ستفعل لو صدقت؟

ستقول أنا وقعت في مجنون حقيقي ويجب أن أهرب منه. لا فائدة! خسرها وانتهى الأمر.

ولماذا قالت في أول الليل سأخسرك؟ لماذا لم تقل ستخسرني ؟ ألا تعرف أنه لن يحتمل أن يخسرها؟ هذا بالفعل هو الشئ الأسوأ من الجنون ومن الموت نفسه هو يعرف بالطبع أن ما فعله معها خطيئة عظيمة. ولكنه سيكفر عنها على الفور. سيقول لجده وسيوافق على أن يزوجها له . سيعترف لأبيها وسيقبل أي عقاب ينزله به ربنا.

سمع سالم لحظتها صوت الجرس . ثم سمع بعده صوت المفتاح وفتح الباب وجاء صوت أبيه وهو يقول في دهشة : لماذا الشقة كلها مظلمة؟

ثم نادى : يا سالم! وخفت صوته وهو يتساءل: هل نام الجميع؟

قام سالم وأخذ يخلع ثيابه مرة أخرى دون أن يحدث صوتا ثم رقد في فراشه. أخلت الأسئلة التي تتدافع في رأسه مكانها لخواء كامل وكانت كلمة واحدة تتكرر في ذهنه سأخسرها... سأخسرها.. ثم جاءت صحراء واسعة بامتداد البصر وكان ظمآن وراح يتلفت حوله في ذعر وهو يبحث عن شئ ما يعرف أنه ضاع منه فجاءته غزالة تعدو وتلهث وقفت إلى جانبه وراحت تتمسح به وتكلمت بصوت يعرفه ولا يستطيع أن يحدده وقالت لو فككت سحري سأعطيك ما تبحث عنه. فقال أنا أخاف من الساحرة التي رمتني في الصحراء . وأخذت البيت من جدي وسحرت فوزية . ثم أخذ يجري والغزالة تعدو خلفه وهو يريد أن يهرب منها ولكنه يقع على الأرض فتقف الغزالة فوقه ودموع تنزل من عينيها الواسعتين مثل مطر غزير ثم ترفع ساقها فيسيل من ظلفها ماء غمر وجهه ولكنه خاف أن يشرب من هذا الماء.

أو هذه الدموع فأطلق فمه وسده بيده ثم قام وأخذ يجرى من جديد والغزالة وراءه وشب حريق في مكان ما وكانت ألسنة كبيرة جدا من اللهب تقترب منه فأسرع في عدوه وصار في جبل في أعلاه خضرة ورأى الغزالة فرسا بيضاء، لم يخف منها فراح يمسح شعر رقبتها ويقبلها وراحت الفرس تقبله أيضا وقالت يا سلوم إن صعدت الجبل يمكن أن تفك السحر فقال ولكنني عطشان..

وكانت شفته جافة ولسانه في فمه كقطعة من الخشب عندما صحا وهو يلهث، فقام وشرب ، لكن أشباحه لم تفارقه طول الليل.

***

في الصباح لم يذكر سالم جده بالليلة الفائتة ولم يطلب منه أن يتكلما كما ألح عليه بالليل..

نظر جده إلى وجهه المكدود وعينيه الغائبتين بعد ليلة الأرق وعندما رآه يرتدى ثيابه كاملة سأله:

- عندك محاضرات اليوم في الصباح ؟ فقال نعم.

سأله مرة أخرى بلهجة عابرة دون أن ينظر في وجهه : الحجاب الذى أعطيته لك يا سالم ، أما زال معك؟

- نعم يا جدى.
- أين هو؟
- في جيبي في المحفظة باستمرار.

فقال جده بلهجة حزينة: قلت لك يا سالم أن يكون دائما في رقبتك وأن يلمس قلبك فلم تنسى؟

فرد سالم شاردا : حاضرا يا جدى!

***

(٨)

كان يعرف أنها لن تذهب إلى الجامعة في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح، فطلبها في التليفون من كشك للسجائر قرب البيت . وبمجرد رفع السماعة قال في لهفة: لبنى ؟ فرد الصوت : لا أنا، الشغالة. الستّ لبنى..

ثم ترددت وسكتت.

قال بشئ من الارتباك: يمكن أن أكلمها؟ أنا سالم ، أنا زميلها..

فكررت الشغالة بترددها نفسه: الست لبنى.. (ثم سمع صوتا بجوارها يقول شيئا لم يتبينه) . أكملت الشغالة بعده في حسم : غير موجودة. ثم وضعت السماعة.

لم ينجح سالم في دخول الجامعة عندما وصلها. رأى مظاهرات ومناقشات في داخلها ورأى البوليس يحاصر الطلبة المتظاهرين داخل الجامعة ويمنع الموجودين خارجها من الدخول . فوجئ سالم بما يحدث لكن فكره كان في مكان آخر . وقف أمام حديقة (الأورمان) قبالة الجامعة ينتظر . قال لنفسه لا يمكن أن تكون لبنى داخل الجامعة. ستصل بعد قليل وسأكون هنا وسأشرح لها كل شئ .

كان الطلبة المحتشدون بالقرب منه يتناقشون مع الجنود والضباط بصوت عال ويتشاجرون معهم وهم يتدافعون ليعبروا الحصار ويدخلوا الجامعة.. وكان الضباط الذين يلبسون نظارات شمس سوداء يكتفون بكلمة واحدة «ممنوع» دون أن يلتفتوا بوجوههم للطلبة وراء الجنود المتراصون يدفعون الطلبة والطالبات بعصيهم إلى الخلف.

ظل سالم بعيدا عنهم وهو يتطلع في كل اتجاه بحثا عن لبنى لم يجدها وسط هؤلاء المتدافعين لعبور الحصار. وبينما كان واقفا يفتش ببصره بين القادمين من

ناحية تمثال النهضة اقتربت منه فتاة سمراء، كثيرا ما رآها مع لبنى وحيته بهزة من رأسها ثم وقفت إلى جواره وقالت فى همس:

- أنا دعاء . صديقة لبنى..

قال بارتباك : أهلا .. هل تعرفين أين هى ؟ هى ليست فى البيت...

- أعرف .. (ثم أكملت فى همس وهى تتلفت حولها) قبضوا عليها فى الفجر مثل الآخرين..

ظل سالم واقفا يتطلع إليها دون فهم كأنه لم يسمع شيئا فقالت وهى تحول وجهها عنه:

- أعرف أنك لا تعرف أي شئ . كانت لبنى حريصة على الا تعرف . تخاف منك أكثر مما تخاف من البوليس..

- تخاف من البوليس ومني أنا؟ مم كانت تخاف ؟ أنا؟

فردت دعاء، وهي تحني رأسها نحو الأرض.. كانت تخاف أن تعرف عملها فى السياسة.. قالت لي لو عرف سالم فسأخسره. لم أفهم أبداً مع ذلك لماذا كانت تخاف إلى هذا الحد. هل أنت ضد الناصريين؟ .. كانت واثقة تماما أنها ستخسرك لو عرفت.. (ثم تطلعت إليه وهى تبتسم) شكلك إقطاعى على كل حال!..

- أنا .. أنا ضد من ؟ ثم احتبست الكلمات في حلقه ووقف ينظر إلى دعاء عاجزا عن النطق..

- سيسرها مع ذلك أن المظاهرة نجحت (ولوحت بيدها) يعنى!

أخيرا وجد سالم صوته فقال لدعاء بهمس شديد الخفوت : ولكن لماذا ؟ لماذا قبضوا على لبنى؟

أجابته وفى صوتها غضب: مرتضى الكلب أبلغ عن الجميع، ولكن من المؤكد أنهم سيفرجون عنها. لا يوجد أى دليل ضدها . أنا حذرتها فى الوقت المناسب فقالت إنها ستتخلص من .. من الدليل..

- وفي أى سجن هي؟

- وماذا يفيدك أن تعرف؟ لن تزورها. لست زوجها ولا قريبها.

لم يفهم سالم ما قالته . ظل مطرقا وهو يقف فى مكانه مشلول القدمين وقد غابت كل الأصوات من حوله وبدأ طنين غريب في أذنيه. وحين رفع رأسه أخيرا لم يجد دعاء إلى جانبه. بدأ يجرى هنا وهناك بحثا عنها وسط تجمعات الطلبة. لكنه لم يستطع أن يعثر عليها.

واصل الجرى بعيدا عن الجامعة وكان يكلم نفسه : يجب أن أسألها يجب أن أراها. يجب أن أعرف لماذا قبضوا عليها. يجب أن أفهم ما حدث ليلة أمس.. لماذا كانت تخفى عنى، وما الذى أخفته عني ، وما معنى أننى ضد الناصريين؟ وماهو الدليل الذى تكلمت عنه دعاء؟ دليل على ماذا؟ ما الذى تفعله بالضبط وما الذى كانت تريده مني ؟

وجد سالم نفسه فى عيادة الدكتور شوكت الذي استقبله في غضب وكان سالم يجد مرة أخرى صعوبة فى الكلام.

كان الدكتور شوكت أشقر، شعره ناعم ومرجل. أخذت منه لبنى لون العينين العسليتين الفاتحتين والأنف المستقيم. وكان يتكلم برخاوة رغم غضبه، بصوت يكاد يخرج من أنفه. وفى وجهه الأبيض الناعم البشرة تعبير من الاستعلاء نفر منه سالم أكثر من نفوره من غضبه وهو يتكلم بنبرته الرخوة:

- ما معنى زميلها؟.. ومادمت زميلها وأنت بهذا الطول والعرض فلماذا لم تطبع أنت المنشورات وتوزعها بدلا من أن تترك بنتاً تحتفظ بمنشورات؟

- منشورات ؟ أي منشورات ؟ أنا لا أعرف أي ...أنا ..

- أنت ماذا ؟ من أدخل فى عقولكم لعب العيال الذى تعملونه الآن ؟ كنتم تريدون الحرب والحمد لله حاربنا وانتصرنا. البلد بالكاد تشم نفسها وأنتم تريدون أن نرجع إلى أيام الخراب...

– يادكتور أنا لا أفهمك !... أنا لا علاقة لي بهذا كله . أنا لست زميلها في السياسة ولا أعرف أي شئ في السياسة...

ظل الدكتور شوكت صامتا لفترة وهو ينظر نحوه بوجهه المحتقن ، ثم قال:

– إذن من تكون؟

– أنا زميلها في الكلية.

– وماذا تريد الآن؟ لماذا جئت إلى هنا؟

تردد سالم لحظة ثم قال باندفاع:

– أريد أن أراها . أريد أن أعتذر لها عن شئ حدث بالأمس ...

ظل الدكتور شوكت ينظر نحوه في دهشة ونفاد صبر قبل أن يقول:

– تريد أن تعتذر لها الآن وهي في السجن عن شئ حدث بالأمس؟ هل هذا كلام عاقل؟ إذهب إلى مأمور السجن واطلب مقابلتها لتعتذر ! لماذا جئت لي أنا؟

– لأني أحبها!

أفلتت منه العبارة فانتبه الدكتور شوكت . كان قد قرر أن يطرده ولكنه بدأ ينظر نحوه بتركيز شديد منتظراً أن يكمل كلامه ... ولما وجده ساكتا ومطرقا قال:

– ما شاء الله ! وهل جئت الآن لتخطبها؟

لم يتكلم سالم ووقف أمام الدكتور ينقل كتبا يحملها من يد إلى أخرى وقد بدأ عرق يتفصد من جبينه وراح ينظر حوله دون تركيز ثم بدأ يلوح بيده بجوار أذنه كما لو كان يهش ذبابا . فقال الدكتور شوكت بنبرة أهدأ ليشجعه على الكلام:

– ولبنى .. هل هي تحبك؟

– هي تحب دادة سنية!

ضحك الدكتور شوكت ضحكة عصبية بالرغم منه:

– إذن فأنت تعرفها حقا! انتظر .. أنت !.. ما اسمك ؟ تعال..

ولكن سالم كان قد استدار وخرج من الغرفة بخطواته الواسعة وهو مستمر في التلويح بجانب أذنه ووقف الدكتور شوكت خلف مكتبه ينظر في اتجاه الباب فكر أن يخرج وراءه ويطلب منه العودة ليحدثه عما بينه وبين لبنى .

لكنه لم يتحرك من مكانه . وبعد فترة استدعى الممرضة وطلب ألا يدخل عليه أحد .

جلس وهو يفكر: إذن فهي أيضا لها قصة ! لا تكفي حكاية السجن ولكن هناك غرام أيضا! لا يكفي الغرام ولكن هناك سجن ! كان يجب أن يتوقع كل شئ من بنت صفاء! فاجأته حين عرف أنها تهتم بالسياسة. كانت تبدو قانعة بالدراسة والتفوق وقراءة كتب الأدب الفارغة مثل أمها. لم يلاحظ أبداً أنها تهتم بشئ آخر. لم تتكلم أمامه عن السياسة لكي يشرح لها ما يجعلها تفهم قليلا . وتحن أيضا للأيام السوداء؟ تحب الرجل الذي لم يكره في حياته أحدا كما كرهه ؟ وتدخل من أجله السجن رغم تحذيراته لها؟ صباح الخير يا عم فرويد! هي تتحداه لا أكثر. تتمرد عليه . سيعرف كيف يعيد إليها عقلها. ولكن لماذا لا تتمرد أيضا على أمها؟ لماذا لا تكرهها وهي التي تستحق بغضها. على العموم لحسن الحظ أنه هنا . عندما كلم صديقه الكبير في الداخلية بعد أن جاءوا إلى البيت وقبضوا عليها في الفجر قال له ألا يهتم . قال إنه مجرد «قرص اذن» وإنهم سيفرجون عنها خلال أيام . ولكن أي سذاجة وغباء يليقان تماما بأفكارها السياسية ! تحتفظ بالمنشورات في غرفة النوم! لو كان بمثل هذا الغباء أيام عمله في السياسة لظل في السجن حتى الآن! نعم، من حسن حظ لبنى أنه هنا وأنه يستطيع أن يكلم أحدا في الداخلية وأن يطمئن عليها. عندما قبضوا عليه في أول أيام ثورتهم لم يستطع أحد أن يعرف حتى مكانه . والآن فإن الآنسة لبنى تحن إلى هذه الحرية ! تحن إلى الزعيم الخالد الذي لا يأتينا من ورائه إلا السجن حيا وميتا! خالد فعلا!

التاريخ!

وما الذي تريده بالضبط ؟ تريد مع مجموعة من العيال أن يغيروا
منذ زمن طويل.

فليعترف أنه كان ساذجا مثلها في شبابه. ولكن عقله عاد إليه
أصحابه وزملاؤه الذين ظلوا يعيشون بالمبادئ لايعرفون غير السجون والفقر .
يخرجون من السجون ليدخلوها من جديد. أما الفقر الوطني العام الذي كانوا
يحلمون بتغييره فمازال كما هو وسيظل كما هو . هكذا كانت الدنيا وهكذا سوف
تبقى . لم يفهم هذا جيدا في شبابه . كان يصدق خرافة المساواة بين الناس.
ولكنه فكر كثيرا وهو في السجن واكتشف الحقيقة . الناس يتفاوتون في الذكاء
ومن الطبيعي أن تتفاوت قدرتهم فيما يحصلون عليه من الدنيا . بعد ذلك عندما
سافر للخارج أدرك في رحلاته أن الفقر موجود في كل مكان . في البلاد التي
ترفع الشعارات والبلاد التي تعيش بلا شعارات . الفقر هنا وهناك على السواء
والفرق في الدرجة لا أكثر . ومع ذلك فقد استمر هو نفسه يكرر الشعارات
القديمة لفترة حتى بعد أن ترك التنظيم . كانت صفاء هانم الاستقراطية تستفزه
بأفكارها المتخلفة . لكنه كف عن ذلك مع الوقت أيضا . بعد أن ركز كل جهده على
عمله . العاقل من يدرك أنه إذا استطاع أن ينقذ نفسه فليفعل.

لن ينفع فقراء العالم أن يضاف إليهم فقير آخر . ولكن الآنسة لبنى
وأصحابها يريدون الآن أن يستمر الفقر للجميع . من حسن الحظ أنه لم يستثمر
كل شئ في البلد. قد تستجيب الحكومة لمظاهرات هؤلاء العيال وتؤمم المصالح من
جديد . من حسن الحظ أن لديه مبلغا لا بأس به في الخارج وأنه يرسل المدخرات
إلى هناك أولا بأول . ولكن مم يخاف ؟ لا يمس أحد المستشفيات . طالما بقي
الإنسان فستبقى الأمراض وستبقى الحاجة للمستشفيات . ومع ذلك ياصاحبي
الخارج أضمن!

نعم . الخارج!

ظل يتطلع فترة إلى صورة لبنى في إطارها على المكتب وقال هذه أحسن
فكرة!

سأكلم سيادة اللواء وأطرح عليه الفكرة . من السجن إلى المطار ! كيف فاتته
هذه الفكرة؟ تبقى في السجن يومين ليرجع لها عقلها ويكون هو خلالهما قد اتفق
مع اللواء وأعد الجواز والتأشيرة وبعدها تذهب إلى ايطاليا وتقيم هناك مع عمتها.
ثم إن من يريد أن يدرس القانون عليه أن يدرس في إيطاليا . تدرس هناك
القانون الروماني . نعم . الطب في انجلترا والقانون في إيطاليا هذا هو الصح!
يضرب عصفورين يبعدها عن لعب العيال في السياسة وفي الحب . لأنه من هو
في النهاية هذا الأبله الذي يحبها ؟

ما الذي يدريه أنه أبله؟ قد يكون أخبث مما يظهر عليه وربما يطمع في أموال
لبنى . في أمواله هو ! وشكله بصراحة . جذاب فليعطه حقه. أكثر من ذلك قليلا يا
دكتور ! هو جميل بالفعل . عندها ذوق لبنى!

إن كان عندها ذوق فقد ورثته مني ولم ترثه عن أمها التي تقع على الخنازير
أصحاب الكروش . ولكن هل ورثت من أمها شيئا آخر؟ هل هذه الأشياء تورث
أيضا؟ لا أظن . هي لم ترث لحسن الحظ جسد أمها الحيواني . بل ورثت عقلي
أنا وجسدا يكاد يكون غلاميا . ولكن ما الذي يحتويه هذا الجسد وهذا العقل؟ هل
شككت أنا لحظة واحدة في صفاء؟ اعتبرتها ساذجة منذ عرفتها في الكلية . وبعد
الزواج كانت تبدو منهمكة طول الوقت في البيت وفي العيادة وفي القراءة النهمة
حتى في الفراش كانت تقرأ وتنام والكتاب في يدها . الهانم مثقفة ! لم يكن
سيعرف شيئا أبدا لولا ذلك الطبيب الصديق الذي همس له . شتمه وطرده لكنه
كاد يجن . أراد مع ذلك أن يقطع الشك باليقين. عمل كالأفلام البوليسية . تابع
سيارتها بسيارته. رآها تدخل العمارة فانتظر قليلا ثم دخل وراءها أزاح بيده
البواب الذي جرى وراءه ليقول له إن صديقي بك ليس في شقته . الخنزير كان
صديقه . لا . بل مجرد معرفة . مع ذلك فقد سمح له بدخول بيته وبأن يتعرف على

صفاء . عندما فتح له الباب نظر إليه في ذهول وتمتم في ارتباك : تفضل .. تفضل يادكتور.

تكلم بهدوء دون أن يدخل من الباب : قل لها الا ترجع إلى البيت . ثم انصرف.

ولكن هل هذا يكفى؟ ألم يكن من الواجب أن يضربه ويضربها بالرصاص مثل أولاد البلد؟

ويضيع من أجل ساقطة وخنزير؟ لا . لا. هكذا أفضل لافضائح . بل ولا كلمة، من أجل لبنى ومن أجل نفسه أيضا تفور ؛ ربما يقتلها صدقى الخنزير نفسه ذات يوم . فى داهية هى وهو ؛ لم تجادل بالطبع فى مسألة حضانة لبنى ولكنه لم يستطع أن يمنعها من رؤيتها. كيف كان سيفسر المسألة للبنى الطفلة؟ كيف يستطيع أن يفسرها لها حتى الآن؟ لم يستطع أيضا أن يمنع لبنى من تشبثها بهذه الدادة الملعونة. مجرد وجودها فى البيت يذكره بصفاء الساقطة . أما الآن فثلاثة عصافير ! لا . بل أربعة ! تسافر لبنى . تبعد عن السياسة وعن هذا الولد وعن صفاء وعن الدادة . بعد سفرها تأخذ صفاء لو شاءت هذه الدادة الجثة وتريحه من بقائها فى بيته .

نعم، عملية ناجحة!

***

(٩)

رجع سالم فى المساء فرأى جده حالته أسوأ من البارحة . وجهه الشاحب والنظرة المنطفئة فى عينيه وخطاه البطيئة وهو يقطع المسافة من باب الشقة إلى غرفته . سأله الباشكاتب مشفقاً : لماذا تأخرت يا ولدى ؟ أين كنت يا سالم ؟

فهز رأسه وغمغم بشئ لم يتبينه جده وهو يدخل إلى غرفته .

ظل الباشكاتب مترددا أمام غرفة سالم بعد أن بقى فيها فترة طويلة دون أن يند عنه صوت ولا حركة. وأخيرا طرق الباب برقة ثم دخل ليجد سالم مستلقيا على فراشه بثيابه الكاملة وهو يحدق فى السقف . ناداه وهو يهزه برفق فالتفت نحوه . نظر إلى جده كأنه لا يراه وقال بصوت عميق : رأيتهم بعينى . كانوا يركبون الأتوبيس معى ويمشون فى الشارع معى وصعدوا السلم معى ..

قال جده بقلق : من هم ؟

ولكن سالم رفع إصبعه إلى سقف الغرفة وراح يدور بعينيه من اليمين إلى اليسار . ورفع الجد رأسه أيضا بصورة تلقائية وراح ينظر إلى حيث يشير حفيده وهو يغمغم :

– لا يا سالم . بيتنا طاهر لا تدخله الشياطين . اهدأ يا ولدى . لماذا لا تقوم الآن فتتوضأ ونصلى معا ركعتين ؟

أخذ يمسح بيده على رأس حفيده وهو يتلو فى سره أدعية بينما كان سالم يضحك ضحكات خافتة متقطعة وهو يحول رأسه ببطء من اليمين إلى اليسار وبالعكس يتابع حركة تدور هناك . ثم نظر إلى جده وقال :

– أتعرف ؟ أنا لا يهمنى ! أنا كشفتهم ! لا أخاف الآن منهم ...

قال الباشكاتب بلهجة مشجعة : بالطبع يا سالم أنت لا تخاف لأنه لا يوجد ما تخاف منه .

فاكمل سالم دون أن يتحرك من مكانه : يأتون أحيانا كالأراجوزات وأحيانا يلبسون فساتين وعساكر بوليس ومعاطف بيضاء ، وأحيانا يكونون غزلاناً وخيولا ولكني اكتشفهم حتى لو كانوا أشجاراً أو أحجارا . يعرفون أني أكتشفهم ولهذا لم يتركوني اليوم لحظة ، وركبوا معي الأتوبيس ويعملون ضجة كبيره جدا ، حتى هنا .

أشار بإصبعه للسقف ثم أمسك رأسه بكلتا يديه ليسد أذنيه وهو يقول : لو تتوقف هذه الضجة ؛ رأسي يوجعني ، يكاد ينفجر .. رأى جده جبينه يتندى بالعرق وعندما مسحه وجده عرقا باردا تقلب سالم على جنبيه وراح يرتعش ارتعاشة هينة ومنتظمة ، وكان جفناه يرتخيان على عينيه الذابلتين وهو يقول بصوت خافت متعب : لا تخف منهم يا جدى . في الصباح سأتصرف معهم ولكني الآن أريد أن أنام .

فقال الجد : نعم يا سالم ، نم . اهدأ . كل شئ سيتغير في الصباح إن شاء الله .

وكان يتكلم وهو يضع يده على صدر سالم ويفتش في ملابسه لم تبدر عن حفيده أي مقاومة ولم يبد أنه يشعر بما يفعله جده .

لكن الباشكاتب تمتم أخيرا في يأس : أين ذهب يا سالم ؟ رميته ؟ ضاع ؟ ألا تعرف أنك إن تركته تركنا ؟

غير أن سالم كان قد أغلق عينيه وراح في النوم دون أن تكف انتفاضة جسده.

***

جلس الباشكاتب وحيدا في الصالة المظلمة دون أن يضئ المصباح وراح يتساءل مهموما ما الذي يحدث لهذه الأسرة ؟ لماذا وقع سالم في هذه المحنة ولماذا لم تسعد فوزية في زواجها ولماذا لا يفلح ابني في تجارته ؟

أتكون الغلطة مرة أخرى غلطتي أنا وحدي ؟ قال شعبان إني أفسدت حياته ولكنه لم يشرح لي كيف أفسدتها ، ولكن فلنكن أني قصرت مع شعبان فماهي غلطتي مع فوزية وسالم ؟ ما الذي كنت أستطيعه لفوزية مثلا ؟ لم أعرف بسرها إلا بعد أن وقعت الفأس في الرأس فماذا كنت أملك لها غير أن أحاول إنقاذها ؟

كفى ! لماذا تهرب يا حضرة الباشكاتب ؟ ليست المشكلة الآن شعبان ولا فوزية. المشكلة هي سالم . لماذا سكت عنه حتى سقط وضاع ؟ لماذا قلت له منذ البدء إنك فرح لأنه أحب ؟

كنت أقصد الحب . الحب البرئ لمن هم في مثل سنه. يحبها ثم يتزوجها بعد أن يتخرجا في الجامعة . هكذا تحدث الأمور . تمنيت له أن يعيش حياة عادية كالشبان ظننت أن هذا سيساعد على شفائه وعلى أن يصبح عاديا مثل بقية زملائه . وبالفعل تحسنت أحواله كثيرا بعد أن أحب . لم تعاوده الحالة قبل هذه المصيبة الأخيرة . قبل أن يسقط هو مثلما سقطت أنت من قبل . وكيف كان لي أن أعرف أن هذا سيحدث . وأن الحب بدلا من أن ينقذه سيرجع به إلى أسوأ مما كان عليه ؟

كان يجب أن تعرف ! قبل أن تشجع على البدايات كان يجب أن تفهم أنك لا تستطيع أن ترسم النهايات . كان يجب أن تصمت تماما . أن تفهم من تجربة حياتك أنك لست أهلا لأن تنصح غيرك بعد أن عجزت عن نصح نفسك . لكنك خفت على سالم أن يصبح مثل أبيه ! ما عيبه أبوه ؟ شعبان أفضل منك بكثير يا حضرة الباشكاتب ! على الأقل هو لا يخفي أسرارا مشينة في حياته .

ثم يقول لك أبو خطوة إنك تكابد وإن المكابدة ستنقذك !

أي شئ أكابده أنا الآن سوى الكذب ؟

حتى في شبابي لم أكن بهذا السوء . لم أكذب على الناس ولا على نفسي كنت أخطئ فأعترف بذنبي وأعزم في كل مرة على التوبة وعلى أن تكون هذه آخر مرة لكني لا أتظاهر بالتقوى . لا أمام أبي ولا حتى أمام أبو خطوة . وعندما أحببت سمية لم يكن هناك غش في حبي لها ولم أخنها ولا حتى بفكري . ولما وهبت وقتي وحياتي بعد ذلك لشعبان وأولاده لم يصرفني شئ . فكيف إذن قاد كل هذا الصدق إلى كذبة نازلي ؟

أعرف أني لم أكن ملاكا في أي يوم . ظللت عمري كله أغمز بعين للدنيا وبعين للآخرة دون أن أستقر على حال . ولكن لماذا نزلت إلى هذا الحد ؟ أخفي عن الجميع سري مثل لص يخفي ما سرق . لص شديد البراعة نجح سنين طويلة في أن يخفي سرقته . عمر طويل آخر وأنا أكذب على الناس وعلى نفسي . وتتساءل بعد ذلك لماذا يحدث لسالم ولأسرتك ما يحدث ؟ لا يمكن لذلك بالطبع إلا أن يفسد حياة من حوله . شعبان على حق ! والآن تأخرت التوبة . وتأخرت كثيرا يا سيد توفيق .

اجتاحت الباشكاتب ، منّ جديد ، موجة من الغضب على نفسه وقال لا . في هذه المرة إن لم يأت التغيير حالا فهو الهلاك إلى الأبد . حالا !

سمع الباشكاتب المفتاح يدور في الباب . وحين دخل شعبان وأضاء النور فوجئ بوجود والده فقال في دهشة :

– لماذا تجلس في الظلام يا حضرة الباشكاتب ؟ ماذا حدث ؟

نظر إلى ولده نظرة مذنبة وهو يتمتم «لاشئ» . ولاحظ أن وجه شعبان مشرق على غير العادة . جاء فجلس قبالة والده وهو يقول :

– عندي أخبار جيدة يا حضرة الباشكاتب !

عبرت وجه توفيق المستغرق في أفكاره نظرة استفهام وهو يتطلع إلى شعبان الذي أكمل : كنت قد حدثت حضرتك عن مطالبة الضرائب . الحمد لله استطعت أن أخفضها كثيرا جدا .

قال الباشكاتب وهو يزر عينيه : وكيف حدث ذلك يا شعبان ؟

بدا على شعبان بعض الإحراج وهو يتفادى نظرة والده قائلا :

– لي صاحب في السوق يفهم في هذه الأشياء ساعدني على تسوية المسألة .

– كيف ؟ نحن يا شعبان منذ أيام جدك المرحوم نسوي كل أمورنا بالأمانة والقانون . واعلم يا ولدي أني لو اخترت طريقا آخر لكان عندنا بدل هذه العمارة التي بناها جدك عمارات كثيرة . بعض الموظفين كانوا يعتبرونني ساذجا أو أبله لأنني لم أمد يدي إلى مليم خارج مرتبي ولهذا يبارك لنا الله فيما نملك ونعيش مستورين رغم كل شئ . فقل لي كيف سوى صاحبك هذه المسألة مع الضرائب ؟

تراجع شعبان قليلا في مقعده وقال : بالقانون طبعا يا حضرة الباشكاتب . بالقانون : راجعنا معا دفاتر الحسابات وخصمنا من الايرادات مصروفات لم تكن مخصومة . بالقانون . ولكني كنت أريد رأي حضرتك في موضوع آخر . صاحبي هذا يتاجر في السجائر المستوردة ويريد أن أؤجر له زاوية من المحل ليبيع سجائره سنكسب في شهر واحد من الإيجار أكثر من مكسبنا الصافي في شهور . فما رأي حضرتك ؟

– وهذه السجائر مستوردة فعلا أو مهربة ؟ إن تكن ..

ثم عدل الباشكاتب عن إكمال ما بدأ : وقال وهو يحك جبينه : اسمع يا شعبان ! افعل ما بدا لك. أنت تصلي وتعرف ربنا وأنت أدرى بمصلحتك . أنت أدرى مني. تنهد شعبان بارتياح وهو يقول : على خيرة الله !

أراد أن يقوم ولكن والده استبقاه بإشارة من يده :

– اجلس يا شعبان . تمنيت أن تكون عندى أنا أيضا أخبار طيبة ولكن ..

بدا القلق في وجه الابن وهو ينظر إلى أبيه الذي كان من الواضح أنه لا يعرف من أين يبدأ . وأخيرا ، حكى لولده بكلمات موجزة حالة سالم والوساوس التي حلت به وسأله فى قلق :«ما العمل؟» .

قال شعبان بلهجة محايدة وكأنه يخلى مسئوليته :

– رأيى من زمن أن هذا الولد غير طبيعى وأنه يحتاج إلى علاج .

قال الباشكاتب دون اقتناع : فلننتظر حتى الصباح . قد يأذن الله بالفرج كما حدث من قبل .

– كما تشاء يا والدى .

ثم قام شعبان ودخل إلى غرفته .

ولكن في الصباح عندما وصلت فوزية تحمل ابنها الرضيع لم يكن سالم قد خرج من غرفته . ورأت جدها ، الذي ترك ذقنه النابتة دون حلاقة على غير عادته يجلس متهدلا على مقعد فى الصالة . وقد بدا أنه شاخ فجأة . حكى لحفيدته بعبارات متعثرة ما حدث لسالم . طرقت فوزية باب غرفة أخيها برفق . ثم طرقته بشدة فلم تسمع أى رد . فتحت الباب بيد وهى تحمل ابنها باليد الأخرى . لم تبق هناك طويلا .. صرخت وفى وجهها فزع وهى تسأل جدها :

– ما الذى جرى له ؟ كأنه لا يعرفنى . كأنه لا يعرف سلوم ..

ثم قالت ودموعها تنساب دون إرادتها : ادخل يا جدى وانظر بنفسك .

قام الباشكاتب يجرجر قدميه مترددا نحو غرفة حفيده . لم يكن يريد أن يعرف ما الذى جرى . وحين دخل فاجأه منظر سالم وهو يجلس بثياب الأمس ويكتب بسرعة فائقة أشياء على ورقة فولسكاب وأمامه على المكتب أكوام أخرى

من الورق وأجزاء مفككة من جهاز الراديو الترانزستور . كانت هناك أيضا أوراق مبعثرة على الأرض وفوق السرير . ورفع الجد ورقة من الأرض فوجدها مزدحمة بأرقام كثيرة ومعادلات رياضية مكتوبة بخط صغير .

سأل الباشكاتب حفيده بهدوء مبالغ فيه : ماذا تفعل يا سالم ؟

نظر سالم إلى جده وعلى شفته ابتسامة غريبة وقال : أوشكت أن انتهى .

– تنتهى من ماذا يا ولدى ؟

– من حساب الذبذبات ! هم يعملون ذبذبات فى الجو ويحدثون بها هذه الضجة الشديدة .

قال سالم وهو يضع يدا على أذنه دون أن يتوقف عن الكتابة : سأتوصل بالحساب إلى موجات هذه الذبذبات . هى معادلة بسيطة جدا . سين وصاد المهم أين السين وأين الصاد ؟ عندما أعرف سيسكتون تماما . سنصبح أغنياء وسنعيش في بيت كبير لأن اكتشافي سيريح العالم منهم . لن تسمع لهم أى صوت . مثل هذا . هل تسمع صوته ؟

وأشار سالم بيده إلى الأجزاء المبعثرة من جهاز الراديو الذى فككه إلى قطع صغيرة .

وقفت فوزية بالباب وهى تحمل طفلها وقالت وفى صوتها أثر البكاء :

– هل أكلت شيئا يا سالم ؟

رد جده نيابة عنه : لا . لم يأكل شيئا منذ الأمس .

– سأعمل كوبا من الشاى وأى لقمة .

فصاح سالم فى غضب : اخرجوا من فضلكم . أنتم تعطلوننى !

وانكب ثانية على أوراقه ينبش فيها بسرعة وعصبية ويلتقط بين الحين والآخر قطعة من بقايا الراديو يقربها من أذنه وينصت باهتمام .

تبادل الباشكاتب النظر مع فوزية التي بدأت دموعها تسيل من جديد . ثم خرجا من الغرفة . عاد الجد إلى مقعده في الصالة بينما ذهبت فوزية لتعمل الشاي.

***

في مساء اليوم نفسه ذهب شعبان لاستشارة الطبيب النفسي المشهور في باب اللوق .

ذهب بمفرده وبدأ يشرح للطبيب حالة ولده وحكاية المعادلات والكلام الذي يقوله عن الذبذبات والأصوات . قال له إنه لا يكاد الآن يأكل أو ينام .

سأله الطبيب : هل تعرض ابنك لصدمة قبل أن تأتيه هذه الحالة ؟

– لست متأكدا . نستطيع أن نسأل جده . ولكن على العموم هو ليس طبيعيا من زمن . كنا قد عرضناه على حضرتك قبل سنوات .

– نعم قرأت ملفه عندي قبل أن أقابلك . ولكن تلك الحالة لا تنتهي إلى هذه التصرفات . لابد وأن يكون ابنك قد تعرض لصدمة حديثة .

كرر شعبان : ربما . سنسأل إن كان أحد في البيت يعرف .

كان الدكتور قد بدأ يكتب (روشتة) طويلة من الحقن والأدوية الأخرى وقال لشعبان :

– ستجد صعوبة في إعطائه هذه الأدوية . هم عادة يرفضون العلاج في هذه الحالة ولكن لابد منه . وعندما يهدأ قليلا أحضره لي لأراه . هذا علاج مؤقت وإذا لم ينفع فقد نضطر إلى أشياء أقوى . وربما نحتاج حتى إلى الكهرباء . قد نعالج الصدمة بصدمة .

***

في هذه المرة لم يعترض الباشكاتب على شيء . لا على العلاج بالحقن ولا بالعقاقير ولا على عودة سالم إلى النوم الطويل بالليل والنهار . لم يكن يستطيع

أن يعترض حتى لو أراد . لأنه للمرة الأولى لزم هو أيضا الفراش دون أن تكون هناك وعكة برد أو أزمة معدة . فاجأته وفاجأت الأسرة إغماءة طويلة حلت به . وأمر الطبيب الذي استدعوه إلى البيت على عجل بأن يلزم الراحة التامة وينتظم في العلاج . وبقي الباشكاتب رغما منه أياما في الفراش لأن الدوار كان يعاوده كلما حاول النهوض .

لهذا أيضا أخفوا عن الباشكاتب خبر جلستي الكهرباء اللتين عالج بهما الطبيب الكبير حفيده .

***

كانت تلك أيام مولد السيدة زينب الذي اعتاد الباشكاتب أن يتابعه من شرفته ويشارك فيه بنفسه كل عام . في هذه المرة أعجزه المرض فكان يتابع بأذنيه كل شئ وهو يرقد في فراشه ويكاد يرى الصور من خلال الأصوات . لاحظ الضجة وهي تزداد يوما بعد يوم مع وفود الآلاف الجديدة من الزوار من كل مكان والذين يعلم أنهم احتلوا الآن كل الأرصفة في الميدان والشوارع المتفرعة منه وأنهم زحفوا حتى جنينة البيت . ميزت أذنه . إلى جانب النداءات وصياح الصبية وضجيج الميكروفونات . تلك الوشوشة الجماعية الموحدة لآلاف الأصوات . تلك النقمة المبهمة التي تتموج وحدها فوق كل الطنين بين مد وجزر . والتي كان يسميها لنفسه «روح الأصوات» . يتعرف مع ذلك على كل التفاصيل المفردة في الضجة الآتية من الطريق ومن الخيام والأكشاك المنصوبة في شارعهم للمولد .

يسمع صوت ربابة وإنشاد مداحين . وفرقعات بنادق النشين . وأزيز (المراجيح) . ونداءات باعة الأطعمة . وباعة العطور وباعة كتب الأدعية الدينية . وخشخشة ميكروفون الساحر الذي يشطر ابنته بالمنشار إلى نصفين أمام أعين المتفرجين والدخول بقرش صاغ واحد . يكاد يراهم جميعا ويلمسهم ولكنه ينتظر

مع ذلك في كل مساء ، في آخر الليل ، صوتا شجيا لا يخطئه أبدا رغم كل الضجيج، يعبر من أذنه إلى قلبه على الفور وهو يكرر بندائه المنغم «توكلت على الله ربي وخالقي ..» ، يمتزج في سمعه بالنغمة الجماعية المتواترة كموج البحر وهو يناجي رحمة الرحمن ملجأ المؤمن فيتمتم الباشكاتب الراقد في فراشه «يارب!» .

***

ولما جاء يوم المولد قرر شعبان أن يحتفل به كما كان جده السعدي يفعل وكما ظل الباشكاتب يحييه لسنوات طويلة . فكر أن هذه هي الطريقة التي يمكن أن تعود بها البركة إلى البيت ويرفع بها الدعاء إلى الله ليشفي أباه وابنه . أراد أيضا أن يشكر الله على المال الذي بدأ يجري في يده منذ أن أجر الزاوية لبائع السجائر وبعد أن راجت مبيعات الأقمشة هذه السنة لزوار المولد .

استأجر شعبان يومها عشرات من المقاعد الخيزران ورصها فوق السطح ، وشارك السكان أيضا بإضافة مقاعد من بيوتهم حتى امتلأ المكان وشمل الحماس العمارة كلها ، فتطوع كل واحد بما يقدر عليه . ركب حميد الكهربائي الميكروفونات ومكبرات الصوت ، ووضع أفرع المصابيح الملونة في مدخل البيت وفوقه لتضاء في المساء ، ونصب أبو عزوز النجار أعمدة خشبية فوق السطح وعلق فيها أثواباً من قماش الخيام المزخرف كأعلام مطوية لمجرد الزينة . وشاركت بنات البيت منذ الصباح بمسح السلالم في أدوارهن ، واستطاع أبو زيد أن يكنس المدخل .

وفي الظهيرة ضحى شعبان بعجل كبير ذبحه أمام باب البيت ووزع لحومه على زوار أم هاشم . وفي لحظة الذبح هلل أبو زيد وكبر بصوته المرتعش مثلما كان يفعل في الزمن القديم . وارتفعت أدعية أطفال البيت وأطفال الجيران

المتحلقين للفرجة على الذبح بترديد الصلاة على النبي ودعاء المدد من حفيدته الطاهرة . ثم علت بعد ذلك من مكبر الصوت الموضوع فوق البيت آيات القرآن الكريم يتناوبها المقرئون الذين يختمون المصحف الشريف .

وفي المساء، أصر شعبان على أن يرتدي والده بذلته وعباءته واصطحب سالم المخدر وهو يسنده من تحت إبطيه بينما يسند بيده الأخرى ذراع والده المعتمد على عصاه وصعد بهما معا إلى السطح . أجلسهما متجاورين في الصف الأول في مقعدين كبيرين مبطنين بالقماش ، إلى جوار الحاج إبراهيم المشلول الذي صعدوا به محمولا على المقعد .

وكان المكان قد امتلأ حتى آخره بالجيران من العمارة ومن البيوت المجاورة الذين لم تكفهم كل المقاعد فظل البعض واقفين . وكان شعبان يطوف على الموجودين وفي يده قارورة عطر معدنية كبيرة ينثر منها على اكفهم المبسوطة قطرات فيمسحون وجوههم وهم يدعون له . وكان غيره يطوف بأكواب ماء معطر بالزهر ، يوالي إرسالها الحاج مرعي العطار من شقته في الدور الرابع في أباريق نحاسية كبيرة .

وتأمل الباشكاتب فرقة المنشدين كانوا خمسة يرتدون جلابيب صوفية رمادية اللون وعمائم ، ويضع كبيرهم شالا من حرير أبيض يتدلى من على كتفيه وقف أمام الميكروفون واصطف الأربعة الآخرون خلفه . وكان الباشكاتب يعرف من تجاربه أي مقاطع سيتلوها وحده ، وأية أبيات سترددها وراءه الفرقة . وارتاح قلبه عندما وجده جميل الصوت منذ بدأ ينشد مع فرقته مدائح قصيرة لصاحبة المولد والمقام .

وأخيرا جاءت اللحظة التي انتظرها الجميع ، حين علت من فوق سطح البيت بعد انقطاع طويل أبيات البردة التي اعتادوا على سماعها منذ الصغر ، تنقلها

مكبرات الصوت للحي كله . واغرورقت عينا الباشكاتب بالدموع وهو يسمع الأبيات الأولى التي يهتز لها قلبه :

أمن تذكـر جيـران بـذي سـلَم ... مزجتَ دمعا جرى من مقلتي بدمي ؟

لولا الهوى لم تُرِق دمعا على طـلل ... ولا أرِقتَ لذكـرى البـان والعلـم

فكيف تنكر حبـا بعد ما شـهـدت ... به عليك عُدُول الدمـع والسـقم ؟

وكانت شفتا الباشكاتب تسبقان المنشدين ، ووضع وجهه بين يديه مخافة أن يجهش بالبكاء ، وهو يترنم في سره :

محّضتني النصحَ لكن لستُ أسمعه ... إن المحبَ عن العذّال في صمم

فإن أمّارتي بالسـوء ما اتعظـت ... من جهلها بنذير الشيب والهرم

وتساءل الباشكاتب هل يتحدث البوصيرى عن نفسه أو عنه ؟ إن يكن هناك من لم يردعه المشيب فلا يمكن أن يكون ذلك الشاعر التقى وإنما هو من طالت أماده وقلت أمداده ، ولكنه انتبه من خواطره إلى المنشدين يكررون مرة بعد مرة وحشد الجيران يردد وراءهم بعاطفة جياشة :

محمدٌ سيد الكونين والثّقلين ... والفريقين مـن عـرب ومن عجم

نبيُنا الآمـر النـاهي فلا أحـدٌ ... أبرُ في قـولِ لا منـه ولا نعـم

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته ... لـكل هـولِ من الأهـوال مقتحم

أزاح الباشكاتب يده عن وجهه وبدأ يردد مع الجميع بصوت خافت مجهد أول الأمر تلك الضراعة الواحدة للحبيب الذي ترجى شفاعته ، ثم نسى نفسه بعد ذلك تماما ، وانطلق ينشد في سره حينا متابعا المداحين ، ويجهر حينا آخر مع الجميع وكأن ثقل السنين وثقل المرض قد انزاحا بالفعل عن كاهله وعاد مرة أخرى إلى شبابه وهو يردد أبيات البردة عن مولد المصطفى عليه السلام وعما قاساه في حياته وأثناء دعوته ، «وقد اشتكت قدماه من ورم وشد من سغب

أحشاءه وطوى» ، ويرى بعينيه معجزات الغار في هجرته «ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تَنسج ولم تَحُم» ويسرى معه من «حرم إلى حرم كما سرى البدرُ في داجٍ من الظلم» ويعيش أيام جهاده وغزواته «وسل حنينا وسل بدرا وسل أحدا» ، ثم يعلو صوته مع المنشدين ومع جيرانه :

يارب بالمصطفى بلِّغ مقاصـدنا ... واغفـر لنا ما مضـى يا واسـعَ الكرم

واغـفر إلهـى لكل المسـلمين ... بما يتلون في المسجد الأقصى وفي الحرم

بجاه من بيتُه في طيبةٍ حـرمٌ ... واسـمُهُ قسـمٌ من أعظـم القسـم

ولم يعد الباشكاتب الآن ينتبه إلى الدموع التي غطت وجهه ووجوها كثيرة حوله . وكان يقف على قدميه عندما أنهى المداحون البردة وهو يرفع يديه ويتلو الفاتحة معهم . وعاد شعبان إلى الظهور وهو يحمل مبخرة راح يطوحها أمام أبيه وأمام سالم الذي كان يفيق ويغفو ، ثم بدأ يطوف بها بين صفوف المقاعد وبين الجيران الواقفين وهو يصيح بأعلى صوته «مداااد» ! فيغمر المكان كله الهتاف «صلى على النبي» .

وكان الليل يتقدم وأصوات الزحمة صاخبة في الطريق مثلما كانت منذ مطلع النهار ، تعلو من هناك ومن فوق السطح أصوات التهليل والتكبير والدعاء لصاحبة الليلة الحبيبة السيدة زينب ، الست الطاهرة ، أم هاشم ، بنت بنت النبي ، أخت الحسن والحسين ، أم العواجز وجابرة المنكسرين .

مدد يا ست مدد !

***

القسم الثالث

(الباشكاتب)

(٩)

عرف الباشكاتب متى بدأت عملية ترميم البيت لكنه لم يعرف أبدا متى ستنتهي.

اصر المقاول على الحصول على الجزء الأكبر من أتعابه مقدماً لشراء المواد واتفق على إنهاء العمل في خلال شهر أو شهرين على الأكثر. لكن شهوراً كثيرة مضت ومبالغ كبيرة أخرى ضاعت دون أن يحدث شئ، إذ فجأة يختفي المقاول وعماله بعد أن يتركوا البيت مصلوبا بالأعمدة الخشبية ومن حوله أكياس الجير والأسمنت وأسياخ الحديد، وتحفى قدما الباشكاتب وراءه فلا يرجع إلا بعد أن يتقاضى مبلغاً جديداً غير الذي اتفقا عليه، وبدا أنه لن ينتهي إلا مع انتهاء آخر قرش يملكه صاحب البيت..

وفي هذه الأثناء اضطر الباشكاتب أيضاً إلى استشارة أكثر من طبيب بعد أن تكررت نوبات الدوار وإصابة هزال مفاجئ. كان الطبيب الذي زاره بعد إغماءته الأولى قد أنبه وسأله كيف سكت على نفسه حتى ارتفع ضغط دمه إلى هذا الحد واضطربت نبضات قلبه؟ ومع أنه التزم بالعلاج الذي وصفه له الطبيب حتى استطاع أن يقف على قدميه، إلا أنه بدأ بعد ذلك يفقد الكثير من وزنه بالتدريج فاتضح أنه أصيب بمرض السكر. أصبح من الضروري أن يعالج بحقن يومية وأن يتعاطى أدوية كثيرة أخرى. وبالكاد كان المعاش والإيراد الضئيل الذي يأتي من أرض سمية يكفيان لسداد أثمان هذه الأدوية ولزيارات الطبيب الكبير الدورية . والتحليلات المستمرة التي يطلبها في معامل يحددها بنفسه. كان يغضب إذا ما أجرى الباشكاتب التحليل في مستوصف شعبي أو في معامل رخيصة.

يقول إنه لا يثق في هذه النتائج أبدا ولا يمكنه الاعتماد عليها في كتابة العلاج، فيضطر الباشكاتب إلى إعادة التحليل في المعامل الغالية. ولم يعد يستطيع، حتى لو أراد، أن يدفع لفوزية ما كان يعطيه لها من قبل، لكنه على الأقل لم يطالب فراج أبدا بسداد ما اعتبره دينا عليه، وكف فراج أيضاً عن الاعتذار لعدم سداد هذا الدين.

ما كانت تشغل الباشكاتب قبل كل شئ آخر في هذه الأيام هي حالة سالم. ظل مرضه على حالة رغم العقاقير المنومة والمخدرة، وكان «براهم» كلما أفاق ويشير إلى أبيه أو أخته طالبا بصوت مجهد إبعادهم عنه . اعتادوا أن يأتوا إليه في معظم الوقت في معاطف بيضاء، وأن يحدثوا ضجيجا يسبب له صداعاً مؤلما فيسد أذنيه بكفيه ويعصر جبينه دون جدوى . لكنه كف بعد العلاج عن محاولة اكتشاف المعادلات التي ستطردهم ثم انقطع ظهورهم تماما بعد جلستي الصدمات الكهربائية. طردت هاتان الجلستان الأشباح المألوفة واستبدلتا بهما أشباحا أشد شراسة. إذ ظل سالم يقوم مفزوعا في الليل ويصيح صيحات أقرب إلى العواء، وهو يلوح بيديه محاولا أن يطرد الخفافيش والصقور التي تنقض على رأسه وتنهشه.

بكت فوزية وهي تقبل يد والدها ضارعة إليه، مرة أخرى، أن يرحم أخاها من هذا العذاب – سألته هل يمكن أن يحدث لسالم ضرر أكبر مما هو فيه الآن لو تركوه دون علاج؟

أراد شعبان أن يستمر مع ذلك حتى تنتهي الجلسات التي حددها الطبيب لتظهر النتيجة، لكن الباشكاتب الذي غادر فراشه بمجرد أن عاد له شئ من نشاطه . فزع عندما رأى حالة حفيده، لم يستطع أن يأمر شعبان كما فعل من قبل بأن يوقف العلاج على الفور. اكتفى مثل فوزية بالإشارة إلى ما جرى لحفيده

بعد العلاج، إذ امتنع سالم عن الأكل وأصبح يشكو بعد الجلستين، إلى جانب الصداع، من غثيان مستمر وهو يمسك بطنه والألم يعصر وجهه محاولا إرجاع طعام لم يذقه.

قال الباشكاتب لولده متظاهرا بالهدوء: يا شعبان، هذا الولد سيموت لو استمر على هذا الحال. لنعطه على الأقل فترة راحة من الجلسات، فإن ساءت حالته أكثر يمكننا أن نفكر فيها من جديد.

رد شعبان على والده بهدوء، أيضاً لم يخل من نبرة تأنيب: ربما يا حضرة الباشكاتب لو كنا أكملنا علاجه من البداية لما اضطررنا الآن إلى هذه الصدمات.

- معك حق يا شعبان . أنا كل ما أطلبه الآن منك هوا فترة راحة لسالم نرجع بعدها إلى هذه الجلسات إن شئت.

زفر شعبان ثم قال وكأنه يخلي مسئوليته مرة أخرى: كما تشاء يا والدي، يعلم الله ما الذي فعلته لأدبر تكاليف هذه الجلسات وها نحن الآن نوقفها!

أوشك الباشكاتب أن يقول: أهذا هو ما يشغلك يا شعبان؟ حالة سالم كادت أن تقضي علي، تكاد حتى الآن أن تقضي علي وأنت تحسبها بالتكاليف! أليس ابنك؟ لم لا أراك جزعا عليه مثل فوزية؟.. ولكن لا! كفى! توقف! من أدراك بما يدور في قلب شعبان أو في عقله؟

ألم تتفق على أنك لست أهلا لتحكم عليه أو على غيره؟ تواضع! تواضع! ثم أنت تجرؤ على أن تلوم شعبان؟ هل هو السبب فيما حل بسالم أم أنت؟ من الذي شجعه من الأصل؟

قال الباشكاتب بلهجة كسيرة لا تشبه لهجته في شئ: لا تقلق يا ولدي سينجو سالم من هذه الأزمة بإذن الله.

طافت بذهنه لحظتها نبوءة أبو خطوة الغامضة لحفيده فبحث عن الحجاب وأعاد تعليقه من جديد في صدره، لكن فوزية دفعته إلى التفكير في شئ آخر.

كانت تلازم أخاها ليل نهار، تطعمه بيدها اللقيمات القليلة التي يقبلها مثلما اعتادت أن تفعل وهو صغير، تأخذه في حضنها وتهدهده عندما تهجم عليه الوحوش التي تنهش رأسه، تؤلف حكايات كثيرة وتحكيها لسلوم الذي كان يتعلم المشي دون أن تفارق عينها أخاها الراقد في الفراش. إن لاحظت أنه قد شرد أو كف عن متابعتها تبدأ في اختراع شئ جديد لتبقيه صاحياً ومنتبها. وصارحت جدها بأنها تدعي لأبيها، أنها تعطي لسالم الأدوية في مواعيدها لكنها في الحقيقة تسقيه بدلا منها الينسون أو التيليو، ولم تلاحظ أي فرق يحدث في حالته حين تعطيه الأدوية أو حين تمنعها.

لجأ الباشكاتب بعد أن سمع ذلك إلى الحاج مرعي العطار. ذهب إلى جاره في دكانه القريب الذي تفوح منه من بعيد روائح البخور والأعشاب والمكتوب على واجهته «تأسس سنة ١٨٨٠» . كان يشبه والده الراحل صديق الباشكاتب في كل شئ: يرتسم على وجهه تعبير الجد والانشغال طول الوقت، ويلبس مثله الجلباب البلدي وطربوشا نظيفا ومكوياً باستمرار، وكان ذلك يحير الباشكاتب بسبب انقراض محلات كي الطرابيش من الحي ومن البلد . استقبله مرعي بترحيب كبير وأدخله مكتبه الواقع في عمق محله الواسع الذي وجده الباشكاتب مزدحما بأكداس من الكتب القديمة المجلدة، وقوارير زجاجية صغيرة مرصوصة فوق أرفف خمن أنها تضم الأعشاب الثمينة.

وعندما عرف مرعي ما يطلبه الباشكاتب تحول تعبير وجهه الجاد إلى ما يشبه الصرامة وهو يسأله بدقة أدهشته عن كل تفاصيل حالة سالم. ما الذي يحدث له بالضبط في نومه وفي يقظته، وهل يستقر الطعام في بطنه أو يرجعه، وهل ترتفع درجة حرارته أحيانا؟ سأل أيضاً عن لون البول وما إذا كان يشعر بجفاف في الحلق، وهل يسيل لعابه حين تأتيه الحالة؟ وما هي، بلا مؤاخذة، حالة «الطبيعة» عنده؟ كم مرة؟ وهل تميل إلى الإمساك أو العكس؟

ابتسم الباشكاتب وهو يقول: لا أعرف يا حاج مرعي إجابات كل هذه الأسئلة، حتى الطبيب لا يسأل عن كل هذه التفاصيل!

أزاح مرعي طربوشه قليلا إلى الخلف وقال دون أن يبتسم: ما لدينا يا حضرة الباشكاتب هو أبو الطب. ليتك جئت لي منذ البدء!

أراد الباشكاتب أن يداعبه «خفها حبة» لكنه قدَّر على الفور أن مرعي ليس من النوع الذي يقبل المزاح، فنهض وهو يقول:

- سآتيك بأجوبة لكل أسئلتك إن شاء الله.

قام مرعي بدوره وهو يضبط طربوشه فوق رأسه قائلا: في أسرع وقت!

كانت فوزية تعرف كل الأجوبة التي يطلبها العطار فدونها الباشكاتب في ورقة عاد بها إلى مرعي الذي راجعها بكل دقة ثم طلب من الباشكاتب أن يعطيه مهلة يومين بالضبط. وعندما ذهب في الموعد كان العطار قد أعد أربعة أكياس تضم أعشابا مختلفة مكتوبا عليها بخط رقعة بالغ الجمال وبالقلم البسط إرشادات مفصلة «ينقع في المساء، ويشرب بارداً على الريق».. «يغلى جيداً ويشرب ساخنا أربع مرات في اليوم».. «قبل النوم بساعة».. «ملعقة صغيرة سفوف بعد الأكل».

وعندما مد الباشكاتب يده ليأخذ الأكياس سحبها مرعي بشيء من التردد وهو يقول: سهرت ليلتين يا حضرة الباشكاتب ورجعت إلى كل ما عندي من الكتب لأنك غال عندنا. الشافي هو الله، ولكن إن أعطيت سالم هذه الأعشاب فيجب ألا يأخذ معها أي دواء آخر، وأرجوك أن تخبرني كيف تتطور حالته لأننا قد نغير بعض الجرعات أو الأعشاب وقد نلغيها كلها إن لم تنفع. الشيء الوحيد الذي يمكن أن أقوله لك باطمئنان إنه سيسترد شهيته إن شاء الله..

وأخيراً أعطاه الأكياس في حرص شديد وهو يقول: وتذكره يا حضرة الباشكاتب بالدعاء، وتذكرني معه، وربنا يقبل بجاه النبي..

فقال الباشكاتب وهو يتناول الأكياس بالحرص نفسه: آمين.

وعندما أراد أن يدفع شيئاً للعطار رد يده الممدودة في تصميم لا يقبل جدلا:

- عندما يأذن الله بالشفاء، يا حضرة الباشكاتب، ستحيي لنا فوق السطح ليلة من لياليك الجميلة.

اتفق الباشكاتب مع فوزية على أن تعطى لسالم هذا العلاج دون علم شعبان. لم يكن واثقاً أن ابنه سيوافق على إيقاف الأدوية الغالية. ولا كان واثقاً أن ما يفعله هو الشيء الصحيح.

لكنه حاول شيئاً آخر ليساعد حفيده - ذهب بنفسه إلى كلية الحقوق ليسأل عن الطالبة لبنى التي أبوها طبيب - كانت تلك هي كل المعلومات التي يعرفها عنها، وحين اهتدى إلى صاحباتها عرف منهن أنها سافرت إلى إيطاليا وأنها ستكمل تعليمها هناك. أخذ اسم والدها واستدل على عيادته...

لم يستقبله الدكتور شوكت على الفور عندما أخبرته الممرضة إن هناك رجلا عجوزا يريده في مسألة شخصية. سألها هل شكله ممن يطلبون إعانة أو كشفا مجانياً لإحدى قريباتهم ؟ قالت إنها لا تظن ولكنه سأل عن أخبار الآنسة لبنى. قطب الدكتور قائلاً : ربما هو مخبر؟ فابتسمت الممرضة وهي تقول هو عجوز جداً لا يصلح مخبراً!. لوح الدكتور شوكت بيده قائلا.. فلينتظر حتى ينتهي العمل في العيادة. إن كان هناك وقت فسأقابله.

بعد أن انتظر الباشكاتب ساعتين استقبله الدكتور شوكت وهو يجلس إلى مكتبه، وباغته بمجرد دخوله: كيف تعرف ابنتي؟

غالب الباشكاتب دهشته وقال: مساء الخير أولا!

لم يرد عليه شوكت وظل ينظر نحوه وهو يعتمد ذقنه بيده فبدأ الباشكاتب يشرح بارتباك أن حفيده سالم كان صديقاً للآنسة لبنى قبل سفرها. وأنه أصيب بحالة نفسية سيئة، ولذلك فهو يسأل الآن إن كان يمكنه أو الآنسة لبنى مساعدة

حفيده بأي شكل، ولو عن طريق رسالة أو زيارة.. تذكر الدكتور شوكت كل شئ عن الشاب الذي زاره يوم سجنت لبنى وقال لنفسه يجب أن تضع نهاية حاسمة لهذه الحكاية.

قال بلهجته الرخوة مخاطبا الباشكاتب: تسألني إن كان يمكنني مساعدة حفيدك؟ يمكنني بالطبع . أنصحك بأن تضعه فى مصحة للأمراض النفسية أو العقلية ثم لا تجعلني أراه أو أسمع عنه أو عنك بعد اليوم ! ليس عندي وقت لهذا العبث.

قال الباشكاتب فى ذهول : على أيامي كنا نكلم من هم أكبر منّا سنا بطريقة مختلفة . أنا فى سنّ والدك يا دكتور!

قال شوكت وهو ينهض: أنت لست مثل والدي. والدي كان يعرف...

استشاط الباشكاتب غضبا وهو يقول: أحمد الله أنني لست مثل والدك ! على الأقل أنا استطعت أن أربي أولادي!

واستدار خارجا وهو يضرب الأرض بعصاه بعنف وقال شوكت لنفسه دون أن يهتز: أظن أننا فرغنا من هذه المسألة. نهائيا!

غير أن سالم لم يعد بحاجة إلى المستشفى التي نصح بها الدكتور شوكت . استرد شهيته بالفعل كما تنبأ الحاج مرعى وأصبح الطعام يستقر فى بطنه. وشيئاً فشيئاً أخذ يستعيد بعض الوزن فقده وأصبح نومه أهدأ مما كان . ظل مرعي يمر على بيت الباشكاتب كل يوم تقريباً فى نزوله وصعوده، يسأل عن تطور «الحالة»، ويغير أحيانا خلطة الأعشاب معتبرا الصراع مع الوحوش التي تتشبث برأس سالم معركة تخصه هو بالذات، وإن ظل يعتب على الباشكاتب، برزانته المعهودة: لو جئتني منذ البدء يا والدي لما استغرق العلاج كل هذا الوقت!

وكان الباشكاتب يبالغ فى الاعتذار عن هذا التقصير، مجاملة لمرعي في بعض الأحيان، وصادقاً فى أحيان أخرى حين لاحظ التحسن الذي بدأ يطرأ على حالة

حفيده. أخذت الوحوش تنسحب بالتدريج، وبدأ سالم يعود ببطء، من العالم الذي غاب فيه طويلا. يتحدث أحيانا بجمل قصيرة إلى جده وإلى فوزية، ويطلب الطعام بنفسه، ويوم تعرف على سلوم الصغير وبدأ يداعبه همست فوزية لجدها بنبرة ظافرة «أرأيت؟ البركة فى عم مرعى!» . فقال جدها وهو يقبل رأسها «وفيك أنت يا فوزية!».

بقيت بعد ذلك فقط حين رجع لهم سالم تلك النظرة المنطفئة فى عينيه وبسمة ثابتة على شفتيه وعاد إلى صمته الطويل. غير أن ذلك كان شيئاً ألفوه منذ زمن طويل.

وكان الباشكاتب قد فعل شيئاً آخر يوم ذهب إلى الجامعة بحثا عن لبنى.. إذ قدم شهادة مرضية لإعفاء سالم من الامتحان فى هذه السنة. لم تكن حالته تسمح بذلك.

ولكن فى السنة التالية كانت هذه الحالة تسمح بأن ينزل سالم للعمل..

* * *

وبينما كان الباشكاتب يتابع مع فوزية حالة سالم وجد الوقت أيضاً ليفعل أشياء أخرى مؤجلة. كان عزمه قد استقر منذ ليلة المولد. حلت به ليلتها سكينة افتقدها طويلا وهو ينصهر مع جيرانه فى تلك الليلة من المحبة الخالصة. لم يكن يردد أبياتا من الشعر ويسمعها فحسب، ولكنه كان يسترد عافية نفسه.

فى أول خميس استطاع فيه الخروج ذهب للقاء نازلي وجلسا معا كصديقين غابا عن بعضهما لفترة. أعطته نازلي نصائح بشأن صحته وزودته باسم الطبيب الكبير الذي أصبح بعد ذلك يتابع حالته. قالت بلهجة جازمة:

- هو أحسن طبيب فى البلد فاسمع كلامه يا توفيق.. وحاسب على نفسك. لم تعد صغيرا!.

وكان هو يعرف أنه قد أصبح كبيرا جدا! في السنتين الأخيرتين ظل يحافظ على موعد الخميس بحكم العادة لا أكثر، واعتادا أن يقضيا الوقت في الثرثرة عن قضاياها ومشاكلها مع المحامين ومع أبنائها. فإذا جاء العشق بعد ذلك أو قبله، تم بصعوبة وفتور، لا شيء فيه من حرارة الزمن القديم. كاد لقاء الخميس أن يقتصر على الثرثرة حتى لو كانت لدى الباشكاتب الرغبة، وحتى لو توافرت القدرة التي أصبحت تزداد صعوبة أسبوعا بعد الآخر.

لزم الباشكاتب الصمت فترة وهو يتأمل وجه نازلي الذي أجرت له عملية شد جلد فأصبحت عيناها الخضراوان الصغيرتان كخرزتين لا تطرفان. ثم قال بهدوء وهو يبتسم:

- وما رأيك يا بنت الناس...

لم يكمل كلامه لكن نازلي قالت بلهفة: عمرك أطول من عمري!

- أنت تعرفين ما كنت أريد أن أقوله؟

فابتسمت وعادت تتكلم بنبرتها الهادئة الهامسة:

- طبعا يا توفيق! من مدة أعرف أنك تريد أن تقولها.. وأنا أيضاً..

ثم هزت رأسها وقالت بأسف: أصبحنا عجوزين!

ورجعت تبتسم وهي تضع يدها فوق يده: ولكن لي شروطي!

فاجأه ردها بالفعل. كان قد فكر قبلها كثيراً كيف يصارحها.. شعر بكثير من الإحراج والارتباك مخافة أن يجرح مشاعرها بعد «عشرة» هذه السنين الطويلة. لكن نازلي أنهت المسألة بكلمتين وابتسامة. لم ير في وجهها أي حزن حقيقي. تصرفت كأنها ستفترق عن شخص قابلته بالمصادفة. ليست غلطتها على أي حال!

وكانت «شروطها» بسيطة هذه المرة: أن يتم الطلاق كتابيا أيضاً وأمام شهود وأن يسجلا فيه أنه ليس لأي منهما حقوق لدى الآخر.

لم يملك الباشاكاتب نفسه فقال ضاحكاً: يا نازلي هانم هذا ليس طلاقا. هذا رد كمبيالة ومخالصة!

فردت دون أن تضحك: لمصلحتك ومصلحتي يا توفيق.

وبعد أن اتفقا على موعد الطلاق والشهود، قالت نازلي وهي تنظر حولها:

- على فكرة، يمكنك أن تطلب «خلوا» كبيرا لهذه الشقة. الموقع مطلوب. ستسترد الإيجار الذي دفعته طول هذه السنين، وربما أكثر.

جال الباشكاتب بنظرة في الشقة ولم يرد. ظل ينظر إلى نازلي وهو يفكر: هل يقتل الحرص الشديد على المال الأرواح أم أن الأرواح الميتة من الأصل هي التي تتكالب على المال بهذا الحرص؟ وهل موات الأرواح يعدي؟.. لا. هي لم تفرض نفسها علي. بل أنا الذي سعيت وراءها. فهل تنتحر الأرواح عن عمد كما تنتحر الأجساد؟ ولماذا؟ كأنني كنت أبحث عنها لكي أهرب في الوقت ومن الوقت. ألم أسمع من أبو خطوة أن العاقل من يمر على الأوقات لا الذي تمر به الأوقات؟ من يحكمها لا من تحكمه؟ وأنا لم تمر بي الأوقات فحسب، بل تركتها تزحف بي عمرا اتسعت آماده وانعدمت أمداده. حتى أعذاري الوجيهة لم تكن في الحق وجيهة. قلت لن أنافق - سأنتظر ألا أشتهي الدنيا لا توجه بعده. نقيا خالصا. ولكن كيف توقعت أن يأتي هذا النقاء؟ لماذا لم تكن تصبر أبدا على ظمأ جسدك واستطال صبرك على ظمأ روحك؟ ولماذا مثلا لا تظمأ روح نازلي؟ وهل هي تعرف أصلا أن هناك ظمأ للروح؟

توقف يا حضرة الباشكاتب! ها هو ضلال آخر! هل اكتشفت نازلي الآن فجأة؟ قد تكون أفضل منك! على الأقل هي لم تفعل شيئاً تعتقد في قرارة نفسها أنه خطأ. ألم تصمم هي على أن يكون هناك زواج وإشهار؟ إن كنت أنت تطمع في الرحمة رغم كل خطاياك فلماذا تضن بها على نازلي؟ لا. إن أردت أن أطوي هذه الصفحة فيجب ألا ألوم نازلي على شيء أبدا، بل ربما كان يجب أن أطلب منها الصفح.

سألته نازلي حين طال صمته:

– لماذا تنظر إلى كأنك لا تراني؟ فيم تفكر يا توفيق؟

فقال بهدوء: في الطلاق.

* * *

(٣)

عندما كان عاطف – أو سلوم – في الرابعة من عمره تقريبا رجعت فوزية إلى بيت الأسرة بصحبة ولدها . لم تكن تلك هي المرة الأولى في الفترة الأخيرة . تكرر مجيئهما ومبيتهما ليلة أو ليلتين أو أكثر . في البدء كانت تقول إنها اشتاقت لهم أو إنها تريد أن ترعى «رجالها» قليلا لأنها لا تطمئن تماما إلى عمل الشغالة التي أصبحت تأتي مرة واحدة كل أسبوع . ولكن فوزية لم تكن ترجع إلى بيتها إلا بعد أن يأتي فراج لاصطحابها . وفهم الجميع ما يجري دون حاجة إلى كلام . ولكنهم سكتوا لأن فوزية لم تشأ أن تقول شيئا .

كان فراج يأتي في العادة متجهما . يجلس فترة مع الجد . ومع شعبان أو سالم إن كان أيهما موجودا . بينما تختفي فوزية في غرفتها . في تلك الأحوال يجلس مطرقا ويلزم الصمت معظم الوقت مكتفيا بتبادل التحيات والمجاملات . وأحيانا يشكو من ظروف العمل . يقول إن كل «الشغل» فوق رأسه ولكن لا أحد يقدّر . وإن من يحصلون على المكافآت والعلاوات هم محاسيب رئيس مجلس الإدارة الذين «يعطلون الإنتاج» لأنهم لا يفعلون شيئا للشركة ويقومون بأعمال خارجها . سأله الباشكاتب مرة كيف يفعلون ذلك وهو ممنوع بحكم قوانين العمل؟ فنظر فراج نحوه بإشفاق وشرح له أن الدنيا تغيرت . وأن هؤلاء الموظفين يدبرون أمورهم . يدفعون «المعلوم» ويقدمون الهدايا للرؤساء ليسمحوا لهم بالتفرغ لأعمالهم الخارجية ولإرسالهم أيضا في إعارات للبلاد العربية . واعتادوا أن يتركوا فراج يتكلم أو يصمت كما يشاء وهم يعرفون كيف سينتهي ذلك كله . فبعد أن يشرب الشاي يسأل «أين فوزية ؟» وينادي عليها جدها أو يخرج أخوها أو

أبوها لاستدعائها . فتأتى وتقف بباب الغرفة مطرقة وهى تشبك يديها أمام حجرها أو وهى تدفع أمامها طفلها الصغير الذى يجرى نحو حضن أبيه فى ضجة كبيرة بمجرد أن يراه . ويقول فراج عابسا دون أن ينظر نحوها كلمة واحدة «البسى» .

ومع أن فوزية لم تحدث أحدا عن أسباب خلافاتها مع زوجها فقد كان مفهوما أن مرتبه لم يعد يكفى مصاريف البيت حتى منتصف الشهر . وأن الديون التى تراكمت عليه كانت سببا مستمرا فى اتهامه لزوجته بالإسراف وعدم التدبير . كانت فى كل مرة تحسبها له بالورقة والقلم وهى تبكى . ولم يكن يقتنع .

وفى هذه المرة طال بقاء فوزية مع ابنها فى البيت . لم يأت فراج لاصطحابها بعد يومين أو ثلاثة ولا أسبوعين أو ثلاثة . ولم يكن هناك من رجالها من يستطيع مساعدتها .

اعتقد (شعبان) أن المبلغ الكبير الذى حصل عليه مقابل تأجير الزاوية لبائع السجائر سيكفى إلى جانب القليل الذى يدره محل القماش ليعيشوا حياة معقولة. وتفاءل كثيرا فاعتقد بإمكان عودة أيام الرخاء القديم . غير أنه اكتشف بعد قليل أن الغلاء يسبق أى مبلغ يمكن له تدبيره . وبعد أن ضاعت مدخرات الباشكاتب وأصبح دخله يكفى بالكاد لعلاجه . نشأت مشكلة حقيقية فى تغطية مصاريف البيت . وهكذا فقد اضطر أن يجد وظيفة لسالم فى مطعم أمريكى للدجاج فتح بالقرب من ميدان السيدة بعد شهور من شفائه .

عمل سالم كاتب حسابات فى المطعم . وأعفاه هذا من لبس الطاقية البيضاء المنفوخة التى يلبسها بقية زملائه مع سترة زرقاء . إذ كان يعمل فى ركن داخلى صغير . يكفى بالضبط مقعده والمكتب الذى يشتغل عليه . وارتاح إليه مدير المطعم كثيرا . كانت حساباته فى غاية الدقة والأمانة . كما أنه لم يكن بحاجة إلى

تعليمات المدير التى يزجر بها زملاءه طول الوقت لالتزام الصمت الكامل والتركيز على العمل لهذا نجا سالم وحده من الطرد خلال ستة أشهر . على عكس بقية زملائه الذين التحقوا معه بالعمل فى وقت واحد . لم يكن المدير يحب التعامل مع مكتب العمل . ولكنه أدرك حاجته إلى سالم الذى بدا أيضا أنه لا يعرف أى شئ عن هذا المكتب .

كانت المسافة قريبة من البيت إلى المطعم مما وفر مصاريف المواصلات ولم يكن سالم يدخن أو يحتاج إلى صرف أى نقود فاعتاد أن يساهم بمرتبه كله تقريبا فى البيت . بعد أن يقتطع جزءا من هذا المرتب الصغير ليعطيه لفوزية .

حكت له أخته بعد شفائه كل شئ عن همومها مع فراج - قالت له إنه كلما ساءت حالته فى العمل بسبب مكائد زملائه الذين يلقون عليه عبء العمل كله ويحصلون وحدهم على العلاوات والمكافآت . كلما نكد عليها عيشتها فى البيت . قالت إنها طلبت من فراج أن يمسك بنفسه مصروف البيت ليرى كيف يمكن تدبير المعيشة بالمرتب حتى آخر الشهر فرد بأن هذا «شغل الستات» . أمه اعتادت أن تدبر بيتها وتوفر مصاريف تعليمه بأقل من المبلغ الذى يعطيه لها .

وصارحت فوزية أخاها بمخاوفها . هى تعتقد أن فراج يفتعل كل هذه المشاجرات لأنه يريد أن يتزوج من موظفة لها مرتب . لم يعد مرتبه وحده يكفى للمعيشة . وبعد أن كان متشددا فى أن زوجته يجب أن تبقى فى البيت لتربية الأولاد أصبح يعيرها بأن شهادتها الإعدادية لا تنفع لأن تشتغل فى أى وظيفة .

قالت لأخيها فى مرارة : بدلا من أن يشد حيله ويبحث عن عمل على تاكسى بعد الظهر أو أى شغل إضافى مثل شغلك ومثل بقية خلق الله فهو يدفن نفسه ليل نهار فى الوظيفة (الهباب) ويعيرنى بأنى لا أعمل ..

أصبح سالم ، بعد العلاج ، يحسن الاستماع دون أى تعليق . تضاعف صمته القديم وأصبح يحدق بتركيز فيمن يحدثه فيعتقد أنه يصغي إلى كل حرف ، لهذا أحبه زملاؤه في العمل وصار موضع أسرارهم جميعا . كان ينسى هذه الأسرار بسرعة بعد الاستماع إليها ولا يلمح إليها حتى لصاحبها فيعتقد أن هذه مبالغة في الكتمان ، ولكن في هذه المرة بعد أن استمع إلى شكوى فوزية قال بهدوء والبسمة الثابتة على شفتيه :

– كان رأيي منذ البداية أن هذا الزواج غلطة يا فوزية . لماذا وافقت عليه ؟

فحولت وجهها عن أخيها وانهمكت في ترتيب ملابس سلوم .

لا تستطيع أن تقول لسالم ، هي نفسها لا تعرف كيف حدث ما حدث . كانت تزور صاحبة لها في البيت الذي يسكنه فراج ، زارتها قبل ذلك مرات كثيرة دون أن يخطر ببالها أي شئ . اعتادت هي وهو أن يلتقيا خارج الحي ، في أماكن بعيدة عن الأنظار ، وفي هذه المرة وهي تنزل من عند صاحبتها وجدته يقف بالمصادفة أمام باب شقته المفتوح وكان السلم خاليا فابتسمت وابتسم . هي لا تعرف ولا تذكر بالضبط ما بعد . تذكر فقط أن ذعره كان يفوق ذعرها وأنه راح يلطم خده .

التفتت مع ذلك نحو سالم وقالت بلهجة هادئة ، تكاد تكون مستسلمة :

– لأني أحببته ، لأني أحبه .

***

جلس الباشكاتب في مقهاه القديم بعد أن أدى صلاة الظهر في مسجد السيدة . أصبح يمر على المقهى كل يوم في هذا الموعد الذي يكون فيه شعبان وسالم في العمل وتكون فوزية مشغولة بإعداد الطعام .

اعتاد أن يصحو في الفجر ليصلي ثم يقضي بعد ذلك وقتا طويلا في قراءة الكتب ، كان يقرؤها بتركيز وتمعن حتى كاد أن يحفظها كلها . لم يترك وصية من وصاياها في العبادة أو السلوك إلا ونفذها بكل دقة . أدرك أنه يطلب شيئا كبيرا ، يهون في سبيله كل ما يبذل . وسلم بأنه أيا كان ما يبذله الآن فهو قليل بعد أن بدد عمره في التراخي والمعاصي ولكن صديقه قال له يوما إنه حتى المعصية تستغفر لصاحبها إن أتى طائعا ومنيبا . فهل يُتقبل منه بعد كل ما سلف؟ ثم ما هو ذلك الذي يطلبه بالضبط ؟ ماهي تلك البشرى الموعودة ؟ ألا يكفي أن يطلب من ربه المغفرة ؟ يكفي ويزيد . بل هي في حالته فضل ونعمة من الله . وفكر ساخرا من نفسه : أم تريد حقا يا توفيق يا ابن السعدي بعد كل ما فعلته في حياتك أن تكون من الأولياء الصالحين ؟ ولكن لابد مع ذلك من حكمة في تشبثه بتلك البشرى الغامضة التي حدثها عنها صديقه . الحكمة هي أن تتواضع! أن تتعلم ما قاله لك «أن تريد ألا تريد» ولكن كيف ؟

كان يجلس ممسكا بعصاه بيديه الاثنتين ومستندا عليهما بذقنه وهو يتطلع إلى الميدان . سرح بفكره وهو ينظر إلى السبيل المغلق الذي يواجهه وابتسم لنفسه لأنه ظل طول عمره يحاول قراءة أبيات الشعر المطموسة المحفورة في أعلى واجهة السبيل دون أن ينجح ! استطاع بعد جهد على مر السنين أن يحل البيت الأول «سبيل الله يا عطشان فاشرب ، هنيئا صافيا يشفي العليلا» . لكنه توقف بعد مطلع البيت الثاني «أنا ظمآن فارون ...» وظل ما بعده حروفا مبعثرة كالطلاسم . لكنه يحب النظر إلى هذا السبيل . يتخيل زمانا لم يكن فيه هذا البناء المهجور الرمادي اللون وكانت تحف بأبيات الشعر على الواجهة الزخارف من أفرع أوراق الشجر وتشكيلات الزهور والنقوش الملونة كأنها تحيي كل قاصد السبيل .

هو يحبه حتى على حاله الآن . يحب كل شئ في هذا المكان . يذكر فرحته عندما كان يطل على الميدان بعد غيبة أثناء عمله في أسيوط أو المنصورة . فرحته عندما يرى من بعيد القبة والمئذنة السامقة بشرفاتها المتعددة . زحمة الناس حول المقام الطاهر . يخفق قلبه ويود لو يصافح كل إنسان دون تمييز . المارة في الشوارع . وأصحاب المحلات . والباعة الجالسين على الأرصفة . وحتى عمال الترام في الكشك الذي يتوسط الميدان والواقفين حوله . يريد أن يقول للجميع «أنا رجعت!» ومازال حتى الآن . بعد أن أصبح بالفعل يتوكأ على العصا التي كان يمسكها من قبل على سبيل الأناقة . لا يستطيع أن يحتمل يوما دون ضوضاء هذا المكان وناسه . لا يشعر أنه يعيش حقا إلا حين يراهم . لو أمكن أن يدفنوه بعد موته تحت أسفلت هذا المكان !

توقف الباشكاتب ليسأل نفسه : كيف وهو ممتلئ بالدنيا إلى هذا الحد سيصل إلى العزلة والخلوة اللتين تقول الكتب ألا وصول بدونهما ؟ ولكن أبو خطوة قال له خذ من هذه الكتب ما يوافقك . ستتعلم وحدك ما الذي تأخذه منها وما الذي تتركه لأن طريقك لم يعبده لك غيرك . لا ترهق نفسك بالتفكير فسيأتي كل شئ في حينه .

وضع جابر فنجان القهوة أمام الباشكاتب المستغرق في أفكاره وهو يسأله مبتسما .

– مازلت غاضبا علي يا حضرة الباشكاتب ؟

فابتسم بدوره وهو يرد عليه : قلت لك يا جابر مائة مرة سمسارك ذبحني والمقاول الذي جاء به ليرمم البيت أكمل المهمة . وعد بأن ينهي العمل في شهرين فاستمر أكثر من سنتين . ولكن ماذا أفعل ؟ ربنا يسامحك !

قال جابر متظاهرا بالأسى : والله يا حضرة الباشكاتب أنا أردت أن أخدم ولكن ما العمل ؟ أنت رجل طيب والناس في هذه الدنيا إما آكل أو مأكول ..

رفع الباشكاتب فنجان القهوة بيده المرتعشة وهو يسأله وأنت يا جابر . آكل أو مأكول؟

أشار جابر إلى جلبابه ومئزره (الدمور) الممزق وهو يقول :

– انظر بنفسك حضرتك واحكم !

أشار الباشكاتب بدوره إلى فم جابر الذي كان يستحلب شيئا وسأله :

– فلماذا إذن يا جابر تصرف قرشك على هذا ؟

رد جابر دون أن يهتز : أنا يا أستاذ في النهار الواحد ألف هذا الميدان الواسع على رجلي عشر مرات دون أن أترك المقهى . أظل بالنهار والليل كالمكوك وراء طلبات الزبائن حتى تورمت قدمي كما ترى . فماذا أفعل لاحتمال هذا العذاب ؟

– وما الذي رماك على هذا العذاب ؟

– ثمانية أولاد وأمهم .

– ألم يكبر أحد من أولادك حتى الآن ليريحك من العمل ؟

– كلهم كبروا يا أستاذ . منهم من تعلم وأفلح واشتغل . ومنهم من خاب ولكنهم جميعا مازالوا يمدون أيديهم إلى جابر الغلبان !

تذكر الباشكاتب عبوات الكيف الملفوفة في ورق السيلوفان وحكاية الدولارات والسمسار الذي أهلكه فقال ضاحكا :

– أنت غلبان يا رجل يا ضلالي ؟ ماذا ستقول لربنا يوم يلقاك ؟ فكر لأن حكايتنا أنا وأنت قربت !

وفاجأه رد جابر حين قال بأدب شديد وهو يمسح الطاولة بمنشفته :

- سأرد مثلك يا حضرة الباشكاتب !

ثم قال وهو يرفع الفنجان متأهبا للانصراف :

- أنا في هذا العمل يا أستاذ منذ أن كنت صبيا صغيرا ، ورد على هنا كل أصناف الناس ، رأيت الكبار والشبان والنصابين والفجار والناس الطيبين الذين يعملون الخير في السر ، والذين يتظاهرون أنهم طيبون ويأكلون مال النبي ، فإذا كنت أنا جابر الغلبان أستطيع أن أميز بينهم فما بالك ؟

ورفع يده الخالية نحو السماء ، ثم أكمل بضحكة وهو يبربش بجفنيه :

- ولكن صدقني يا أستاذ ، أنا بالفعل غلبان !

وانصرف عن الباشكاتب وهو يضحك .

قال توفيق لنفسه بعد أن ابتعد جابر : تستأهل ، موعظة بموعظة ! ولكن موعظة جابر أقوى بالفعل يا حضرة الباشكاتب ! فمن يعرف القلوب حقا غير مولاك ومولاه ؟ هل ازدهاك الكبر الآن لأنك دخلت في طاعة قريبة بعد طول معصية ؟ إن يكن ذلك فقد هلكت يا أخ توفيق ! مائة مرة قلت لك تواضع ! تواضع!

نادى جابر ليدفع له الحساب وعندما جاء قال له بقلب مثقل :

- سامحني يا جابر على ما قلته لك .

تراجع جابر خطوة وقال : استغفر الله يا حضرة الباشكاتب ! أنا أسامحك ؟ أنا لم أقل لك إنني ولي ! قلت لك أنا غلبان !

ثم راح يضحك فقال الباشكاتب : إذن فسامحني يا غلبان !

رفع جابر يديه معا وهو يقول : ربنا يسامحنا نحن الاثنين لأن حكايتنا قربت! وضحك من جديد ، فضحك له الباشكاتب ولكن قلبه ظل مثقلا .

***

عندما رجع الباشكاتب إلى البيت كان مجهدا وقلقا لكنه وضع على فمه الابتسامة التي يلقي بها فوزية وطفلها ، كان يحاول كل ما يستطيعه ليخفف عن حفيدته إحساسها بالهزيمة ، انحنى على الصغير وقبله ، لم يعد يستطيع أن يحمله ، رفع سلوم يده القصيرة محاولا أن يتحسس جيب الباشكاتب وهو يسأل : «فين الملبس يا جدي؟» فوضع الباشكاتب يده على جيبه وهو يقول للصغير «أولا ، سمعت كلام ماما أو عذبتها زي كل يوم ؟» قال سلوم وهو يشب على قدميه ليتحسس الجيب بلهفة : «سمعت الكلام ، سمعت الكلام ، هات الملبس !» .

أعطاه قطع الحلوى فجرى سلوم مبتعدا وهو يهلل ويقول «لكن بابا أحسن منك! بابا حلو وأنت عجوز !» .

ضحك الباشكاتب وهو يتطلع إلى فوزية بعين مستفهمة فهمست : «مثل كل يوم ، يصدعني كل دقيقة بالسؤال عن أبيه ومتى سنرجع إلى بيتنا» .

ثم قالت لجدها بابتسامة صغيرة : أنت تقرأ كتبا قديمة كثيرة يا جدي ، ألم تجد في أي كتاب منها طريقة نعمل بها عملا يعيد إلى فراج عقله ؟ عمل نضعه له تحت عتبة الباب أو في ذيل قرموط ؟

ابتسم جدها وهو يقول : هذه ليست كتبا في السحر يا فوزية .

فقالت وهي تتجه للمطبخ : وأين إذن نجد كتب السحر ؟ .. فكر إلى أن أعد لك الغداء !

لم يتحمس الباشكاتب كثيرا ، أصبح غداؤه بلا طعم بعد حرمانه من الأرز الذي لم يكن يعتبر أي طعام بدونه وجبة حقيقية ، وبعد منعه من الملح والتوابل ولكنه اعتاد أن يأكل أي شئ تقدمه له فوزية لكي يملأ بطنه وينام قيلولته .

وفي مساء ذلك اليوم كانت الأسرة كلها مجتمعة على العشاء وراحوا يزدردون طعامهم في صمت ، يبدو الاجهاد على وجه سالم وشعبان والوجوم على وجه

فوزية . وكان الباشكاتب شاحبا أكثر من المعتاد ولكنه قطع الصمت فجأة وهو يقول لشعبان :

– رأيت اليوم محلك في المنام . رأيت زحاما كثيرا ورأيتك مشغولا جدا في تلبية طلبات زبائنك .

قال شعبان دون أن يرفع رأسه عن طبقه : يسمع منك ربنا يا والدي . الحال واقف تماما هذه الأيام . لولا إيجار محل السجائر لأفلسنا من زمن .

قالت فوزية وفي صوتها نبرة خفيفة من المزاح : ألم تحلم شيئا أيضا عن زوجي المجنون يا جدي ؟

فهز رأسه وقال بعد لحظة صمت : ربما يأتي يوم الخميس ..

ثم التفت نحو حفيدته مكملا : ويحسن أيضا يا فوزية أن تغطي شعرك . رأيته في الطريق قبل أيام وقد أطلق لحيته . ربما لا يجب الآن أن تكشفي شعرك .

تمتمت فوزية دون اقتناع : لم يشتك قبل اليوم من شعري يا جدي . المشكلة الآن أنه يريد زوجة بمرتب . ولكن غريبة حكاية أنه ربى ذقنه !

***

مع ذلك عندما خرجت فوزية في اليوم التالي لتشتري لوازم البيت وضعت غطاء على شعرها .

وفي المساء عاد شعبان إلى البيت متهللا . قبل يد والده في حرارة وامتنان وهو يقول : جاءني اليوم يا أبي طلبان كبيران لأقمشة أزياء مدارس في الحي . طلبان لا طلب واحد يا أبي !

وقال لأبيه في حماس : أحلامك أحلام الصالحين يا والدي . أنت رجل مبروك !

ثم إنه في يوم الخميس التالي زارهم فراج بعد غيبة شهور .

لم يكن هناك تمهيد لمجيئه ففوجئت به فوزية وهي تفتح الباب . تعلق سلو
بعنق والده وهو يصيح صيحات عالية . وأشارت فوزية صامتة إلى غرفة الجلوس ثم انسحبت إلى غرفتها .

جلس الرجال معا دون أن يبدأ أيهم الكلام . كان شعبان وسالم ينظران إلى فراج بفتور تكرر هذا الموقف كثيرا من قبل . أما الباشكاتب فقال وفي صوته نبرة من العتاب الرقيق : مرحبا يا فراج . لم نرك منذ مدة .

لم يرد فراج على الفور . أخذ يعبث قليلا بلحيته الجديدة قبل أن يقول :

– في الواقع أنا كنت أفكر في حالنا أنا وفوزية . لا يمكن يا حضرة الباشكاتب أن تستمر الأمور على هذا الحال .

قال شعبان بشيء من الضيق : إذن يا ابني كما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف . ابنتنا يوجد ألف ..

قاطعه الباشكاتب : انتظر لحظة يا شعبان . هل هذا هو ما تريده يا فراج ؟

تنحنح فراج وقال : لا . كيف ؟ وعاطف هذا ؟

ثم أنزل الصغير من على حجره وقال : هل يمكن أن نتكلم على راحتنا ؟

حمل شعبان حفيده رغم صراخه وبكائه وأعطاه لأمه وحين رجع كان الباشكاتب يقول : .. هذا مفهوم يا ابني ولكن ما باليد حيلة . أنت ترى حالتنا الآن .. ثم تطلع إلى والده وأكمل : يقول فراج إنه ظلم فوزية بالفعل عندما اتهمها بالتبذير . وإن مرتبه لا يكفي بالفعل ليغطي مصاريف الشهر .

قال شعبان : وماذا بيدنا نحن أن نفعله يا سيد فراج ؟ هذا حال كل الناس . ربما لو بحثت عن عمل آخر ..

قال سالم . الذي كان صامتا طول الوقت . بصوت هادئ : ما هو المبلغ المطلوب يا أستاذ فراج ؟

رد زوج أخته محتجا وقد احمر وجهه : أنا لم آت لأتسول يا أستاذ سالم !

وتدخل الباشكاتب قائلا : سالم لا يقصد هذا بالطبع .

لكن فراج أكمل بنبرته المحتجة : مع ذلك لا يصح الكلام بهذه الطريقة ! يعني هذه حالة طارئة . ستتحسن الأمور قريبا بإذن الله . أنا تقدمت لإعارة إلى السعودية وسيوفقني ربنا هذه المرة إن شاء الله . وأي مساعدة حتى تأتي الإعارة ستكون دينا علي بالطبع .

قال سالم بالهدوء نفسه : ليست دينا . بما أن فوزية لاتشتغل فينبغي أن يكون لها دخل كل شهر . أنا سأعطيها نصف مرتبي ..

نظر الجميع نحوه في دهشة ، بمن فيهم فراج ، وقال شعبان محتجا :

- وكيف ستتصرف نحن في البيت ؟ أنت تعرف أن مرتبك يسد في ..

لكن الباشكاتب رفع يده يسكت ولده وهو يقول : بارك الله فيك يا سالم . نحن نستطيع أن نحتمل يا شعبان . سندبر أمورنا بإذن الله .

وقال فراج مؤكدا : ومع ذلك فسأعتبره دينا حتى الإعارة .

قال شعبان : مفهوم . ولكن أرجو يا أستاذ فراج من أجل ابنك الصغير ألا تتكرر هذه الحكاية .

فرد فراج : إن شاء الله لن تتكرر . لم يكن بيدي .

وقال الباشكاتب وهو يتطلع إلى السقف :

- لا تحمل هماً يا شعبان . هذه الحكاية لن تتكرر .

وكان يتكلم بلهجة واثقة تماما .

وعندما رأى فراج فوزية وقد غطت شعرها استعدادا للخروج معه ، قال وهو يشير إلى رأسها في إعجاب ورضى :

- ما شاء الله ! عين العقل !

وبعد أن خرجت فوزية مع زوجها وابنها ، التفت شعبان نحو والده وقال في انبهار :

- يوم الخميس يا حضرة الباشكاتب كما قلت حضرتك بالضبط ! نفعنا الله ببركتك !

قال الباشكاتب شارداً :

- البركة في سالم .

لكنه تساءل وهو يكاد يرتجف :

- هل هذا صحيح ؟

***

(٣)

جلس الدكتور شوكت فى (كافتيريا) المطار ينتظر الطائرة القادمة من روما التى تأخرت كعادتها . فكر أنه لن يستطيع الآن أن يذهب إلى عيادته ويرجع إلى المطار لأنها لن تتأخر، كما قيل ، غير ساعة ونصف . ضاعت الليلة وعندما تصل الطائرة ويصحب لبنى حتى البيت سيكون الوقت تأخر جدا . قال للمرضة على أية حال إنه سيتأخر عن موعده ، وتستطيع المريضات الانتظار أو الانصراف . عودهن على احترام النظام والوقت . لايستقبل أى مريضة تتأخر عن موعدها دقيقة واحدة . لابد من شئ من الشدة فى هذا البلد. ولكن المسألة ليست بيده هذه المرة . إن كن عاقلات فسينتظرن . لاداعى حتى لأن يكلم الممرضة . ثم أين يمكن أن يجد التليفون فى هذه الفوضى الشاملة فى المطار؟ جرب ذات مرة أن يجده حين عاد من إحدى رحلاته فلم يفلح . كل شئ فوضى فى هذا البلد. ربما كان يجب أن يسافر هو إلى روما بدلا من لبنى . لديه ما يكفى ليعيش هناك . لا إلى لندن بالطبع ! لن يجد مشكلة فى أن يعمل هناك ولكن ماذا عن لبنى؟ إن كانت لم تنجح فى روما فهل تحتمل الحياة فى لندن؟

لم يكن هناك كثير من الزبائن فى الكافتيريا . معهم حق قهوتهم مقرفة!

رأى عبر الواجهة الزجاجية المستقبلين يتكدسون فى صالة الانتظار . معظمهم يلبسون الجلابيب وينتظرون أقاربهم العائدين من الخليج . يا عمال العالم اتحدوا! أهلا وسهلا ! ترى كيف يتحد عمال الخليج مع إخوانهم من الفلاحين والصعايدة؟ بالصرم القديمة ! رآهم بعينه هناك . فى أحد المطارات رآهم يقرفصون على الأرض فى صفوف وأمامهم شرطى يمسك عصا ليمنع أى واحد من النهوض أو الحركة !

لم يأت الأخ ماركس إلى هنا ليرى ويتعلم ! كان سيقول شيئا مختلفا بالتأكيد. مثلا؟ مثلا يا عمال العالم انتحروا ! هذا هو الحل الناجح بالفعل . الطريقة الوحيدة للقضاء على الفقر هى القضاء على الفقراء ! لا مشكلة لأنه يدهشك ماذا فى معيشة هؤلاء التعساء يستدعى التمسك بالحياة بالطبع الزملاء الذين يدخلون السجن ويخرجون منه كالمكوك يعتبروننى خائنا لو سمعوا هذا الكلام، هم يعتبروننى خائنا دون أن يسمعوه ! ليكن : أترك لهم بكل ارتياح السجن والفقر وتغيير التاريخ بدونى!

ولكن انتظر لحظة يا شوكت أنت لست ارستقراطيا مثل صفاء هانم. ربما بعض هؤلاء العمال الواقفين هناك من أقربائك الذين لاتعرفهم . ليس لمجرد أن أباك الخولى الفلاح تزوج من أمك التركية أصبحت أنت من جنس آخر، ثم إنك لا تعرف أى شئ عن أمك التركية هذه . ليس لك أخوال أو خالات، فهل صحيح ما سمعته أنها كانت خادمة جلبوها من استانبول لبيت صاحب العزبة ؟ يقولون (كمريرة) كأن هذا شئ أرقى! لايهم . المهم أنها ورثت أختك الشعر الأصفر والعيون الملونة والجمال الأبيض الذى يحبه أبناء هذا البلد فتزوجها أحد الديلوماسيين. ينفعه كثيرا زوجها فى متابعة حساباته فى الخارج. أما أبى فقطع كل صلة له بإخوانه وأقربائه عند ما نزح إلى القاهرة وعمل فى سمسرة العقارات. لا أعرف لى أى أقرباء، ولكن أنا لا يهمنى من يكون أبى أو أمى أو أقربائى . أنا شوكت ابن شوكت! أنا الذى صنعت نفسى ولا فضل لأحد على لم أرث أرضا ولا مالا ولم يساعدنى خال ولا عم ! لا فضل لمخلوق على فيما وصلت إليه . أنا بالفعل شوكت ابن شوكت ومن حقى أن أفتخر بذلك!

ولكن ها هو شئ جديد فى الكافتيريا امرأة جميلة وأنيقة وتحمل فى يدها باقة ورد تابعها بنظره إلى أن جلست قبالته على منضدة بعيدة ثم تجمدت عضلات وجهه فجأة وهو يتأملها بالطبع. نعم . هى صفاء هانم . لا أحد غيرها!

حول وجهه بسرعة إلى ناحية أخرى . هو لم يرها ولا حتى بالمصادفة منذ الطلاق . لحسن الحظ . تعمد كلاهما أن يتجنب الآخر. حتى في روما كان ينسق زياراته مع لبنى لكي لا يلتقيا هناك. ولكن كان يجب مع ذلك أن يتوقع أنها ستأتي الليلة كيف غاب عن ذهنه هذا الاحتمال؟ وما الأهمية ؟ هي في حالها وهو في حاله . يمكن حتى أن يخرج من الكافتيريا إكراما لخاطرها!

مع ذلك تلصص بنظره نحوها في حذر شديد . كانت تفتح كتابا وتقرؤه باتهماك شديد وعلى المائدة باقة الورد.

فكر : طبعا الهانم لا تفوتها الأصول! بنت الأصول تعرف الأصول ! ولكن هل تدخل الخيانة الزوجية ضمن هذه الأصول ؟ منظرها بريئة جدا وهي تجلس هناك منهمكة في القراءة . بريئة جدا وجميلة جدا مثلما كانت طول عمرها. مثل حكاية دوريان جراي. لابد أن لديها مثله صورة في البيت يرتسم عليها بشاعتها وانحلالها بينما تحتفظ هي بقناع هذا الوجه البرئ؛ وإلا فهناك ظلم في أن يظل وجهها بهذه النصاعة والجمال حتى هذه السن! ولكني لا أراها عن قرب . ربما كانت هناك تجاعيد في الوجه. لا يمكن أن تهرب من الزمن!.

في هذه اللحظة رفعت صفاء وجهها والتقت عيناها بعينيه. لم يبد أنها فوجئت. ظلت تنظر نحوه ثم هزت رأسها بإيماءة خفيفة. أو ماء هو برأسه بعصبية ثم حول وجهه على الفور. الهانم مهذبة أيضا! الكلبة! يجب أن أترك لها هذا المكان على الفور. أترك هذه الكافتيريا البشعة واتحد هناك مع عمال العالم ! يمكن احتمال روائحهم وأصواتهم المزعجة اكثر من الوجود مع هذه الهانم في مكان واحد!

وكان يهم بأن يقوم عندما وجد صفاء تقف أمامه وهي تقول بابتسامة صغيرة:

– مساء الخير.

ظل يعتمد بيديه على المنضدة وقد نهض بجذعه وهو يتطلع نحوها ثم عاد إلى الجلوس وهو يقول بلهجة جافة :

– مساء النور . خيرا؟

– لن آخذ من وقتك دقيقة. هل يمكن أن أجلس ؟

أشارت إلى منضدتها التي تركت فوقها كتابها وباقة الزهور ليفهم أنها سترجع إلى مكانها. لم يرد شوكت ولكنها كانت قد سحبت كرسيا وجلست بحركتها الرشيقة متباعدة قليلا عن المنضدة وبدأت تتحدث بلهجة عملية جدا:

– كنت أريد أن أقترح عليك شيئا . إذا وافقت يمكن أن تستقبل لبنى معا بدلا من أن نقابلها بالدور . أعرف أن هذا سيسعدها. لا . هذه كلمة كبيرة . أقصد على الأقل سنعفيها من الإحراج والارتباك.

لا توجد تجاعيد في وجهها بنت الحرام ! لابد وأن التجاعيد موجودة أيضا في صورة دوريان جراي . هذه شيطانة ! لايمكن أن يكون هذا الجمال والبشرة الملساء في هذه السن آدميا!

قال وفي صوته الرخو نبرة عصبية: مادامت لبنى تهمك وتحرصين على مشاعرها إلى هذا الحد فأظن أنك كان يجب أن تفكري فيها منذ زمن طويل . عندما..

نهضت صفاء وقد احتقن وجهها وهي تقول: أخطأت بالفعل حين تصورت أنك يمكن أن تفهم أي شئ ! كان يجب أن أعرف أنك لا تتغير . حقك علي! ثم قامت وعادت إلى مكانها بخطوات مسرعة.

فتحت الكتاب وراحت تنظر فيه دون أن تتمكن من قراءة أي شئ قالت لنفسها حقك علي أنت يا صفاء! لايهم . فعلت ذلك من أجل لبنى . نعم كانت غلطة . أعرف . كانت غلطة وما أهمية ذلك على أي حال؟ تراهما لبنى معا أو تراه أولا ثم

تراها بعده. هي تعرف أن كل شيء منته بينهما إلى الأبد. مع ذلك تمنيت لو توفر عليها هذه الدقائق من الإحراج وهي ترى أمها وأباها متباعدين وتضطر إلى أن تحييهما بالدور . أنا أعرف الآن كل جروح لبنى. لو أمكن أن أعفيها من جرح واحد جديد! مع ذلك فهي لم تعرفها كابنة ولم تعرف نفسها كأم إلا في روما. لا تستطيع أن تغفر لنفسها ابتعادها عنها هذه السنين الطويلة . لا تستطيع حتى أن تفهم السبب . هل كانت تهرب منها لأنها بنت شوكت؟ وماذنبها؟ هي في النهاية كما كانت تقول دادة سنية «بنت بطني» البنت الوحيدة . هل كانت تخاف أن تعرف لبنى الحقيقة؟ ما الجريمة في هذه الحقيقة؟ صدقي أنقذها بالفعل من الجنون مع شوكت . أنقذها من الانتحار. قبلت شوكت على علاته من أجل لبنى ولكنه أحال حياتها جحيما منذ أن صارحته بحالها معه. لا تدري هل كان يعاقبها أو يعاقب نفسه لفشله بتلك المشاجرات والإهانات المستمرة يوما بعد يوم. ماذا كانت ستفعل لولا صدقي؟ ظهر في الوقت المناسب بالضبط . عندما استولت عليها فكرة الانتحار للهروب من جحيم الحياة مع شوكت.

رأته في البيت لأنه كان يستورد معدات المستشفى من أجل شوكت، وكثيرا ما كان يأتي قبل وصول الدكتور فتجلس معه في انتظاره . وعندما كانت تتكلم كان يميل قليلا بجسمه الضخم وينصت لها وعلى وجهه تعبير اهتمام واحترام مبالغ فيه فتوشك أن تضحك . هذا قبل أن تكتشف أنه لا يتكلف هذا الاهتمام، وأنه يعطي كل نفسه بالفعل لمن يحدثه، سواء كانت هي أو شوكت أو أي إنسان آخر. لم تعرف في حياتها قلبا محبا للناس مثل هذا القلب . وبدأت تفتقده حين يغيب وتستقبله بلهفة حين يأتي. وبدأ هو أيضا يهرب بنظراته منها ويحتقن وجهه الأحمر من الأصل حين يتواجهان. وسألته مرة وهما في انتظار شوكت: لماذا لم تتزوج حتى الآن يا صدقي بك ؟ فأشار إلى صلعته ووضع يده على كرشه وقال ومن التي ترضى بي يا دكتورة صفاء؟ فقال دون تفكير : أنا!

لا . هي ليست نادمة . صدقي هو أفضل شيء حدث في حياتها بعد لبنى . وكان عزمها قد استقر على الطلاق واتفقت عليه مع صدقي من قبل تمثيلية شوكت. وفر عليها بهذه التمثيلية أشياء كثيرة، لكنه حرمها من لبنى . إن تكن هي قد تركت جرحا في نفس ابنتها فهي لم تعرف عمق الجرح الذي خلفه غياب لبنى عنها إلا بعد أن سافرت إلى روما ولحقت هي بها على الفور هناك لترى ابنتها المريضة. أصابها الانهيار العصبي في السجن ونقلها شوكت من هناك إلى المصحة . شاهدت عذاب ابنتها في هيستيريا الانهيار التي تعرفها جيدا من دراستها وتعرف أنه ما من إنسان يستطيع أن يساعد غيره على الخروج منها . ظلت مع الطبيب دقيقة بدقيقة تتابع العلاج وتتابع ابنتها دون نوم ولا راحة حتى كادت هي نفسها أن تسقط.. ولازمت لبنى بعد ذلك أسابيع في نقاهتها. لم تكتشف كل الحب الذي كانت تختزنه لابنتها وتكبته إلا هناك وهي تراها ضعيفة ومريضة في تلك الثياب البيضاء، راقدة على فراشها في المستشفى . الكم تحبها . ولكم هي نادمة على كل الوقت الذي ضاع منهما!

لم تنتبه الدكتورة صفاء، إلى الدموع التي كانت تتساقط على الكتاب المفتوح لكنها انتبهت فجأة إلى شوكت يقف أمامها فمسحت دموعها بسرعة ونظرت إليه بشيء من التحدي.

قال لها وهو يضع يده على المنضدة : أنا آسف لمقاطعتك ولكنهم أعلنوا عن وصول الطائرة. إن كنت مازلت تريدين . فأنا.. من أجل لبنى.....

هزت رأسها وقالت دون أن تنظر نحوه وهي تشير بإصبعها إلى باب الكافتيريا: سأكون عند بوابة الاستقبال..

ابتعد عنها ورآها تخرج من حقيبتها علبة الزينة، وقال لنفسه وهو يخرج دموع التماسيح! جرحت مشاعر الهانم بكلمتين. كأنما لديها بالفعل مشاعر !..

وقفا متجاورين عند بوابة الخروج من المطار دون أن يتبادلا كلمة . كانت صفاء تتطلع بلهفة إلى وجوه الخارجين وتشرئب بعنقها حين ترى زحاما من عربات الحقائب التي يدفعها القادمون . ولكن لبنى تأخرت كثيرا داخل المطار عن بقية الركاب في طائرة روما . وكان الدكتور شوكت يفتش بعينيه أيضا عن لبنى وينظر في ساعته كل دقيقة. غير أنه كان يتلصص بنظره بين حين وآخر إلى صفاء الواقفة إلى جواره والتي لم توجه له كلمة ولم تنظر نحوه مرة واحدة. وقال لنفسه «تتجاهلني ! كأنما لم تكن هي التي طلبت أن أصحبها ! ولكنها تخجل بالطبع أن تنظر في وجهي...»

بعد أن انقطع زحام ركاب الطائرة ، ظهرت لبنى وحدها وهي تدفع أمامها عربتها ، بدا في وجهها شيء من الدهشة وهي ترى أمها وأباها يقفان معا. عانقت أمها بعد خروجها ، وكانت الدكتورة صفاء ترتجف تقريبا وهي تحتضن ابنتها ثم ناولتها باقة الورد واستدارت تمسح دموعها . وقبلت لبنى أباها في وجنتيه.

ابتعدت لبنى عنهما قليلا، وسألت بهدوء : دادة سنية؟

تبادل صفاء وشوكت نظرة سريعة ثم نظرا نحو لبنى دون رد.

قالت لبنى بهدوئها نفسه : كنت أعرف (ثم نظرت نحو أمها) منذ انقطعت عن الحديث عنها في الرسائل والتليفون فهمت. ولكن بقي عندي مع ذلك شئ من الأمل..

أطرقت لبنى وقد تدلى ذراعها الذي يحمل باقة الورد . همت صفاء أن تحتضنها من جديد ولكنها قدرت أنها تستطيع أن تشاركها حزنها ولكنها لن تستطيع أن تحمله بدلا منها في هذه اللحظة . فأمسكت بذراع ابنتها وهي تقول : سأتركك ترتاحين الليلة يا لبنى وسنتحدث غدا..

ثم قالت بلهجة عادية وهي تنصرف : سلام يا دكتور شوكت .

***

في السيارة كان شوكت يختلس النظر إلى لبنى التي جلست إلى جواره صامتة تتطلع للطريق . تغيرت كثيرا في هذه السنوات الثلاث . لم تعد الطفلة التي سافرت. هي الآن امرأة جميلة، أكثر امتلاء ، وقد أصبح وجهها أميل للاستدارة . والزينة التي تضعها تبرز جمال ملامحها. كل هذا حسن، ولكن لماذا صبغت شعرها باللون الأسود ولماذا تركته يسترسل؟ تتشبه بأمها؟ أتمنى أن يقتصر هذا على الشعر ! أتمنى أن تكون قد أصبحت أعقل يجب أن تخرجها من هذه الحالة التي استولت عليها منذ سمعت عن مربيتها ويجب أن أطمئن عليها على كل حال.

حاول أن يجعل لهجته عادية وهو يقول : هل تعرفين يا لبنى أن القضية التي أخذوك من أجلها مازالت في المحكمة؟ أفرجوا عن زملائك ولكن القضية مازالت..

التفتت نحو والدها: أعرف . كانت تصلني كل الأخبار في روما..

– ولكن أنت الآن لا علاقة لك بهذه المسائل بالطبع ؟ قلت هذا لسيادة اللواء وأوصى بنفسه في المطار لكي لا تواجهي أي مشاكل في الدخول.

ابتسمت لبنى ابتسامة صغيرة: ولكن المشاكل حدثت مع ذلك يا أبي! أخذوا جواز سفري ، وفتشوا كل حقائبي وأخذوا كل الأوراق التي معي قبل أن يسمحوا لي بالخروج.

انتفض الدكتور شوكت في مكانه وقال : كيف ؟ سيادة اللواء وعدني بنفسه..

– لايهم يا بابا. خرجت في النهاية وهذا هو المهم.

قال فيما يشبه الغضب : ولكنه وعدني. المفروض أنه مدين لي . عالجت له زوجته.

رفعت لبنى يديها وهي تقول : كما ترى!

لكن الدكتور أكمل غاضبا: كان المفروض أن يأتي بنفسه لينتظرك ويسهل خروجك. أنت لا تعرفين كم هو مدين لي . زوجته كانت في حالة ميئوس منها لولا ما فعلته لعلاجها..

ظلت ابتسامة لبنى على شفتيها ولكنها قالت بشيء من نفاد الصبر:

- لماذا لا تتغير يا أبي؟

قال متعجبا: أتغير ؟ كيف؟

- أنت الأدرى . سامحني.

فكر شوكت : أتغير! هذه كلمة أمها .إذن هي لم تصبغ شعرها فقط ولكنها صبغت أفكارها أيضا.

قال : بالطبع . لا توجد عندي مشكلة لأتغير . ولكن أنت ؟ هل غيرت أفكارك التي انتهت بك إلى السجن؟ هل سترجعين مرة أخرى إلى هذا اللعب؟

- لا، لن أرجع.

تنهد الدكتور شوكت في ارتياح: عين العقل.

- أو عين الجبن! لكنني لن أرجع.

لم تقل له إنها في روما اقتنعت تماما بأن ما يقوله زملاؤها في مقالاتهم ومنشوراتهم أقل من الحقيقة . رأت في بيت زوج عمتها الدبلوماسي تجار الانفتاح الذين كانت تسمع عنهم . اعتاد أن يدعوهم للعشاء ، وبعد أن يأكلوا ويشربوا عدة كؤوس من الويسكي يفك عيارهم وتنطلق ألسنتهم . يتبادلون الخبرات عن كيفية تهريب الشحنات من الجمرك، وعن أماكن شراء البضائع (المضروبة) من إيطاليا وتمريرها على أنها بضائع صالحة . وعن أضمن الطرق لتهريب العملات، ومن الذي يجب أن يدفعوا له في البلد..! كانوا يتباهون أيهم (أشطر) من غيره ويتكلمون بصراحة تدهشها لايشعرون بخجل مما يقولون ولا يفهمون حتى مدى البذاءة والإجرام فيما يقولون .

ولكن ما أدهشها أكثر أن زوج عمتها الدبلوماسي المثقف يصبر على سماع أحاديث هؤلاء اللصوص الذين كانوا بلا استثناء حفنة من الجهلة، وأنه يضحك على نكاتهم الفجة ويتبادل المزاح معهم. في البدء اعتقدت أن هذا جزء من عمله،

أنه ربما يجمع معلومات أو شيئا من هذا القبيل، ولكن لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أنه شريك . يتبادل المصالح معهم.

لهم كل الحق هؤلاء الطلبة، حتى ولو كانوا لايستحمون ! ولكنها الآن تعرف حدودها. تتمنى لهم حظا طيبا ولكن من بعيد!.

جلس الدكتور شوكت إلى جوارها مستغرقا في التفكير هو أيضا. بدا عصبيا وهو يعطي أوامره للسائق طول الوقت أن يسرع . بدا متعجلا ولكنه كان يفكر في الحقيقة في شيء آخر: الآن يجب أن يتلقى النصائح من ساقطة وطفلة!

هزلت بالفعل!... ثم إن هناك شيئا بذيئا في أن تكون امرأة في هذه السن بمثل هذا الجمال!.

***

في البيت تلفتت لبنى حولها وقالت لنفسها رجعنا إلى بيت خال . لا دادة سنية ولا عم حسن. ربما يكون الله قد رحمهما بالموت. كيف كانا سيعيشان في هذا العصر السعيد؟ دادة سنية كانت أمها سترعاها بالتأكيد ولكن عم حسن؟ حتى قبل أن تسافر إلى روما كان يوسطها لدى الدكتور لزيادة مرتبه لأن المرتب لم يعد يكفي لمصاريف البيت وتعليم الأولاد. هل سأل الدكتور شوكت عن هذه الأسرة بعد وفاته ؟ يجب أن تعرف.

ذهبت إلى غرفة دادة سنية. لم يكن هناك سريرها ولا (الكنبة) التي كانت تتربع فوقها . حولها الدكتور شوكت إلى مخزن لتحفة الجديدة. في وسط الغرفة كان تمثال خشبي فوق حامل لرجل طويل نحيل محني الرأس. كان يقلد أسلوب (جياكوميتي) الذي تحبه. ولكن بدلا من الرشاقة والتوازن والشموخ في تماثيله كان هذا يشبه تمثالا لرجل مريض . كان تمثالا مريضا. حولت بصرها عنه. ورأت الدادة تجلس فوق الكنبة بطرحتها البيضاء، ورأت البسمة التي كانت تنير وجهها المتغضن حين تراها: أهلا يا لبنى يا حبيبتي . لا ! ذاك انتهى . لا الكنبة ولا دادة

ولا حتى لبنى! لبنى انتهت من زمن . منذ متى ؟ منذ السجن؟ منذ المصحة؟ قبل ذلك في الليلة التي سبقت السجن؟ المهم أنها انتهت.

ذهبت إلى غرفتها. هناك وجدت كل شئ في مكانة. رأت سريرها ومرآتها ومكتبتها الصغيرة. لا. حتى هذه الأشياء ماتت في داخلها . هي لا تشتاق إلى شئ حقا. عالجوها جيدا في مصحة روما. علمها الطبيب الذي رافقها شهورا ولم يكن يكف عن الكلام أن تنسى الخوف وتنسى معه كل شيء. آخر عالجها بالبقاء في حمامات السباحة ساعات كل يوم؛ ولم يعد يأتيها غثيان المعدة ولا الدوار ولا ارتعاش الساقين. لم تعد هناك وساوس ولا هلاوس. قال لها الطبيب شيئا قريبا مما قالته أمها: إن الإنسان ينضج ويصنع نفسه بالصراع ضد ماضيه. لكنها لم تصنع نفسها أبدا. ولم تصارع أي شئ . صارع الطبيب نيابة عنها وصنعها ضد ماضيها ومستقبلها معا! الآن لاخوف ولا طمأنينة. لا حزن ولا فرح . لا حب ولا كره . لا إفراط ولا تفريط! ستعيش في الوسط المريح. مثلها مثل كل الناس.

وسالم؟ سالم كان عيدا وانتهى . كان كابوسا وانتهى . كان ما كان وانتهى.

والدكتورة صفاء ؟ تعرف الآن كم تحبها . تشفق لبنى عليها وهي ترى عواطفها الجارفة وترى كل ما تفعله لتسترد أمومتها. وهي أيضا تحبها. ولكن الطيبة وصلت مع الاسف بعد وفاة المريضة!

جلست لبنى على السرير ونظرت إلى صورتها في المرآة مثلما اعتادت أن تفعل في القديم، وقالت لنفسها بابتسامة صغيرة: والآن ماذا ستفعل في كل هذه البهجة؟

***

صرف الدكتور شوكت الطباخ الجديد عندما قالت لبنى إنها لن تتعشى وإنها مجهدة من السفر وتود أن تنام . دخل هو بدوره إلى غرفة مكتبه واتصل بالمرضة:

لن يذهب إلى العيادة في هذه الليلة وعلى المريضات الاتصال غدا لتحديد مواعيد جديدة.

جلس إلى مكتبه وأخرج زجاجة الويسكي من مخبئها الذي وضعها فيه قبل مجئ لبنى . لا . لم أخطئ ليس هذا نفاقا يجب ألا تهتز صورة أبيها أمامها. أنا لست سكيرا على أية حال . أشرب فقط لأريح أعصابي من إجهاد العمل.

صب لنفسه كأسا وجلس إلى مكتبه .. ولكن أي إجهاد يريد أن يرتاح منه الليلة بالذات وهو لم يعمل أبدا؟ إذن فلنعمل!

اتجه الدكتور إلى مكتبته وأخذ منها أحدث مجلة طبية متخصصة في طب النساء، وصلته من لندن ثم رجع إلى مكانه وبدأ يشرب من الكأس في جرعات كبيرة على غير عادته.

فتح المجلة وقرأ قائمة المواد ثم اختار الموضوع الذي يهمه . انتهت الكأس فصب لنفسه كأسا جديدة، راح يتأمل الصورة الموجودة في صدر الموضوع بالألوان.

رغم دراسته وعمله وكل من عرف من النساء، فهو لم يستطيع أبدا أن يتغلب على نفوره من هذا الشكل . هذا الجرح المستطيل الذي لايندمل. هل يكون تقززه القديم العهد من أيام الدراسة هو السبب في....

لا ! لا داعي لهذه الأفكار التي لا تقود إلى شئ . فلنعمل.

لكن العمل لا يأتي . كان يقرأ ويعيد قراءة ما سبق دون أن يستوعب شيئا . وانتهت الكأس الثالثة بسرعة أيضا . أغلق المجلة بحركة عصبية . ربما الأفضل لو خرج. يذهب إلى مكان يلتقي فيه بناس آخرين ويشرب وسط زحام . أحسن من ذلك أن يلتقي بأي واحدة من صاحباته ويقضي معها الليل . ها هو التليفون. يمكن أن يجرب لكنه راح ينظر إلى التليفون دون أن يمد يده إليه. وصب لنفسه الكأس الرابعة بيد ترتعش.

ماذا بك يادكتور شوكت ؟ لماذا كل هذا الهم في داخلك؟ طبعا لأنني رأيت صفاء ! ولكن لماذا؟ أنت تعرف أنها موجودة طول الوقت وتعيش معك في نفس المدينة . كان يمكن أن تراها في أي لحظة . نعم ولكنها أعادت لي ذكرى ذلك اليوم التعيس . أنت لم تنسه أبدا على كل حال. الساقطة !.. نعم أعرف . أعرف ساقطة وجميلة. جميلة جدا وساقطة . كانت ملك يدك على أي حال. أنت استمتعت فعلا بامتلاك هذا الجسد الخارق فترة من العمر . ولكن هل استمتعت كما يجب؟ وهل استمتعت هي؟

ساقطة . ساقطة . يكفي يا أخي ! وأنت ماذا بالضبط ؟ قالت إنك يجب أن تتغير، صفاء قالت ولبنى قالت.

يتغير ! ضحك لنفسه بصوت خافت وهو يرشف الآن من الكأس الجديدة ببطء وقد بدأ الدوار . طظ فيها وفي بنتها! أنا شوكت ابن شوكت!

ضحك مرة أخرى ووضع يده على فمه . طظ في شوكت ابن شوكت ! لماذا تهتز هكذا يا دكتور لمجرد أنك رأيتها ؟ تعال نقل الحقيقة. هل مازلت تحبها؟ إن يكن ذلك كذلك فعليك العوض يا شوكت يا ابن شوكت ! عليك أن تذهب إلى مصحة لبنى في روما. الأسهل أن تنتحر . هذا أيضا تغيير يا دكتور!

وما الذي تغير ؟ يجب أن تعترف، نعم أنت كنت تعرف نفسك من زمن طويل تعرف . حاولت أن تعالج نفسك بأدوية من مصر وبأدوية من لندن ومن فرنسا ومن واق الواق، وكنت تسمع متظاهراً بعدم الاكتراث إلى النصائح والتجارب التي كان يتبادلها أصدقاؤك في جلسات الرجال ، وإلى أقوال هؤلاء الكذابين «بالأمس طول الليل..» ! الكذابون!

ضحك لنفسه مرة أخرى بصوت مسموع. أنا لم أكن أريد طول الليل! عشر الليل ، واحد على عشرين من الليل ! عشر دقائق من الليل ! خمس ، لا بأس ! ولكن لا فائدة ! البداية هي النهاية!

ولكن ماذا عن الأخريات ؟ لم يكن يشتكين . قبلنه على حاله.

على من تكذب يا دكتوووور؟! كنت تجذبهن بوسامتك وشهرتك وهداياك الغالية فلماذا لم تبق أي واحدة منهن معك أكثر من أسابيع؟

طظ ! أنا لم أكن أريدهن أيضا! ماذا كنت تريد إذن ؟ نعم؟

أنا لم أرد واحدة غير صفاء ! لو أنها ساعدتني بدلا من أن تخونني . فربما ..

مسح دموعا من خده وهو يقول لنفسه أنت سكرت يا دكتور شوكت يا ابن .. يا ابن الـ ..!

مد يده إلى التليفون وطلب الرقم . يجرب معها العلاج الأمريكاني الجديد! طول الليل! ها ها ها! وماذا لو رد عليه صدقي الخنزير؟ لكنها هي! هذا هو صوتها:

– ألو؟

– هذا أنا .. أنا شوكت ابن ..

ثم سكت واحتبس صوته.

تصلب صوتها هي: نعم . ماذا حدث؟ لبنى بخير؟

– لبنى ؟ نعم، نعم، لا . أنا أبو لبنى. أنا لست بخير . إسمعي، من فضلك هل يمكن أن أراك ؟ يعني .. من فضلك!

قالت بهدوء : أنت سكران يا شوكت. صوتك يقول إنك سكران جدا فلا تتكلم الآن.

– نعم ؟ لماذا من فضلك ؟.. على الأقل مرة ! على الأقل أنا كنت زوجك عندما ذهبت إلى صدقي ! لماذا صدقي من فضلك وأنا لا ؟ على الأقل مرة!

كررت : أنت سكران ولا تعرف ما تقوله يا شوكت..

– على الأقل...

احتد صوتها فجأة : يا مجنون ! لو انقرض صنف الرجال كله من العالم ! على الأقل احترم انت ابنتك في ليلة عودتها . يا مجنون!

- ابنتي ؟ ملعون أبو ابنتي ! أنا أقول على الأقل مرة ... من فضلك!

لكن صفاء كانت قد وضعت السماعة في غضب ولم يكن هناك على الطرف الآخر غير صفارة ومد شوكت يده المخمورة في استماتة إلى التليفون ليطلب الرقم من جديد فسقط الجهاز على الأرض في ضجة ورنين وحين نهض ليلتقطه وجد نفسه يترمع ويتعثر فظل واقفا لحظة وهو يمسك رأسه بين يديه ويعصر جبهته.

ظل يقف فترة محاولا أن يتماسك نفسه وهو يقول: ابنتي، ابنتي؟ هناك شئ قالته عن لبنى، ما الذي قالته بالضبط ؟ يجب أن أرى لبنى..

طرق باب ابنته ففتحت له وكانت بثياب النوم.

وقف مترنحا بالباب فقالت بانزعاج : بابا ؟ هل حدث شئ؟

- نعم ، ولكني لا أذكر بالضبط ما هو!

وقف مستندا بيده إلى الحائط وقال : أنت الآن تشبهين أمك يا لبنى فهل.. ثم هربت منه الفكرة التي كانت تتشكل في رأسه فقال فجأة:

- إسمعي يا لبنى .. هل أنت تحبين الولد.. الولد المخبول الذي جاء إلى عيادتي يوم قبضوا عليك..

- أي ولد؟

- الولد .. الولد (الحليوة) الذي .. الذي كان يريد أن يعتذر لك وأنت في السجن! هئ .. هئ..

- سالم؟ هل جاء إلى العيادة . لماذا لم تقل لي؟

لم يسمع فاكمل: جاء جده أيضا بعد سفرك وقال إن الولد جاءته حالة نفسية، لا حالة ولايحزنون ، أظن أنه مجنون من الأصل لكن من فضلك أنا أسألك هل أنت تحبينه بالفعل؟ هو من أسرة مجانين بالطبع جده أيضا مجنون، جاء إلى وشتمني في العيادة أنا شوكت ابن ..

- من فضلك تسكت يا أبي . أنت لا تعرف الآن ما تقول . أرجوك أن تذهب إلى غرفتك أريد أن أنام.

- لحظة من فضلك . أنت لا تفهمين . من فضلك.. مجنون . عاقل . قاتل. أنا أسألك هل تحبينه؟.. أقصد ما الذي يمنع يعني؟ إن كان الحب يحتمل الخيانة فلماذا لايحتمل الجنون؟ الشئ الوحيد المهم في الموضوع يا لبنى.. أبي.. جدك يعني ، كان عنده مثل يحبه «كلب أبيض وكلب أسود الاثنين ولاد كلب» هئ ! هئ!.. يعني كلب دكتور وكلب مجنون ما الفرق ؟ أقصد يا لبنى .. من فضلك ..!

ازاحت لبنى أباها من الباب بعنف وهي تقول في غضب : من فضلك أنت ! إذهب إلى غرفتك الآن. أنا أريد أن أنام!

ثم صفقت الباب وأغلقته من الداخل بالمفتاح . أفاق شوكت قليلا مع ضجة إغلاق الباب ووقف يتساءل في ذعر : ماذا حدث بالضبط ؟ يجب أن أذهب إلى الحمام!

***

في الصباح كان الدكتور شوكت ولبنى على مائدة الإفطار في الموعد. كان وجهه شاحبا قليلا ويشعر بصداع.

سأل ابنته: هل نمت جيدا يا لبنى ؟ هل ارتحت من السفر؟

تأملته قليلا وهي تقول: نعم، شكرا.

- هل ستخرجين اليوم؟

- لا أعرف . اسمع يا أبي : لماذا لم تقل لي من قبل ان سالم مر عليك في العيادة..

- من هو سالم؟

- زميلي، الذي قلت إنه جاء وجاء جده أيضا إليك في العيادة.

قال بشئ من الدهشة : أنا قلت ذلك ؟ آه ، بالفعل جاءني يوم القبض عليك ولد مخبول قال كلاما غريبا . لا أظن أن أمره يهمك فى شئ . أقصد لايستحق أن تهتمى به. ربما أكون قد قلت لك لا حذرك منه ومن جده المجنون ولكن متى حدثتك عنهما؟

لزمت ليلى الصمت ثم انفجرت فجأة بالضحك وقالت :

– أنت لا تتغير يا بابا إلا إذا....

– إلا إذا ماذا؟

– إنس ! المهم، هل جددت اشتراك النادى هذه السنة باسمى؟

– ما العلاقة بين هذا و.. بالطبع أرسل من يجدد الاشتراك كل سنة . لماذا تسألين الآن؟

– لأننى يجب أن أواصل السباحة ؛ وربما يجب أن تسبح أنت أيضا يابابا!

– لماذا؟

– لأننى ابنتك ولأنك أبى!

قال الدكتور لنفسه وهو يرتشف القهوة: لولا أنك تشبهينني لما صدقت!

***

(٤)

افتقد الباشكاتب صحبة سالم الذى أصبح الآن مثل شعبان يقضى النهار كله فى العمل ويستبقونه فى المطعم أيضا جزءا من الليل . وطلب من حفيده ولكن دون إلحاح أن يوفر وقتا للمذاكرة ليدخل امتحان الكلية . غير أن سالم لم يبد أى حماس لذلك . فاضطر الباشكاتب أن يقدم من جديد شهادة مرضية لإعفائه من الامتحان سنة أخرى . وكانت تلك إحدى المرات النادرة التى خرج فيها بعد عودة فوزية إلى بيتها . اعتادت حفيدته أن تأتى كل ظهيرة لتعد له الغداء وتبقى معه حتى يدخل ليرتاح قيلولته . وفى المساء يقضى وقتا قليلا مع سالم وشعبان . وفيما عدا ذلك كان يقضى معظم وقته فى غرفته .

أصبح الباشكاتب يجد صعوبة فى صعود السلم . مع أن الجيران كانوا حين يسمعون إيقاع عصاه يخرجون له مقعدا فى كل دور ليرتاح قليلا على (البسطة) قبل أن يواصل صعوده . قل خروجه من البيت . وقلت أيضا حاجته إلى النوم فأصبح نعاسه متقطعا وصار يقضى وقته كله فى العبادة والقراءة . يؤدى الفرائض والنوافل . ويكرر الفرض الواحد أكثر من مرة ليعوض ما فاته فى السنين الضائعة .

وانهمك الباشكاتب أيضا فى قراءة الكتب التى أعطاها له أبو خطوة مرة بعد أخرى حتى كاد يحفظها . وكان يلوم نفسه لأنه مع حرصه على التزام وصاياها ظل يهمل أهمها جميعا . ويفكر أحيانا : الذنب ذنبك يا سيد إن كانت البشرى تراوغك ! كيف تريد الوصول وأنت تعطى نفسك رخصة وإجازة من التقيد بالعزلة اللازمة لتنقية روحك وتصفيتها من كل كدر ؟ يقول لنفسه فى الواقع أنا أعيش

نصف عزلة ولكنها إجبارية ! لا فضل لى فيها منذ أصبح الخروج من البيت مشقة لا تحتمل، والتعود على الجوع والعطش اللازم فى العزلة لقهر الجسم جاء اجباريا أيضا . أملاه المرض لا العزم ! ثم إنك لم تقو على أن تهجر الناس الذين تسميهم الكتب «السوى» لكي تفرغ لنفسك وحدها فتتأملها وتصل إلى حقيقتها .

ثم كيف تدخل بالفعل هذا العالم من السكينة وعقلك لا يكف عن التفكير وعن السؤال ؟ أنت تلميذ خائب يا حضرة الباشكاتب ! تريد أن تذاكر الدروس السهلة وتؤجل الصعبة ! تلميذ عجوز جدا وخائب جدا لم يبق لديه وقت لتأجيل الامتحان !

وتكاثرت أحلام الباشكاتب وسط نومه المتقطع واختلطت بأحلام يقظة كان يخاطب أثناءها أحياءه بصوت مسموع . وفى فترات صحوه كان يحاول أن يفهم مغزى تلك الرؤى واثقا من أن الأحلام رسائل . ألم تكن هذه الأحلام هى التى ضاعفت أمله بعد أن تحققت رؤياه لولده وحفيدته ؟

زارته سمية وزاره أبو خطوة عدة مرات . اعتادت سمية أن تأتيه مبتسمة كما لو كانت فى صحراء أو فى خلاء واسع ثم تستدير مشيرة بيدها إلى ذلك الفضاء الذى لا يرى نهايته ولا أفقه فتظهر فيه وجوه كأنه يعرفها وإن لم يستطع أن يميز أصحابها . ويسأل توفيق نفسه هل تشير سمية بهذا الفضاء إلى الأجل ؟ إلى اقتراب النهاية ؟ هذا يفهمه جيدا ولا يحتاج إلى سمية لتدله عليه . فأى رسالة أخرى تريد أن تبلغها له ولماذا لا تتكلم ؟

أبو خطوة ، على العكس ، كان يتكلم كثيرا حين يزوره . يأتيه كما رآه آخر مرة بشعره الأشيب وعينيه النفاذتين وابتسامته المرحة . يذكر جيدا حين جاءه مؤنبا ذات ليلة وكرر عبارة سمعها منه من قبل «ليس بعقلك ولا حتى بقلبك ولا بنفسك . وإنما عندما تنسى ذلك كله يا توفيق . حين تريد ألا تريد فترى نفسك وترى النور فى قلب الظلام» . سأل الباشكاتب صاحبه فى لهفة : إذن فما هى العلامة ؟ فكرر عليه : أن ترى النور فى قلب الظلام .

قال الباشكاتب وكيف أراه فى قلب الظلام ؟ فرد صاحبه : سيبدد ضوءه ظلمة الليل والنهار . سأله : وفى النهار ظلمة ؟ فرد: أشد حلكة من الليل .

***

بعد كل مرة كان الباشكاتب يخرج فيها ويعود وهو يلهث مجهدا من السير ومن صعود السلم كان يلزم البيت متسائلا عما يدعوه إلى الخروج واحتمال هذا العذاب . ولكنه بعد أن يقضى فى البيت عدة أيام . كان يتجول قلقا فى البيت الخالى متنقلا من غرفة إلى غرفة . يذكر نفسه بحالته وبما قاساه فى المرة الماضية وبأن الأفضل أن يبقى مكانه لينفذ نصيحة الطبيب بعدم التعرض للإجهاد، ولكن صورة الميدان والمسجد والناس الذين يلقاهم هناك لا تفارق ذهنه رغم كل ما يحاوله . فيعود إلى غرفته فجأة ويرتدى ثيابه وينزل وقلبه يخفق فى انفعال طفل صغير ذاهب ليلعب .

ولكن كما جاء الجوع والعطش اجباريين للباشكاتب فكذلك جاءته العزلة الكاملة التى طال تهربه منها .

ففى إحدى مرات خروجه القليلة كان يصعد السلم فى الطابق الثانى مبطئا كعادته وغارقا فى التفكير كعادته . وكان يؤنب نفسه الآن لخروجه وهو يفكر فيما بقى له من درجات السلم . حين انزلقت العصا من يده فجأة وهوت فى الفراغ بين درجتين فانزلق هو أيضا وتدحرج على السلم . ظل راقدا على ظهره على (البسطة) وهو يتأوه . وحين حاول النهوض مرة أخرى معتمدا على يديه . لم يستطع أن يحرك ساقه فصرخ يطلب النجدة .

حمله الجيران إلى البيت وظلت ساقه فى الجبس عدة أسابيع وقالت فوزية لنفسها فى حزن وهى تنظر إليه يتمدد شاحبا فى فراشه : كأنما لا يكفى السكر والضغط والدوار وقلة الأكل . الآن هاهى ساق مكسورة أيضا !

***

أصبح من الضرورى بعد ذلك أن تقيم فوزية مع جدها لترعاه . فكان فراج يأتى إلى البيت ويتناول وجباته هناك إلى أن يرجع شعبان أو سالم فى المساء فيصطحب زوجته وولده إلى بيتهم القريب . غير أن فوزية كثيرا ما كانت تصر على أن يقضى الليل معهم فى بيت جدها فيستجيب لطلبها .

وطلب سالم أن يعمل فى وردية المساء ليبقى مع جده أطول وقت ممكن . كانت حالة الجد تقلقه بعد أن تكررت نوبات الدوار عندما تحررت ساقه من الجبس : جاء الطبيب إلى البيت فضاعف جرعة الإنسولين التى يتعاطاها الباشكاتب ، ووصف أدوية جديدة لضغط الدم ثم نصحه بالتزام الراحة والتقيد الدقيق بنظام الغذاء .

وقالت فوزية لسالم : انصح جدك يا سالم بأن يأكل . تعبت معه فى الكلام لكنه لا يكاد يذوق الطعام . أعرف أن لا يحب المسلوق ولكن هذا ما أمر به الطبيب. كلمت عم مرعى ليعطينا وصفة لفتح شهيته على الأقل فقال لى يا بنتى فى حالة جدك يجب الالتزام بأوامر الطبيب . خلط العلاج لا يفيد . لا حل يا سالم غير أن يأكل ماهو موصوف له . انظر كيف صار جلدا على عظم !

اشتد هزال الباشكاتب بالفعل ، وتهدل جلد وجهه الذى كان عريضا حتى تدلى فى طيات كالزوائد إلى جوار ذقنه . لكن عندما حدثه سالم عن ضرورة أن يأكل كما ينبغى وهو يشير إلى نحوله رد عليه جده ردا لم يفهمه ؛ إذ قال :

– هل أصاب النحول إذن هذا الجسم وحلت به الأمراض ؟ تلك عطايا يا سالم: كيف أعرف بدونها أنى ألقى ما أستحق من العقاب ؟ كيف أعرف أنى ربما أستحق الرحمة ؟

قال سالم محتجا : ولماذا تستحق العقاب يا جدى ؟

اغرورقت عينا الباشكاتب بالدموع : بسبب ما فعلته بنفسى بسبب ما فعلته بك وبشعبان وبفوزية .

– ولكن يا جدى أنت .. أنت لم تفعل غير كل خير . كيف تقول هذا الكلام ؟ نحن كلنا نحبك وندعولك .

– إذن فلا تدع لى ياسالم بالصحة . بل ادع لى باقتراب النور .

– أى نور يا جدى ؟

فقال جده وهو يتطلع إلى نقطة ثابتة فى الغرفة . النور العلامة .. ولم يكمل .

سأل سالم وحيرته تشتد : علامة على ماذا ؟

– ستعرف أنا وأنت حين يظهر . ربما يا سالم حين تزيد فى هذا الجسم العطايا . ثم خبط رأسه بقبضته وهو يقول : وحين يكف هذا التعيس عن طرد النور!

بعد ذلك صار الباشكاتب يقضى كل وقته فى غرفته . كان يطفئ النور بالليل ويغلق الشيش بإحكام فى النهار وترتفع صلواته وأدعيته بصوته المتهدج .

وكان يجلس فى الظلمة ينتظر . ولكن أبو خطوة ظل يأتيه مؤنباً دون أن يفهم السبب .

***

لم يعد الباشكاتب يقرب الطعام إلا حين ترغمه فوزية وتضعه بالقوة فى فمه . وكان ذلك ضروريا على أى حال لأن يده المرتعشة صارت عاجزة عن حمل الطعام والشراب . كان يلوث ثيابه إن حاول أن يأكل بيده .

لزم الباشكاتب غرفته بإرادته وبغير إرادته بعد أن صار يعرج على ساقه المصابة ويتألم من السير عليها بضع خطوات . لم يعد يستطيع الخروج ولا حتى

لصرف معاشه الشهري الذي كانت الأسرة بحاجة إليه لتكاليف علاجه وللمساعدة في مصاريف البيت . فاضطر شعبان أن يحصل من والده على توكيل شامل للتصرف نيابة عنه . وجاء موظف من الشهر العقاري إلى البيت ليحصل على توقيع الباشكاتب على التوكيل . وافق على ما طلبه شعبان دون نقاش . كل ما كان يعنيه هو أن ينهوا إجراءاتهم بسرعة وأن يتركوه لخلوته .

الوحيد الذي لم يكن الباشكاتب يضيق بصحبته هو سالم . كان يجلس مع جده في أوقات فراغه من العمل ، يراقبه في صمت ويلبي له ما يطلبه . يسنده حتى الحمام ويقف إلى جواره ليساعده حين يتوضأ . يفرش له سجادة الصلاة ويضع له مقعدا ليصلي عليه بعد أن تعذر عليه الركوع والسجود ويصلي سالم وراءه . ويستمع إلى الأدعية التي يرددها جده ويكررها معه .

غير أنه في معظم الوقت كان يجلس صامتا على عادته .

حاولت فوزية أن تجعله يتكلم بعد أن استرد نفسه . حكى لها جدها القليل الذي يعرفه عن لبنى وعن علاقة سالم بها . وفكرت أنها لو جعلته يبوح بما في صدره فسيساعده ذلك على اكتمال شفائه . لكنها حين فتحت معه الموضوع بصورة عابرة ابتسم ابتسامته المحايدة وقال :

– هذه حكاية وانتهت يا فوزية .

فقالت فوزية بلهجة مازحة : كيف انتهت يا سالم ؟ يقول جدي إن الحب التقاء أرواح وأنا أعرف هذه الأرواح . أعرفها تماما . هي أرواح (الزقة) ! إن جاءت فهي لا ترحل . فكيف استطعت أنت أن تهرب منها ؟ أنا لا أصدقك !

فظل يبتسم في وجهها دون أن يرد .

ولم يكن يكذب على أخته . كانت لبنى تخطر على باله أحيانا ويتذكر الأشياء الكثيرة التي سبقت مرضه : ليلته الأخيرة معها ، وزيارته لبيتها وما جرى هناك ،

وسماعه بسجنها . ثم تقف ذكرياته عند ذهابه إلى عيادة أبيها ويلفها بعد ذلك الظلام . ولكن تلك كانت تبدو له أشياء بعيدة جدا . لا ينفعل لها حين يذكرها . كانت مثلها مثل كل شيء آخر في الحياة بالنسبة له : صورا يراها من وراء حاجز زجاجي ويراقبها كمتفرج دون أن يشارك فيها . لم يعد حيا وقويا في نفسه بعد أزمات حياته وصدمات الكهرباء غير جده وفوزية .

وأصبحت الجامعة أيضا ذكرى بعيدة لا تعني سالم في شيء . لكن مدير المطعم الأمريكي الذي أعجب به كثيرا شجعه على أن يحول أوراقه إلى كلية التجارة . قال إنه بمثل تفانيه في العمل ومواهبه في الحسابات يمكن أن يكون له مستقبل كبير في «البيزنيس» ومن يدري ؟ فقد يأتي يوم يصبح فيه مديرا لمطعم مثله . المهم أن يستغل وقت فراغه من العمل للدراسة .

فقال سالم وهو يشكره إنه سيفكر .

***

وفي تلك الأيام التي كان الباشكاتب معتكفا فيها ، وبعد منتصف الليل بكثير والجميع نيام ، ارتجت العمارة على صوت دوي هائل كالانفجار .

علا الصراخ والبكاء من كل الشقق وأخذ الجميع يتدافعون على السلم بملابس النوم والصيحات تتجاوب من كل مكان «الزلزال ! ألطف يارب !» .

وجرى سالم وشعبان أيضا بثياب النوم إلى غرفة الباشكاتب يحاولان حمله للنزول معهم . لكن الجد كان يقف في وسط الغرفة نحيلا وشاحبا في جلبابه الأبيض الذي أصبح واسعا جدا عليه وقال بصوت متهدج :

– رأيت ذلك في المنام ! رأيت سمية تجري وكنتم كلكم تجرون وراءها . أين فوزية ؟ هيا .. انزلوا .. انزلوا بسرعة !

راح يدفعهما عنه بيديه الناحلتين نحو الباب لكنه رفض وهو يصرخ أن يخرج معهما أو أن يترك غرفته .

قال في عناد : في هذه الغرفة سأبقى إلى أن يتحقق الوعد أو أموت !

فقال سالم : إن بقيت هنا يا جدي فأنا أيضا باق .

راح جده يدفعه بيديه الضعيفتين ليترك الغرفة لكنه لم يفلح في زحزحته فتركهما شعبان معا ونزل مهرولا .

وجد شعبان كل السكان وجيران البيوت المجاورة في الشارع وهم يضربون كفا بكف ، ويسعلون وسط سحابة من الغبار تلف البيت والمكان ! لم يقع زلزال ولكن بشرفة الست إنصاف تصدعت فجأة وهوت بسحارتها في الشارع ، تحطمت الشرفة وتناثرت حجارتها في المكان ولكنه السحارة الهائلة ظلت ملقاة على الأرض كتلة واحدة مغلقة ومتماسكة لم يصبها شئ .

وقال واحد من السكان : الحمد لله أن ذلك حدث بالليل ، لو سقطت بالنهار لراحت فيها أرواح .

ورد آخر وهو يسعل : هذه بركة الباشكاتب الطيب . لا يريد الله له البهدلة.

وعلا صراخ الست إنصاف : وأنا ماذا سأفعل ؟ والحاج إبراهيم الراقد فوق يا مصيبتي!

وسأل عزوز ابن النجار أباه في قلق : معنى ذلك يا أبي أننا سنؤجل الفرح ؟

فمد أبوه يده وجذبه إليه وصفعه بكل قوته .

لكن صوت شعبان علا فوق كل الأصوات وهو يصيح بلهجة آمره :

- اسكتوا !

كان يسمع صوتا بدأ الجميع أيضا ينتبهون إليه ، وصمتوا جميعا وهم يسمعون قعقعة سقوط كتلة من الطلاء والأسمنت في جانب البيت الذي سقطت منه الشرفة . جرى السكان مبتعدين معتقدين أن البيت كله سينهار فوقهم وارتفع من جديد صوت الصراخ والبكاء والدعاء .

وقفوا يراقبون ما يحدث من بعيد ، لم تتهاو جدران البيت لكن مع صوت سقوط كتل الجير والأسمنت والطلاء الجديد انكشف الشرخ القديم الذي دفع الباشكاتب كل ما يملك لترميمه وبدا أنه قد اتسع بطول العمارة .

ولكن وسط الصمت الشامل وسحابة الغبار التي تكاثفت علا صوت أبو زيد البواب وهو يصرخ ملوحا بذراعيه في الهواء :

- من شنأ بناه الحاج شعدي بيت جاي الحديد ! شكان عره ! جبر يتاويهم كلهم ! جبالة ارمي على الشلم .. مواشير تشر .. تشر وتهد الحيطان . فين ناش جمان ؟ أنا راجع أشيوط حد ناشي إن شاء الله جبر يتاويني أنا كمان وارتاح منكم. اتفو !

أما شعبان فكان شاردا عن ذلك كله . وقف يتأمل الشرخ من بعيد وهو يفكر .

***

(٥)

عاين المسئولون في الحي العمارة ، وبعد أن حرروا محضرا لمالكها للسيد إبراهيم المشلول ، صدر قرار بإخلائها على الفور قبل انهيارها على من فيها .

قال الباشكاتب الذي تعود عمره كله على احترام القانون إنه لن ينتقل من مكانه . تشبث بأصابعه العظمية المرتعشة بذراع شعبان وهو يبكي وينشج كطفل صغير متضرعا إلى ابنه أن يتصرف . أراد أن يقبل يد ولده وهو يرجوه بصوته الباكي أن يتركوه في غرفته حتى يموت . قال إنه حلم باقتراب العلامة .

انتزع شعبان يده من قبضة والده وقبل رأسه وهو يدعو له بطول العمر قائلا له ألا يشغل باله وإنه سيتصرف بإذن الله .

سأل سالم والده بصوت هامس بعد خروجهما من الغرفة المعتمة :

- ماهي هذه العلامة يا أبي ؟

فرد شعبان وهو يهمس أيضا : لا أعرف يا ابني . ولكن أظن أن جدك ينتظر كرامة من الكرامات . هذا ما فهمته .

قال سالم باقتناع كامل : هو يستحقها .

نظر له أبوه مليا وهو يقول بشئ من التردد : بالطبع . ولكن الكرامات كما أعلم يا سالم توهب ولا تطلب . يكفى الإنسان أن يطلب من ربه المغفرة لاسيما إن كان خلال عمره ..

قاطعه سالم وصوته ينذر بالغضب : هو يستحقها ! ألم تقل أنت بنفسك إن أحلامه أحلام الصالحين ؟

- نعم قلت وأنا أدعو له . المهم الآن هل الوقت ..

ثم انصرف عن ولده دون أن يكمل وهو يفكر : والآن اثنان في البيت ! على العموم لدينا أشياء أهم .

لم يكن الباشكاتب وحده هو الذي رفض إخلاء البيت . تمسك كل السكان بالبقاء رغم الإنذار الذي قال بوضوح إن العمارة على وشك الانهيار . توجهوا إلى شعبان وسألوه أين يذهبون وكل أشغالهم ومحالهم قرب البيت . ولم تعد توجد في الحي مساكن خالية ؟ عرضوا بعد فوات الأوان أن يرمموا البيت على حسابهم . فرد شعبان بأن الأمر ليس في يده وعليهم الآن أن يتفقوا مع الإدارة الهندسية في الحي المسئولة عن قرار الإخلاء . وسينفذ ما يتفقون عليه . وطق بعضهم منتقدين خراب الذمم وتدليس المقاول الذي استغل طيبة قلب الباشكاتب وغشه في الترميم. قالوا إن هذه آخر الأيام وإن القيامة أوشكت أن تقوم مادام الغش قد وصل حتى إلى جوار الست الطاهرة .

تركهم شعبان يحاولون مع إدارة الحي . كان بحاجة إلى وقت لينظم تفكيره وليدبر أموره .

أما الباشكاتب فلم يعد يغادر غرفته المعتمة إلا حين يصحبه سالم وهو يكاد يحمله حملا إلى الحمام . ولم يعد يكف عن عبادته وابتهالاته بالليل أو النهار . إلا في لحظات غفواته القصيرة . فبعد أن استغنى عن الأكل استغنى عن النوم . وكانت فوزية تستطيع إرغامه على أن يزدرد بعض الطعام الذي تضعه له بيدها في فمه . وإن رفض أحيانا في عناد أن يفتح فمه . تظل فوزية واقفة أمامه وبيدها طبق الأكل وتقول إنها تعلم أن يكرهها ولا يطيق أن يراها ولكنها لن تتزحزح وتريحه من وجودها إلا إذا أكل شيئا . ومع ذلك فلم يكن يأكل إلا لقيمات كما أن فوزية لم تكن تستطيع إرغامه على النوم فتدهورت حالته بسرعة وأصبح يعجز عن الوقوف على قدميه إلا إن ساعده أحد . وحين كانت فوزية ترى الجلباب الأبيض

يتهدل على جسده الهزيل كأنه يخوض فيه كانت تحول وجهها لكي لا يرى دموعها ، رغم ثقتها بأنه لن يرى شيئا فى ظلمة الغرفة .

واعتاد سالم أن يحلق لجده ذقنه فى ظهيرة كل يوم قبل أن يصحبه إلى الحمام للوضوء ، وكان فى هذه الحالة يضغط على زر النور فى الغرفة المعتمة بمجرد دخوله ، ولكنه دخل ذات يوم فوجد الضوء يغمر الغرفة ، رأى جده يجلس فوق سريره وهو يثنى ساقا تحته بينما تتدلى ساقه المصابة من السرير ، وقد فتح شيش الغرفة على آخره . ظل يقف مأخوذا عند الباب ، محاولا أن يفهم ما حدث ، فقال جده بصوت هادئ وابتسامة تغمر وجهه الناحل المتغضن :

– ادخل يا سالم واجلس .

تقدم سالم وقبل رأس جده على عادته ، فمد الجد ذراعيه الضعيفتين واحتضن سالم إليه بأقصى ما يستطيع من قوة . ظل يحتضنه طويلا قبل أن يطلقه فذهب حفيده ليجلس على الكنبة المواجهة للسرير وهو يتطلع إلى الشرفة المفتوحة وإلى جده بنظرة مستفهمة .

كان الباشكاتب يبدو ضئيلا فى جلسته على فراشه وكان وجهه شاحبا جدا فى ضوء النهار الذى لم يدخل الغرفة منذ مدة طويلة ، غير أن صوته لم يكن مرتعشا ولا متهدجا ، رن فى أذن سالم كصوت الباشكاتب المرح القديم وهو يرنو إليه مبتسما ويقول :

– أوحشتني جلسات سمرنا القديم يا سالم وأوحشني كلامك ، قل لي ما أحوالك الآن في العمل ؟

لم تغادر الدهشة سالم وهو يرد على جده :

– شغلي ليس فيه جديدا أبدا ، حسابات وأرقام .

– وإذن ففي أي شئ آخر تفكر يا سالم ؟

– أفكر فيك أنت يا جدى ، رجوتك كثيرا أن تأكل وأن ترتاح لكى تسترد صحتك لكنك لا تسمع كلامى .

– ألم أقل لك من قبل إنه مع كل جزء يموت من هذا الجسم يصحو جزء من الروح ؟ وأنا الآن كما ترانى يا ولدى وأحب أن ألقى الله بروح حية .

قال سالم منفعلا وهو يمد يده نحو جده كأنما ليمنعه من الكلام :

– لا تقل هذا الكلام يا جدى ، سيشفيك الله من المرض وسيعطيك العلامة التى تطلبها ، ألا تعرف أنه لا حياة لي بدونك .

قال الباشكاتب متحيرا : ولكن لماذا يا ولدي ؟ ما الذى فعلته أنا طول حياتى لأستحق أن يكافئنى الله بك فى نهايتها ؟ وهل تلك هى البنوة ، أن تكون أنت أبا لجدك ؟

راح الباشكاتب يتأمل سالم وهو يفكر : أم أنك أبى لأنى يجب أن أتعلم منك ؟ كيف مر بك يا سالم كل ما قاسيته فى جسمك وفى عقلك دون أن يتعكر صفو نفسك ؟ كيف تظل تعطى كل شئ لأختك ولأبيك ولى ، مالك ووقتك وحبك دون أن تطلب شيئا لنفسك أبدا ؟ أيمكن أن يكون المرض هو الذى يهب كل تلك الطاقة على الحب أم أننا نحن المرضى ؟ ما الذى يدور فى عقلك حقا ؟ وما الذى يجب أن أتعلمه منك يا أبى ؟

قال الباشكاتب فجأة بشئ من الاندفاع : قل لى يا سالم ، هل مازلت تفكر فى زميلتك لبنى ؟

نهض سالم بجذعه وهو يجلس وقال لجده بشئ من الذهول :

– إذن فأنت تعرف يا جدى ؟

– ما الذى أعرفه ؟

– وإلا فلماذا تسألني ؟ اليوم ، الآن ، كانت معي وكنت أنت أيضا معي ..

ظل جده ينظر نحوه متسائلا ، فاعتدل سالم فى جلسته من جديد وقال :

- أنا لم أفكر فيها أبدا من زمن . إن خطرت على ذهني فقد كنت أستغفر الله لذنبي . ولكنها اليوم .. نمت متأخرا في الليل بعد رجوعي من العمل . نمت قرب الصباح فجاءتني في المنام . ربما هذه أول مرة أحلم بها . لابد أنك تعلم مادمت تسألني ..

قال الباشكاتب بهدوء : لا يا ولدي . أنا لا أعرف . لكن أحلامنا تقول لنا الحقيقة أكثر من صحونا . فماذا قالت لك ؟

حول سالم وجهه عن جده وقال بصوت خفيض : لم تقل شيئا . كنا أنا وهي في زورق على النيل وهناك غناء لا أعرف من أين يأتي . هل كان ملاحا في زورق أو هل كان الغناء أصوات طيور في السماء . ولكنا كنا سعيدين ثم جاء ظلام وأخذ الزورق يهتز بنا ومدت ليلى يدها نحوي ومددت لها يدي فانقض فوقنا طائر أبيض ضخم له مخالب كبيرة ووقفنا خائفين كأن أحدنا سيمسك الآخر ولكنا دخلنا بعد ذلك في ممر طويل مظلم كأنه سجن وكنا نجري معا . نعرف أن شخصا يطاردنا ونريد أن نصل إلى آخر هذا الممر لأن هناك نورا في نهايته . صحوت بعدها وكان وجهك أنت آخر شئ في الحلم أو أول شئ فتحت عليه عيني . فما معنى ذلك يا جدي ؟ هذه أول مرة تزورني هي في الحلم وأول مرة تسألني عنها من زمن . فلماذا ؟

رفع سالم إلى جده عينين ملهوفتين فقال الجد بلهجة قاطعة :

- لا أحد يفسر حلمك غيرك يا سالم . أنا أعرف الآن أن الأفضل ألا أنطق بما لا أعلم . لكني أعرف أيضا أنك تستحق النور الذي رأيته في حلمك . المهم يا سالم ألا تخطئ النور حين يجئ .

- لا أفهم يا جدي .

- ربما نفهم معا يا ولدي . وربما لا يكون الوقت قد فات . اليوم أنا أيضا أريد أن أفهم ..

أطرق الجد قليلا ثم رفع رأسه بعد فترة . كان يبدو عليه الإجهاد لكن صوته ظل واضحا تماما وهو يتكلم .

- أنا لم أقل لك يا سالم كل ما سمعته من أبو خطوة عندما رأيته آخر مرة . هل تذكر أني حكيت لك عن بشرى حلم بها لي ولم يفصح عنها ؟ يومها أيضا أعطاني الحجاب الذي أوصى بأن يظل دائما قرب قلبك وذهبت في اليوم التالي وكان يوم خميس لأودعه قبل السفر . جلست إلى جواره ونفسي تراودني أن أسأله : ماهي تلك البشرى ومتى تتحقق ؟

سامحني الله لأني ساعتها كنت أشك فيما سمعته منه وقالت لي نفسي إنني حتى لم أر أيا من كراماته التي يتحدثون عنها وأني كلما سألته كان يتهرب من الجواب . استجمعت شجاعتي وقررت أن أسأله لكني رأيت وجهه يشحب فجأة وأصبح يتنفس بصعوبة ثم غامت عيناه . أصابني الذعر أنا وكل من في المكتب وبدأنا نجري هنا وهناك . فتحت له أزرار قميصه وأحضر أحدهم ماء رشه على وجهه وحين صرخت أين الطبيب ؟ جرى البعض يستدعون طبيبا . لكن ذلك كله لم يستغرق غير دقائق قليلة أفاق أبو خطوة بعدها كأنه كان في سنة من النوم ونظر لي ولمن حولي وقال بهدوء واستغراب : كيف يسبق جنازتي موكب وتشريفة وأنا لست من الحكام ؟ وما حاجتي إلى التشريفة وأنا يكفيني قلب واحد طاهر يصحبني إلى مثواي ؟ علا صوتي وأصوات الجميع في المكتب ونحن نكرر بعد عمر طويل يا حضرة الباشمحضر .. اتق الله فينا يا رجل .. أنت أغلى عندنا من كل حكام الدنيا .. هل نستدعي الطبيب ؟ فرد علينا وهو يسوي ثيابه ويضحك : لماذا خفتم هكذا ؟ أنا كنت أمثل عليكم دورا . أريد اليوم أن أزوغ قليلا من العمل ثم عاد بعد ذلك يمزح معي ومع الجميع . لم أره في حياتي يا سالم أكثر مرحا مما كان في ذلك اليوم . وعندما قلت له إنني جئت لأودعه قبل سفري قال

سنتحدث في ذلك معا ، ثم أمسك بذراعي وهو يقول : ألم أصارحكم بأني أريد أن أزوغ اليوم ؟ وقال لزملائه وهو يتجه معي نحو الباب : أراكم غدا إن شاء الله ، فرد أكثر من واحد بعد غد إن شاء الله يا حضرة الباشحضر ، غدا الجمعة ، فقال لهم نعم ، يوم مبارك ..

وعندما خرجنا من باب المحكمة قال وهو يتوكأ على ذراعي كأننا نستأنف حديثا بدأناه : سألتني يا أخي توفيق عن الكرامات ، ما الذي يشغل بالك عنها ؟ هل سمعتني أنت أتحدث عنها مرة ؟ رددت وأنا أكاد ارتجف لأنه حدس ما أفكر فيه «لا» فقال : وصدقني أني ما تحدثت عنها مع غيرك ، كل ما يحدث خارج نفسك لا وزن له ، المهم هو ما تبطن ، الحق في داخلك أنت ، والكرامة الحقيقية هي أنت ، حتى السحرة والحواة ينقلون الأشياء من مكان إلى مكان ويخفون الظاهر ويظهرون الخفي فهل يقربهم هذا من رحمة الله ؟ فغمغمت : ولكن الكرامة علامة ، قال وقد تكون فتنة وقد تكون امتحانا ، ربما يعثر إنسان في شبابه بما وصل إليه ولكنه إن لم يرجع تائبا عن الظهور فسيظل دائما عبدا للظهور ويسقط في الفتنة ، فألححت عليه ولكن الكرامة علامة على الوصول : أليس كذلك ؟ قال أنت وما تؤمن به يا أخي توفيق ، الوصول الحق هو أن ترى النور في قلب الظلمة وقد يكون أقرب إليك مما تظن ، لكنك لن تراه قبل أن ترى نفسك ، قلت ضاحكا صارحتك من قبل يا مولانا أنه من الصعب أن أحب نفسي ! فرد أبو خطوة بما يشبه نفاد الصبر فانتظر إذن حتى تحبها ! ولا ترجع ثانية إلى ذكر ذنوبك فتذنب بنكران الرحمة ، حين تصح التوبة فاعلم أنه لا صغيرة إن قابلك عدل ربك ولا كبيرة إن قابلك فضله وأحسن الظن بفضل خالقك ، ثم سكت أبو خطوة بعد ذلك لحظة ورق صوته وهو يسأل عنك : حفيدك اسمه سالم ، أليس كذلك ؟ ولم ينتظر ردي ، بل قال : هو ماهو بإذن الله ، وأنت منه معه لأن نوره سيصحب عمله ..

ثم وضع يده على كتفي وقال ستصل يا أخي إلى ما تطلب بفضل مولاك وستعلم وحدك أن المكابدة والانتظار باب للرحمة واسع ، لكن لا تتعجل الوقت كما قلت لك فالوقت مخلوق مثلك ومسير مثلك ، أما أنا فسأنتظرك غدا لنكمل ما بدأناه فلا تسافر اليوم .

ودعني بتلك الكلمات ولم أكن أعرف ولا كان أحد ممن في المكتب يعرف أننا في الغد ، في يوم الجمعة المبارك ، سنكون نحن وأسيوط كلها تقريبا في جنازة أبو خطوة ، وأنه ستكون هناك جنازة تسبقها لواء في الشرطة تتقدمها الموسيقى والطبول وصفوف الجنود ، فبدت كلها كما لو كانت (تشريفة) لجنازة أبو خطوة . وشاركت في حمل نعشه يا سالم فكان خفيفا كالريشة ، فهل أكمل بذلك ما بدأناه؟ قل أنت يا سالم ؟

قال سالم الذي كان منتبها لكل حرف من كلام جده : ألم يقل يا جدي إنه يريد قلبا طاهرا يصحبه إلى مثواه ؟

هتف الباشكاتب وقد بدأ الإجهاد يتسلل إلى صوته : ولكني خاطئ ! لم يزرني النور ! .

سكت سالم قليلا ثم قال : عندما كنت أخاف وأنا طفل صغير من عقاب أبي أو من المرض كنت آتي هنا إلى غرفتك ، حتى ولو لم تكن أنت فيها ، فكنت أطمئن. كنت أعرف أنك تحبني وأنك ستساعدني .

وفوزية أيضا .. فوزية لا تحب أحدا مثلك لأنها تعرف أنك تحبها ، أقصد يا جدي ..

ثم سكت مرة أخرى وبدا في وجهه الألم وهو يقول : أنا لا أفهم كثيرا من الأشياء ، ولا أعرف أن أتكلم ولكني قرأت معك في كتبك أن النور نور لأن ضوءه يبدد ظلمة النفس ويجلو البصيرة وأنت يا جدي ..

ثم سكت مرة ثالثة وقال في يأس : ليتني أستطيع أن أتكلم : أنت الذى تستحق يا جدى . أنا لا أستحق .

ظل جده ينظر إليه وقد اتسعت عيناه وبدأ صدره يعلو ويهبط ثم قال : ولكنى الآن أراك يا سالم ! نعم . أنا أراك !

ثم نزل من فراشه فجأة وتقدم من سالم وهو يعرج على رجله المريضة ويخوض في جلبابه الأبيض الواسع . مد يديه الاثنتين نحو حفيده وراح يشير بإصبع مرتعش وهو يقول : أنا أرى ! أرى يا سالم !

التفت سالم خلفه لينظر حيث يشير جده . ولكنه ترنح فجأة في مكانه فاستدار ليجد جده قد ارتمى عليه يريد أن يتشبث به . ثم أخذ ينزلق ببطء وقد ارتخت ذراعاه فهمس في ذعر وهو يرفعه ليمنعه من السقوط : لا ! قف يا جدى ! قف !

قبل أن يصرخ بأعلى صوته مناديا : يا فوزية !

***

(٦)

انقطع سالم عن الذهاب إلى عمله .

أرسل المدير إلى البيت من يسأل عنه فلم يخرج من غرفة جده . وقال شعبان للرسول إن سالم يلازم جده المريض .

لم يترك جده لحظة منذ سقط بين ذراعيه . ومنذ أن قال الطبيب إنه شلل كامل. كان شعبان قد قرر أن ينقل والده إلى المستشفى لكن الطبيب العجوز الذى كان يعالج الحاج إبراهيم قال له : كما تشاء . ولكن رب البيت هو رب المستشفى . ولعل أسرته تهتم به أكثر من الممرضات هناك. وتشبث سالم بأن يبقى جده فى البيت . فانتهى الأمر بأن يمر الطبيب على البيت مرتين فى الأسبوع . وأن يأتى الممرض كل يوم لإعطائه حقنة وتغيير المحاليل التى علقوها فى عمود السرير . ومع أنه ظل يأتى فى ظهيرة كل يوم . فقد تعلم سالم بسرعة كيف يقوم بهذا العمل . وبعد أن يفرغ منه كان يجلس على كرسي إلى جوار فراش جده ويمسك الكتب التى تعود أن يقرأها ويردد بصوت عال الأدعية التى كان يسمعها منه.

لم تكن عين الباشكاتب تطرف ولكن حفيدة كان واثقا من أنه يسمعه.

وكان سالم يؤدى كل صلاة مرتين . مرة لنفسه ومرة لجده . وباستثناء فترات القراءة كان يطفىء نور الغرفة أو يغلق الشيش .

وفى ذلك الوقت وصل إنذار ثان للسكان بضرورة إخلاء العمارة الآيلة للسقوط وإلا تم إجلاؤهم بالقوة . فلم يتحرك أحد . قالوا أين نذهب ؟ غير أن شعبان كان قد اتفق بالفعل . بواسطة بائع السجائر المستوردة . مع أحد الملاك على أن يبيعه نصف أرض البيت بعد هدمه . وقبض جزءا من مقدم الثمن . أجر شقة فى

حي المنيرة القريب واستعد للانتقال إليها مع الأسرة . وقال له السكان الذين شعروا بلهفته على إخلاء العمارة في أقرب وقت إن الباشكاتب ما كان ليتصرف هكذا.

فرد عليهم : وأنا ماذا بيدي أن أفعل ؟ هل استطيع أن أمنع البيت من الوقوع أو أن أقف أمام الحكومة ؟

لكن بعض السكان المقتدرين الذين فهموا أن المسألة منتهية بالفعل دفعوا لشعبان في السر مبالغ كمقدم إيجار لإسكانهم في العمارة التي سيبنيها في الجزء الذي يخصه من الأرض . وحدها الست إنصاف كانت لاتكف عن البكاء وتزور شعبان كل يوم وتوسط فوزية لديه فيعدها خيرا إن شاء الله . ولكنه يؤنبها بصورة عابرة : هل كانت ضرورية هذه السحارة التي جلبت كل المصائب ؟ فترد وسط بكائها : نعم .كانت ضرورية ليكتمل في الدنيا وعدي !

لم يكن سالم يعرف شيئا عما يدور أو عن قرب انتقالهم إلى البيت الجديد . اعتكف في الغرفة التي أصبحت لها رائحة المستشفيات . غير أن فوزية دخلت عليه مرة بعد أن انتهى من تحميم جده في طست بالغرفة وأرقده في فراشه بعناية.كان يلف حوله الغطاء بإحكام عندما دخلت فوزية فصرخ فيها :

– إقفلي الباب بسرعة !

أغلقت الباب كما أمرها . وكان من الصعب عليها أن ترى شيئاً في الغرفة المظلمة . فراحت تتحسس طريقها نحو فراش جدها وسحبت سالم من يده وأجلسته بجوارها على الكنبة المواجهة للفراش وقالت له :

– لماذا تبقى في الظلام ياسالم ؟ لماذا لاتفتح الشيش على الأقل ؟

– جدك لم يكن يريد نورا في الغرفة في الفترة الأخيرة .

– ومع ذلك فقد كان الشيش مفتوحا يوم سقط . ألا تذكر ؟

قال متحيرا : نعم أتذكر وحتى الآن لا أعرف لماذا فتحه يومها . ولا أفهم ما حدث .

– لأنه كان يحب دائما أن يبقى في النور . أحب جدي الظلمة فقط وهو مريض . ولعله أحس بما سيحدث له فأراد أن يودعنا في النور .

لم يسمع سالم كلمة يودعنا . كان مستغرقا في أفكاره وحيرته فاكمل لشقيقته :

– لم أفهم كل ما قاله لي يومها وهذا يعذبني يا فوزية. كان يريد مني شيئا لكني لم أعرف ماهو وسألني عن .. عن أشياء لم نتحدث عنها من زمن طويل. وتكلم أيضا عن النور.

قالت بأسف : لو كنت معكما لحللتها ! .. لكني أعرف أن جدي يحب لك الخير ...

ثم قالت في هدوء : افتح الشيش يا سالم من أجلك لامن أجله . فهو الآن لا يفرق بين نور وظلمة .

لم تر فوزية النظرة الغاضبة في عيني سالم ولكنها شعرت بها في صوته وهو يسألها :

– من يدريك ؟

فردت عليه بالهدوء نفسه : هذا كلام الطبيب.

قال سالم وقد ازداد غضبه : وما الذي يعرفه الطبيب ؟ جدك من الصالحين وسيشفيه الله ويقوم سالماً بإذن الله ..

– حتى الرجال الصالحون يا سالم..

ثم سكتت قبل أن تقول بلهجة مختلفة : لم آت لأتكلم معك في هذا الموضوع . كنت أريدك في شيء آخر . أردت أن أسألك : هل وقعت على توكيل لوالدك ؟

رد سالم دون مبالاة : نعم ، أعطاني ورقة وقعت عليها . لا أذكر ماهي .

– كيف لاتذكر ؟ هذا شيء مهم . وأنت لاتعرف بالطبع أن أباك باع جزءا من البيت ؟

كان يجهل ذلك لكن فوزية شرحت له في حرص أنها لم توقع على التوكيل لأنها تريد أن تعرف رأسها من رجلها ، ويكفي ما فعله سالم مشكورا من أجلها حتى الآن . إن كان والدها قد قبض مبلغا من المال فهي تريد أنه تأخذ نصيبها منه وأن تعرف كيف ستسير الأمور بعد ذلك . عليها الآن أن تحمي مستقبلها ومستقبل سلوم . لم تنل الإعارة التي انتظرها فراج ولا تظن أنها ستأتي وهي لاتريد أن تكون تحت رحمته أو تحت رحمة أي مخلوق .

كان سالم شارداً وهي تتكلم وسألها : ولكن لماذا باع أبي الأرض ؟

نظرت فوزية إلى وجه أخيها في العتمة التي ألفتها عيناها ورأت أنه يركز نظره على سرير جده . فأمسكت بوجهه وحولته نحوها وهي تقول :

– اسمعني يا سالم من فضلك .لو طالبت أبي بنصيبي من المال الذي قبضه فهل تساعدني ؟

حاول سالم أن يستجمع تفكيره وقال لأخته :

– بالطبع سأساعدك يا فوزية . أي شيء تطلبينه سوف أفعله . تنهدت فوزية ثم قالت بعد فترة :

– وكيف ستساعد نفسك يا سالم ؟

– أنا .. أنا لا أحتاج إلى أي مال . عندما يشفي الله جدي سأنزل للعمل .

قالت ببطء : لو كنت تحب جدك حقا فادع له أن....

ثم توقفت وهي تتساءل : ما الذي يمكن أن أقوله لسالم ؟ أخاف عليه أن يمرض من جديد أو أن يسوء مرضه . لو بيدي أن أجعله يسلم بالحقيقة ؟ أنت تقول لي يا سالم إن جدك من الصالحين ؟ لو تعلم كم أحبه ! لولاه ربما لكنت أنا

قد وضعت من زمن . وتقول لي إنه كان ينتظر نورا ؟ أنا أراه هناك وهو ممدد على السرير في الظلام كالفتلة وكله نورا ! ولكنه كان يحبنا يا سالم ويحب لنا أن نعيش .

مدت فوزية يدها وضمت أخاها إليها وهي تقول : معك حق يا سالم.

أنا لا أعرف ولعل الطبيب أيضا لايعرف . لعله بالفعل يسمعك وأنت تكلمه وتقرأ له ولكن من أدراك أنه لايتعذب إن كان يسمع ولا ينطق ؟ لا تعذب جدك يا سالم . أنت تعرف كم يحبك .

قال سالم : وهو يعرف أيضا كم أحبه.

– إذن فلا تعذبه . جدي لايحب ذلك له ولا لك .

هتف سالم : لماذا تعذبينني أنت بكلامك يا فوزية ؟

– أنت سألتني عما كان جدي يريد أن يقوله لك يوم مرضه .

فسأل سالم بصوت طفولي : وماذا كان يريد يا فوزية ؟ ليتني أعرف !

– يريد ما قلته لك . ويريد أن أشارك في رعايته لأني أستطيع أن أفعل مثلك بالضبط . لايريدك معه طول الوقت .

سكتت فلزم سالم الصمت بدوره . ثم قامت فوزية ومشت حتى سرير جدها انحنت فوقه وقبلت جبينه برقة . ثم توجهت نحو الباب وقالت لأخيها بهدوء قبل أن تخرج :

– افتح النور يا سالم . جدي يحب النور .

وقالت لنفسها في أسى وهي تخرج : ولكن هذا لن يستمر طويلا !

* * *

حدد شعبان موعد إنتقالهم من البيت إلى شقة المنيرة الجديدة .

جاء عمال فككوا قطع الأثاث وكوموها في أركان الغرف . كان قد قرر أن يبيع بعضاً من الأثاث وأن ينقل بعضه الآخر إلى المسكن الجديد وأصبحت الشقة

خالية باستثناء غرفة الباشكاتب التي أرجأها شعبان حتى اللحظة الأخيرة ، بدت الشقة الخالية واسعة جداً ، أصبحت الأصوات والخطوات ترن فيها وتتردد في صدى ضخم كئيب . سمع سالم من أبيه أن هذا هو الحل الوحيد لأن العمارة على وشك الانهيار فسأل عما سيفعلون بالنسبة لجده وطمأنه شعبان : اتفقت بالطبع مع عربية إسعاف وستنقل غرفته كما هي ، سريره ومكتبه وكل كتبه . ستكرم حضرة الباشكاتب حتى ...

ولم يكمل عبارته .

وكانت فوزية مشغولة مع أبيها في الترتيب للانتقال من البيت . اتفقوا أيضا أن تنتقل هي وفراج وسلوم إلى شقة المنيرة لتشارك في تنظيم المسكن الجديد وفي رعاية جدها . ولتبقى هناك إلى أن تجد الشقة المناسبة التي كانت تبحث عنها لنفسها . حصلت من أبيها على جزء من نصيبها من بيع الأرض وحسمت مع فراج أن الشقة الجديدة التي ستضع فيها جزءا من المبلغ ستكون باسمها هي.

وأثناء الاستعدادات الأخيرة دخلت فوزية غرفة جدها . كان سالم يفتح جزءا صغيرا من الشيش ويجلس على الكنبة معتمدا رأسه بيده ، يسترجع من جديد كل ما دار بينه وبين جده يوم سقوطه ويحاول أن يفسر ويعرف . رفع رأسه حين دخلت فوزية فقالت له :

– هناك واحدة تريد أن تراك يا سالم .

ظل ينظر إلى أخته مستفهما فقالت بهدوء شديد : هي لبنى .

هب سالم واقفا حين سمع الاسم وقال : «جدي» ! ثم قفز من مكانه واندفع نحو الباب . لكن فوزية سدت طريقه بذراعيها وقالت :

– لا . لن تخرج بالبيجاما ! ارتد ملابسك.

وابتسمت فوزية لنفسها وهي تغلق الباب وراءها : كنت متأكدة أني أعرف هذه الأرواح ! يارب !

***

وكانت لبنى تنتظر وحيدة في الصالون الخالي الذي لم تبق فيه سوى أربعة مقاعد متناثرة . كانت تلبس من جديد بلوزة بيضاء بنصف كم و(جونلة) واسعة كما اعتادت منذ سنين . قالت لنفسها وهي تتلفت حولها : لماذا أنا هنا ؟ما الذي جعلني آتي الآن ؟ قد تكون غلطة . لايهم . كل شيء غلطة . أنا نفسي غلطة لا فائدة منها . تجاهلت طويلا ما قاله أبي في ليلة سكره . ليكن . جاء سالم إلى عيادته قبل سنين فما جدوى أن أراه الآن ؟ لو كان سالم مريضا حقا فلن أستطيع أن أساعده . لن أستطيع حتى أن أنصح بأن يذهب إلى المصحة في روما ! رفض أبي أن يقول شيئا حين سألته عنه فلم أفتح معه الموضوع مرة أخرى. الدكتور غارق في عوالمه العظيمة ولا وقت لديه لأمثالنا .لايكف الآن عن العمل ليل نهار حتى الويسكي انقطع عنه بعد ليلة سكره الكبير . أظن أنه كان منفعلاً ليلتها لأنه قابل الدكتورة صفاء . لم أفهم كل كلامه لكنه تحدث على أي حال عن الحب . لعله مازال يحبها حتى الآن وإن كانت هي تمقته.لماذا ؟مالي أنا وذلك الآن ؟ تكرهه أو تحبه المهم أن لكل منهما حياته فماذا عن حياتي أنا ؟ أين ضاعت بعد أن عولجت في روما وتحسنت الأحوال ؟ واظبت على الأدوية والعلاج . غطست في حمام بارد وحمام ساخن وحمام فاتر وشفيت تماما ! وقبل أيام عندما غطست في حمام السباحة في النادي قررت ألا أطفو من جديد . قال عقلي هذه هي النهاية المنطقية الجيدة لواحدة مثلي شفيت من كل شيء حتى من الرغبة في الحياة ! تمنيت أن ينتهي كل شيء في تلك العتمة الرجراجة في قاع الحمام . لكن عندما نفد الهواء من الصدر خانني جسمي . راحت ذراعاي تضربان الماء بجنون ولما وصلت إلى السطح كنت أشهق وأصرخ وأطرد من جوفي باستماتة ماء الحمام وطعم الكلور . تأكدت أن جبني غريزي لا علاقة له بما يقرره عقلي . لا علاقة لعقلي بشيء . قرر ألا أرى سالم وها أنا هنا أنتظره . لماذا ؟ حكايته انتهت

وكل الحكايات انتهت . قلت لنفسي ولكني أحب أن أرى جده . هذه ليست كذبة . هو الوحيد الذي أفكر فيه عندما أسمع الكلام العاقل الذي يقوله أبي وأمي وكل الناس الذين أعرفهم . هو الوحيد الذي سمعت منه على لسان سالم كلاماً يختلف عن كل هؤلاء العقلاء الذين يدفعونني للموت . قلت ربما يستطيع أن يساعدني . والآن تقول حفيدته إنه هو أيضا مريض لايتكلم. ضاعت الفرصة ! لو كنت قد جئت على الفور ! لماذا أبقى ؟ هل أنصرف الآن ؟

لكن الباب فتح ودخل سالم .

كان يرتدي القميص والبنطلون لأول مرة منذ مدة فبدا نحيلاً في ثيابه . ونهضت لبنى حين رأته . ظلت تقف صامتة وهي تتأمل وجهه الممتقع والابتسامة المصنوعة على شفتيه . وكان هو أيضا يتأملها وهو يتنفس بصعوبة . فجأة وجدت نفسها تندفع نحوه خطوتين ثم توقفت حين مد لها يده بامتداد ذراعه وهو يقول :

- حمد الله على السلامة . سمعت من جدي أنك في فرنسا .

لم تصحح له اسم البلد . عادت تجلس مكانها دون أن تحول نظرها عنه . فانحنى هو رأسه وهو يقول : صحتك أحسن .

كان يريد أن يقول «أنت الآن أجمل» . ولكنه غير رأيه .

فسألته : وأنت ؟

رد ببساطة : أنا مرضت بعد .. ولكني عولجت وأنا الآن أحسن .. لم أعد آخذ علاجا ولكني الآن أحسن .. هل انتهيت من دراستك أو ستسافرين مرة أخرى ؟

لوحت بيدها وهي تقول : لا . اكتشفت أنني لا أحب القانون فتوقفت عن الدراسة . لم آت الآن لكي ..

ثم سكتت . كانا يجلسان على مقعدين متقابلين يتبادلان الحديث بلهجة مهذبة فأرادت لبنى أن تصرخ : كفى يا سالم ! لا تدعنا نتكلم لمجرد فتح الفم وإغلاقه .

كفى ! ما الذي يحدث ؟ لماذا أنا هنا ؟ يجب أن أنصرف ! لكنها مع ذلك أحنت رأسها وقال في همس : تعبت حتى عرفت عنوانك . ذهبت أولا أسأل في محلات الأقمشة عن والدك ..

لم يسمع سالم ما قالته ولكنه رفع رأسه فجأة وقال :

- هل هو الذي طلب منك أن تأتي ؟

- من ؟

- جدي !

- كيف ؟ أنا لم أره في حياتي !

- لا أدري . لماذا إذن سألني عنك قبل أيام ؟ ألم يكن هو الذي طلبك ؟

سكتت لبنى لحظة ثم قالت : ربما . لم لا ؟ منذ أيام وأنا أفكر فيه . الحقيقة أني جئت لأراه . تقول طلبني ؟ لم لا ؟

هز سالم رأسه وهو يقول : جدي من الصالحين .

فقالت لبنى : لابد . ولكن ماذا قال لك عني ؟

- كانت أول مرة يذكر فيها اسمك منذ سنين وسألني إن كنت أفكر فيك .

- وبماذا رددت يا سالم ؟

- قلت إنني .. إنني حلمت بك مرة ..

فقالت لنفسها : مرة واحدة يا سالم ! حلمت بي مرة ؟

راحت تنظر إلى وجهه الشاحب . وإلى ذقنه النابتة . وإلى عينيه الجميلتين اللتين تتحركان في قلق . وإلى ساقيه الطويلتين اللتين يبدل وضعهما كل لحظة وسألت نفسها : هذا هو سالم ؟

وردت والدموع تطفر من عينيها دون أن تبذل أدنى محاولة لمنعها كما اعتادت أن تفعل طول عمرها : نعم . هو !

وما هو الجواب : أنت هنا من أجله ! تعرفين في قلبك منذ جئت ومن قبل أن تأتي أنك هنا من أجله ، حتى ولو كان قد فقد كل عقله ، فهو نفسه سالم . سالم الذي كان يفاجئك وجهه في روما وفي مصر وقبل السفر وبعد أن رجعت . سالم الذي فعلت كل شيء لتطرديه من حياتك لكنه ظل يظهر لك دون توقع فيمسك يدك وأنت تمشين هناك على شاطيء النهر في روما أو يأتي ليجلس أمامك على رصيف المقهى أو ينام إلى جوارك في الفراش . هو نفسه . سالم ، الذي تمر أسابيع وشهور لا تذكرينه وإذا به فجأة يحيط بك كغلالة ترين كل شيء من خلالها ولكنك لا ترين غيره . ما همك إن كان مريضا ؟ لماذا طوال تلك السنين ظل الأصحاء والأقوياء الذين رأيتهم أشباحا عابرة وبقي هو يغيب ثم يعود بلا انقطا ع ؟ لو ترجع يا سالم أيام خوفنا معا ! لو يرجع للدنيا طعم حقيقي غير طعم الكلور في حمام السباحة ! لحظة واحدة من ارتعاشه اليد ودفئها حين تمسك بها ، من مذاق قبلتك ، من رائحة جسدك وهي تنفذ إلى مسام الجلد ! لحظة واحدة من الخوف الحقيقي والحب الحقيقي بدلا من هذه الحياة الكذب ، من المشي بلا سبب والكلام بلا معنى وفتح الأبواب وغلق الأدراج وطلوع السلم والردّ على التليفون وانتظار السيارات وقنا ع كاذب للحزن وقنا ع أكذب للضحك لمقابلة أقنعة الآخرين ! لحظة واحدة تبعث فيها الأرواح الميتة لتلتقي كما قال جدك ! ولكن كيف تُبعث هذه الأرواح ؟

سألها سالم في انزعاج : لماذا تبكين يالبنى ؟

لم تردّ . وراح يراقبها بعينين قلقتين ودموعها تنساب دون أن تنشج أو يصدر عنها أي صوت . وكانت أفكار كثيرة تتدافع في ذهنه وتتطارد بعضها دون أن ينطق . أراد أن يسألها كيف خرج من بيتها في ليلتهما الأخيرة معا . وأن يقول لها سأكفّر عن ذنبي بعد أن يشفي الله جدي . وأن يسألها لماذا غيرت لون

شعرها ! لكنه بدلا من ذلك كله كرر سؤاله :

- لماذا تبكين ؟ .. هل قلت شيئا ؟

مسحت لبنى دموعها براحتيها وقالت بعد لحظة :

- لا ياسالم . أنت لم تقل شيئا . تمنيت أن تقول شيئا !

سألها في حيرة : ماذا أقول ؟

فابتسمت ابتسامة صغيرة وهي تقول : حدثني ماذا يقول جدك عن الأرواح ؟

- يقول كل الأرواح جميلة وكلها طيبة .

- وهل قال لك ياسالم ما الذي ينقذ هذه الأرواح ؟

- نعم . قال الحب .

النهـــاية

تنويــــه

رجعت أثناء كتابة هذه الرواية إلى بعض الدراسات والكتب الصوفية . وأخص بالذكر - بين كتب أخرى - «المواقف والمخاطبات للنفرى» ، وكتاب «الكنز فى المسائل الصوفية» للاستاذ صلاح الدين التجانى .

بهاء طاهر

رقم الايداع: ١٨٨٩٥ / ٢٠٠٠
I - S - B - N
977 - 07 - 0749 - X